

التبيان

في تفسير القرآن

تأليف

شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي

٣٨٥ - ٤٦٠ هـ.

تحقيق وتصحيح:

أحمد حبيب قصير العاملي

المجلد الرابع

دار إحياء التراث العربي

الآية: ٨٢ - ٨٩

الآية: ٩٠ - ٩٩

الآية: ١٠٠ - ١٠٩

الآية: ١١٠ - ١٢٠

سورة الانعام

الآية: ١ - ١٩

الآية: ٢٠ - ٣٩

الآية: ٤٠ - ٥٩

الآية: ٦٠ - ٧٩

الآية: ٨٠ - ٩٩

الآية: ١٠٠ - ١١٩

الآية: ١٢٠ - ١٣٩

الآية: ١٤٠ - ١٥٩

الآية: ١٦٠ - ١٦٥

سورة الاعراف

الآية: ١ - ١٩

الآية: ٢٠ - ٣٩

الآية: ٤٠ - ٥٩

الآية: ٦٠ - ٧٩

الآية: ٨٠ - ٩٩

الآية: ١٠٠ - ١١٨

الآية: ١١٩ - ١٣٩

الآية: ١٤٠ - ١٥٧

(١)

التبيان

في تفسير القرآن

تأليف

شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي

٣٨٥ - ٤٦٠ هـ.

تحقيق وتصحيح:

أحمد حبيب قصير العاملي

المجلد الرابع

دار إحياء التراث العربي

(٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على ما تفضل وأنعم وصلى الله على محمد وآله وسلم وبعد لقد نفذت الطبعة الأولى من هذا السفر النفيس ورأينا الطلب لم يزل كما هو فعزمنا على إعادته طبعة ثانية متكلمين على الله تعالى وحده.

وسوف نعتني بضبط ما فاتنا من الأخطاء إن شاء الله تعالى. وعلينا أن نبذل الجهد، وعلى الله التوفيق.

أحمد حبيب قصير العاملي

(٣)

قوله تعالى:

وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آما فاكذبنا مع الشاهدين (٨٦) آة، بلاخلاف.

هذا وصف للذين آمنوا من هؤلاء النصارى الذين ذكرهم الله أنهم أقرب مودة للمؤمنين بأنهم إذا سمعوا ما أنزل الله من القرآن يتلى " ترى أعينهم تفيض من الدمع " يعني من آمن من هؤلاء النصارى. قال الزجاج وأبو علي: تقديره ومنهم إذا سمعوا ولم يذكر (منهم) لدلالة الكلام عليه وما وصفهم به فيما بعده. وفيض العين من الدمع امتلاؤها منه سيلا ومنه فيض النهر من الماء وفيض الاناء، وهو سيلانه عن شدة امتلاء، ومنه قول الشاعر:

ففاضت دموعي فظل الشؤو * ن إما وكيفا وإما انحدارا (١)

وخبر مستفيض أي شائع، وفاض صدر فلان بسره، وأفاض القوم من عرفات إلى منى إذا دفعوا، وأفاض القوم في الحديث إذا اندفعوا فيه، والدمع الماء الجاري من العين ويشبهه به الصافي، فيقال دمعة. والمدامع مجاري الدمع وشجة دامعة تسيل دما.

وقوله " مما عرفوا من الحق " أي مما علموه من صدق النبي وصحة ما أتى به " يقولون ربنا " في موضع الحال، وتقديره قائلين " ربنا آما " أي صدقنا بما أنزلت " فاكذبنا مع الشاهدين " قيل في معناه قولان:

أحدهما - فاجعلنا مع الشاهدين فيكون بمنزلة ما قد كتب ودون.

الثاني - فاكذبنا معهم في أم الكتاب وهو اللوح المحفوظ. و (الشاهدين)

قال ابن عباس وابن جريج: مع أمة محمد (صلى الله عليه وآله) الذين يشهدون بالحق من

(١) قائله الاعشى. ديوانه: ٣٥.

(٤)

قوله تعالى " وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس " (١)

وقال الحسن: هم الذين يشهدون بالآيمان. وقال أبو علي الذين يشهدون بتصديق نبيك وكتابك. قوله تعالى:

ومالنا لانؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين (٨٧) آة بلا خلاف.

هذا إخبار عن هؤلاء الذين آمنوا من النصارى بأنهم قالوا: " ومالنا " قال الزجاج: وهو جواب لمن قال لهم من قومهم معنفين لهم: لم آمنتم.

وقال غيره: قدروا في أنفسهم كأن سائلا يسألهم عنه، فاجابوا بذلك. وقوله " لانؤمن " في موضع نصب على الحال، وتقديره أي شئ لنا تاركين للآيمان أي في حال تركنا للآيمان.

والإيمان هو التصديق عن ثقة، لأن الصدق راجع إلى طمأنينة القلب بما صدق به. والحق هو الشيء الذي من عمل عليه نجا، ومن عمل على ضده من الباطل هلك. ومعنى (من) - هاهنا - قيل في معناه قولان:

أحدهما - تبيين الإضافة التي تقوم مقام الصفة، كأنه قيل: والجائي لنا الذي هو حق. وقال آخرون: إنها للتبعيض لأنهم آمنوا بالذي جاءهم على التفصيل. ووصف القرآن بأنه (جاء) مجاز، كما قيل: نزل، ومعناه نزل به الملك، فكذلك جاء به الملك. ويقال: جاء بمعنى حدث نحو "جاءت سكرت الموت" (٢) وجاء البرد والحر. وقوله "ونطمع" فالطمع تعلق النفس بما يقوى أن يكون من معنى

(١) سورة ٢ البقرة آية ١٤٣ (٢) سورة ٥٠ ق آية ١٩

(٥)

المحسوب، ونظيره الأمل والرجاء فالطمع يكون معه الخوف أو لا يكون. "أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين" معناه أن يدخلنا معهم الجنة. والصالح هو الذي يعمل الصلاح في نفسه وإذا عمله في غيره فهو مصلح، فلذلك لم يوصف الله تعالى بأنه صالح ووصف بأنه مصلح.

قوله تعالى:

فأتابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين (٨٨) آية بلاخلاف.

معنى "فأتابهم الله" جازاهم الله بالنعيم على العمل كما أن العقاب الجزاء بالعذاب على العمل وأصل الثواب الرجوع. ومنه قوله "هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون" (١) أي هل رجع إليهم جزاء عملهم. وقوله "بما قالوا" يعني قولهم "ربنا آمنة" وقوله "جنات تجري من تحتها الأنهار" إنما ذكرها بلفظ الجمع وإن كانت هي جنة الخلد، لأنها جنة فيها جنات أي بساتين، وتذكر بالجمع لتبين عن اختلاف صورها وأحوال أشجارها وأنهارها ووجوه الاستمتاع بها، ووجه آخر: هو أن يكون جمعها مضافا إليهم كما يقال لهم جنة الخلد إلا أنها مرة تذكر على طريق الجنس، ومرة على غير طريق الجنس. وقوله "وذلك جزاء المحسنين" (ذلك) إشارة إلى الثواب.

والإحسان هو إيصال النفع الحسن إلى الغير، وضده الإساءة، وهي إيصال الضرر القبيح إليه، وليس كل من كان من جهته إحسان فهو محسن مطلقا، فالمحسن فاعل الإحسان الخالي مما

يطلبه، كما أن المؤمن هو فاعل الايمان الخالص مما يحبطه، وعندنا لا يحتاج إلى شرط خلوه مما يبطله، لان الاحباط عندنا باطل، لكن يحتاج أن يشرط فيه أن يكون خاليا من وجوه

(١) سورة ٨٣ المطففين آية ٣٦:

(٦)

القبح. وقوله " وذلك جزاء المحسنين " وإن كان مطلقا فهو مقيد في المعنى بالمحسنين الذين يجوز عليهم الوعد بالنتفع، لانه وعد به، ألا ترى أن الله تعالى يفعل الاحسان وإن كان لا يصح عليه الثواب لانه مضمن بمن يجوز عليه المنافع والمضار فجزاؤه هذه المنافع العظام دون المضار، لانه خرج مخرج استدعاء العباد إلى فعل الاحسان. قوله تعالى:

والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم (٨٩) آية بلاخلاف.

لما كان أهل الكتاب فريقين أحدهما آمنوا، والثاني كفروا، وذكر الوعد للمؤمنين منهم اقتضى أن يذكر الوعيد لمن كفر منهم وأطلق اللفظ ليكون لهم ولكل من جرى مجراهم، وإنما شرط في الوعيد على الكفر بالتكذيب بالآيات وإن كان كل واحد منهما يستحق به العقاب، لأن صفة الكفار من أهل الكتاب أنهم يكذبون بالآيات، فلم يصلح - هاهنا - لو كذبوا لانهم قد جمعوا الامرين، ولأن دعوة الرسول (صلى الله عليه وآله) بوعيد الكفار ظاهرة مع مجئ القرآن به في نحو قوله " ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء " (١) فلم يقع فيه اشكال لهذا. وقوله " أولئك " يعني هؤلاء الكفار.

و " أصحاب الجحيم " يعني الملازمون لها، كقولك أصحاب الصحراء وليس كمثل أصحاب الاموال، لأن معنى ذلك ملاك الاموال. وليس من شرط المكذب أن يكون عالما أن ما كذب به صحيح بل اذا اعتقد أن الخبر كذب سمي مكذبا، وإن لم يعلم أنه كذب، وإنما يستحق الذم، لانه جعل

(١) سورة ٤ النساء آية ٤٧، ١١٥.

(٧)

له طريق إلى أن يعلم صحة ما كذب به. و " الجحيم " النار الشديدة الايقاد وهو اسم من أسماء جهنم ويقال: جحمت فلان النار اذا شدد ايقادها، ويقال أيضا لعين الاسد: جحمة لشدة ايقادها، ويقال ذلك للحرب أيضا قال الشاعر:

والحرب لا تبقى لجا * حمها التخيل والمراح
إلا الفتى الصبار في النج * دات والفرس الوقاح (١)

قوله تعالى:

ياايها الذين امنوا لاتحرموا طبيبات ماأحل الله لكم ولاتعنتوا إن الله لايبح المعتدين (٩٠) آية
بلاخلاف.

هذا خطاب للؤمنين خاصة نهاهم الله أن يحرموا طبيبات ماأحل الله لهم.
والتحريم هو العقد على ما لايجوز فعله للعبد، والتحليل حل ذلك العقد، وذلك كتحريم السبب
بالعقد على أهله، فلايجوز لهم العمل فيه، وتحليله تحليل ذلك العقد بأنه يجوز لهم الان العمل
فيه. والطيبات اللذيذات التي تشتهيها النفوس وتميل اليها القلوب. ويقال: طيب بمعنى حلال.
وتقول:

يطيب له كذا أي يحل له، ولايليق ذلك بهذا الموضوع، لانه لايقال:

لاتحرموا حلال ماأحل الله لكم.

والذي اقتضى ذكر النهي عن تحريم الطبيبات - على ما قال ابن عباس ومجاهد وأبو مالك
وقتادة وابراهيم - حال الرهبان الذين حرموا على أنفسهم المطاعم الطيبة والمشارب اللذيذة
وحبسوا أنفسهم في الصوامع وساحوا في الارض، وحرموا النساء، فهم قوم من الصحابة أن
يفعلوا مثل ذلك، فنهاهم الله عن ذلك. وقال أبو علي: نهوا أن يحرموا الحلال من الرزق بما
يخلطه من الغضب. واختار الرماني الوجه الاول، لان أكثر المفسرين عليه.

(١) انظر ٢: ٤٣٨ من هذا الكتاب.

(٨)

وقال السدي: نهاهم الله عما هم به عثمان بن مظعون من جب نفسه.
وقال عكرمة: هو ماهمت به الجماعة: من تحريم النساء والطعام واللباس والنوم.
وقال الحسن: لاتعنتوا إلى ما حرم عليكم وهو أعم فائدة. والاعتداء مجاوزة حد الحكمة إلى
مانهى عنه الحكيم، وزجر عنه إما بالعقل أو السمع، وهو تجاوز المرء ماله إلى ما ليس له.
وقوله " إن الله لايبح المعتدين " معناه يبغضهم ويريد الانتقام منهم وانما ذكره على وجه
النفي لدلالة هذا النفي على معنى الاثبات إذ ذكر في صفة المعتدين، وكأنه قيل يكفهم في
الهلاك ألا يحبهم الله.

قوله تعالى:

وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون (٩١) آية اجماعا.

سبب نزول هذه الآية والتي قبلها على ما قال عكرمة وأبو قلابة وأبو مالك وإبراهيم وقتادة والسدي وابن عباس والضحاك: إن جماعة من الصحابة منهم علي (ع) وعثمان بن مظعون وابن مسعود وعبدالله بن عمر، هموا بصيام الدهر وقيام الليل، واعتزال الناس وجب أنفسهم وتحريم الطيبات عليهم. فروي أن عثمان بن مظعون قال أتيت النبي (صلى الله عليه وآله) فقلت: يارسول الله إئذن لي في الترهيب فقال: (لاإنما رهبانية أمتي الجلوس في المسجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة) فقلت: يارسول الله أتأذن لي في السياحة قال: (سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله) فقلت: يارسول الله أتأذن لي في الاختصاء فقال: (ليس منا من خصا واختصا إنما اختصاء أمتي الصوم). وقوله " وكلوا " لفظه الامر والمراد به الاباحة أباح الله تعالى

(٩)

للمؤمنين أن يأكلوا مما رزقهم حلالا طيبا، فالرزق هو ماللحي الانتفا به وليس لغيره منعه منه. وقال الرماني: الرزق هو العطاء الجاري في الحكم ومن ذلك قيل: رزق السلطان الجند اذا جعل لهم عطاء جاريا في حكمه في كل شهر أو في كل سنة. قال الرماني: وكلما خلقه الله في الارض مما يملك، فهو رزق للعباد في الجملة بدلالة قوله " هو الذي خلق لكم مافي الارض جميعا " (١) ولولا ذلك لجوزنا أن يكون منه ماليس للانسان إلا أنه وإن كان رزقا لهم في الجملة فتفصيل قسمته على ما يصح ويجوز من الاملاك، ولا يجوز أن يكون الرزق حراما، لان الله منع منه بالنهي، فاما البغاة فيرزقون حراما اذا حكموا بأن المال للعبد، وهو مغصوب لا يحل، قال وما افترسه السبع رزق له بشرط غلبته عليه كما أن غنيمة المشركين رزق لنا بشرط غلبتنا عليها، لان المشرك يملك مافي يده، فاذا غلبنا عليه بطل ملكه، وصار رزقا لنا في هذه الحال، قال: وقد أمرنا بأن نمنعه من الانسان مع الامكان، وأذن لنا أن نمنعه من غيره من نحو الميتة والوحش إن شئنا ويسقط جميع ذلك في حال التعذر علينا.

وعندي أنه لايجب أن يطلق أن ما يغلب عليه السبع رزق له بل إنما نقول: إن رزقه ماليس لنا منعه منه فأما مالنا منعه منه إما بأن يكون ملكا لنا أو أنن لنافيه، فلا يكون رزقا له بالاطلاق، وقد يسلط الله السبع على بعض المشركين فيكون رزقا له وعقابا للمشرك، والاصل فيه قوله تعالى " وما من دابة في الارض إلا على الله رزقها " (٢) فمفهوم هذا أنه رزقه بشرط الغلبة عليه.

فان قيل: اذا كان الرزق لا يكون إلا حلالا فلم قال: (حلالا)؟ قيل: ذكر ذلك على وجه التأكيد كما قال " وكلم الله موسى تكليما " (٣)

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٩ (٢) سورة ١١ هود آية ٦ (٣) سورة ٤ النساء آية ١٦٣

(١٠)

وقد أطلق في موضع آخر على جهة المدح " ومما رزقناهم ينفقون " (١) وقوله: " واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون " استدعاء إلى التقوى بألطف الاستدعاء وتقديره أيها المؤمنون بالله لاتضيعوا ايمانكم بالتقصير في التقوى فيكون عليكم الحسرة العظمى واتقوا تحريم ما أحله الله لكم في جميع معاصيه من أنتم به تؤمنون وهو الله تعالى. وأصل الصفة التعريف ثم يخرج إلى غير ذلك من المدح والذم وغير ذلك من المعاني التي تحسن في مخرج الصفة، فلذلك قال الذي " أنتم به مؤمنون " وفي هاتين الآيتين دلالة على كراهة التخلي والتفرد والتوحش والخروج عما عليه الجمهور في التأهل وطلب الولد وعمارة الارض.

قوله تعالى:

لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون (٩٢) آية بلاخلاف.

قرأ " عاقدتم " بالالف ابن عامر، و " عقدتم " بلا ألف مع تخفيف القاف حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم. والباقون بالتشديد. ومنع من القراءة بالتشديد الطبري، قال: لأنه لا يكون إلا مع تكرير اليمين والمؤاخذة تلزم من غير تكرير بلا خلاف. وهذا ليس بصحيح لان تعقيد

(١) سورة ٢ البقرة آية ٣.

(١١)

اليمين إن يعقدها بقلبه ولفظه ولو عقد عليها في أحدهما دون الآخر لم يكن تعقيدا، وهو كالتعظيم الذي يكون تارة بالمضاعفة وتارة بعظم المنزلة. وقال أبو علي الفارسي من شدد احتمل أمرين:

أحدهما - أن يكون لتكثير الفعل قوله " ولكن يؤاخذكم " مخاطبا الكثرة، فهو مثل " وغلقت الابواب " (١).

والاخر أن يكون (عقد) مثل (ضعف) لا يراد به التكثر، كما أن (ضاعف) لا يراد به فعل من اثنين. وقال الحسين بن علي المغربي: في التشديد فائدة، وهو أنه إذا كرر اليسين على محلوف واحد فاذا حنث لم يلزمه إلا كفارة واحدة. وفي ذلك خلاف بين الفقهاء. والذي ذكره قوي.

ومن قرأ بالتخفيف جاز أن يريد به الكثير من الفعل والقليل إلا ان فعل يختص بالكثير كما أن الركبة تختص بالحال التي يكون عليها الركوب، وقالوا: عقدت الحبل والعهد واليمين عقدا ألا ترى أنها تتلقى بما يتلقى به القسم، قال الشاعر:

قوم اذا عقدوا عقدا لجارهم (٢)

ويقال: أعقدت العسل فهو معقد وعقيد. وحكى أبو اسحاق عقدت العسل. والاول أكثر.

فأما قراءة ابن عامر فيحتمل أمرين:

أحدهما - ان يكون عاقدتم يراد به عقدتم كما أن (عافاه الله) و (عاقبت)

(اللس) و (طارقت النعل) بمنزلة فعلت. ويحتمل أن يكون أراد فاعلت الذي يقتضي فاعلين فصاعدا، كأنه قال يؤخذكم بما عاقدتم عليه اليمين، ولما كان عاقد في المعنى قريبا من عاهد؟؟ ب (على) كما يعدى عاهد بها. قال الله تعالى " ومن أوفي بما عاهد عليه الله " (٣) والتقدير يؤخذكم بالذي عاقدتم

(١) سورة ١٢ يوسف آية ٢٣ (٢) اللسان (عقد)

(٣) سورة الفتح آية ١٠

(١٢)

عليه، ثم قال: عاقدتموه الايمان فحذف الراجع. ويجوز أن يجعل (ما)

مع الفعل بمنزلة المصدر فيمن قرأ عقدتم بالتخفيف والتشديد، فلا يقتضي راجعا كما لا يقتضيه في قوله " ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون " (١).

وقيل في سبب نزول هذه الآية قولان:

أحدهما - قال ابن عباس: إن القوم لما حرموا الطيبات من المآكل والمناكح والملابس حلفوا على ذلك فنزلت الآية.

وقال ابن زيد نزلت في عبدالله بن رواحة كان عنده ضيف فأخرت زوجته عشاها فحلف لا يأكل من الطعام، وحلفت المرأة لا تأكل إن لم يأكل، وحلف الضيف لا يأكل ان لم يأكلا، فأكل عبدالله بن رواحة واكلا معه، وأخبر النبي (صلى الله عليه وآله) بذلك فقال له: أحسنت. ونزلت هذه الآية. واللغو في اللغة هو ما لا يعتد به قال الشاعر:

أو مائة تجعل أولادها * لغوا وعرض المائة الجلمد (٢)

أي الذي يعارضها في قوة الجلمد يعني بالمائة نوقا أي لا يعتد به بأولادها. ولغو اليمين هو الحلف على وجه الغلط من غير قصد مثل قول القائل: لا والله وبلى والله على سبق اللسان، هذا هو المروي عن أبي جعفر وأبي عبدالله (ع) وهو قول أبي علي الجبائي. وقال الحسن وأبو مالك:

هو اليمين على ما يرى صاحبها أنه على ما حلف ولا كفارة في يمين اللغو عند أكثر المفسرين والفقهاء. وروي عن ابراهيم أن فيها الكفارة بخلاف عنه. بين الله تعالى بهذه الآية أنه لا يؤخذ على لغو الايمان وأنه يؤخذ بما عقد عليه قلبه ونواه. وقوله " فكفارته " (الهاء) يحتمل رجوعها إلى أحد ثلاثة أشياء. أحدها - إلى (ما) من قوله بما عقدتم الايمان. الثاني - على اللغو. الثالث - على حنث اليمين لأنه مدلول عليه. والاول هو الصحيح، وبه قال

(١) سورة البقرة آية ١٠ (٢) اللسان (جلمد).

(١٣)

الحسن والشعبي وأبو مالك وعائشة. وقوله " إطعام عشرة مساكين " إنما ذكر بلفظ المذكر تغليبا للتذكير في كلامهم لأنه لاخلاف أنه لو أطعم الاناث لاجزاه، ويحتاج أن يعطي قدر ما يكفيهم. وقد حده أصحابنا أن يعطي كل واحد مدين أو مدا، وقدره رطلان وربع منفردا، أو يجمعهم على ما هذا قدره ليألكوه. ولا يجوز أن يعطي خمسة ما يكفي عشرة، وهو قول أبي علي، وفيه خلاف بين الفقهاء ذكرناه في الخلاف.

وهل يجوز اعطاء القيمة؟ فيه خلاف، والظاهر يقتضي أنه لا يجزى والروايات تدل على إجزائه، وهو قول أبي علي وأهل العراق. وإنما ذكر الكفارة في الآية ولم يذكر التوبة، لأن المعنى فكفارته الشرعية كذا. وأما العقاب فلأنه يجوز أن تكون المعصية صغيرة أو كبيرة فلاجل ذلك لم يبين.

وعندنا أن حكم التوبة معلوم من الشرع، فلذلك لم يذكر.

وقوله " من أوسط ما تطعمون " قيل فيه قولان:

أحدهما - الخبز والادم دون اللحم، لأن أفضله الخبز واللحم والتمر، وأوسطه الخبز والزيت أو السمن، وأدونه الخبز والملح. وبه قال ابن عمر والاسود وعبيدة وشريح.

الثاني - قيل: أوسطه في المقدار إن كنت تشبع أهلك أو لا تشبعهم، بحسب العسر واليسر، فبقدر ذلك - هذا قول ابن عباس والضحاك - وعندنا يلزمه أن يطعم كل مسكين مدين، وبه

قال علي (ع) وعمر و ابراهيم وسعيد بن جبير والشعبي ومجاهد. وقال: يكفيه مد - ذهب اليه زيد ابن ثابت والشافعي والطبري وغيرهم - وروي ذلك في أخبارنا. وقوله " أو كسوتهم " فالذي رواه أصحابنا أنه ثوبان لكل واحد مئزر وقميص، وعند الضرورة قميص، وقال الحسن ومجاهد وعطاء وطاوس و ابراهيم: ثوب. وقوله " أو تحرير رقبة " فالرقبة التي تجزي في الكفارة

(١٤)

كل رقبة كانت سليمة من العاهة صغيرة كانت أو كبيرة مؤمنة كانت أو كافرة والمؤمنة أفضل، لان الآية مطلقة مبهمة. وفيه خلاف ذكرناه في الخلاف.

وما قلناه قول أكثر المفسرين: الحسن وغيره، ومعنى فتحير رقبة عتق رقبة.

وقيل: تحرير من الحرية أي جعلها حرة قال الفرزدق:

ابني عدانة انني حررتكم فوهبتكم لعطية بن جعال (١)

أي أعتقتكم من ذل الهجاء ولزوم العار. وهذه الثلاثة أشياء مخير فيها بلا خلاف وعندنا أنها واجبة على التخيير. وقال قوم إن الواجب منها واحد لابعينه. والكفارة قبل الحنث لا تجزي وفيه خلاف.

وقوله " فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام " يحتمل رفعه أن يكون بالابتداء وخبره فكفارته، ويجوز أن يكون رفعا بالخبر، ويكون تقديره فكفارته صيام. وحد من ليس بواجد هو (من ليس عنده مايفضل عن قوته وقوت عياله يومه وليلته) وهو قول قتادة والشافعي. وصوم الثلاثة أيام متتابعة، وبه قال ابن كعب وابن عباس ومجاهد و ابراهيم و قتادة وسفيان وأكثر الفقهاء. ويقويه أنه في قراءة ابن مسعود و ابي " صيام ثلاثة أيام متتابعات ".

وقال مالك والحسن: التتابع أفضل والتفريق يجوز. فاما اذا قال القائل:

إن فعلت كذا فله علي أن أتصدق بمئة دينار، فان هذا نذر عندنا، وعند أكثر الفقهاء، - يلزمه به مئة دينار. وقال أبو علي عليه كفارة يمين - لقوله " ذلك كفارة أيمانكم " وهو عام في جميع الايمان. وهذا ليس بيمين عندنا بل هو نذر يلزمه الوفاء به لقوله " أوفوا بالعقود " (٢) واليمين على ثلاثة أقسام:

أحدها - عقدها طاعة وحلها معصية، فهذه يتعلق بحنثها كفارة بلا خلاف كقوله: والله لا شربت خمرًا، ولاقتلت نفسًا.

الثاني - عقدها معصية وحلها طاعة كقوله: والله لاصليت ولاصمت، فاذا جاء بالصلاة والصوم، فلا كفارة عليه - عندنا - وخالف جميع الفقهاء

(١٥)

في ذلك واوجبوا عليها عليه الكفارة.
الثالث - أن يكون عقدها مباحا كقوله: والله لالبيست هذا الثوب فمتى حنث تعلق به الكفارة بلاخلاف. وقوله " ذلك كفارة أيمانكم اذا حلفتم " معناه حنثتم.
وقوله " واحفظوا ايمانكم " قيل في معناه قولان:
أحدهما - احفظوها أن تحلفوا بها، ومعناه لاتحلفوا.
الثاني - احفظوها من الحنث، وهو الاقوى، لان الحلف مباح إلا في معصية بلا خلاف -
وانما الواجب ترك الحنث، وذلك يدل على أن اليمين في المعصية غير منعقدة، لانها لو
انعدت للزم حفظها، واذا لم تتعقد لم تلزمه كفارة على ما بيناه.
وقوله " كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون " معناه إن الله يبين لكم آياته وفرائضه كما بين
لكم أمر الكفارة لتشكروه على تبيينه لكم أموركم ونعمه عليكم وتسهيله عليكم المخرج من الاثم
بالكفارة. فأما إقسام الايمان وما ينعقد منها وما لا ينعقد وشرائطها، فقد بينها في كتب الفقه
مشروحة لانطول بذكرها الكتاب.
قوله تعالى:

يأئبها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه
لعلكم تفلحون (٩٣) آية بلاخلاف.
هذا خطاب للمؤمنين أخبرهم الله تعالى أن الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس، فالخمر
عصير العنب المشد، وهو العصير الذي يسكر كثيرة وقليله. والخمر حرام وتسمى خمر الانها
بالسكر تغطي على العقل،

(١٦)

والاصل في الباب التغطية من قول أهل اللغة خمرت الاناء اذا غطيته، ومنه دخل في خمار
الناس اذا خفي فيما بينهم بسترهم له والخمير العجين الذي يغطي حتى يختمر، وخمار المرأة،
لانها تغطي رأسها به. وخامره الحزن اذا خالطه منتشرا في قلبه واستخمرت فلانها أي
استعبده. والاصل فيه أمرته أن يتخذ الخمر، ثم كثر حتى جرى في كل شيء يأمر به. وعلى

هذا الاشتقاق يجب أن يسمى النبيذ وكل مسكر على اختلاف أنواعه خمرا، لاشتراكها في المعنى وان يجري عليها أجمع جميع أحكام الخمر.

و " الميسر " القمار كله مأخوذ من تيسير أمر الجزور بالاجتماع على القمار فيه والذي يدخل فيه يبسر والذي لايدخل فيه برم. قال أبو جعفر (ع)

ويدخل فيه الشطرنج والنرد وغير ذلك حتى اللعب بالجوز. والاصل فيه اليسر خلاف العسر وسميت اليد اليسرى تفاؤلا بتيسير العمل بها. وقيل:

بل لأنها تعين اليمنى فيكون العمل أيسر، وذهب يسرة خلاف يمينة.

" والانصاب " الاصنام واحدا نصاب. وقيل لها أنصاب، لأنها كانت تنصب للعبادة وأصله الانتصاب: القيام، نصب ينصب نصبا. ومنه النصب التعب عن العمل الذي ينتصب له، ونصاب السكين، لأنها تنصب فيه، ومناصبه العدو: الانتصاب لعداوته قال الاعشى:

وذا النصب المنسوب لانتسكنه * ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا (١)

و " الازلام " القداح، وهي سهام كانوا يجيلونها ويجعلون عليها علامات (إفعل، ولا تفعل ونحو ذلك على ما يخرج من ذلك في سفر أو إقامة أو غير ذلك من الامور المهمة، وكانوا يجيلونها للقمار، واحدا زلم، وزلم.

وقال الاصمعي: كان الجزور يقسمونه على ثمانية وعشرين جزءا. وقال أبو عمرو: كان عددها على عشرة. وقال أبو عبيدة: لاعلم لي بمقدار عدتها، وقد ذكرت أسماؤها مفصلا، وهي عشرة: ذوات الحظوظ منها سبعة

(١) ديوانه ٤٦ وروايته (الاوثنان) بدل (الشيطان).

(١٧)

وأسمائها: الفذ، والتوعم والرقيب، والحلس، والنافس، والمسبل، والمعلى. والاغفال التي لا حظوظ لها ثلاثة اسمائها: السفيح، والمنيح، والوغد. ذكر القتيبي ذلك.

وقوله " رجس " أي نجس " والرجز " العذاب. ومنه قوله " لئن كشفت عنا الزجر " (١) أي العذاب وقوله " والرجز فاهجر " (٢) يعني الاوثنان. ومعناه الرجس فاهجر، وأصل الرجز تتابع الحركات يقال ناقرة رجزاء اذا كانت ترتعد قوائمها في ناحية. وقال الزجاج: يقال: رجس يرجس اذا عمل عملا قبيحا. والرجس بفتح الراء شدة الصوت، وسحاب الرجاس، ورعد رجاس اذا كان شديد الصوت قال الشاعر:

وكل رجاس يسوق الرجسا (٣)

وقوله " من عمل الشيطان " إنما نسبها إلى عمل الشيطان وهي أجسام لما يأمر به فيها من الفساد فيأمر بالسكر ليزيل العقل، ويأمر بالقمار لاستعمال الاخلاق الدنيئة ويأمر بعبادة الاوثان لما فيها من الكفر بالله العظيم، ويأمر بالازلام لما فيها من ضعف الرأي والاتكال على الاتفاق. وقوله " فاجتنبوا " أمر بالاجتناب أي كونوا جانباً منه في ناحية " لعلكم تفلحون " ومعناه لكي تفوزوا بالثواب.

وفي الاية دلالة على تحريم الخمر، وهذه الاشياء الاربعة من أربعة أوجه: أحدها - أنه وصفها بأنها رجس وهي النجس والنجس محرم بلا خلاف. الثاني - نسبها إلى عمل الشيطان وذلك لا يكون الا محرماً. الثالث - أنه أمرنا باجتنابه. والامر يقتضي الايجاب. الرابع - أنه جعل الفوز والفلاح باجتنابه.

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١٣٣ (٢) سورة ٧٤ المدثر آية ٥ (٣) اللسان (رجس).

(١٨)

والهاء في قوله " فاجتنبوه " راجعة إلى عمل الشيطان، وتقديره اجتنبوا عمل الشيطان. قال ابن عباس: الرجس - هاهنا - معناه السخط. وقال ابن زيد: هو الشر. قوله تعالى:

إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر، والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلوة فهل أنتم منتهون (٩٤) آية بلاخلاف. قيل في سبب نزول هذه الاية قولان:

أحدهما - أنه لاحق سعد بن أبي وقاص رجلاً من الانصار، وقد كانا شرباً الخمر فضربه بلحي جمل ففزر أنف سعد بن ابي وقاص، فنزلت هذه الاية. الثاني - أنه لمانزل قوله " ياأيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى " (١) قال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت هذه الاية.

والشيطان انما يريد إيقاع العداوة والبغضاء بينهم بالاغراء المزين لهم ذلك حتى اذا سكروا زالت عقولهم وأقدموا من المكاره والقبائح على ماكانت تمنعه منه عقولهم. وقال قتادة: كان الرجل يقامر في ماله وأهله فيقمر، ويبقى حزينا سلبيا فيكسبه ذلك العداوة والبغضاء. وقوله " ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة " أي يمنعكم من الذكر لله بالتعظيم له والشكر له على آلائه، لما في ذلك من الدعاء إلى الصلاح واستقامة الحال في الدين والدنيا بالرغبة فيما عنده، والتوسل اليه بالاجتهاد في طاعته التي تجمع محاسن الافعال ومكارم الاخلاق.

وقوله " فهل أنتم منتهون "؟ صيغته صيغة الاستفهام ومعناه النهي، وانما جاز ذلك، لانه اذا ظهر قبح الفعل للمخاطب صار في منزلة من نهي عنه،

(١) سورة ٤ النساء آية ٤٢.

(١٩)

فاذا قيل له: أتفعله؟ بعد ما قد ظهر من أمره وصار في محل من عقد عليه باقراره.
فان قيل: ما الفرق بين انتهوا عن شرب الخمر، وبين لا تشربوا الخمر، قلنا: لانه اذا قال: انتهوا دل ذلك على أنه يريد لامر ينافي شرب الخمر.
وصيغة النهي إنما تدل على كراهة الشرب، لانه قد ينصرف عن الشرب إلى أخذ أشياء مباحة، وليس كذلك المأمور به، لانه لا ينصرف عنه إلا في محذور.
والمنهي عنه قد ينصرف عنه إلى غير مفروض.
قوله تعالى:

وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فان توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين
(٩٥) آية بلاخلاف.

لما أمر الله تعالى باجتنب الخمر والميسر والانصاب والازلام أمر في هذه الآية بطاعته في ذلك وغيره من أوامر الله تعالى. والطاعة هي امتثال الامر، والانتهاة عن المنهي عنه، ولذلك يصح أن تكون الطاعة طاعة لاثنتين بأن يوافق أمرهما وإرادتهما.
وقوله " واحذروا " أمر منه تعالى بالحدز، وهو امتناع القادر من الشيء لما فيه من الضرر. والخوف هو توقع الضرر الذي لا يؤمن كونه.

والجزع مفاجأة الضرر الذي يزعج النفس مثله. الفرع والرعب مثل الجزع.
وقوله " فان توليتم فاعلموا انما على رسولنا البلاغ المبين " معناه الوعيد والتهديد كأنه قال: فاعلموا أنكم قد حق لكم العقاب لتوليكم عما أدى رسولنا من البلاغ المبين، يعني الاداء الظاهر الواضح، فوضح كلام موضع كلام للايجاز ولو كان على صيغته من غير هذا التقدير لم يصح، لان عليهم أن يعلموا ذلك تولوا أو لم يتولوا. و " ما " في قوله: " أنما " كافة

(٢٠)

ل " أن " عن عملها، وذلك أنها لما كانت من عوامل الاسماء خاصة ثم احتيج إلى ادخالها على غيرها زيد عليها (ما) ليعلم تغييرها عن حالها فصارت كافة لها.

قوله تعالى:

ليس على الذين آمنوا و عملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا و عملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين (٩٦) آية.

قال ابن عباس وابن مالك والبراء بن عازب ومجاهد، وقتادة والضحاك:

إنه لما نزل تحريم الخمر قالت الصحابة كيف بمن مات من اخواننا وهو يشربها، فأنزل الله الآية و بين أنه ليس عليهم في ذلك شيء إذا كانوا مؤمنين عاملين للصالحات، ثم يتقون المعاصي وجميع ما حرم الله عليهم.

فان قيل لم كرر الاتقاء ثلاث مرات في الآية؟ قيل: الاول المراد به اتقاء المعاصي. الثاني - الاستمرار على الاتقاء.

والثالث - اتقاء مظالم العباد، وضم الاحسان إلى الاتقاء على وجه النذب و اعتبر أبو علي في الثالث الامرين.

وقوله " والله يحب المحسنين " أي يريد ثوابهم واجلالهم و اكرامهم.

والاحسان النفع الحسن الواصل إلى الغير، ولا يقال لكل حسن إحسان، لانه لا يقال في العذاب بالنار أنه إحسان وان كان حسنا. والصلاح استقامة الحال وهو مما يفعله العبد، وقد يفعل الله تعالى له الصلاح في دينه باللفظ فيه. والايمن هو الاطمئنان إلى الصواب بفعله مع الثقة به وهو من أفعال العباد. وعلى هذا يحمل قوله " وآمنوا " والاول على الايمان بالله الذي هو التصديق. وروي أن قدامة بن مظعون شرب الخمر في أيام عمر، فأراد

(٢١)

عمر أن يقيم عليه الحد فقال " ليس على الذين آمنوا و عملوا الصالحات جناح فيما طعموا " فأراد عمر أن يدرأ عنه الحد حين لم يعلم تحريمها. فقال أمير المؤمنين (ع) أديروه على الصحابة، فان لم يسمع أحدا منهم قرأ عليه آية التحريم، فأدرؤا عنه، وان كان قد سمع فاستتبيوه، وأقيموا عليه الحد، فان لم يتب و جب عليه القتل.

قوله تعالى:

ياأيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم (٩٧) آية واحدة بلا خلاف.

هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين و قسم منه أنه يبلوهم بشيء من الصيد، لان اللام في قوله: " ليبلونكم " لام القسم والواو مفتوحة لالتقاء الساكنين في قول بعضهم مثل (واو) اغزون. وأما واو " ليبلونكم " قال سيبويه هي مبنية على الفتح. وقال الزجاج: فتحت واو " ليبلونكم " لانها

حرف الاعراب الذي تتعاقب عليه الحركات وضمت واو " لتبلون " لانها واو الجمع، فصح لالتقاء الساكنين نحو قوله " فلا تخشوا الناس واخشوني " (١) ومعنى " ليبلونكم " ليختبرن طاعتكم من معصيتكم " بشئ من الصيد " وأصله اظهار باطن الحال ومنه البلاء للنعمة لانه يظهر به باطن حال المنعم عليه في الشكر، والكفر. والبلاء النعمة، لانه يظهر به ما يوجب كفر النعمة. والبلى الخلوقة لظهور تقادم العهد فيه.

وقوله " بشئ من الصيد " قيل في معنى (من) ثلاثة أوجه:

أحدها - صيد البر، دون البحر. والآخر صيد الاحرام دون الاحلال.

(١) سورة ه المائدة آية ٤٧.

(٢٢)

الثالث - للتجنيس نحو اجتنبوا الرجس من الاوثان - في قول الزجاج - وقوله " تناله أيديكم ورماحكم " يعني به فراخ الطيور وصغار الوحش في قول ابن عباس ومجاهد، وزاد مجاهد: والبيض. والذي تناله الرماح الكبار من الصيد. قال أبو علي: معنى " تناله أيديكم ورماحكم " إن صيد الحرم يقرب من الناس ولا ينفرد منهم فيه كما ينفرد في الحل، وذلك آية من آيات الله. وقال الحسن ومجاهد: حرم الله بهذه الآية صيد البر كله. وقال أبو علي:

صيد الحرم هو المحرم بهذه الآية. وقال الزجاج: بين النبي (صلى الله عليه وآله) تحريم صيد الحرم على المحرم وغيره بهذه الآية، وهذا صحيح. وصيد غير المحرم إنما يحرم على المحرم دون المحل.

وقوله " ليعلم الله من يخافه بالغيب " معناه لعاملكم معاملة من يطلب أن يعلم، مظهرة في العدل. ووجه آخر - ليظهر المعلوم، والاول أحسن.

واختار البلخي الوجه الثاني، قال والله تعالى وان كان عالما بما يفعلونه فيما لم يزل، فانه لا يجوز أن يثيبهم ولا يعاقبهم على ما يعلم منهم، وانما يستحقون ذلك اذا علمه واقعا منهم على وجه كلفهم، فاذا لابد من التكليف والابتلاء.

وقوله " من يخافه بالغيب " يعني من يخشى عقابه اذا توارى بحيث لا يقع عليه الحس - في قول الحسن - تقول: غاب يغيب غيابا فهو غائب عن الحس، منه الغيبة وهي الذكر بظهر الغيب بالقبيح. وقال قوم: معناه من يخاف صيد الحرم في السر كما يخافه في العلانية، فلا يعرضون له على حال.

وقوله " فمن اعتدى بعد ذلك " يعني من تجاوز حد الله بمخالفة أمره وارتكاب نهيه بالصيد في الحرم، وفي حال الاحرام " فله عذاب أليم " أي مؤلم. قال البلخي: يجوز أن يكون ذلك في

النار، ويجوز أن يكون غير ذلك من صنوف الآلام والعقوبات، قال سليمان " لا عذبه عذابا شديدا " (١) يعني الهدهد ولم يرد عذاب النار.
(١) سورة ٢٧ النحل آية ٢١:

(٢٣)

قوله تعالى:

يأبئها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما ليذوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام (٩٨) آية بلاخلاف.
قرأ أهل الكوفة ويعقوب " فجزاء " منونا " مثل " رفع. الباؤون بالاضافة. وقرأ ابن عامر وأهل المدينة " أو كفارة " بغير تنوين " طعام " بالخفض. الباؤون بالتنوين وأجمعوا على جمع مساكين. وقرأ بعضهم (أو عدل ذلك بالكسر) قال الاخفش: وهو الوجه، لان العدل هو المثل. والعدل مصدر عدلت هذا بهذا عدلا حسنا. والعدل أيضا المثل " ولا يقبل منها عدل " (١) أي مثل. قال الفراء: العدل - بفتح العين - ما عدل الشيء من غير جنسه - وبكسر العين - المثل، تقول: عندي غلام عادل غلامك - بالكسر - لانه من جنسه وان أردت قيمته دراهم، قلت: عندي عدل غلامك، لانها من غير جنسه. قال أبو علي الفارسي: حجة من رفع المثل أنه صفة للجزاء والمعنى فعليه جزاء من النعم مماثل المقتول. والتقدير فعليه جزاء أي فاللزام له أو فالواجب عليه جزاء من النعم مماثل ما قتل من الصيد. وقوله " من النعم " على هذه القراءة صفة للنكرة التي هي (جزاء) وفيه ذكر، ويكون مثل صفة للجزاء لان المعنى عليه جزاء مماثل للمقتول من الصيد من النعم. والمماثلة في القيمة أو الخلقة على اختلاف الفقهاء في ذلك. ولا ينبغي

(١) سورة ٢ البقرة آية ١٢٣.

(٢٤)

إضافة (جزاء) إلى المثل ألا ترى انه ليس عليه جزاء مثل ما قتل في الحقيقة، وانما عليه جزاء المقتول لاجزاء مثله، ولاجزاء عليه لمثل المقتول الذي لم يقتله. واذ كان كذلك علمت ان الجزاء لا ينبغي أن يضاف إلى (مثل) ولا يجوز أن يكون قوله " من النعم " على هذه القراءة

متعلقا بالمصدر كما جاز أن يكون الجار متعلقا به في قوله " وجزاء سيئة سيئة مثلها " (١) ب (مثلها)

لأنك قد وصفت الموصول، وإذا وصفته لم يجز أن تعلق به بعد الوصف شيئا كما أنك إذا عطفت عليه أو أكدته لم يجز أن تعلق به شيئا بعد العطف عليه والتأكيد له. فأما في قراءة من أضاف الجزاء إلى المثل، فإن قوله " من النعم " يكون صفة للجزاء كما كان في قول من نون، ولم يضيف صفة له.

ويجوز فيه وجه آخر لا يجوز في قول من نون ووصف: وهو أن يقدره متعلقا بالمصدر. ولا يجوز على هذا القول أن يكون فيه ذكر كما تضمن الذكر لما كان صفة. وإنما جاز تعلقه بالمصدر على قول من أضاف، لأنك لم تصف الموصول كما وصفته في قول من نون، فيمتنع تعلقه به.

وأما من أضاف الجزاء إلى (مثل) فإنه وإن كان جزاء المقتول لاجزاء مثله فإنهم مثل قد يقولون: أنا أكرم مثلك. يريدون أنا أكرمك، وكذلك إذا قال (فجزاء مثل) فالمراد ما قتل، فإذا كان كذلك كانت الإضافة في المعنى كغير الإضافة لأن المعنى فعليه جزاء ما قتل. ولو قدرت الجزاء تقدير المصدر واضفته إلى المثل كما تضيف المصدر إلى المفعول به لكان في قول من جر (مثلا) على الاتساع الذي وصفناه ألا ترى أن المعنى " فجزاء مثل " أي يجازى مثل ما قتل، والواجب عليه في الحقيقة جزاء المقتول لاجزاء مثل المقتول.

خاطب الله بهذه الآية المؤمنين ونهاهم عن قتل الصيد وهم حرم وقوله " وأنتم حرم " قيل فيه ثلاثة أوجه:

أحدها - وأنتم محرمون لحج أو عمرة.

(١) سورة ٤٢ الشورى آية ٤٠.

(٢٥)

الثاني - وأنتم في الحرم. يقال: أحرمتنا أي دخلنا في الحرم كما يقال أنجدنا واتهمنا.

الثالث - وأنتم في الشهر الحرام. يقال أحرمتنا إذا دخل في الشهر الحرام.

قال أبو علي: الآية تدل على تحريم قتل الصيد في حال الاحرام بالحج، والعمرة وحين الكون في الحرم. وقال الرماني: يدل على الاحرام بالحج أو العمرة فقط. والذي قاله أبو علي أعم فائدة، وأما القسم الثالث فلا خلاف أنه غير مراد.

وقاتل الصيد اذا كان محرماً لزمه الجزاء عامداً كان في القتل أو أخطأ أو ناسياً لآحرامه أو ذاكراً. وبه قال مجاهد، والحسن - بخلاف عنه - وابن جريج، وإبراهيم، وابن زيد، وأكثر الفقهاء، واختاره البلخي والجبائي.

وقال ابن عباس وعطاء والزهري واختاره الرماني: انه يلزمه اذا كان متعمداً لقتله ذاكراً لآحرامه، وهو أشبه بالظاهر. والاول يشهد به روايات أصحابنا.

واختلفوا في مثل المقتول فقال الحسن وابن عباس والسدي ومجاهد وعطاء والضحاك: هو أشبه الاشياء به من النعم: إن قتل نعامة فعليه بدنة، حكم النبي (صلى الله عليه وآله) بذلك في البدنة. وان قتل أرؤى (١) فبقرة. وان قتل غزالاً أو أرنباً، فشاة. وهذا هو الذي تدل عليه روايات أصحابنا.

وقال قوم: يقوم الصيد بقيمة عادلة ثم يشتري بثمنه مثله من النعم ثم يهدى إلى الكعبة، فان لم يبلغ ثمن هدي كفر أو صام، وفيه خلاف بين الفقهاء ذكرناه في الخلاف واختلف من قال بذلك في المكان الذي يقوم فيه الصيد، فقال إبراهيم، والنخعي وحماد، وأبو حنيفة، وأبو يوسف، ومحمد: يقوم بالمكان الذي أصاب فيه إن كان بخراسان أو غيره. وقال ابن عامر والشعبي: يقوم بمكة أو منى.

(١) " الارؤى " اناث الوعل، وهو اسم جمعها وواحدتها (أرية) بضم الهمزة وسكون الراء وكسر الواو وفتح الياء المشددة.

(٢٦)

وقوله: " يحكم به نوا عدل منكم " يعني شاهدين عدلين فقيهين يحكمان بأنه جزاء مثل ما قتل من الصيد.

وقوله: " هديا بالغ الكعبة " ف (هديا) نصب على المصدر. ويحتمل ان يكون نصبا على الحال، و (بالغ الكعبة) صفة له وتقديره يهديه هديا يبلغ الكعبة وقوله " بالغ الكعبة " فهو وان كان مضافاً إلى المعرفة فالنية فيه الانفصال، كما نقول هذا ضارب زيد، فيمن حذف النون ولم يكن قد فعل، فانه يكون نكرة، والهدي يجب أن يكون صحيحاً بالصفة التي تجزي في الاضحية، وهو قول أبي علي.

وقال الشافعي يجوز في الهدي ما لا يجوز في الاضحية. وان قتل طائراً أو نحوه قال أبو علي عليه دم شاة. وعندنا فيه دم. وقال قوم يجوز ان يهدي سحلة أو جدياً. والنعم هي الابل والبقر والغنم. وقوله " أو كفارة طعام مسكين " فمن رفع (طعام مسكين) جعله عطفاً على الكفارة عطف بيان لأن الطعام هو الكفارة، ولم يضاف الكفارة إلى الطعام، لأنها ليست للطعام وانما

هي لقتل الصيد، فذلك لم يصف الكفارة إلى الطعام. ومن اضافها إلى الطعام، فلانه لما خير المكفر بين ثلاثة أشياء: الهدى، والطعام، والصيام اجاز الاضافة لذلك، فكأنه قال: كفارة طعام لا كفارة هدي، ولا كفارة صيام، فاستقامت الاضافة لكون الكفارة من هذه الاشياء وقيل في معناه قولان:

أحدهما - يقوم عدله من النعم ثم يجعل قيمته طعاما في قول عطا. وهو مذهبنا.

وقال قتادة: يقوم نفس الصيد المقتول حياثم يجعل طعاما. وقوله: " أو عدل ذلك صياما " نصب صياما على التمييز وفي معناه قولان: أحدهما - لكل مد يقوم من الطعام يوم في قول عطاء. وقال غيره:

(٢٧)

عن كل مدين يوم وهو مذهبنا. وقال سعيد بن جبير: يصوم ثلاثة أيام إلى عشرة أيام. وقوله " ليذوق وبال امره " يعني عقوبة ما فعله ونكاله. وقال المغربي: الوبال من الطعام الوبيل الذي لا يستمرى، أو لا يوافق، وهو قول الازهري قال كثير: فقد أصبح الراضون إذ أنتم بها * مشوم البلاد يشتكون وبالها وقوله: " عفا الله عما سلف " قيل في معناه قولان:

أحدهما - قال الحسن: عفا الله عما سلف من امر الجاهلية. وقال آخرون: عما سلف من الدفعة الاولى في الاسلام.

وقوله: " ومن عاد فينتقم الله منه " اختلفوا في لزوم الجزاء بالمعاودة على قولين: أحدهما - قال عطاء و ابراهيم وسعيد بن جبير ومجاهد: يلزمه الجزاء بالمعاودة وهو قول بعض أصحابنا.

الثاني - قال ابن عباس، وشريح، والحسن، و ابراهيم، بخلاف عنه: لأجزاء عليه وينتقم الله منه، وهو الظاهر من مذهب أصحابنا، واختار الرماني الاول. وبه قال أكثر الفقهاء، قال: لانه لا ينافي الانتقام منه. واختلفوا في (أو) في الآية هل هي على جهة التخيير أم لا؟ على قولين:

أحدهما - قال ابن عباس، والشعبي، و ابراهيم، والسدي وهو الظاهر في رواياتنا انه ليس على التخيير لكن على الترتيب. وانما دخلت (أو) لانه لا يخرج حكمه على أحد الثلاثة، على انه إن لم يجد الجزاء فالاطعام وان لم يجد الاطعام فالصيام. وفي رواية أخرى عن ابن عباس،

وعطاء والحسن و ابراهيم - على خلاف عنه - واختاره الجبائي، وهو قول بعض أصحابنا انه على التخيير.

وقوله " والله عزيز ذو انتقام " معناه قادر لا يغالِب " ذو انتقام " معناه

(٢٨)

ينتقم ممن يتعدا أمره ويرتكب نهيه. وليس في الآية دليل على العمل بالقياس، لان الرجوع إلى ذوي عدل في تقويم الجزاء مثل الرجوع إلى المقولين في قيم المتفات، ولا تعلق لذلك بالقياس.

قوله تعالى:

أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما واتقوا الله الذي إليه تحشرون (٩٩) آية بلا خلاف.

قال ابن عباس، وزيد بن ثابت، وسعيد بن جبير، وسعيد بن المسيب، وقتادة، والسدي، ومجاهد: الذي أحل من هذه الآية من صيد البحر الطري منه وأما العتيق فلا خلاف في كونه جلالا، وإذا حل صيد البحر حل صيد الانهار، لان العرب تسمى النهر بحرا. ومنه قوله " ظهر الفساد في البر والبحر " (١) والاعلم على البحر هو الذي يكون مأؤه ملحا لكن اذا اطلق دخل فيه الانهار بلا خلاف.

وقوله " وطعامه " يعني طعام البحر وقيل في معناه قولان:

أحدهما - قال أبوبكر وعمر، وابن عباس وابن عمر، وقتادة هو ما قذف به ميتا.

الثاني - في رواية أخرى عن ابن عباس وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير وقتادة ومجاهد و ابراهيم بخلاف عنه انه المملوح، واختار الرماني الاول.

وقال لانه بمنزلة ما صيد منه وما لم يصد منه فعلى هذا تصح الفائدة في الكلام والذي يقتضيه ويليق بمذهبنا القول الثاني، فيكون قوله " صيد البحر " المراد به ما أخذ طريا.

(١) سورة ٣٠ الروم آية ٤١.

(٢٩)

وقوله " وطعامه " ما كان منه مملوحا، لان ما يقذف به البحر ميتا لا يجوز عندنا أكله لغير المحرم ولا للمحرم. وقال قوم معنى " وطعامه " ما نبت بمائة من الزرع والثمار حكاة الزجاج.

وقوله " متاعا لكم وللسيارة " نصب متاعا على المصدر لان قوله " أحل لكم " يدل على انه قد متعهم متاعا وقال ابن عباس والحسن وقتادة معناه منفعة للمقيم والمسافر .

وقوله " وحرّم عليكم صيد البر ما دتم حراما " يقتضي ظاهره تحريم الصيد في حال الاحرام وأكل ما صاده غيره، وبه قال علي (ع) وابن عباس وابن عمر وسعيد بن جبير، وقال عمر وعثمان والحسن، لحم الصيد لا يحرم على المحرم اذا صاده غيره، ومنهم من فرق بين ما صيد وهو محرم وبين ما صيد قبل احرامه. وعندنا لا فرق بينهما والكل محرم، والصيد يعبر به عن الاصطياد فيكون مصدرا ويعبر به عن المصيد، فيكون اسما. ويجب أن تحمل الآية على تحريم الجميع. وقوله " واتقوا الله الذي اليه تحشرون " أمر منه تعالى بان يتقي جميع معاصيه ويجتنب جميع محارمه من الصيد في الاحرام وغيره، لان اليه الرجوع في الوقت الذي لا يملك أحد فيه الضرر والنفع سواء، وهو يوم القيامة فيجازي كلا بعمله: المحسن على إحسانه والمسيء على اساءته.

قوله تعالى:

جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الارض وأن الله بكل شئ عليم (١٠٠) آية بلا خلاف.
قرأ ابن عامر وحده " قيما للناس " بلا الف. الباقر قياما بالالف.

(٣٠)

قال أبو علي الفارسي: قوله " جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس " تقديره جعل الله حج الكعبة أونصب الكعبة قياما لمعايش الناس أو مكاسب الناس، لانه مصدر (قام) كأن المعنى قام بنصبه ذلك لهم، فاستنتبت بذلك معايشهم، واستقامت أحوالهم به فالقيام كالعياد والعيال. وعلى هذا لحقته تاء التانيث في هذه المصادر فجاءت (فعالة) كالزيادة والسياسة والحياسة، فكما جاءت هذه المصادر على (فعال) أو (فعالة) كذلك حكم القيام أن يكون على (فعال).

ووجه قراءة ابن عامر أحد أمرين: إما أن يكون جعله مصدرا كالشبع أو حذف الالف وهو يريد بها كما يقصر الممدود، وهذا الوجه انما يجوز في الشعر دون الكلام. وانما أعلوا الواو فقلبوها ياء لاعتلال الفعل، ولم يصححوها كما صحت في الحول والعوض، ألا ترى أنهم قالوا ديمة وديم، وحيلة وحيل فأعلوها في المجموع لاعتلال أحادها، فاعلال المصدر لاعتلال الفعل أولى.

والقوام هو العماد تقول: هو قوام الامر وملاكه، وهو ما يستقيم به أمره وقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها في مصدر (فعل، يفعل) وهو قام بالامر قياما كقولك صام صياما. فأما صحة الواو فمن قاومه قواما مثل حاوره حوارا قال الراجز:

قوام دنيا وقوام دين (١)

وتقدير الآية جعل الله حج الكعبة أو نصب الكعبة قياما لمعاش الناس ومصالحهم. وقوله " والشهر الحرام " معطوف على المفعول الاول ل (جعل) كما تقول ظننت زيدا منطلقا وعمرا أي فعل ذلك ليعلموا أن الله يعلم مصالح ما في السماوات والارض، وما يجري عليه شأنهم في معاشهم وغير ذلك مما يصلحهم

(١) مجاز القرآن ١ / ١٧٧.

(٣١)

" وأن الله بكل شئ عليم " بما يقيمهم، ويصلحهم عليه. وقيل في قوله " قياما للناس " ان معناه أمانا لهم. وقيل انه مما ينبغي أن يقيموا به. والاول أقوى. وقال قوم لما كان في المناسك زجرا عن القبيح ودعا إلى الحق كان بمنزلة الرئيس الذي يقوم به أمر أتباعه. وقال سعيد بن جبير " قياما للناس " صلاحا لهم. وقيل: يقوم به أبدانهم. وقيل " قياما " يقومون به في متعباتهم قال مجاهد وعكرمة: سميت الكعبة كعبة لتربيعها. وقال أهل اللغة وانما قيل كعبة البيت واضيف لان كعبة تربع اعلاه والكعوبة: النتوء، فقيل للتربيع كعبة لنتوء زوايا المربع. ومنه كعب ثدي الجارية اذا نتأ ومنه كعب الانسان لنتوءه. وسميت الكعبة حراما لتحريم الله إياها ان يصاد صيدها أن يخلى خلاءها أو يعضد شجرها. وقوله " والشهر الحرام " قال الحسن: هي الاشهر الحرام الاربعة، فهذا على مخرج الواحد مذهب الجنس. وهي واحد فرد، وثلاثة سرد، والفرد رجب، والسرد ذو القعدة وذو الحجة والمحرم.

و (القلائد) قيل فيه ثلاثة أقوال:

أحدها - ان الرجل من العرب كان ينتهي به الحال من الضرر والجوع إلى ان يأكل العصب فيلقى الهدى مقلدا فلا يعرض له.
الثاني - أن من أراد الاحرام تقلد قلادة من شعر أو لحي الشجرة، فتمنعه من الناس حتى يأتي أهله.

الثالث - قال الحسن: القلائد ان يقلد الابل والبقر النعالا أو الخفاف، تقور تقويرا، على ذلك مضت السنة، فهذا على صلاح التعبد بها، وهذا هو المعتمد عليه عندنا.

فان قيل: مامعنى قوله " ذلك لتعلموا أن الله يعلم مافي السماوات ومافي الارض " بعد قوله " جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس " وأي تعلق لها بذلك؟ وما في ذلك مما يدل على أنه بكل شئ عليم؟ قيل عن

(٣٢)

ذلك ثلاثة أجوبة:

أحدها - أنه تعالى لما اخبر بما في هذه السورة من قصة موسى وعيسى وقومهما وبالتوراة والانجيل، ومافيهما من الاحكام واخبار الامم وفصله، وذلك كله مما لم يشاهده محمد (صلى الله عليه وآله) ولاقومه ولاأحد في عصره ولاوقفوا على شئ من ذلك، قال ذلك لتعلموا أن الله تعالى لولا أنه بكل شئ عليم لما جاز أن يخبركم عنهم، فاخبره بذلك يدل على أنه بكل شئ عليم. وأيضا فان ماجعله الله من البلد الحرام والشهر الحرام من الايات والاعاجيب دالا على أنه تعالى لا يخفى عليه شئ، لانه جعل البيت الحرام والحرم أمنا، يأمن فيه كل شئ ويسكن قلبه فالظبي يأنس بالسبع والذئب مادام في الحرم، فاذا خرج عن الحرم خاف وطلبه السبع وهرب منه الظبي حتى يرجع إلى الحرم، فاذا رجع اليه كف عنه السبع، وهذا من عظيم آيات الله وعجيب دلائله، وكذلك الطير والحمامة تأنس بالانسان، فاذا خرج من الحرم خافه ولم يدن من أحد حتى يعود إلى الحرم، والطير يستشفى بالبيت الحرام اذا مرض يسقط علم؟؟ البيت استشفاء به، فاذا زال عنه المرض لم ير على سطح البيت ولا محاذيه في الهواء إجلالا له وتعظيما، مع أمور كثيرة يطول ذكرها، فيكون مادبره الله من ذلك دالا على أنه عالم بمصالح الخلق وبكل شئ. وأيضا فانه أخبرهم بأنه قد علم قبل أن يخلقهم ما هم صائرون اليه من القتال والغارة والسبي والسلب فجعل من سنن ابراهيم واسماعيل ان من دخل الحرم لم يقتل. وكذلك من عاذ بالبيت. وأن أشهر الحرم لا يجوز فيها قتال وأن من أهدى أو قلد أمن على نفسه، وكل ذلك يدل على أن من دبره عالم بالعواقب ولا يخفى عليه شئ من الاشياء على وجه من الوجوه.

قوله تعالى:

إعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم (١٠١) آية

(٣٣)

أمر الله تعالى أن يعلم المكلف أنه شديد العقاب، فالعلم ماقتضى سكون النفس، وان شئت قلت هو اعتقاد الشئ على ماهو به مع سكون النفس إلى ما اعتقده، والاول أخص، ولايجوز أن

يحد العلم بأنه المعرفة، لان المعرفة هي العلم، ولا يحد الشئ بنفسه. والعلم يتناول الشئ على ماهو به وكذلك الرؤية. والفرق بينهما ان العلم يتعلق بالمعلوم على وجوه، والرؤية لاتتعلق إلا على وجه واحد. والعلم محله القلب. والرؤية ليست معنى على الحقيقة وانما تثبت للرأي بكونه رأيا صفة. ومن قال هو معنى قال محلها العين.

وفي الآية دلالة على أن المعرفة بالله وبصفاته ليست ضرورية، لأنها لو كانت ضرورية لما أمرنا بها. وليس لاحد أن يقول انما أمر على جهة التذكير، والتنبيه، لان ذلك ترك للظاهر. والعقاب هو الضرر المستحق على جهة الإهانة والمقارن بالاستخفاف، ولو اقتصر على ان تقول هو الضرر المستحق أو الضرر الذي يقارنه استخفاف وإهانة لكان كافيا لان ما ليس بعقاب ليس بمستحق ولا يقارنه استخفاف وإهانة وانما سمي عقابا لانه يستحق عقاب الذنب الواقع من صاحبه.

وقوله " وان الله غفور رحيم " منصوب ب (إعلموا) وتقديره واعلموا ان الله غفور رحيم، والمغفرة هي ستر الخطيئة برفع عقابها. وأصلها الستر ومنه المغفرة وضم ذكر الرحمة إلى المغفرة لبيان سبوغ نعم الله تعالى، وانه اذا أزال العقوبة بالتوبة أوجب الرحمة التي هي المغفرة. وذلك يدل على أن الغفران عند التوبة غير واجب وأنه تفضل وإلا لم يكن كذلك. قوله تعالى:

ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ماتبدون وما تكتمون (١٠٢) آية بلاخلاف.

(٣٤)

لما أُنذر تعالى في الآية الاولى شدة العقاب وبشر بالعمو والغفران ذكر في هذه أنه ليس على الرسول إلا البلاغ. وأما القبول والامتنال فانه متعلق بالمكلفين المبعوث اليهم. وأصل الرسول الاطلاق من قولهم أرسل الطير إرسالا اذا أطلقه ومنه قولهم: ترسل في القراءة ترسلا اذا تثبت. واسترسل الشئ اذا تسلل وانطلق. ورسله مراسلة، وتراسلوا تراسلا. والرسل اللين لاسترساله من الضرع. وفي الحديث (اعطي من رسلها) وقوله: " والمرسلات عرفا " (١)

قيل: هي الخيل. وقيل هي الرياح. والفرق بين الرسول والنبي أن النبي لا يكون الا صاحب المعجز الذي ينبي عن الله أي يخبر، والرسول اذا كان رسول الله فهو بهذه الصفة، وقد يكون الرسول رسولا لغير الله، فلا يكون بهذه الصفة. والانباء عن الشئ قد يكون من غير تحميل النبأ. والارسال لا يكون الا بتحميل الرسالة. والبلاغ وصول المعنى إلى غيره، وهو هاهنا وصول الانذار إلى نفوس المكلفين. وأصل البلاغ البلوغ تقول: بلغ يبلغ بلوغا وأبلغه ابلاغاً

وتبلغ تبلغاً وبالغ مبالغة وبلغه تبليغاً، ومنه البلاغة لأنها إيصال المعنى إلى النفس في حسن صورة من اللفظ. وتبالغ الرجل اذا تعاطى البلاغة وليس ببليغ، وفي هذا بلاغ أي كفاية لانه يبلغ مقدار الحاجة.

" والله يعلم ماتبدون وما تكتمون " معناه أنه لا يخفى عليه شئ من احوالكم التي تظهرونها أو تخفونها وتكتمنونها وفي ذلك غاية التهديد والزجر.
قوله تعالى:

قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولي الالباب لعلمكم تفلحون (١٠٣) آية معنى قوله " لا يستوي " لا يتساوى. والاستواء على أربعة اقسام:

(١) سورة ٧٧ المرسلات آية ١.

(٣٥)

استواء في المقدار. واستواء في المكان. واستواء في الذهاب. واستواء في الانفاق. والاستواء بمعنى الاستيلاء راجع إلى الاستواء في المكان، لانه تمكن واقتدار وقوله " الخبيث والطيب " قيل في معناهما قولان:

أحدهما - الحرام، والحلال في قول الحسن وأبي علي.

الثاني - قال السدي الكافر، والمؤمن. والخبيث الردي بالعاجلة ويسوى بالاجلة. ومنه خبث الحديد، وهو رديئه بعد ما يخلص بالنار جيدة ففي الخبيث امتزاج جيد برديء ولذلك قال " ولو أعجبك كثرة الخبيث " والاعجاب سرور بما يتعجب منه. والعجب والاعجاب والتعجب من أصل واحد. وعجب يعجب عجباً والعجب مذموم، لانه كبر يدخل النفس بحال يتعجب منها.

وعجب الذنب أصله عجوب الرمل أو آخره لانفراده عن جملة كانه كانه ما يتعجب منه.

ومعنى الآية أنه لا يتساوى الحرام والحلال وان أعجبك يا محمد كثرة ماتراه من الحرام والمراد به أمته. وقوله " فاتقوا الله " معناه أجتنبوا ما حرمه عليكم " يا أولي الالباب " يعني يا أولي العقول " لعلمكم تفلحون " معناه لتفلحوا وتفوزوا بالثواب العظيم الدائم.

قوله تعالى:

يا أيها الذين آمنوا لاتسئلوا عن أشياء إن تبدلكن تسؤكن وإن تسئلوا عنها حين ينزل القرآن تبدلكن عفا الله عنها والله غفور حلیم (١٠٤) قد سأله قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين (١٠٥) آيتان بلا خلاف.

قيل في سبب نزول هذه الآية قولان:

أحدهما - قال ابن عباس وأنس وابو هريرة والحسن وقتادة وطاوس

(٣٦)

والسدي: أنه سأل رسول الله (صلى الله عليه وآله) رجل يقال له عبدالله وكان يطعن في نسبه فقال: يارسول الله من أبي، فقال له حذافة. فنزلت الآية. وقال أبو هريرة ومجاهد: نزلت حين سألوا عن أمر الحج لمانزل " والله على الناس حج البيت " فقالوا: في كل عام؟ قال: لاولو قلت نعم لوجب. وقال قوم وقع السؤال الاول والثاني في مجلس واحد، فخطب الله تعالى بهذه الآية المؤمنين ونهاهم عن مسألة الاشياء التي اذا أبديت وأظهرت ساءت واحزنت من أظهرت له. يقال بدا يبدو بدوا. وابداه إبداء اذا أظهره وبدا له في الامر بدوا وبدا وبدا اذا تغير رأيه، لانه ظهر له. والبادية خلاف الحاضرة. والبدو خلاف الحضر من الظهور. وقيل في وزن (اشياء) ثلاثة أقوال:

قال الكسائي: هو أفعال إلا انه لم يصرف، لانهم شبهوه بحمراء فالزمه الزجاج ألا يصرف اسما ولا انباء.

الثاني - قال الاخفش والفراء هي (فعلاء) كقولك هين وأهوناء فالزمه المازني وقال: سله كيف يصغرها؟ فقال الاخفش (أشياء) فقال يجب ان يصغرها شيئات كما يصغر اصدقاء في المؤنث صديقات في المذكر صد يقون. قال الزجاج إنما قيل في هين: أهوناء لان هين أصله (هيين) على وزن فعيل فجمع على أفعلاء كنصب وانصباء.

الثالث - قال الخليل وسيبويه: (افعاء) مقلوبة كما قلبوا (انيق) عن انوق، وقسمي عن قؤوس. وقوله " تسؤكم " معناه تحزنكم. وقوله " عفاالله عنها والله غفور رحيم " قيل فيما يعود الضمير اليه في (عنها) قولان:

احدهما - قال قوم على المسألة، لان قوله " لاتسألوا " دليل عليها فيكون العفو عن مسألتهم التي سلفت منهم.

الثاني - على الاشياء التي سألوا عنها من أمور الجاهلية، وما جرى مجراها مما يسؤهم تشديد المحنة فيها.

(٣٧)

وقوله " قد سألها قوم من قبلكم " قال ابن عباس: سأل قوم عيسى (ع) إنزال المائدة ثم كفروا بها. وقال غيره: هو قوم صالح سألوا الناقة ثم عقروها وكفروا بها. وقال السدي هذا حين سألوا أن يحول لهم الصفا ذهابا. وقال أبو علي: انما كانوا سألوا نبيهم عن مثل هذه الاشياء يعني من آيات ونحوها فلما أخبرهم النبي (صلى الله عليه وآله) قالوا: ليس

الامر كذلك، فكفروا به وقال الرماني: السؤال هو طلب الشيء اما بايجاده واما باحضاره واما بالبيان عنه، والذي يجوز السؤال عنه هو مايجوز العمل عليه من أمر دين أو دنيا. وما لايجوز العمل عليه من أمر دين أو دنيا لايجوز السؤال عنه ولايجوز أن يسأل الله تعالى شيئا إلا بشرط انتقاء وجود القبح عن الاجابة، فعلى هذا لايجوز أن يسأل الانسان: من أبي لأن المصلحة اقتضت ان من ولد على فراش انسان حكم بأنه ولده. وإن لم يكن مخلوقا من مائه، فالمسألة بخلافه سفه لايجوز. قوله تعالى:

ما جعل الله من بحيرة ولاسائبة ولاوصيل ولاحام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لايعقلون (١٠٦) آية بلاخلاف.

هذه الاية من الادلة الواضحة على بطلان مذهب المجبرة من قولهم: من أن الله تعالى هو الخالق للكفر والمعاصي وعبادة الاصنام وغيرها من القبائح، لأنه تعالى نفى أن يكون هو الذي جعل البحيرة أو السائبة أو الوصيلة أو الحام، وعندهم ان الله تعالى هو الجاعل له والخالق، تكذيبا لله تعالى وجرأة عليه. ثم بين تعالى أن هؤلاء بهذا القول قد كفروا بالله وأفتروا عليه بأن أضافوا اليه ما ليس بفعل له، وذلك واضح لا إشكال فيه.

(٣٨)

ومعنى " ما جعل الله من بحيرة " أي ما حرمها على ما حرمها أهل الجاهلية، ولأمر بها. و (البحيرة) هي الناقة التي تشق أذنها يقال بحرت الناقة أبحرها بحرا، والناقة مبحورة، وبحيرة: اذا شققها شقا واسعا، ومنه البحر لسعته. وكانوا في الجاهلية اذا تنجت الناقة خمسة أبطن وكان آخرها ذكرا بحروا أذنها أي شقوها، وامتنعوا من ركوبها وذبحها، ولم تطرد عن ماء، ولم تمنع من رعي. واذا لقيها لمعي لم يركبها.

و (السائبة) المخلاة وهي المسيبة. وكانوا في الجاهلية اذا نذر إنسان نذرا لقدم من سفر أو براء من مرض أو ما أشبه ذلك قال: ناقتي سائبة، فكانت كالبحيرة في التخلية، وكان اذا أعتق الانسان عبدا، فقال: هو سائبة لم يكن بينهما عقل، ولا ولاء، ولا ميراث.

و (الوصيلة) الانثى من الغنم اذا ولدت انثى مع الذكر قالوا: أوصلت أباها فلم يذبحوه. وقال أهل اللغة: كانت الشاة اذا ولدت انثى فهي لهم، واذا ولدت ذكرا ذبحوه لالتهتم في زعمهم، واذا ولدت ذكرا وأنثى قالوا: وصلت أباها فلم يذبحوه لالتهتم.

و (الحام) الفحل من الأبل الذي قدحى ظهره من أن يركب بتتابع أولاد تكون من صلبه. وكانت العرب اذا أنتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا: حمى ظهره فلا يحمل عليه شئ ولا يمنع من ماء ولا مرعى. وقال محمد ابن إسحاق: البحيرة بنت السائبة و (السائبة) هي الناقة اذا تابعت بين عشر أناث ليس فيهن ذكر سبيت فلم يركبها ولم يجزوا وبرها ولم يشرب لبنها إلا ضيف. فما نتجت بعد ذلك من أنثى شق أذنفا ثم يخلي سبيلها مع أمها فلم يركب ظهرها ولم يجز وبرها، ولم يشرب لبنها إلا ضيف كما فعل بأمها. و (الوصيلة) هي الشاة إذا أتمت عشر أناث متتابعات في خمسة أبطن ليس فيها ذكر جعلت وصيلة، وقالوا قد وصلت وكان ما ولدت بعد ذلك للذكور دون الاناث.

(٣٩)

وقوله " ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب " إخبار منه تعالى؟ هؤلاء الذين كفروا يكذبون على الله بادعائهم أن هذه الاشياء من فعل الله أو بأمره. وقوله " واكثرهم لا يعقلون " خص الاكثر بأنهم لا يعقلون لانهم أتباع، فهم لا يعقلون أن ذلك كذب وافتراء كما يفعله الرؤساء - في قول قتادة والشعبي - وقال ابو علي " أكثرهم لا يعقلون " مأحل لهم وما حرم عليهم، يعني أن المعاند هو الاقل منهم.

قوله تعالى:، وإذا قيل لهم تعالوا إلي ما أنزل الله وإلي الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولوكان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون (١٠٧) آية بلاخلاف. أخبر الله تعالى عن الكفار الذين أخبر عنهم أنهم لا يعقلون، والذين جعلوا البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام، و " الذين يفترون على الله الكذب " من كفار قريش وغيرهم من العرب بأنه " اذا قيل لهم تعالوا " أي هلموا " إلى ما أنزل الله " من القرآن واتباع مافيه، والاقرار بصحته " والى الرسول " وتصديقه، والافتداء به وبأفعاله " قالوا " في الجواب عن ذلك " حسبنا " أي كفانا " ما وجدنا عليه آباءنا " يعني مذاهب آباءنا. ثم اخبر تعالى منكرًا عليهم فقال " أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون " أي إنهم يتبعون آباءهم في ما كانوا عليه من الشرك وعبادة الاوثان وإن كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً من الدين ولا يهتدون اليه. وقيل في معنى (لا يهتدون قولان احدهما - الذم

بأنهم ضلال. والثاني - أنهم لا يهتدون إلى طريق العلم بمنزلة العمي عن الطريق. وفي الآية دلالة على فساد التقليد، لان الله تعالى أنكر عليهم تقليد الاباء فدل

(٤٠)

ذلك على أنه لا يجوز لاحد أن يعمل على شئ من أمر الدين إلا بحجة. وفيها دلالة على وجوب المعرفة وأنها ليست ضرورية، لان الله تعالى بين الحجاج عليهم في هذه الاية ليعرفوا صحة مادعا الرسول اليه، ولو كانوا يعرفون الاحق ضرورة لم يكونوا مقلدين لابائهم وكان يجب أن يكون آباؤهم أيضا عارفين ضرورة، ولو كانوا كذلك لما صح الاخبار عنهم بأنهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون. وانما نفى عنهم الاهتداء والعلم معا لان بينهما فرقا، وذلك أن الاهتداء لا يكون إلا عن بيان وحجة. والعلم مطلق وقد يكون الاهتداء ضرورة. قوله تعالى:

ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون (١٠٨) آية واحدة بلاخلاف.

لما بين الله تعالى حكم الكفار الذين قلدوا آباءهم واسلافهم وركنوا اليهم في أديانهم، ذكر في هذه الاية أن المكلف انما يلزمه حكم نفسه وأنه لا يضره ضلال من ضل اذا كان هو مهتديا، حتى يعلم بذلك أنه لا يلزمهم من ضلال آبائهم شئ من الذم والعقاب.

و " أنفسكم " نصب على الاغراء كأنه قال: احفظوا أنفسكم أن تزلوا كما زل غيركم. والعرب تغري ب (عليك، واليك، ودونك، وعندك) فينصبون الاسماء بها، ولم يغروا ب (منك) كما أغروا ب (اليك)، لان (اليك) أحق بالتنبيه من (منك). والاغراء تنبيه على ما يجب أن يحذر، ولذلك لم يغروا ب (فيك) ونحوها من حروف الاضافة. وحكى المغربي: أنه سمع من يغري ب (وراءك) و (قدامك).

(٤١)

وليس في الاية مايدل على سقوط انكار المنكر. وإنما يجوز الاقتصار على الاهتداء بأتباع أمر الله في حال التقية، هذا قول ابن مسعود، على أن الانسان إنما يكون مهتديا اذا اتبع أمر الله في نفسه وفي غيره بالانكار عليه. وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال (اذا رأوا الناس منكرا فلم يغيروه عمهم الله بالعقاب)

وفي الاية دلالة على فساد مذهب المجبرة في تعذيب الاطفال، لانه لو كان الامر على ما قالوه لم يأمن المؤمنون أن يؤخذوا بذنوب آبائهم، وقد بين الله تعالى أن الامر بخلافه مؤكدا لما في العقل.

وقوله " إلى الله مرجعكم جميعا " معناه اليه تعالى مآلكم في الوقت الذي لا يملك أحد الضرر والنفع سواء بخلاف دار الدنيا التي مكن الله تعالى الخلق من الضرر والنفع فيها. وقوله "

فبينكم " معناه يخبركم بأعمالكم التي عملتموها في الدنيا من الطاعات والمعاصي، ويجازيكم بحسبها، وفي ذلك غاية الزجر والتهديد.

وقوله " لا يضركم " يحتمل أن يكون جزما لأنه جواب الامر، وحرك الراء لأنها ثقيلة وأولها ساكن، فلا يستقيم إسكان آخرها، فيلتي ساكنان. قال الاخفش: والاجود أن يكون رفعا على الابتداء، لأنه ليس بعلة لقوله " عليكم أنفسكم " وإنما أخبر أنه لا يضرهم. قوله تعالى:

يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابكم مصيبة الموت تحبسونهما من بعد الصلوة فيقسمان بالله إن ارتبتم لانتشري

(٤٢)

به ثنا ولو كان ذا قربى ولانكتم شهادة الله إنا إذا لمن الاثمين (١٠٩) آية بلاخلاف. ذكر الواقدي وابوجعفر (ع) أن سبب نزول هذه الآية ما قال أسامة بن زيد عن أبيه قال: كان تميم الداري وأخوه عدي نصرانيين وكان متجرهما إلى مكة، فلما هاجر رسول الله (ع) إلى المدينة قدم ابن أبي مارية مولى عمرو بن العاص المدينة وهو يريد الشام تاجرا فخرج هو وتميم الداري وأخوه عدي حتى إذا كانوا ببعض الطريق مرض ابن أبي مارية فكتب وصية بيده ودسها في متاعه وأوصى اليهما ودفع المال اليهما وقال أبلغنا هذا أهلي، فلما مات فتحا المتاع وأخذوا ما أعجبهما مناه ثم رجعا بالمال إلى الورثة، فلما فتش القوم المال فقدوا بعض ما كان خرج به صاحبهم، ونظروا إلى الوصية فوجدوا المال فيما تاما وكلموا تميما وصاحبه، فقالوا: لا علم لنا به ومدفعه إلينا أبلغناه كما هو، فرفعوا أمرهم إلى النبي (صلى الله عليه وآله) فنزلة هذه الآية.

قوله تعالى " يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم " قيل في معنى الشهادة - هاهنا - ثلاثة أقوال:

أحدها - الشهادة التي تقام بها الحقوق عند الحكام.

الثاني - شهادة الحضور لوصيين.

الثالث - شهادة أيمان بالله إذا ارتاب بالوصيين من قول القائل: أشهد بالله اني لمن الصادقين.

والاول أقوى واليق بالقصة. وفي كيفية الشهادة قيل قولان:

أحدهما - أن يقول صحيحا كان أو مريضا: إذا حضرني الموت فافعلوا كذا وكذا. ذكره الزجاج.

الثاني - إذا حضرت أسباب الموت من المرض.

(٤٣)

وقيل في رفع " شهادة " ثلاثة أقوال:

أحدها - أن يكون رفعا بالابتداء وتقديره شهادة بينكم: شهادة اثنين، ويرتفع (اثنان) بأنه خبر الابتداء ثم حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.

قال أبو علي الفارسي: واتسع في (بين) وأضيف إليه المصدر، وذلك يدل على قول من يقول: ان الظرف الذي يستعمل يجوز أن يستعمل إسما في غير الشعر، كما قال تعالى " لقد تقطع بينكم " (١) فيمن رفع. وجاء في الشعر:

فصادف بين عينيه الجبوبا (٢)

الثاني - على تقدير مخذوف وهو عليكم شهادة بينكم أو مما فرض عليكم شهادة بينكم، ويرتفع اثنان بالمصدر ارتفاع الفاعل بفعله.

والثالث - ان يكون الخبر " اذا حضر " فعلى هذا لايجوز أن يرتفع (اثنان) بالمصدر، لانه خارج عن الصلة بكونه بعد الخبر، لكن على تقدير ليشهد اثنان، ولايجوز أن يتعلق اذا حضر بالوصية لامرين:

أحدهما - ان المضاف اليه لايعمل فيما قبل المضاف، لانه لو عمل فيما قبله للزم أن يقدر وقوعه في موضعه فاذا قدر ذلك لزم تقديم المضاف عليه على المضاف، ومن ثم لم يجز (القتال زيدا) حين يأتي.

والاخر ان الوصية مصدر، فلا يتعلق به ماينقدم عليه.

وقوله " اذا حضر أحدكم الموت " يعني قرب أحدكم من الموت كما قال " حتى اذا حضر أحدكم الموت قال اني تبت الان " (٣) وقال " حتى اذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا " (٤) وقال " حتى اذا جاء أحدكم الموت قال رب

(١) ٦ الانعام آية ٩٤.

(٢) قائله أبوخراس الهذلي. اللسان (بين) وصدرة:

فلافته ببلقعة براح يصف عقابا. والجبوب - بفتح الجيم - وجه الارض. والبلقع المكان الخالي، وبراح صفة له. والشاهد ضم النون في (بين).

(٣) سورة ٤ النساء آية ١٧ (٤) سورة ٦ الانعام آية ٦١

(٤٤)

ارجعون " (٣) وكل ذلك يريد به المقاربة. ولولا ذلك لما أسند اليه القول بعدالموت.

وقوله " حين الوصية " فلا يجوز أن يحمل على الشهادة، لأنها اذا عملت في ظرف من الزمان لم تعمل في ظرف آخر منه، ويمكن حمله على أحد ثلاثة أشياء:
أحدها - أن تعلقه بالموت كان الموت في ذلك الحين بمعنى قرب منه.
الثاني - على حضر أي اذا حضر: هذا الحين.

الثالث - أن يحمله على البذل من (اذا) لان ذلك الزمان في المعنى هو ذلك الزمان، فيبدله منه، ويكون بدل الشيء من الشيء اذا كان إياه. وقوله " اثنان ذوا عدل منكم " خبر المبتداء الذي هو (شهادة) وتقديره شهادة بينكم شهادة اثنين على ما بيناه، لان الشهادة لا تكون إلا من اثنين وقوله " منكم " صفة لقوله " اثنان " كما ان (ذوا عدل) صفة لهما، وفي الظرف ضمير وفي معنى (منكم) قولان:

أحدهما - قال سعيد بن المسيب وعبيدة ويحيى بن يعمر ومجاهد وقتادة وابن عباس: أي من المسلمين، وهو قول أبي جعفر وابي عبدالله (ع).

الثاني - قال سعيد بن المسيب وعبيدة - في رواية اخرى - وعكرمة:
إنهما من حي الموصي والاول أظهر وأصح، وهو اختيار الرماني، لانه لاحذف فيه. وقوله " أو آخران من غيركم " تقديره أو شهادة آخرين من غيركم، وحذف المضاف وأقام المضاف اليه مقامه. و (من غيركم) صفة للآخرين.
وقيل في معنى " من غيركم " قولان:

أحدهما قال ابن عباس وأبوموسى الأشعري وسعيد بن المسيب وسعيد ابن جبير وشريح وابراهيم وابن سيرين ومجاهد وابن زيد واختاره أبوعلي الجبائي، وهو قول أبي جعفر وابي عبدالله (ع) أنهما من غير أهل ملتكم.

(١) سورة ٢٣ المؤمنون آية ١٠٠

(٤٥)

الثاني - قال عكرمة وعبيدة - بخلاف عنه - وابن شهاب والحسن:
يعني من غير عشيرتكم. قال الحسن لان عشيرة الموصي أعلم بأحواله من غيرهم، وهو اختيار الزجاج. وقال: لانه لا يجوز قبول شهادة الكفار مع كفرهم وفسقهم وكذبهم على الله. ومعنى (أو) - هاهنا - للتفصيل لا للتخيير، لان المنى أو آخران من غيركم إن لم تجدوا منكم، وهو قول ابي عبيدة وشريح ويحيى بن يعمر وابن عباس وابراهيم وسعيد بن جبير والسدي، وهو قول أبي جعفر وابي عبدالله (ع). وقال قوم: هو بمعنى التخيير فيمن ائتمنه الموصي من مؤمن أو كافر.

وقوله " ان أنتم ضربتم في الأرض " يعني ان انتم سافرتكم كما قال " واذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة " (١).

وقوله " فأصابتكم مصيبة الموت تحبسونهما من بعد الصلاة " فيه محذوف، وتقديره وقد اسنتم الوصية اليهما فارتاب الورثة بهما تحبسونهما.

وقوله " تحبسونهما " خطاب للورثة والهاء في (به) تعود إلى القسم بالله.

والصلاة المذكورة في هذه الآية قيل فيها ثلاثة أقوال:

أولها - قال شريح وسعيد بن جبير و ابراهيم وقتادة، وهو قول أبي جعفر (ع) أنها صلاة العصر.

الثاني - قال الحسن: هي الظهر أو العصر، وكل هذا لتعظيم حرمت وقت الصلاة على غيره من الاوقات. وقيل: لكثرة اجتماع الناس كان بعد صلاة العصر.

الثالث - قال: ابن عباس صلاة اهل دينهما يعني في اليمين لانهم لايعظمون أوقات صلاتنا. وقوله " فيقسمان بالله " الفاء دخلت لعطف جملة (ان ارتبتم) في قول الاخرين الذين ليسا من أهل ملتنا أو من غير قبيلة الميت فغلب في ظنكم

(١) سورة ٤ النساء آية ١٠٠

(٤٦)

خيانتهم، ولاخلاف أن الشاهد لايلزمه اليمين إلا أن يكونا شاهدين على وصية مستتدة اليهما فيلزمهما اليمين لانهما مدعيان. وقوله " لانشتري به ثمننا " لانشتري جواب ما يقتضيه قوله " فيقسمان " لان (أقسم) ونحوه يتلقى بما تتلقى به الايمان. ومعنى قوله " لانشتري به ثمننا " لانشتري بتحريف شهادتنا ثمننا، فحذف المضاف وذكر الشهادة، لان الشهادة قول كما قال " واذا حضر القسمة أولوا القربى.. " ثم قال " فارزقوهم منه " (١)

لماكانت القسمة يرادبها المقسوم، ألا ترى ان القسمة التي هي افراد الانصباء لايرزق منه. وانما يرزق من التركة، وتقديره لانشتري به ثمننا أي ذا ثمن، ألا ترى أن الثمن لايشترى، وانما الذي يشتري المبيع دون ثمنه، وكذلك قوله " اشترؤا بآيات الله ثمننا قليلا " (٢) أي ذا ثمن. والمعنى انهم آثروا الشئ القليل على الحق، فاعرضوا عنه وتركوه، ولايكون (اشترؤا) في الآية بمعنى (باعوا) لان بيع الشئ اخراج وانفاذله من البائع، وليس المعنى - هاهنا - على الانفاذ وانما هو على التمسك به، والايتار له على الحق.

وقوله " ولوكان ذا القربى " تقديره ولوكان المشهود له ذا قربي، وخص ذو القربى لميل الناس إلى قراباتهم، ومن يناسبونه.

وقوله " ولانكتم شهادة الله إنا إذا لمن الاثمين " معناه انا ان كتمانها لمن الاثمين. وقال (شهادة الله) فأضاف الشهادة إلى الله لأمره بها وباقامتها والنهي عن كتمانها في قوله " ومن يكتمها فإنه آثم قلبه " (٣) وقوله " وأقيموا الشهادة لله " (٤) قوله تعالى:

فان عثر على أنهما استحقا إثما فآخران يقومان مقامهما

(١) سورة ٤ النساء آية ٧ (٢) سورة ٩ التوبة آية ١٠ (٣) سورة ٢ البقرة آية ٢٨٣ (٤) سورة ٦٥ الطلاق آية

(٤٧)

من الذين استحق عليهم الاوليان فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا إنا إذا
لمن الظالمين (١١٠)
آية بلاخلاف.

قرأ حفص والاعشى الا النفار والكسائي عن ابي بكر " استحق " بفتح التاء والحاء. الباقرن -
بضم التاء وكسر الحاء - والابتداء على الاول بكسر الهمزة. وقرأ حمزة وأبو بكر إلا الاعشى
- في غير رواية النفار - ويعقوب، وخلف (الاولين) بتشديد الواو، وكسر اللام وفتح النون
على الجمع. والباقرن بسكون الواو، وفتح اللام وكسر النون على التثنية.

وقد ذكرنا سبب نزول الآية عن رويناه عنه فذكروا أنها نزلت في أمر رسول الله (صلى الله
عليه وآله) ان يستحلفوهما (والله ما قبضنا له غير هذا ولا كتماناه)

ثم ظهر على إناء من فضة منقوش مذهب معهما، فقالوا: هذا عن متاعه، فقالوا: اشتريناه منه،
فارتفعوا إلى رسول الله فنزلت قوله تعالى: " فان عثر على انهما استحقا اثما فأخران يقومان
مقامهما من الذين استحق. " فامر رسول الله رجلين من أهل البيت أن يحلفا على ما كتما
وغيبا، وفحلف عبدالله ابن عمر (١) والمطلب بن أبي وداعة (٢) فاستحقا. ثم ان تميما اسلم
وتابع رسول الله (صلى الله عليه وآله) وكان يقول: صدق الله، وبلغ رسول الله، أنا أخذت الاناء.
ومعنى (عثر) ظهر على، تقول: عثرت على خيانته وأعثرت غيري على خيانته أي أطلعتنه.
ومنه قوله " وكذلك أعثرتنا عليهم " (٣) أي أطلعنا عليهم وأصله الوقوع بالشئ من قولهم: عثر
الرجل يعثر عثورا اذا وقع اصبعه

(١) وقد روي فقام عمر بن العاص ورجل آخر فحلفا..

(٢) في بعض النسخ (ابن ابي رفاعه) بدل (ابن ابي وداعة).

(٣) سورة ١٨ الكهف آية ٢١.

(٤٨)

بشئ صدمته، وعثر الفرس عثارا قال الشاعر:

بذات لوث عفرونا اذا عثرت * فالتعس أدنى لها من أن أقول لعا (٤)

وأعثر الرجل يعثر عثرا اذا أطلع على أمر كان خافيا عنه، لانه وقع عليه بعد خفائه، والعثير
الغبار الساطع، ولانه يقع على الوجه وغيره، والعثير الاثر الخفي، لانه يوقع عليه من خفاء.
وقوله: " على انهما " يعني على أن الوصيين المذكورين أولا في قوله " اثنان " في قول سعيد
بن جبير. وقال ابن عباس: على أن الشاهدين استحقا اثما يعني خانا وظهر وعلم منهما ذلك "

فأخران يقومان مقامهما " يعني من الورثة - في قول سعيد بن جبير وغيره - و " من الذين استحق عليهم والاوليان " قيل في قوله " الاوليان " ثلاثة أقوال:
أحدها - قال سعيد بن جبير وابن زيد: الاوليان بالميت. الثاني قال ابن عباس وشريح:
الاوليان بالشهادة وهي شهادة الايمان. الثالث قال الزجاج: الاوليان أن يحلفا غيرهما وهما النصرانيان. ويقال هو الاولي؟؟ ثم يحذف؟؟ فيقال: هو الاولي، وهذان الاوليان كما يقال هو الاكبر بمعنى الكبير وهذان الاكبران. وفي رفع الاوليان ثلاثة أقوال:
أحدها - بانه اسم مالم يسم فاعله والمعنى استحق عليه اثم الاولين أي استحق منهم، فحذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه.
الثاني - بانه بدل من الضمير " في يقومان " على معنى فليقم الاوليان من الذين استحق عليه الوصية وهو اختيار الزجاج.
الثالث - بدل من قوله " آخران ". وزعم بعض الكوفيين انه لايجوز إبداله من " آخرين " لتأخر العطف في (فيقسمان)، لانه يصير بمنزلة

(٤) قائله الاعشى ديوانه: ٣. (اللوث). القوة. و (عفرنات - بفتح العين والفاء - يصف بها الناء؟ بانها شبه المجنونة في السير. و (التعس) العنور. و (لعا) كلمة تقال للعائر.

(٤٩)

(مررت برجل قام زيد وقعد)

قال الرماني: يجوز على العطف بالفاء جملة على جملة. وقال أبو علي الفارسي: ويجوز أن يكون رفعا بالابتداء وقد أخر. وتقديره فالاوليان بأمر الميت آخران من أهله أو من أهل دينه يقومان مقام الخائنين اللذين عثر عليهما كقولك: تميمي أنا. ويجوز أن يكون خبر ابتداء محذوف، وتقديره فأخران يقومان مقامهما هما الاوليان. واختار أبو الحسن الاخفش أن يكون الاوليان صفة لقوله " فأخران " لانه لما وصف اختص. فوصف لاجل الاختصاص بما توصف به المعارف. واما الجمع فعلى اتباع " الذين " وموضعه الجر وتقديره من الاولين الذين استحق عليهم الايضاء والاثم. وانما قيل لهم الاولين من حيث كانوا أولين في الذكر ألا ترى أنه تقدم " ياأيها الذين آمنوا شهادة بينكم " وكذلك " اثنان نوا عدل منكم " ذكرا في اللفظ، قيل قوله " أو آخران من غيركم " وحجتهم في ذلك أن قالوا: رأيت ان كان الاوليان صغيرين أراد انهما اذا كانا صغيرين لم يقوما مقام الكبيرين في الشهادة ولم يكونا لصغرها اولى بالميت، وان كانا لوكانا كبيرين كانا أولى به.

وانما قال " استحقا اثما " لان آخذه انما يأخذه آثم فسمي (اثما) كما يسمى مايؤخذ منك بغير حق مظلمة. قال سيبويه: المظلمة اسم ما أخذ منك قهرا، وكذلك سمي هذا المأخوذ باسم المصدر. وقيل: معناه استحقا عذاب إثم وحذف المضاف واقام المضاف اليه مقامه كما قال " اني أريد أن تبوء باثمي وإثمك " (١) بعقاب آثمي وعقاب اثمك. وقيل في معنى (عليهم) ثلاثة أقوال:

أحدها - ان تكون (على) بمعنى (من) كأنه. قال من الذين استحق منهم الاثم كما قال " اذا اکتالوا على الناس " (٢) أي من الناس.
الثاني - ان يكون المعنى كما تقول: استحق على زيد مال بالشهادة أي

(١) سورة ٥ المائدة آية ٣٢ (٢) سورة ٨٣ المطففين آية ٢

(٥٠)

لزمه ووجب عليه الخروج منه، لان الشاهدين لما عثر على خيانتها استحق عليهما ما ولياه من أمر الشهادة والقيام بها ووجب عليهما الخروج منها وترك الولاية لها فصار اخراجهما منها مستحقا عليهما كما يستحق على المحكوم عليه الخروج مما وجب عليه.
الثالث - أن يكون (على) بمنزلة (في) كأنه استحق فيهم، وقام (على) مقام (في) كما قام (في) مقام (على) في قوله " ولاصلبكم في جذوع النخل " (٣) والمعنى من الذين استحق عليهم بشهادة الاخرين اللذين هما من غيرنا.

فان قيل: هل يجوز أن يسند (استحق فيه) إلى الاوليان؟ قلنا لايجوز ذلك لان المستحق انما يكون الوصية أو شئ منها، ولا يجوز أن يستحق الاوليان وهما الاوليان بالميت، والاوليان بالميت لايجوز أن يستحقا فيسند (استحق) اليهما.

وقوله " فيقسمان بالله " أي يلفان بالله. وقوله " لشهادتنا أحق من شهادتهما " جواب القسم في قوله " فيقسمان بالله " وقوله " وما اعتدينا " يعني فيما قلنا من أن شهادتنا أحق من شهادتهما " إنا اذا لمن الظالمين " تقديره إنا ان اعتدينا لمن الظالمين لنفوسنا.

قال الزجاج: هذه الآية أصعب آية في القرآن اعرابا.

فان قيل: كيف يجوز أن يقف أولياء الميت على كذب الشاهدين أو خيانتها حتى حل لهما أن يلفا؟ قيل: يجوز ذلك بوجوه: أحدها - أن يسمعا اقرارهما بالخيانة من حيث لايعلمان أو يشهد عندهم شهود عدول بأنهم سمعوهما يقر - ان بأنهما كذبا أو خانا؟ أو تقوم البينة عندهما على أنه أوصى بغير ذلك أو على أن هذين لم يحضرا الوصية أو يعرفان بغير ذلك من الاسباب.

(٥١)

قوله تعالى:

ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم واتقوا الله واسمعوا والله لا يهدي القوم الفاسقين (١١١) آية بلاخلاف.
قوله " ذلك أدنى " معناه ذلك الاحلاف والاقسام او ذلك الحكم أقرب إلى ان يأتوا بالشهادة على وجهها أي حقا وصدقها، لان اليمين يردع عن أمور كثيرة لا يرتدع عنها مع عدم اليمين.
واختلفوا في ان اليمين هل تجب على كل شاهدين أم لا؟ فقال ابن عباس: انما هي على الكافر خاصة وهو الصحيح.

وقال غيره: هي على كل شاهدين وصيين اذا رتيب بهما.

واختلفوا في نسخ حكم الايتين المتقدمتين مع هذه على قولين:

فقال ابن عباس و ابراهيم وأبو علي الجبائي: هي منسوخة الحكم.

وقال الحسن وغيره: هي غير منسوخة. وهو الذي يقتضيه مذهبنا واخبارنا. وقال البلخي: أكثر أهل العلم على أنه غير منسوخ، لانه لم ينسخ من سورة المائدة شيء، لانها آخر ما نزلت. ووجه قول من قال: هي منسوخة أن اليمين لا يجب اليوم على الشاهدين بالحقوق. وانما كان قبل الامر باشهاد العدول في قوله " واشهدوا ذوي عدل منكم " (١) فنسخت هذه الآية ودلت على أن شهادة الذمي لا تقبل إلا على الذمي اذا ارتفعا إلى حكام المسلمين لان الذمي ليس يعدل ولا ممن يرضى من الشهداء، وهو قول أبي علي الجبائي. ومن ذهب إلى انها منسوخة جعلها بمعنى شهادة الايمان على الوصيين فاذا ظهروا على خيانة منهما مما وجد في أيديهما صاروا مدعيين وصار

(٥٢)

الورثة في معنى المنكر فوجبت عليهما اليمين من حيث صاروا مدعيين.

وقوله " أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم " يعني أهل الذمة يخافوا أن ترد أيمان على أولياء الميت فيحلفوا على خيانتهم فيفتضحوا ويغرما وينكشف بذلك للناس بطلان شهادتهم ويسترد منهم مأخذه بغير حق، حينئذ يؤديوا الشهادة على وجهها ويحذروا من الكذب.

وقوله " واتقوا الله واسمعوا " يعني اجتنبوا معاصيه واحذروا ان تحلفوا ايماننا كاذبة أوتخونوا أمانة واسمعوا مواعد الله " والله لايهدي القوم الفاسقين " يعني لايهدي الفاسقين - الذين خرجوا من طاعة الله إلى معصيته - إلى الجنة وقيل ان معنى " لايهدي " لايحكم للفاسقين بانهم مهتدين ولايجري عليهم مثل هذه الصفة لانها صفة مدح.
قوله تعالى:

يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لاعلم لنا إنك أنت علام الغيوب (١١٢) آية واحدة.
في ماينتصب به قوله " يوم "؟ قيل فيه ثلاثة أقوال:
أحدها - انه انتصب بمحذوف تقديره احذروا " يوم يجمع الله الرسل الثاني - اذكروا يوم يجمع الله.

الثالث - قال الزجاج: ينتصب بقوله " اتقوا الله ". وقال المغربي:
يتعلق بقوله " لايهدي القوم الفاسقين " إلى الجنة " يوم يجمع الله " ولا يجوز أن ينتصب على الظرف بهذا الفعل، لانهم لم يؤمروا بالتقوى في ذلك اليوم، لكن انتصب على انه مفعول به. واليوم لايتقى ولايحذر، وانما يتقى مايكون فيه من العقاب والمحاسبة والمناقشة كأنه قال اتقوا عقاب يوم، وحذف المضاف واقام المضاف اليه مقامه.

(٥٣)

وقوله " ماذا أجبتم " تقرير للرسل في صورة الاستفهام على وجه التوبيخ للمناققين عند اظهار فضيحتهم وهتك أستارهم على رؤوس الأشهاد.
وقول الرسل " لاعلم لنا " قيل فيه ثلاثة أقوال:
أولها - قال الحسن والسدي ومجاهد أنهم قالوا ذلك لذهولهم من هول ذلك المقام. فان قيل كيف يجوز ذهولهم مع انهم آمنون لا يخافون؟ كماقال " لا يحزنهم الفزع الاكبر " (١) وقال " لاخوف عليهم ولاهم يحزنون " (٢) قيل ان الفزع الاكبر دخول جهنم. وقوله " ولاخوف عليهم " هو كقولك للمريض لاخوف عليك، ولابأس عليك، مما يدل على النجاة من تلك الحال، وخالف أبوعلي في هذا ولم يجز الاما نحكيه عنه.
الثاني - قال ابن عباس، ومجاهد - في رواية أخرى - ان معناه لاعلم لنا إلا ما علمتنا فحذف لدلالة الكلام عليه.
الثالث - قال الحسن في رواية أخرى وابوعلي الجبائي: ان معناه لاعلم لنا بباطن ماأجاب به أممنا لن ذلك هو الذي يقع عليه الجزاء.

وقال بعضهم معناه لا علم لنا مع علمك أي ليس عندنا شيء مما نعلمه الا وانت عالم به وبكل ما غاب وحضر بدلالة قوله " إنك أنت علام الغيوب " وقيل في معنى قوله " انك أنت علام الغيوب " انه قال علام للبالغة هاهنا لالتكثير المعلوم.
قوله تعالى:

إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل وإذ

(١) سورة ٢١ الانبياء آية ١٠٣ (٢) سورة ٣ آل عمران آية ٧٠

(٥٤)

تخلق من الطين كهيئة الطير باذني فتتنفخ فيها فتكون طيراً باذني وتبرئ الاكمه والابرص باذني وإذ تخرج الموتى باذني وإذ كفت بني إسرائيل عنك إذ جنتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم وإن هذا إلا سحر مبين (١١٣) آية بلاخلاف.

قرأ حمزة والكسائي وخلف " ساحر " بألف هاهنا وفي أول سورة يونس، وفي هود، وفي الصف. وأفقه ابن عامر وعاصم في يونس.

وجه اتصال هذه الآية بما قبلها أنه من صعفة يوم القيامة كما ان ما قبله من صفتها ومن خطاب الرسل بالمسألة والتذكير بالنعمة لتوبيخ من يستحق التوبيخ من امهم وتبشير من يستحق البشارة منهم.

العامل في (إذ) يحتمل أحد أمرين: أحدهما - الابتداء عطفاً على قوله " يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم " قال وذلك " إذ قال " فيكون موضعه رفعا كما يقول القائل كأنك بنا قد وردنا بلد كذا فصنعنا فيه وفعلنا إذ صاح بك صائح فاجبته وتركتني.

الثاني - اذكر إذ قال الله. وقال بعضهم ان معناه ماذا أجبتم على عهد عيسى. قال الرماني: هذا غلط، لانه من صفة (يوم القيامة) وعندى لا يمتنع أن يكون المراد بذلك اخبار النبي (صلى الله عليه وآله) إذ قال الله لعيسى بن مريم إنك، أي أخبر قومك ما أنعمت به عليك وعلى أمك، واشكر ذلك إذ أيدتك بروح القدس. وروح القدس هو جبرائيل وحسن قوله " إذ قال " ولم يقل (يقول)

لانه عطف على ما قبله لانه قدم ذكر الوقت. وتأيد الله هو ما قواه به وأعانه على أمور دينه، وعلى رفع ظلم اليهود والكافرين عنه. ووزن " أيدتك " فعلتك من الايد على وزن قربتك. وقال الزجاج: يجوز أن يكون فاعلتك من الايد. وقرأ مجاهد: أيدتك على وزن أفعلتك من الايد. وروح القدس

(٥٥)

جبرائيل قال الحسن والقدس هو الله.

وقوله " تكلم الناس في المهد " أي انك تكلم الناس في حال ماكنت صبيا في المهد - والمهد حجر أمه، في قول الحسن - وفي حال ماكنت كهلا.

قال أبو علي فكان كلم الناس في هذين الوقتين بتبليغه إياهم ما أرسله الله به إلى عباده، وما يدعوهم إليه من طاعة الله وتصديق رسله، لانه كان بين لهم عند كلامه في المهد " اني عبدالله آتاني الكتاب وجعلني نبيا وجعلني مباركا أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا " (١) فبين لهم في هذا وفي وقت ما صار كهلا ان الله بعثه نبيا ولم يتكلم أحد من الانبياء في المهد سواه ولم يبعث أحد عندما ولد غيره، فنذكره هذه النعمة التي خصه بها ليشكره على ذلك.

ونصب قوله " كهلا " يحتمل أمرين:

أحدهما - على ان يكون عطفًا على موضع تكلم أي أيدتك صغيرا وكهلا.
الثاني - أن يكون عطفًا على موضع في المهد، أي وتكلمهم كهلا بالرسالة.
وقوله " واذا علمتكم الكتاب " يعني واذكر " اذ " . وقيل في معنى (الكتاب) قولان:
أحدهما - انه اراد الخط الكتابة.

الثاني - الكتب فيكون على طريق الجنس ثم فصله بذكر التوراة والانجيل.
وقوله " والحكمة " يعني العلم بما في تلك الكتب.

وقوله " واذا تخلق من الطين كهيئة الطير " أي واذكر ذلك أيضا كل ذلك تذكير له بنعمه عليه والخلق هو الفعل المقدر على مقدار يعرفه الفاعل، فعلى هذا جميع أفعاله تعالى توصف بأنها مخلوقة، لانه ليس فيها شئ على وجه السهو والغفلة، ولا على سبيل المجازفة. ومعنى ذلك أنه خلق من الطين كهيئة الطير أي تصور الطين بصورة الطير الذي تريد. وسماه خلقا لانه

(١) سورة ١٩ مريم آية ٣٠ - ٣٢.

(٥٦)

كان يقدره.

وقوله " باذني " أي تفعل ذلك باذني وأمري.

وقوله " فتنفخ فيها فتكون طيرا باذني " معناه انه نفخ فيها الروح، لان الروح جسم ويجوز أن ينفخها المسيح بامر الله. والطير يؤنث ويذكر فمن أنث أراد الجمع ومن ذكر فعلى اللفظ. والطير واحده طائر مثل ضائن وضأن وراكب وركب. وقد قالوا (أطيار) مثل صاحب وأصحاب وشاهد وأشهد، ويمكن أن يكون (أطيار) جمع طير مثل ثبت واثبات وبيت وبيات. قال أبو علي وقد ينفخها في الجسم على ما أخبر الله به جبرائيل، وعلى ماروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه يبعث اليه ملكا عند تمام مئة وعشرين يوما فينفخ فيه الروح ويكتب أجله ورزقه وشقي هو أم سعيد، وبين بقوله " فيكون طيرا باذني " أنه اذا نفخ المسيح (ع) فيها الروح قلبها الله لحما ودما، وخلق فيها الحياة فصارت طائرا باذن الله وإرادته لافعل المسيح (ع) فلذلك قال " فيكون طيرا باذني ".

وقوله " وتبرئ الاكمه والابرص باذني " معناه إنك تدعوني حتى أبرئ الاكمه، وهو الذي خلق أعمى. وقال الخليل: يكون الذي عمي بعد ان كان بصيرا والاصل الاول. والابرص معروف ونسب ذلك إلى المسيح لما كان بدعائه وسؤاله.

وقوله " وإذ تخرج الموتى باذني " أي اذكر اذ تدعوني فأحيي الموتى عند دعائك وأخرجهم من القبور حتى يشادهم الناس أحياء. وانما نسبه إلى عيسى لما بينا من أنه كان بدعائه. وقوله " واذ كففت بني اسرائيل عنك اذ جئتهم بالبينات " أي اذكر إذ كففت هؤلاء عن قتلك وإذ أيدتك حين جئتهم بالبينات مع كفرهم وعتوهم مع قولهم ان ماجئت به من الايات سحر مبين. ويجوز أن يكون كفهم بأطافه التي لا يقدر عليها غيره، ويجوز أن يكون كفهم بالمنع والقهر كما منع من أراد

(٥٧)

قتل نبيينا (صلى الله عليه وآله) وقيل لانه ألقى شبهه على غيره حتى قتلوه ونجا. ومن قرأ (ساحر) أراد أن عيسى ساحر مبين أي ظاهر بين. والسحر هو الباطل المموه بالحق. وقوله في أول الاية " اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك " إي اخبر بها قومك الذين كذبوا عليك ليكون حجة عليهم، لانهم ادعوا عليه أنه إله وأنه لم يكن عبدا منعما عليه، ثم عدد النعم نعمة نعمة على ما بينا. وقال الطبري: انما عدد الله تعالى هذه النعم على عيسى (ع) حين رفعه اليه فلذلك قال " إذ قال الله ".

قوله تعالى:

وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون (١١٤) آية.

التقدير واذكر إذ أوحيت إلى الحواريين. وفي معنى " أوحيت " قولان:

أحدهما - أن معناه الهمتهم كما قال " وأوحى ربك إلى النحل " (١) أي ألهمهاه وقيل أمرتهم.
الثاني - القيت اليهم بالآيات التي أريتهم إياها كما قال الشاعر:
الحمد لله الذي استقلت * باذنه السماء واطمأنت
أوحى لها القرار فاستقرت (٢)
أي القى إليها ويروى وحى لها. والفرق بين أوحى ووحى من وجهين:
أحدهما - أن أوحى بمعنى جعلها على صفة كقولك جعلها مستقرة، ووحى جعل فيها معنى
الصفة، لأن أفعل أصله التعديّة. وقال قوم: هما لغتان.
وقال البلخي معنى " أوحيت إلى الحواريين " أي أوحيت اليك أن تبلغهم أو إلى رسول متقدم.
وقوله (أوحيت اليهم) يعني أوحيت إلى الرسول الذي جاءهم. وفي معنى الآية قولان:

(١) سورة ١٦ النحل آية ٦٨ (٢) انظر ٢ / ٥٩

(٥٨)

أحدهما - قال أبو علي إذكر نعمتي عليك إذ أوحيت إلى الحواريين الذين هم أنصارك.
الثاني - اذكر نعمتي على الحواريين لما في ذلك من العلم بنعم الله خاصة وعامة. وانما حسن
الحذف في التذكير بالنعمة للشهرة وعظم المنزلة باجلال النعمة ولذلك يحسن الحذف في
الاقتخار كقول الاعشى:

إن محلا وان مرتحلا * وإن في السفر اذ مضوا مهلا (٣)

أي لنا محلا. و (الحواريون) قال الحسن هم أنصار عيسى. وقيل:

هم وزراؤه على أمره. وقيل: هم خاصة الرجل وخلصائه. ومنه قول النبي (صلى الله عليه وآله)
للزبير أنه حوارى، ومعناه خالصتي من الناس، والرفيق الحوارى، لانه أخلص اليه من كل
مايشوبه، وأصله الخلوص، ومنه حار يحور أي رجع إلى حال الخلوص، ثم كثر حتى قيل
صار لكل راجع وقيل:

انهم كانوا قصارين.

قوله تعالى:

إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال
انقوا الله إن كنتم مؤمنين (١١٥) آية بلاخلاف.

قرأ الكسائي والاعشى إلا النفار " هل تستطيع " بالثاء " ربك " بنصب الباء. الباقون بالياء
وضم الباء. وأدغم الكسائي اللام في التاء.

قيل في العامل في (إذ) قولان: أحدهما - أوحيت. الثاني - اذكر إذ قال الحواريون. وكلاهما
يحتمل.

وقيل في معنى قوله " هل يستطيع ربك " ثلاثة أقوال:

(٣) ديوانه القصيدة: ٣٥ صفحة ١٥٥.

(٥٩)

أحدها - هل يقدر وكان هذا في ابتداء أمرهم قبل أن تستحكم معرفتهم بالله تعالى، ومايجوز
عليه وما لايجوز من الصفات، ولذلك أنكر عليهم نبيهم، فقال " اتقوا الله ان كنتم مؤمنين "،
لأنه لم يستكمل إيمانهم في ذلك الوقت.

الثاني - هل يفعل ذلك قاله الحسن، كما يقول القائل: هل تستطيع أن تنهض أي هل تفعل، لان
المانع من جهة الحكمة أو الشهوة قد يجعل بمنزلة المنافي للاستطاعة.

الثالث - هل يستجيب لك ربك. قال السدي هل يطيعك ربك ان سألته، فهذا على معنى
استطاع وأطاع كقولهم استجاب بمعنى أجاب، وانما حكى سيويه استطاع بمعنى أطاع على
زيادة السين. ومعنى قراءة الكسائي " هل تستطيع " ان تستدعي اجابة ربك. وأصله هل
تستدعي طاعته فيما قبله من هذا - هذا قول الزجاج وفيه وجه آخر وهو هل تقدر أن تسأل
ربك.

والفرق بين الاستطاعة والقدرة أن الاستطاعة انطباع الجوارح للفعل والقدرة هي ماأوجبت
كون القادر قادرا ولذلك يوصف تعالى بأنه قادر، ولايوصف بانه مستطيع. والمائدة الخوان
لأنها تميد بماعليها أي تحركه.

قال أبو عبيدة: هي (مفعولة) في المعنى ولفظها (فاعلة) كقوله " عيشة راضية " (١) أي
مرضية واصل المائدة الحركة من قولهم ماد يמיד ميذا اذا تحرك، عن الزجاج. ومنه المائد
المدار به في البحر مايميد ميذا. وماده اذا أعطاه ومنه قول رؤبة:

نهدي رؤوس المترفين الانداد * إلى أمير المؤمنين الممتاد (٢)

أي المستعطي ومادهم يميدهم ميذا اذا اطعمهم على المائدة ثم كثر حتى

(١) سورة ٦٩ الحاقة آية ٢١ وسورة ١٠١ القارعة آية ٧ (٢) ديوانه: ٤٠ ومجاز القرآن ١: ١٨٣، واللسان
(ميد).

(٦٠)

قيل لكل مطعم. وقوله " قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين " معناه اتقوا معاصيه وكثرة سؤال الآيات، لانكم ان كنتم مؤمنين بالله وبصحة نبوة عيسى، فقد أغناكم ما عرفتموه عن الآيات واتقوا سؤال نزول المائدة، فانكم لاتعلمون مايفعل الله بكم عند هذا السؤال. قوله تعالى:

قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين (١١٦) آية.

قبل في معنى (الارادة) هاهنا قولان:

أحدهما - ان يكون بمعنى المحبة التي هي ميل الطباع.

الثاني - ان تكون الارادة التي هي من أفعال القلوب، ويكون التقدير فيه نريد بسؤالنا هذا، كأنهم قالوا: نريد السؤال من أجل هذا الذي ذكرنا، وهذه الارادة وان تقدمت المراد بأوقات لاتوصف بأنه عزم، لانها متعلقة بفعل الغير وقوله " تطمئن قلوبنا " يجوز أن يكونوا قالوه وهم مستبصرون في دينهم مؤمنون كما قال ابراهيم (ع) " أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي " (١) تحقيقه لنزداد طمأنانية إلى ما نحن عليه من المعرفة، وان كانت المعرفة لاتكون إلا مع الثقة التامة، فان الدلائل كلما كثرت مكنت في النفس المعرفة.

وقوله " ونعلم ان قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين " يعني الشاهدين له بتوحيده بالدليل الذي نراه في المائدة والشهادة لك بالنبوة من جهة ذلك الدليل. والصدق هو الاخبار بالشئ على ما هو به والكذب هو الاخبار بالشئ لاعلى ما هو به.

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٦٠

(٦١)

قوله تعالى:

قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين (١١٧) آية بلاخلاف.

أخبر الله تعالى عن عيسى (ع) أنه سأل ربه أن ينزل عليه مائدة من السماء تكون عيدا لهم لأولهم وآخرهم على مايقترحه قومه. ورفع (تكون) لانه صفة للمائدة كما قال " فهب لي من لدنك وليا يرثني " (٢) في قراءة من رفعه لانه جعله صفة. وفيه محذوف، لان تقديره عيدا لنا ولاولنا وآخرنا لتصح الفائدة في تكرير اللام في أولنا وآخرنا، وقيل في معناه قولان:

أحدهما - نتخذ اليوم الذي تنزل فيه عيداً نعظمه نحن ومن يأتي بعدنا - في قول السدي وقتادة وابن جريج - وهو قول أبي علي.

الثاني - يكون ذلك عائدة فضل من الله ونعمة منه تعالى. والاول هو وجه الكلام. وقيل: إنها نزلت يوم الاحد. وقوله " وآية منك " فالآية هي الدلالة العظيمة الشأن في إزعاج قلوب العباد إلى الاقرار بمدلولها، والاعتراف بالحق الذي يشهد به ظاهرها، فهي دلالة على توحيدك وصحة نبوة نبيك. وقيل في طعام المائدة ثلاثة أقوال:

أولها - قال ابن عباس وأبو عبدالرحمن: هو خبز وسمك، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبدالله (ع) قال عطية كانوا يجدون في السمك طيب كل طعام.

(٢) سورة ١٩ مريم آية ٤ - ٥

(٦٢)

الثاني - قال عمار بن ياسر: كانا ثمرًا من ثمار الجنة.

الثالث - قال زاذان وابوميسرة: كان عليها من كل طعام إلا اللحم.

وقوله: " وارزقنا " قيل في معناه - قولان:

أحدهما - واجعل ذلك رزقًا لنا.

الثاني - وارزقنا الشكر عليها - ذكرهما الجبائي - وانما يكون الشكر رزقًا منه لنا لانه لطف

فيه ووفق له وإعانة عليه كما يكون المال رزقًا لنا اذا ملكنا إياه لا بخلقه له.

وفي الآية دلالة على أن العباد يرزق بعضهم بعضًا بدلالة قوله " وأنت خير الرازقين " لانه لو

لم يصح ذلك لم يجز (خير الرازقين) كما أنه لما لم يجز أن يكونوا آلهة لم يصح أن يقول أنت

خير الالهة، وصح " أرحم الراحمين " (٢) و " أحكم الحاكمين " (٣) و " أسرع الحاسبين "

(٤).

و " أحسن الخالقين " (٥).

قوله تعالى:

قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فاني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدًا من العالمين

(١١٨) آية بلاخلاف.

قرأ " منزلها " بالتشديد أهل المدينة وابن عامر، وعاصم. الباقون بالتخفيف.

(٢) سورة ٧ الاعراف آية ١٥٠ وسورة ٢١ الانبياء آية ٨٣ وسورة ١٢ يوسف آية ٦٤ و ٩٢.

(٣) سورة ١١ هود آية ٤٥ وسورة ٩٥ التين آية ٨.

(٤) سورة ٦ الانعام آية ٦٢ .

(٥) سورة ٢٣ المؤمنون آية ١٤ وسورة ٣٧ الصافات آية ١٢٥

(٦٣)

من خفف طابق بينه وبين قوله " أنزل علينا " ومن ثقل، فلان نزل وأنزل بمعنى قال تعالى " تبارك الذي نزل الفرقان " (١). وقال " الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب " (٢) لما سئل الله عيسى (ع) أن ينزل عليه المائدة تكون عيدا لأولهم وآخرهم، قال تعالى مجيبا له إلى ما التمسه " اني منزلها عليكم " يعني المائدة " فمن يكفر بعد منكم " يعني بعد إنزالها عليكم " فاني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين " وقيل في معناه ثلاثة أقوال:

أحدها - قال قتادة: مسخوا قرده وخنزير، وهو المروي عن أبي عبدالله (عليه السلام) ولم يمسح أحد خنازير سواهم.

الثاني - أنه أراد به من عالمي زمانهم.

الثالث - أنه أراد به جنسا من العذاب لا يعذب به أحدا غيرهم. وانما استحقوا هذا النوع من العذاب بعد نزول المائدة (٣) لانهم كفروا بعدما رؤوا الآية التي هي من أزجر الايات عن الكفر لم يرها غيرهم بعد سؤالهم لها وتعلق سببهم بها فاقتضت الحكمة اختصاصهم بضرب من العذاب عظيم الموقع.

كما اختصت آيتهم بضرب من الزجر في عظيم الموقع. وقال الحسن ومجاهد:

ان المائدة لم تنزل عليهم، لانهم استعفوا من نزولها لما سمعوا الوعيد المقرون بها. وقال قوم: هذا غلط من قائله، لانه تعالى وعد بانزالها ولاخلاف لقوله وأكثر أهل العلم على أنها أنزلت: منهم ابن عمر، وعمار بن ياسر وأبو عبدالرحمن السلمي، وقتادة والسدي، وهو ظاهر القرآن. وأيضا فلايجوز أن يسأل نبي على رؤوس الملا آية لايجاب اليها، لان ذلك ينفرد عنه. وقال

(١) سورة ٢٥ الفرقان آية ١ (٢) سورة ١٨ الكهف آية ١ (٣) يقصد بعد نزول المائدة على بنى اسرائيل (الطعام) لانزول سورة المائدة.

(٦٤)

الحسن: انما كان الوعد من الله بانزال المائدة بشرط أن يكون بتقديراني منزلها عليكم ان تقبلتم الوعيد فيها " فمن يكفر بعد منكم.. " الآية، وهذا الشرط الذي ذكره لادليل عليه. والمطلق لا يحمل على المقيد الا بقريئة وقال قوم: انها لو نزلت فكفروا لعذبوا وأنزل ذلك في القرآن ولو لم يكفروا لكانت المائدة قائمة للمسلمين إلى يوم القيامة. وهذا ليس بصحيح لانه يجوز أن

يكون عنى بالعذاب مايفعله بالاخرة. ويجوز أن يكون عنى عذاب الدنيا ولم يذكره، لانه ليس بواجب أن يكون كل من اختصه بضرب من العذاب لايد أن يخبرنا عنه في القرآن، لانه يكون تجويز ذلك على منازل عظيمة في الجملة أهول وأملا للصدر من ذكره بالتصريح على تفصيل أمره.

وأما بقاؤها إلى يوم القيامة فلا يلزم لان وجه السؤال أن يكون يوم نزولها عيدا لهم ولمن بعدهم ممن كان على شريعتهم.
قوله تعالى:

وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب (١١٩) آية بلاخلاف قوله " واذ كففت بني اسرائيل عنك اذ جنّتهم بالبينات " أي اذكر ويحتمل ثلاثة أوجه:

أولها - أن يكون معطوفا على ما قبله، كأنه قال " يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم " ثم قال: وذلك؟ يقول يا عيسى اذكر نعمتي واذ يقول له أنت قلت للناس.

(٦٥)

الثاني - قال البلخي: يمكن أن يكون لما رفع الله عيسى إليه قال له ذلك، فيكون المقال ماضيا. والثالث - ذكره أيضا البلخي أن (إذ) استعملت بمعنى) إذا فيصح حينئذ أن يكون القول من الله يوم القيامة، ومثله " ولو ترى اذفرعوا فلا فوت " (١) كأنه قال اذ يفرعون، وقال " ولو ترى اذ الظالمون موقوفون " (٢)

كأنه قال اذا وقفوا لان هذا لم يقع بعد، وقال أبو النجم:

ثم جزاه الله عنا اذ جزا * جنات عدن في العلالى العلا (٣)

والمعنى اذا جرى، وقال الاسود (أعشى بني نهشل)

فالان اذ هزلتهن قائما * يقلن ألا لم يذهب المرء مذهباً (٤)

وقال أوس:

الحافظ الناس في تحوط اذا * لم يرسلوا تحت مائد ربحا

وهبت الشامل الليل واذا * بات كميع الفتاة ملتقعا (٥)

يقال (اذا) و (اذ) بمعنى واحد، وقال بعض أهل اليمن:

وندمان يزيد الكأس طيبا * سقيت اذا تغورت النجوم (٦)

فقال (إذا) والمعنى (اذ) لانه انما يخبر عما مضى. وقال أبو عبيدة (اذ) صلة. والمعنى قال الله: ياعيسى. وقد بينا فساد هذا القول فيما مضى فأما لفظ (قال) في معنى يقول فمستعمل كثيرا وان كان مجازا، قال الله تعالى

-
- (١) سورة ٣٤ سبأ آية ٥١ (٢) سورة ٣٤ سبأ آية ٣١ (٣) اللسان (اذ)، (طها). والاضداد لابن الانباري: ١٠٢ وتفسير القرطبي ٦: ٣٧٥ وتفسير الطبري ١١: ٢٣٥.
(٤) ديوان الاعشيين / ٢٩٣ والاضداد لابن الانباري ١٠١.
(٥) اللسان (اذ).
(٦) اللسان (ندم). قائله البرج بن مسهر اليميني.

(٦٦)

" ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار " (١) والمراد ينادي. وقد استعمل المستقبل بمعنى الماضي، قال زياد الاعجم في المغيرة بن المهلب يرثيه بعد موته: فاذا مررت بقبره فانحر به * خوص الركاب وكل طرف سابح وانضح جوانب قبره بدمائها * فلقد يكون أخادم وذبائح (٢) فقال (يكون) ومعناه (كان) لدلالة الكلام عليه، لانه في مريثية له بعد موته. وقوله " ياعيسى بن مريم " يحتمل عيسى أن يكون منصوبا مثل ماتقول: يازيد بن عبدالله، وهو الاكثر في كلام العرب. وانما يجوز ذلك اذا وقع الابن بين علمين، فأما اذا قلت يازيد ابن الرجل لم يجز في زيد إلا الضم. ويحتمل أن يكون عيسى في موضع الضم ويكون نداء (ابن) كأنه قال ياعيسى يابن مريم.

وقوله " أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله " تقرير في صورة الاستفهام والمراد بذلك تقرير وتهديد من ادعى ذلك، لانه تعالى كان عالما بذلك هل أو لم يكن. ويحتمل وجها آخر - ذكره البلخي ان الله تعالى أراد أن يعلم عيسى أن قومه اعتقدوا فيه وفي أمه أنهما إلهان كما أن الواحد منا اذا أرسل رسولا إلى قوم أن يفعلوا فعلا فأدى الرسالة وانصرف فخالفوا ذلك وعلم المرسل ولم يعلم الرسول جاز أن يقول المرسل للرسول:

أأنت أمرتهم بذلك؟ وغرضه أن يعلمه أنهم خالفوه. وانما قال (إلهين) تغليبا للذكر على الانثى. والغرض بالكلام أن النصارى يعتقدون في المسيح أنه صادق لا يكذب وأنه الذي أمرهم بأن يتخذوه وأمه إلهين، فاذا كذبهم الصادق عندهم الذي ينسبون الامر به اليه كان ذلك أكد في الحجة عليهم وأبلغ في التوبيخ لهم والتوبيخ ضرب من العقوبة. وقيل في قوله تعالى " الهين "

(١) سورة ٧ الاعراف آية ٤٣ (٢) الاغاني ١٥: ٣٠٨ ورواية البيت الاول:

(٦٧)

ثلاجة أوجه:

أحدها - أنهم لما عظموها تعظيم الالهة أطلق ذلك عليهما كما قال " اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله " (١) وانما أراد تقريرهم على معصيتهم.

والثاني - انهم جعلوه إلهًا وجعلوا مريم والدة له ميزوها من جميع البشر تمييزا شابته الالهية وأطلق ذلك، لانه مستخرج من قصدهم. وان لم يكن صريح ألفاظهم، على طريقة الالزام لهم.

الثالث - انهم لما سموه إلهًا وعظموها هي، وكانا مجتمعين سماهما إلهين على طريقة العرب كقولهم: القمران للشمس والقمر، والعمران لابي بكر وعمر قال الشاعر:

جزاني الزهدمان جزاء سوء * وكنت المرء يجزى بالكرامة (٢)

يريد زهدما وقيسا ابني حزن القيسين، وهذا كثير، وذكر لي بعض النصارى الذي قرأ كتب النصارى عن جاثليق لهم لم يكن في زمانة مثله:

أنه سأله عن هذا فقال: كنت شاكا في ذلك إلى أن قرأت في كتاب ذكره أن فيما مضى كان قوم يقال لهم المريمية كانوا يعتقدون في مريم أنها آلهة، فعلى هذا القول أقرب. وورد كما قلناه في الحكاية عن اليهود أنهم قالوا: عزيز ابن الله. وقد ذكرناه في سورة التوبة.

وقوله " سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق " معناه أنزهك أن يكون معك الهة وأن يكون للاشياء إله غيرك، واعترف بأنه لم يكن لي أن أقول هذا القول. وقوله " إن كنت قلتة فقد علمته " أي لم أقله لاني لو كنت قلتة لماخفي عليك إذ كنت علام الغيوب. وقوله " تعلم مافي نفسي ولا أعلم مافي نفسك " أي تعلم غيبي ولا أعلم غيبك، لان مافي نفس عيسى وما

(١) سورة ٩ التوبة آية ٣٣.

(٢) اللسان (زهدم) نسبة إلى قيس بن زهير.

(٦٨)

في قلبه هو ما يغيبه عن الخلق، وانما يعلمه الله، وسمي ما يختص الله بعلمه بأنه في نفسه على طريق الازدواج في الكلام كما قال " ومكروا ومكر الله " (١)

" والله يستهزئ بهم " (٢) ويخادعون الله وهو خادعهم " (٣) " وجزاء سيئة سيئة مثلها " (٤) " وان عاقبتهم فعاقبوا " (٥) وكل ذلك وجه ازدواج الكلام، ويقوى هذا التأويل قوله " إنك أنت

علام الغيوب " لانه علل أنه انما يعلم مافي نفس عيسى، لانه علام الغيوب، وعيسى ليس كذلك، فلذلك لم يعلم ما يختص الله بعلمه.

والنفس في اللغة على ضروب: أحدها - نفس الانسان التي بهأحياته، يقولون خرجت نفسه أي روحه وفي نفسى أن افعل أي في روعي. وثانيها أن نفس الشئ ذات الشئ يقولون: قتل فلان نفسه أي ذاته، وعلى هذا حمل قوله " ويحذركم الله نفسه " (٦) أي ذاته وقيل عذابه. والنفس الهم بالشئ كما يحكى أن سائلا سأل الحسن فقال: ان لي نفسين احدهما تقول لي حج، والاخر تزوج، فقال الحسن: النفس واحدة وانما لك هما هم بكذا وهم بكذا والنفس الانفة كقولهم: ليس لفلان نفس أي لأنفة له، والنفس الارادة يقولون نفس فلان في كذا أي ارادته قال الشاعر:

فنفساي نفس قالت انت ابن بحدل * تجد فرجا من كل غمى تهابها ونفس تقول أجهد نجاءك ولا تكن * كخاضبة لم يغن عنها خضابها (٧)

والنفس أيضا العين التي تصيب الانسان يقال أصابت فلانا نفس أي عين ومنه قوله (صلى الله عليه وآله) في رقيا (بسم الله أرقيك والله يشفيك من كل عاهة فيك من كل عين عاين ونفس نافس وحسد حاسد) وقال عبيدالله بن قيس الرقيات:

(١) سورة ٣ آل عمران آية ٥٤ (٢) سورة ٢ البقرة آية ١٥ (٣) سورة ٤ النساء آية ١٤١ (٣) سورة ٤٢ الشورى آية ٤٠ (٥) سورة ١٦ النحل آية ١٢٦ (٦) سورة ٣ آل عمران آية ٢٨، ٣٠ (٧) اللسان (نفس).

(٦٩)

تنقي نفسها النفوس عليها * فعلى نحرها الرقى والتميم
وقال ابن الاعرابي: النفوس التي تصيب الناس بالنفس، والنفس أيضا من الدباغ مقدار الدبغة.
قوله تعالى:

ماقلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيذا مادمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شئ شهيد (١٢٠) آية بلاخلاف هذا اخبار عن عيسى (ع) أنه يقول لله تعالى في جواب ماقرره عليه اني لم أقل للناس الا ما أمرتني به، من الاقرار لك بالعبودية وأنك ربي وربهم وإلهي والهمم، وأمرتهم بأن يعبدوك وحدك ولا يشركوا معك في العبادة.

وقال: اني كنت شهيدا أي شاهدا عليهم مادمت فيهم بما شاهدته منهم وعلمته وبما بلغتهم من رسالتك التي حملتنيها وأمرتني بأدائها اليهم مادمت حيا بينهم " فلما توفيتني " أي قبضتني اليك وأمتني " كنت أنت الرقيب عليهم " والرقيب هو الذي يشاهد القوم ويرقب ما يعملون ويعرف ذلك، ثم اعترف بأنه تعالى " على كل شئ شهيد " لانه عالم بجميع الاشياء لا يخفى عليه خافية

ولا يغيب عنه شيء فهو يشهد على العباد بكل ما يعملونه. وفي اخباره تعالى عن المسيح أنه نفى القول الذي أدعوه عليه تأكيداً لتبكيك النصارى وتكذيب لهم وتوبيخ على ما ادعوه من ذلك عليه. قال الجبائي وفي الآية دلالة على انه تعالى أمات عيسى (ع) وتوفاه عندما رفعه، لأنه بين انه كان شهيدا عليهم. وتوفيه اياه بعد ان كان بينهم انما كان عند رفعه اياه إلى السماء عندما أرادوا قتله. وعندى أن الذي ذكره لا يدل على أنه أماته، لأن التوفي هو القبض اليه ولا يستفاد منه الموت الا بشاهد الحال. ولذلك قال تعالى " الله يتوفي الانفس حين موتها

(٧٠)

والتي لم تمت في منامها " (١) فبين انه يتوفى التي لم تمت فنفس التوفي لا يفيد الموت بحال. وقوله " أن اعبدوا الله " يجوز أن تكون (أن) بمعنى (أي) مفسرة في قول سيبويه، كما قال " وانطلق الملا منهم أن أمشوا (٢) أي أمشوا، لانها مفسرة لما قبلها. والمعنى ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن أعبدوا الله. ويجوز أن تكون (أن) في موضع خفض على البدل من الهاء وتكون (أن) موصولة ب (أعبدوا الله). ومعناه الا ما أمرتني به بأن يعبدوا الله، ويجوز أن تكون موضعها نصبا على البدل من (ما) والمعنى ما قلت لهم شيئاً الا أن أعبدوا الله، أي ما ذكرت لهم لإعبادة الله. وقوله " أن اعبدوا الله ربي وربكم " شاهد بلفظ الانجيل فانه ذكر في الفصل الرابع من انجيل لوقا، قال المسيح:، مكتوب أن اسجد لله ربك وإياه وحده فأعبد، وهذا لفظه وهو صريح التوحيد. قوله تعالى:

إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم (١٢١) آية بلاخلاف. ظاهر هذه الآية يدل على أن عيسى لم يكن أعلمه الله أن الشرك لا يغفر على كل حال، فلذلك قال " ان تعذبهم فانهم عبادك " الذين كفروا بك وجحدوا إلهيتك وكذبوا رسلك " وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم ".

وقال البلخي: ان عيسى (ع) أخبر أنه لا علم له بما صنعوا بعده من الكفر به حتى قيل له: ماذا أجبت؟ قال لا علم لي، ثم قال: ان كانوا كفروا فعذبتهم فهم عبادك وان كانوا ثبتوا على ما دعوتهم اليه أو تابوا من كفرهم

(١) سورة ٣٩ الزمر آية ٤٢.

(٢) سورة ٣٨ ص آية ٦.

(٧١)

فغفرت لهم فأنت العزيز الحكيم.

ومن ذهب إلى أن قول الله " يا عيسى بن مريم أنت قلت للناس " إخبار عما مضى وأن الله قال ذلك عندما رفعه إليه، قال: إنما عنى عيسى أن تعذبهم بمقامهم على معصيتك فإنهم عبادك وإن تغفر لهم بتوبة تكون منهم، لأن القوم كانوا في الدنيا لأن عيسى لم يشك في الآخرة أنهم مشركون. وقد أنطقت التوبة، وإنما قال ذلك في الدنيا وجعل قول الله تعالى " هذا يوم ينفخ الصادقين صدقهم " جوابا للرسول حين سألهم ماذا أجبتهم " قالوا لا علم لنا " فصدقهم الله في ذلك. ومثل ذلك قال عمرو ابن عبيد والجبائي والزجاج وكلهم شرط التوبة. وهذا الذي ذكره ترك للظاهر وزيادة شرط في ظاهرها ليس عليه دليل. وقوله " ان الله لا يغفر ان يشرك به " (١) إنما هو اخبار لامة نبينا بأن لا يغفر الشرك ولانعلم ان مثل ذلك أخبر به الامم الماضية فلا متعلق بذلك. ويمكن أن يكون الوجه في الآية مع تسليم ان كان عارفا بأن الله لا يغفر أن يشرك به وأنه أراد بذلك تفويض الامر إلى مالكة وتسليمه إلى مدبره والتبري من أن يكون له شيء من أمر قومه، كما يقول الواحد منا اذا تبرء من تدبير أمر من الامور ويريد تفويضه إلى غيره: هذا الامر لامدخل لي فيه فان شئت أن تفعله وان شئت ان تتركه مع علمه ان أحدهما لا يكون منه.

وقوله " فانك أنت العزيز الحكيم " معناه انك القادر الذي لا يغالب وأنت حكيم في جميع أفعالك فيما تفعله بعبادك و وقيل معناه " انك أنت العزيز " القدير الذي لا يفوتك مذنب ولا يمتنع من سطوتك مجرم " الحكيم " فلا تضع العقاب والعفو الا موضعهما. ولو قال: الغفور الرحيم كان فيه معنى الدعاء لهم والتذكير برحمته، على أن العذاب والعفو قد يكونان غير صواب ولا حكمة فالاطلاق لا يدل على الحكمة والحسن. والوصف بالعزيز الحكيم يشتمل على العذاب والرحمة اذا كانا

(١) سورة النساء آية ٤٧، ١٥١.

(٧٢)

صوابين. وقال الحسين بن علي المغربي رأيت على باب بمصر في موضع يقال له (بيطار بلال) معروف لوحا قديما من ساج عليه هذا العشر وفيه (فانك أنت الغفور الرحيم) وتاريخ الدار سنة سبعين من الهجرة أو نحوها ولعلها باقية إلى اليوم.

فان قيل قول عيسى ان تعذبهم فأنت عبادك يدل على ان الله تعالى له أن يعاقب عبده من غير جرم كان منهم لانه علل حسن ذلك بكونهم عبيدا لا بكونهم عصاة، وذلك خلاف ماتذهبون اليه؟ قلنا: لا يجوز ان يريد عيسى (ع) بكلامه ما يدل على أن الفعل على كونه غير جائز عليه

تعالى. ولا يحسن منه تعالى أيضا أن يترك انكار ذلك فلما عملنا أن الله تعالى لا يجوز أن يعاقب خلقه من غير معصية سبقت منهم من حيث كانا ذلك ظلما محضا، علمنا ان عيسى أراد بقوله ذلك " ان تعذبهم فانهم عبادك " الجاحدون لك المتخذون معك إليها غيرك لان ماتقدم من الكلام دل عليه فلم يحتج ان يذكره في اللفظ فبطل ماتوهموه.
قوله تعالى:

قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم (١٢٢) لله ملك السموات والارض وما فيهن وهو على كل شئ قدير (١٢٣) آيتان بلاخلاف.
قرأ " يوم ينفع " بفتح الميم نافع. الباقيون بضمها.
من رفع (يوما) جعله خبر المبتدأ الذي هو (هذا) وأضاف (يوما) إلى (ينفع). والجملة التي هي من المبتدأ والخبر في موضع نصب بأنه مفعول القول، كما تقول: قال زيد عمر أخوك. ومن نصب احتمل أمرين:

(٧٣)

أحدهما - ان يكون مفعول قال وتقديره قال الله هذا القصص، وهذا الكلام " يوم ينفع الصادقين " فيوم ظرف للقول (وهذا) اشارة إلى ماتقدم ذكره من قوله: " اذ قال الله يا عيسى بن مريم " وجاء على لفظ الماضي وان كان المراد به المستقبل، كما قال " ونادى أصحاب الجنة اصحاب النار " (١)
ونحو ذلك على ما بيناه. وليس ما بعد (قال) حكاية في هذا الوجه كما كان إياها في الوجه الاخر.

ويجوز ان يكون المعنى على الحكاية وتقديره قال الله تعالى " هذا يوم ينفع " أي هذا الذي أقتصصنا. به يقع أو يحدث يوم ينفع، ف " يوم " خبر المبتدأ الذي هو (هذا) الامر اشارة إلى حدث. وظروف الزمان تكون اخبارا عن الاحداث. والجملة في موضع نصب بأنها في موضع مفعول، قال الفراء: (يوم) منصوب لانه مضاف إلى الفعل وهو في موضع رفع بمنزلة (يومئذ) مبني على الفتح في كل حال، قال الشاعر:

على حين عاتبت المشيب على الصبا * فقلت ألما تصح والشيب وازع (٢)

قال الزجاج هذا خطأ عند البصريين، لانهم لا يجيزون هذا يوم أتيتك، يريدون هذا يوم أتيتك، لان (أتيتك) فعل مضارع فالإضافة إليه لا يزيل الاعراب عن جهته، ولكنهم يجيزون (ذلك يوم

يقع زيد أصدقته) لان الفعل الماضي غير مضارع للمتمكن فهي اضافة إلى غير متمكن والى غير مضارع المتمكن ويجوز (هذا يوم) منونا (ينفع الصادقين) على إضمار هذا يوم ينفع

(١) سورة الاعراف آية ٤٣ .

(٢) قائله النابغة. ديوانه: ٣٨ ومعاني القرآن ١: ٣٢٧، وسيبويه ١: ٣٦٩ فيه الصادقين صدقهم كقوله: " وأتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس شيئا " والمعنى لاتجزى فيه، وقال الشاعر:

(٧٤)

وما الدهر الا تارتانا فمئنا * أموت وأخرى ابتغي العيش اكدح (١)
والمعنى فمئنا تارة أموت فيها.

وقوله " قال الله هذا يوم ينفع الصادقين " يعني يوم القيامة، ودل على أن قول الله للمسيح " أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله " يكون يوم القيامة، ثم بين ان الصادقين ينفعهم صدقهم وهو ما صدقوا فيه في دار التكليف، لان يوم القيامة لا تكليف فيه على أحد، ولا يخبر أحد فيه الا بالصدق، ولا ينفع الكفار صدقهم الذي يقولونه يوم القيامة اذا أقروا على أنفسهم بسوء أعمالهم، ثم بين ان " لهم جنات تجري من تحتها الانهار "، وأنهم " خالدون فيها أبدا " في نعيم مقيم لا يزول، وان الله قد " رضى عنهم ورضوا " هم عن الله وبين ان ذلك " هو الفوز العظيم " وهو ما يحصلون فيه من الثواب والنجاة من النار، ثم قال تعالى: " لله ملك السماوات والارض وما فيهن " يعني ان ملك السماوات والارض وما بينهما له بالقدرة على التصرف فيهما وفيما بينهما على وجه ليس لاحد منعه منه ولا معارضته فيه خاصة، ثم بين انه تعالى: " على كل شئ قدير " مما كان ويكون مما يصح ان يكون مقدورا له.

(١) قائله ابن مقبل. اللسان " كدح " .

(٧٥)

٦ - سورة الانعام قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم: ان سورة الانعام مكية. وقال يزيد بن رومان بعضها مكي وبعضها مدني. وقال شهر بن خوشب: هي مكية إلا آيتين منها قوله تعالى: " قل تعالوا اتل عليكم ما حرم " والتي بعدها. وروى عن ابن عباس انه قال نزلت سورة الانعام جملة بمكة معها سبعون الف ملك محدقون حولها بالتسبيح والتهليل والتحميد وهي مئة وخمس وستون آية كوفى وست في البصري وسبع في المدنيين. وروى عن ابن عباس أيضا انه قال هي مكية غير ست آيات منها فانها مدنيات. " قل تعالوا اتل " وآيتان

بعدها وقوله " وماقدروا الله حق قدره " إلى آخرها والاية التي بعدها " ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال اوحى.. " إلى آخرها. وروي عن أنس بن مالك انه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): ما نزل علي سورة من القرآن جملة غير سورة الانعام وما جمعت الشياطين لسورة من القرآن جمعها لها ولقد بعث بها الي مع جبرائيل مع خمسين ملكا، أو قال خمسين الف ملك - شك الواقدي - نزل بها وتحفها حتى أقر - ها في صدري كما يقر الماء في الحوض وقد اعزني الله واياكم بهاعزا لا يذلنا بعده ابدا فيها دحض حجج المشركين ووعد من الله لا يخلفه. وروي عن الاحبار انه قال: افتتحت التوراة بالحمد لله الذي خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون. وختمت بالحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك إلى آخر الاية.

بسم الله الرحمن الرحيم ألحمد لله الذي خلق السموات والارض وجعل الظلمات

(٧٦)

والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون (١)

آية في الكوفي والبصري، وأيتان في المدنيين، قوله " والنور " آخر آية أخبر الله تعالى في هذه الاية أن المستحق للحمد من خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور أي خلقهما لما أشتملا عليه من عجائب الخلق وامتقن الصنع. ثم عجب ممن جعل له شركاء مع ماتري في السموات والارض من الدلالة على أنه الواحد الذي لا شريك له، وقد بينا فيما تقدم وجه دلالة ذلك على أنه واحد ليس باثنين. وقوله " بربهم يعدلون " أي يجعلون له مثلا يستحق العبادة مأخوذ من قولك: لا أعدل بفلان أحدا، أي لانظير له عندي ولا أحد يستحق ما يستحقه. قال الكسائي: يقال عدلت الشيء بالشئ أعدله عدولا اذا ساويته، وعدل في الحكم يعدل عدلا. وقال الحسن ومجاهد:

معنى يعدلون يشركون.

وانما ابتدأ تعالى هذه السورة بالحمد احتجاجا على مشركي العرب، وعلى من كذب بالبعث والنشور فابتدأ، فقال " الحمد لله الذي خلق السموات والارض " فذكر أعظم الاشياء المخلوقة، لأن السماء بغير عمد ترونها، والارض غير مائدة بنا. ثم ذكر الظلمات والنور، وذكر الليل والنهار، وهما مما به قوام الخلق. فأعلم الله تعالى أن هذه خلق له، وأن خالقها لاشئ مثله.

وروي عن أبي عبدالله (ع) أنه قال: ان الانعام نزلت جملة، وشيعها سبعون الف ملك حين أنزلت على رسول الله (صلى الله عليه وآله) فعظموها، وبجلوها، فان اسم الله تعالى فيها في سبعين موضعا. ولو يعلم الناس مافي قراءتها من الفضل ماتركوها.

قوله تعالى:

هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده

(٧٧)

ثم أنتم تموتون (٢) آية بلاخلاف.

معنى قوله " هو الذي خلقكم " أي انشأكم، وأخترعكم " من طين " ومعناه خلق أباكم - الذي هو آدم وانتم من ذريته، وهو بمنزلة الاصل لنا - من طين، فلما كان أصلنا من الطين جازان يقول " خلقكم من طين " .

وقوله " ثم قضى " معناه حكم بذلك. والقضاء يكون حكما، ويكون أمرا ويكون الاتمام والاكمال.

وقوله " أجلا وأجل مسمى عنده " قيل في معناه قولان:

أحدهما - قال ابو علي: كتب للمرء أجلا في الدنيا، وحكم بأنه أجل لنا، وهو الاجل الذي يحيى فيه أهل الدنيا إلى أن يموتوا، وهو أوقات حياتهم، لان أجل الحياة، هو وقت الحياة، وأجل الموت هو وقت الموت " وأجل مسمى عنده " يعني آجالكم في الآخرة، وذلك أجل دائم ممدود لا آخر له، وانما قال له " مسمى عنده "، لانه مكتوب في اللوح المحفوظ، في السماء وهو الموضوع الذي لا يملك فيه الحكم على الخلق سواه.

وقال الزجاج: أحد الاجلين أجل الحياة، وهو الوقت الذي تحدث فيه الحياة، ويحيون فيه " وأجل مسمى عنده " يعني أمر الساعة والبعث. وبه

قال الحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك. وقال بعضهم:

" قضى أجلا " يعني أجل من مضى من الخلق " وأجل مسمى عنده " أجل الباقيين والذي نقوله: " ان الاجل هو الوقت الذي تحدث فيه الحياة أو الموت ولا يجوز ان يكون المقدر أجلا، كما لا يجوز أن يكون ملكا، فان سمي - ما يعلم الله تعالى أنه لولم يقتل فيه لعاش اليه - أجلا، كان ذلك مجازا، لان الحي لا يعيش اليه. ولا يمتنع أن يعلم الله من حال المقتول أنه لولم يقتله القاتل لعاش إلى وقت آخر. وكذلك ماروي: أن الصدقة وصلة الرحم تزيد في الاجل، وماروي في قصة قوم يونس وأن الله صرف عنهم العذاب، وزاد

(٧٨)

في آجالهم، لا يمنع منه مانع، وانما منع من التسمية لما قلناه.

وقوله: " ثم أنتم تمترون " خطاب للكفار الذين يشكون في البعث والنشور. احتج الله بهذه الآية على الذين عدلوا به غيره، فأعلمهم انه خلقهم من طين، ونقلهم من حال إلى حال، وقضى عليهم الموت، فهم يشاهدون ذلك، ويقرون بأنه لامحيص منه. ثم عجبهم من امترائهم أي من شكهم في انه الواحد القهار على مايشاء، وفي أنه لم يعبت بخلقهم وابقائهم وامانتهم بعد ذلك، وأنه لا بد من جزاء المسيئ والمحسن، ومثله قوله: " يأيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم " (١) ان الذي قدر على ذلك قادر على أن يبعثكم بعد أن تكونوا ترابا.

وقوله " وأجل مسمى عنده " رفع على الابتداء وتم الكلام عند قوله:

" ثم قضى أجلا " .

قوله تعالى:

وهو الله في السموات وفي الارض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون (٣) آية إجماعا.

قوله " وهو الله في السموات وفي الارض " يحتمل معنيين:

أحدهما - قال الزجاج والبلخي، وغيرهما: انه المعبود في السموات والارض، والمتفرد بالتدبير في السموات وفي الارض، لان حلوله فيهما أو شئ منهما لا يجوز عليه. ولا يجوز أن تقول هو زيد في البيت، والدار، وأنت تريد أنه يدبرهما الا ان يكون في الكلام ما يدل على ان المراد به التدبير كقول القائل: فلان الخليفة في الشرق والغرب، لان المعنى في ذلك أنه المدبر فيهما.

(١) سورة ٢٢ الحج آية ٥.

(٧٩)

ويجوز ان يكون خبرا بعد خبر، كأنه قال: انه هو الله وهو في السموات وفي الارض. ومثله ذلك قوله " وهو الذي في السماء إله وفي الارض إله " (١)

والوجه الثاني - قال أبو علي: ان قوله " وهو الله " قد تم الكلام، وقوله " في السموات وفي الارض " يكون متعلقا بقوله " يعلم سركم وجهركم " في السموات وفي الارض لان الخلق إما أن يكونوا ملائكة فهم في السماء أو البشر والجن، فهم في الارض، فهو تعالى عالم بجميع ذلك لا يخفى عليه خافية، ويقويه قوله " ويعلم ما تكسبون " أي يعلم جميع ما تعملون من الخير والشر فيجازيكم على حسب أعمالكم، ولا يخفى عليه شئ منها، وفي ذلك غاية الزجر والتهديد.

وفي الآية دلالة على فساد قول من قال: إنه تعالى في مكان دون مكان تعالى الله عن ذلك.

قوله تعالى:

وماتأتهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين (٤)
آية بلاخلاف.

في هذه الآية اخبار من الله تعالى أنه لا يأتي هؤلاء الكفار - المذكورين في أول الآية - من آيات من ربهم، وهي المعجزات التي يظهرها على رسوله وآيات القرآن التي كان؟ لها على نبيه (صلى الله عليه وآله) " الا كانوا عنها معرضين " لا يقبلونها، ولا يستدلون بها على ما دلهم الله عليه من توحيده وصدق رسوله محمد (صلى الله عليه وآله).
قوله تعالى:

فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا

(١) سورة ١٠ يونس آية ٢٢.

(٨٠)

به يستهزؤون (٥) آية بلاخلاف.

في هذه الآية اخبار منه تعالى أن الكفار قد كذبوا بالحق الذي أتاهم به محمد (صلى الله عليه وآله) لما جاءهم بالقرآن، وسائر أمور الدين، وأنه سوف يأتيهم خير العذاب الذي ينزله بهم عقوبة على كفرهم، وهذا العذاب هو الذي كانوا به يستهزؤون: بأخبار رسول الله إياهم به وبنزوله بهم. فبين أن ذلك سيحل بهم وسيقفون على صحته. ودل ذلك على أنهم كانوا يستهزؤون، وان كان لم يذكره ههنا وذكره في موضع آخر وومثل ذلك قول القائل للجاني عليه: سيعلم عملك. وانما يريد ستجازى على عملك.

وقال الزجاج: معنى " أنباء ما كانوا به يستهزؤون " أي تأويله. والمعنى سيعلمون ما يؤل إليه استهزأؤهم.

قوله تعالى:

ألم يرواكم أهلكننا من قبلهم من قرن مكناهم في الارض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الانهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين (٦)
آية بلاخلاف.

قوله " ألم يروا " خطاب للغائب وتقديره ألم ير هؤلاء الكفار: ألم يعلموا كم أهلكننا من قبلهم من قرن. ثم قال مكناهم في الارض ما لم نمكن لكم " فخاطب خطاب المواجه، فكأنه اخبر النبي (صلى الله عليه وآله) ثم خاطبه معهم، كما قال:

" حتى اذا كنتم في الفلك وجرينا بهم بريح طيبة " (١) فذكر لفظ الغائب بعد

(٨١)

خطاب المواجه. ومعنى " من قرن " من أمة. قال الحسن: القرن عشرون سنة. وقال ابراهيم: اربعون سنة. وقال ابوميسرة: هو عشر سنين. وحكى الزجاج والفراء: أنه ثمانون سنة وقال قوم: هو سبعون سنة. وقال الزجاج:

عندي القرن هو أهل كل مدة كان فيها نبي أو كان فيها طبقة من أهل العلم، قلت السنون أو كثرت، فيسمى ذلك قرنا، بدلالة قوله (ع): (خيركم قرني) يعني أصحابي (ثم الذين يلونهم) يعني التابعين (ثم الذين يلونهم)

يعني تابعي التابعين. قال: وجائز أن يكون القرن جملة الامة، وهؤلاء قرن فيها. واشتقاق القرن من الاقتران. وكل طبقة مقترنين في وقت قرن، والذين يأتوا بعدهم ذورا اقتران: قرن آخر.

وقوله " مكناهم في الارض " معناه جعلناهم ملوكا وأغنياء تقول مكنتك، ومكنت لك واحد. وقوله " وأرسلنا عليهم السماء مدرارا " معناه أرسلنا عليهم مطرا كثيرا من السماء يقول القائل أصابتنا هذه السماء، ومازلنا نطأ السماء حتى أتيناكم، يعنون المطر. وقوله " مدرارا " يعني غزيرا دائما كثيرا. وهو قول ابن عباس وأبي روق. و (مفعال) من ألفاظ المبالغة، يقال ديمة مدرارا اذا كان مطرها غزيرا حادا، كقولهم امرأة مذكارة: اذا كانت كثيرة الولادة للذكور، ومثلاث في الاناث. ومفعال لا يؤنث، يقال: امرأة معطار ومثلاث ومذكارة، بغير هاء. بين الله تعالى أن هؤلاء الذين آتاهم الله هذه المنافع وأجرى من تحتهم الانهار، ووسع عليهم، ومكنهم في الارض، لما كفروا بنعم الله وارتكبوا معاصيه أهلكتهم الله بذنوبهم، وانه انشأ قوما آخرين بعدهم. يقال: انشأ فلان يفعل كذا أي ابتداء فيه.

وموضع (كم) نصب ب أهلكتنا، لان لفظ الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله، فلذلك لا يجوز أن يكون منصوبا ب (يروا).

فان قيل: كيف قال: " أولم يروا) والقوم كانوا غير مقرين بما أخبروا

(٨٢)

به من شأن الامم قبلهم؟ قيل: كان الكثير منهم مقرا بذلك فإنه دعي بهذه الاية إلى النظر والتدبر ليعرف بذلك ما عرفه غيره. قوله تعالى:

ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين (٧) آية بلاخلاف.

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لو نزل على نبيه كتابا يعني صحيفة مكتوبة في قرطاس حتى يلمسوه بأيديهم ويدركوه بحواسهم، لأنهم سألوا النبي (صلى الله عليه وآله) ان يأتهم بكتاب يقرؤونه من الله تعالى فلان بن فلان أن آمن بمحمد، وانه لو أجابهم إلى ذلك لما آمنوا، ونسبوه إلى السحر لعظم عنادهم وقساوة قلوبهم وعزمهم على أن لا يؤمنون على كل حال. وعرفه أن التماسهم هذه الآيات ضرب من العنت ومتى فعلوا ذلك أصطلمهم واستأصلهم، وليس تقتضى المصلحة ذلك، لما علم في بقائهم من مصلحة للمؤمنين، وعلمه بمن يخرج من أصلابهم من المؤمنين وأن فيهم من يؤمن فيما بعد، فلا يجوز أخترام من هذه صفته - عند ابي علي والبلخي.

وقوله " ان هذا الاسحر مبين " معناه ليس هذا الا سحر مبين. واحتج ابو علي بهذه الآية على أنه متى كان في معلوم الله تعالى انه لو آتاهم الآيات التي طلبوها لامنوا عندها وجب ان يفعلها بهم، قال: ولولا ذلك كذلك لم يحتج على العباد في منعه اياهم الآيات التي طلبوها أي انما منعهم اياها لانهم كانوا لا يؤمنون، ولو آتاهم اياها لكانوا يقولون انها سحر مبين. وبهذا تبين بطلان قول من قال اللطف ليس بواجب، وانه يجوز ان يمنعهم الله ما طلبوا وان كانوا يؤمنون لو آتاهم ذلك ويكفرون لو منعهم اياه.

قوله تعالى:

وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا

(٨٣)

ملكا لقضى الامر ثم لا ينظرون (٨) ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون (٩).

آيتان بلاخلاف.

أخبر الله تعالى في هذه الآية عن هؤلاء الكفار أنهم قالوا (لولا) ومعناه:

هلا " أنزل عليه " يعنون على محمد " ملك " يشاهدونه فيصدقه. ثم أخبر عن عظم عنادهم انه لو أنزل عليهم الملك على ما اقترحوه لما آمنوا به، واقتضت الحكمة استئصالهم وألا ينظرهم ولا يمهلهم. وذلك بخلاف ما علم الله تعالى من المصلحة على ما بيناه.

ومعنى " لقضى الامر " أي أتم إهلاكهم وقضى على ضرور كلها ترجع إلى معنى تمام الشئ وانقطاعه في قول الزجاج. فمنه " قضى أجلا وأجل مسمى عنده " (١) معناه ثم ختم بذلك

وأتمه، ومنه الامر كقوله " وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه " (٢) الا أنه أمر قاطع ومنه الاعلام نحو قوله " وقضينا إلى بني اسرائيل (٣) أي أعلمناهم إعلاما قاطعا. ومنه الفصل في الحكم نحو قوله " ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم " (٤) أي لفصل الحكم بينهم. ومنه قولهم قضى القاضي. ومن ذلك قضى فلان دينه، أي قطع مالغريمه عليه وأداه اليه وقطع ما بينه وبينه وكلما أحكم فقد قضى، نقول قضيت هذا الثوب وهذه الدار، أي عملتها وأحكمت عملها، قال أبو ذؤيب

وعليهما مسرودتان قضاهما * داود أو صنع السوابغ تبع (٥)

وقال مجاهد معنى " وقالوا لولا أنزل عليه ملك " يريدون في صورته.

قال الله تعالى " ولو أنزلنا ملكا " في صورته " لقضى الامر " أي لقامت الساعة أو

(١) سورة ٦ الانعام آية ٢ (٢) سورة ١٧ الاسرى آية ٢٣ (٣) سورة ١٧ الاسرى آية ٤ (٤) سورة ٤٢ الشورى آية ١٤ (٥) مرتخرجه في ١ / ٤٢٩.

(٨٤)

وجب استئصالهم ثم قال " ولو جعلناه ملكا لجعلناه " في صورة رجل، لان أبحار البشر لاتقدر على النظر إلى صورة ملك على هيئته للطف الملك وقلة شعاع أبحارنا وكذلك كان جبرائيل (ع) يأتي النبي (صلى الله عليه وآله) في صورة دحية الكلبي، وكذلك الملائكة الذين دخلوا على ابراهيم في صورة الاضياف حتى قدم اليهم عجلا جسدا، لانه لم يعلم أنهم ملائكة، وكذلك لماتسور المحراب على داود الملكان كانا في صورة رجلين يختصمان اليه. وقال بعضهم: المعنى لو جعلنا مع النبي ملكا يشهد بتصديقه (لجعلناه رجلا) والاول أصح.

وقوله " وللبسنا عليهم ما يلبسون " يقال: لبست الامر على القوم ألبسه اذا شبهته عليه، ولبست الثوب البسه، وكان رؤساء الكفار يلبسون على ضعفائهم أمر النبي (ع)، فيقولون: هو بشر مثلكم، فقال الله تعالى " ولو أنزلنا ملكا " فرأوا الملك رجلا ولم يعلمهم أنه ملك لكان يلحقهم من اللبس ما يلحق ضعفائهم منهم. واللبوس ما يلبس من الثياب واللباس الذي قد لبس واستعمل. فان قيل: قوله: انه لو جعل الملك رجلا للبس عليهم يدل على أن له أن يلبس بالاضلال والتلبيس؟ قلنا: ليس ذلك في ظاهره، لانه لم يخبر أنه لبس عليهم وانما قال لوجعلته ملكا للبت ولم يجعله ملكا فاذا مالبس، كما قال تعالى " لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء " (١) وليس يجوز عليه اتخاذ الولد ولا الاصطفاء له بحال، فسقط ما قالوه. قوله تعالى:

ولقد استهزى برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ماكانوا به يستهزؤن (١٠) آية
بلاخلاف.

(١) سورة الزمر آية ٤.

(٨٥)

لما أخبر الله تعالى أنه لو أنزل الآيات التي أفترحوها وامتنعوا عند ذلك من الاقرار بالله
وتصديق نبيه اقتضت المصلحة استئصالهم كما اقتضت المصلحة استئصال من تقدم من الامم
الماضية عند نزول الآيات المقترحة، كما فعل بقوم صالح وغيرهم من أمم الانبياء، قال ذلك
تسلياً لنبيه (ع) من استمرارهم على الكفر. ومعنى (الحقيق) مايشتمل على الانسان من مكروه
فعله كما قال: " ولايحيق المكر السيئ الا بأهله " (١) أي لاترجع عاقبة مكروهه الا عليهم.
والمعنى فحاق بالساخرين منهم: " ماكانوا به يستهزؤن " من وعيد أنبيائهم بعاجل العقاب في
الدنيا نحو ما نزل بقوم عاد وثمود وغيرهم من الامم.

وقال ابو علي: حاق وحق بمعنى واحد. والمعنى انه لما نزل بهم العذاب حق بذلك الخبر
عندهم: الخبر الذي كان أخبرهم به النبي (صلى الله عليه وآله).
قوله تعالى:

قل سيروا في الارض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين (١١) آية بلاخلاف.

أمر الله تعالى في هذه الآية نبيه (ع) ان يأمر هؤلاء الكفار ان يسيروا في الارض لينظروا
إلى آثار تلك الامم فانها مشهورة ومتواتر خبرها معلوم مساكنها و اراد بذلك زجر هؤلاء
الكفار عن تكذيب محمد (ع) والتحذير لهم من ان ينزل بهم من العذاب ما نزل بالمكذبين
لرسل من قبلهم.

قوله تعالى:

قل لمن مافي السموات والارض قل لله كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيمة
لأريب

(١) سورة فاطر آية ٤٣.

(٨٦)

فيه الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون (١٢)
وله ماسكن في الليل والنهار وهو السميع العليم (١٣) آيتان بلاخلاف.

أمر الله تعالى نبيه (ع) ان يقول لهؤلاء الكفار مقرعا لهم وموبخا على كفرهم " لمن في السماوات والارض " ثم امره (ع) ان يقول لهم ان ذلك " لله كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم " واللام لام القسم وتقديره والله ليجمعنكم ولذلك نصب (لام) ليجمعنكم، لان معنى كتب اليمين. وقال الزجاج يجوز أن يكون (ليجمعنكم) بدلا من الرحمة مفسرا لها، لانه لما قال كتب على نفسه الرحمة فسر رحمته بأنه يمهلهم إلى يوم القيامة. وقال الفراء: يجوز أن يكون قوله " كتب على نفسه الرحمة " غاية ثم استأنف قوله " ليجمعنكم.. لاريب فيه " تمام، ومعنى " كتب على نفسه الرحمة " أي كتب على نفسه ألا يستأصلكم ولا يعجل عقوبتكم بل يعذر وينذر ويجمع آخركم إلى أولكم قرنا بعد قرن إلى يوم القيامة، وهو الذي لاريب فيه.

وفي قوله " ليجمعنكم إلى يوم القيامة " احتجاج على من أنكر البعث والنشور فقال ليجمعنكم إلى اليوم الذي أنكرتموه كما تقول: جمعت هؤلاء إلى هؤلاء، أي ضمنت بينهم في الجمع. وقوله " الذين خسروا أنفسهم " قال الاخفش (الذين) بدل من الكاف والميم. والمعنى ليجمعن هؤلاء المشركين الذين خسروا أنفسهم إلى هذا اليوم الذي يجحدونه ويكفرون به. وقال الزجاج: هو في موضع رفع على الابتداء وخبره " فهم لا يؤمنون " لان (ليجمعنكم) مشتمل على سائر الخلق على الذين خسروا أنفسهم وغيرهم.

وقوله " وله ماسكن في الليل والنهار " أي ما شتمل عليه الليل والنهار فجعل الليل والنهار كالمسكن لما اشتملا عليه، لانه ليس يخرج منهما شئ فجمع

(٨٧)

كل الاشياء بهذا اللفظ القليل الحروف، وهذا من أفصح ما يكون من الكلام.
وقال النابغة:

فانك كالليل الذي هو مدركي * وان خلت ان المنتأى عنك واسع (١)
فجعل الليل مدركا إذ كان مشتملا عليه.

وفي هذه الاية وفي التي قبلها احتجاج على الكفار الذين عبدوا من دون الله تعالى، فقال تعالى: " قل لمن مافي السماوات والارض "؟ وكانوا لا يشركون بالله في خلق السماوات والارض وما بينهما احدا وانما كانوا يشركون في العبادة، ويقولون: آلهتهم تقربهم إلى الله زلفى، لأنها تخلق شيئا، ثم قال: " قل لله " فانهم لا ينكرون ذلك، وهو كقوله " ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله " (٢) فذكرهم ما هم به مقرون ليتنبهوا ويشهدوا بالحق ويتركوا ما هم عليه، ومعنى " خسروا أنفسهم " أهلكوها باستحقاق المصير إلى العذاب الاليم الدائم، الذي لا ينتفعون معه بنفوسهم إذ كانوا لا يؤمنون.

ومن أهلك نفسه فقد خسرها. وانما قال " وله ماسكن في الليل والنهار " لان في الحيوان مايسكن في الليل، وفيه مايسكن بالنهار وخص السكون بالذكر، لان الساكن أكثر من المتحرك، ولان الاية العجيبة في قيام الساكن بلا عمد أعظم. قوله تعالى:

قل أغير الله أتخذ ولي فطر السموات والارض وهو يطعم ولايطعم قل أني أمرت أن أكون أول من أسلم ولاتكونن من المشركين (١٤) آية بلاخلاف. أجمع القراء على ضم الياء وفتح العين من قوله " ولايطعم " وقرئ في الشواذ

(١) سمط اللالي: ٥٧٠ (٢) سورة ٤٣ الزخرف آية ٨٧

(٨٨)

بفتح الياء العين معاً. فمن ضم الياء أراد أن غيره لايطعمه في مقابلة قوله: " وهو يطعم ". ومن فتح الياء أراد أنه نفسه لايطعم. والمعنى هو يرزق الخلق ولايرزقه أحد. والطعمة والطعم والاطعام الرزق، قال امرؤ القيس: مطعم للصيد ليس له * غيرها كسب على كبره (١) وقال علقمة بن عدي:

ومطعم الغنم يوم الغنم مطعمة * أني توجه والمحروم محروم (٢)
ألا ترى أنه وضع الحرمان في مقابلة الاطعام، كما يوضع أبدا مقابلا للرزق. وقيل: إنه ذكر الاطعام، لان حاجة العباد اليه أشد، ولان نفيه عن الله أدل على نفي شبهه بالمخلوقين، لان الاطعام لايجوز الاعلى الاجسام.

والاختيار في " فاطر " الخفض لانه من صفة (الله). والرفع، والنصب جائزان على المدح. فمن رفع فعلى اضمار (هو)، وتقديره: هو فاطر السموات والارض، وهو يطعم ولايطعم. ومن نصب فعلى معنى: اذكروا عني.

ومعنى: " فاطر السموات والارض " خالقهما، كما قال: " ومالي لا أعبد الذي فطرني واليه ترجعون " (٣) أي خلقتني. قال ابن عباس: ما كنت أدري مامعنى (فاطر) حتى اختصم الي اعرابيان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها أي ابتدأتها. وأصل الفطر الشق، ومنه قوله تعالى: " اذا السماء انفطرت " (٤) أي انشقت.

ومعني " فطر السماوات والارض " خلقهما خلقا قاطعا. والانفطار، والفتور تقطع وتشقق وفي الآية دلالة وحجة على الكفار، لان من خلق السماوات والارض وأنشأ ما فيها، وأحكم تدبيرهما، واطعم من فيهما هو الذي ليس كمثلته شئ

(١) ديوانه: ١٠٤، واللسان (طعم).

(٢) اللسان: الالف اللينة تفسير (أنى).

(٣) سورة ٣٦ يس آية ٢٢ (٤) سورة ٨٢ الانفطار آية ١

(٨٩)

وان الخلق فقراء اليه وهو الغني القادر القاهر، فلا يجوز لمن عرف ذلك أو جعل له السبيل إلى معرفته ان يعبد غيره.

وقوله " وأمرت أن أكون أول من أسلم " معناه أن أكون أول من خضع، وآمن وعرف الحق من قومي، وأن اترك ما هم عليه من الشرك. ومثله قوله " قل ان كان للرحمان ولد فأنا أول العابدين " (٣) بأنه لم يكن للرحمان ولد، يعني من هذه الامة، لانه قد عبد الله النبيون والمؤمنون قبله، ومثله قوله " سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين " (٤) ممن سألك أن تريه نفسك - بأنك لاترى. وقول السحرة " إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا ان كنا أول المؤمنين (٥) بأن هذا ليس بسحر، وأنه الحق، أي أول المؤمنين من السحرة، ومعنى الولي - هاهنا - الاله الذي أعبده ليتولاني، ويحفظني.

وقوله: " وأمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين " أي أمرت بالامرين معا: أن أكون أول من أسلم من هذه الامة، وألا أكون من المشركين. والمعنى أمرت بذلك ونهيت عن الشرك، لان الامر لا يتناول ألا يكون الشئ، لانه لا يكون أمرا إلا بارادة المأمور، والارادة لاتتعلق بألا يكون الشئ. وانما المراد ماقلناه: أنه كره مني الشرك.

قوله تعالى:

قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم (١٥)

آية بلاخلاف.

أمر الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) بهذه الآية أن يقول لهؤلاء الكفار: إنه يخاف

(٣) سورة ٤٣ الزخرف آية ٨١ (٤) سورة ٧ الاعراف آية ١٤٢ (٥) سورة ٢٦ الشعراء آية ٥٢.

(٩٠)

- ان عصاه - عذابه وعقوبته في يوم عظيم وهو يوم القيامة. ومعنى العظيم - هاهنا - أنه شديد على العباد، وعظيم في قلوبهم.

وفي الآية دلالة على ان من زعم أن من علم الله أنه لا يعصى فلا يجوز أن يتوعد بالعذاب. وعلى من زعم أنه لا يجوز أن يقال فيما قد علم الله أنه لا يكون أنه لو كان لوجب فيه كيت وكيت، لانه كان المعلوم لله تعالى أن النبي (صلى الله عليه وآله) لا يعصي معصية يستحق بها العقاب يوم القيامة، ومع هذا فقد توعد به.

قوله تعالى:

من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز المبين (١٦)
آية بلاخلاف.

قرأ أهل الكوفة الا حفصا، ويعقوب " من يصرف " بفتح الياء وكسر الراء. الباقر بضم الياء وفتح الراء.

وفاعل (يصرف) هو الضمير العائد إلى " ربي " من قوله: " إني أخاف ان عصيت ربي ". ويكون حذف الضمير العائد إلى العذاب، والمعنى من يصرف الله عنه، وكذلك هو في قراءة أبي. قال أبو علي: وليس حذف الضمير بالسهل لانه ليس بمنزلة الضمير الذي يحذف من الصلة اذا عاد إلى الموصول، نحو " أهذا الذي بعث الله رسولا " (١) و " سلام على عباده الذين اصطفى الله " (٢) أي بعثهم الله واصطفاهم، ولا يعود الضمير المحذوف - هاهنا - إلى موصول ولا إلى (من) التي المجزاء، وانما يرجع إلى العذاب من قوله " ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم "، وليس هذا بمنزلة قوله " والحافظين فروجهم " (٣) لان هذا فعل واحد قد تكرر وعدي الاول فيهما

(١) سورة الفرقان آية ٤١ (٢) سورة ٢٧ النسل آية ٥٩ (٣) سورة الاحزاب آية ٣٥

(٩١)

إلى المفعول، فعلم بتقدير الاول أن الثاني بمنزلته. والذي يحسن قراءة من قرأ " يصرف " بفتح المياء أن مابعد من قوله " فقد رحمه " فعل مسند إلى ضمير اسم الله. فقد اتفق الفعلان في الاسناد إلى هذا الضمير، فيمن قرأ " يصرف " بفتح الياء. ويقويه أيضا أن الهاء المحذوفة من (يصرفه) لما كان في حيز الجزاء، وكان ما في حيزه في أنه لا يتسلط على الموصول، حسن حذف الهاء منه كما حسن حذفها من الصلة. ومن ضم الياء فالمسند إليه الفعل المبني للمفعول ضمير العذاب المتقدم ذكره، ويقوي ذلك قوله " ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم " (٤) ألا ترى أن الفعل بني للمفعول، وفيه ضمير

العذاب. وقال الزجاج: التقدير من يصرف الله عنه العذاب فيمن فتح الياء. ومن ضم الياء، فتقديره من يصرف عنه العذاب.

قوله تعالى:

وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير (١٧) وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير (١٨) آيتان بلاخلاف.

معنى الآية الأولى أنه لا يملك النفع والضرر إلا الله تعالى أو من يملكه الله ذلك. فبين تعالى أنه مالك السوء من جهته " فلا كاشف له إلا هو " ولا يملك كشفه سواه مما يعبد المشركون ولأحد سوى الله، وأنه إن ناله بخير فهو على ذلك قادر. وقوله يمسسك بضر أو بخير، معناه يمسسك ضره أو خيره. فجعل المس لله على وجه المجاز، وهو في الحقيقة الخير والضر، وهو مجاز في الخير والضر أيضا، لأنهما عرضان لاتصح عليهما المماسمة. وأراد

(٤) سورة ١١ هود آية ٨

(٩٢)

تعالى بذلك الترغيب في عبادته، وحده، وترك عبادة سواه، لأنه المالك للضر والنفع دون غيره، وأنه القادر عليهما. والقاهر هو القادر على أن يقهر غيره.

فعلى هذا يصح وصفه فيما لم يزل بأنه قاهر. وفي الناس من قال: لا يسمى قاهرا إلا بعد أن يقهر غيره، فعلى هذا لا يوصف تعالى فيما لم يزل بذلك.

ومثل قوله " فوق عباده " قوله " يد الله فوق أيديهم " (١) والمراد أنه أقوى منهم، وأنه مقتدر عليهم، لأن الارتفاع في المكان لا يجوز عليه تعالى، لأنه من صفات الاجسام. فاذا المراد بذلك أنه مستعل عليهم، مقتدر عليهم. وكل شيء قهر شيئا فهو مستعل عليه، ولما كان العباد تحت تسخيرهم وتذليلهم وأمرهم ونهيهم، وصف بأنه فوقهم. وقوله " وهو الحكيم الخبير " معناه أنه مع قدرته عليهم لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة، ولا يفعل مافيه مفسدة، أو وجه قبح لكونه عالما بقبح الاشياء وبأنه غني عنها.

قوله تعالى:

قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحى إلي هذا القرآن لاندركم به ومن بلغ أنكم لتشهدون أن مع الله الهة أخرى قل لأشهد قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون (١٩) آية بلاخلاف.

اختلفوا في الهمزتين اذا كانت الاولى مفتوحة، والثانية مكسورة من كلمة واحدة نحو (أُنْكَ) و (أَذَا) و (أَنَا) و (أَفْكَا) فقرأ ابن عامر وأهل الكوفة وروح بتحقيق الهمزتين حيث وقع إلا في قوله " أنْكُمْ لتشهدون "

(١) سورة ٤٨ الفتح آية ١٠.

(٩٣)

هاهنا. وفي الاعراف " أنْكُمْ لتأتون الرجال " (١) و " أن لنا لاجرا " (٢) و (أما) حيث وقع. و " أنك لانت يوسف " (٣) و " أذا مامت " (٤) وفي العنكبوت " أنْكُمْ لتأتون الفاحشة " (٥) و " أنا لمغرمون " (٦) في الواقعة. والاستفهامين في الرعد. وبنو اسرائيل. والمؤمن. والنحل. وسجدة لقمان. والصفات. والواقعة. والنازعات. وسنذكر الخلاف فيها في مواضعها. الباقي بتحقيق: الاولى وتليين الثانية. وفصل بينهما بألف أهل المدينة. الا ورشا، وابوعمر، والخلواني عن هشام، وافقهم الداجوني عن هشام على الفصل في قوله " أنا لتاركوا آلهتنا ". و " اذا متنا " في (ق). وأما قوله " أنْكُمْ ". هاهنا فقرأه ابن عامر وأهل الكوفة الا الكسائي عن أبي بكر وروح بتحقيق الهمزتين إلا أن الخلواني عن هشام يفصل بينهما بألف الباقي بتحقيق الاولى وتليين الثانية. وفصل بينهما بألف أهل المدينة الا ورشا وأبوعمر والكسائي عن أبي بكر. وقد روي عن الكسائي عن أبي بكر أنه لا يفصل. أمر الله تعالى (صلى الله عليه وآله) أن يقول لهؤلاء الكفار " أي شئ أكبر شهادة " لانهم كانوا مقرين بأنه لاشئ أكبر شهادة من الله، واذا أقروا بأنه الله حينئذ أمره أن يقول لهم هو الشهيد يبني وبينكم على ما بلغنكم ونصحتكم وقررت عندكم من أن إلهكم إله واحد، وعلى براءتي من شرككم.

والوقوف على قوله " قل الله " وقف تام.

وفي الآية دلالة على من قال: لا يوصف تعالى بأنه شئ. لانه لو كان كما قال لما كان للآية معنى كما أنه لا يجوز أن يقول القائل: أي الناس أصدق؟ فيجاب ب (جبرائيل) لمالم يكن من جملة الناس بل كان من الملائكة.

(١) سورة ٧ الاعراف آية ٨٠ (٢) سورة ٧ الاعراف آية ١١٢ (٣) سورة ١٢ يوسف آية ٩٠ (٤) سورة ١٩

مريم آية ٦٦ (٥) سورة ٢٩ العنكبوت آية ٢٨ (٦) سورة ٥٦ الواقعة آية ٦٦

(٩٤)

فان قيل قوله " أي شئ أكبر شهادة " تمام، وقوله " قل الله " ابتداء، وليس بجواب، ولو كان جوابا كان ما بعده من قوله " شهيد بيني وبينكم " لا ابتداء له ولا معنى له؟! قيل: لسنا ننكر ذلك - الا أن هذا وان كان هكذا لولا أنه متقرر عند السائل والمسؤل - ان الله شهيد - ما كان للكلام معنى، ولكان قوله: " قل أي شئ أكبر شهادة " لغوا وحشوا، وذلك منزه عن كلامه تعالى.

وقوله: " لانذركم به ومن بلغ " وقف تام. أي من بلغه القرآن الذي أنذرتكم به، فقد انذرتكم كما انذرتكم، وهو قول الحسن رواه عن النبي (صلى الله عليه وآله): انه قال: (من بلغه أني أدعو إلى لآله إلا الله، فقد بلغه).

يعني بلغته الحجة، وقامت عليه. وقال مجاهد: لانذركم به " يعني اهل مكة. " ومن بلغ " من أسلم من العجم وغيرهم.

وقوله " آلهة أخرى " ولم يقل اخر، لان الالهة جمع والجمع يقع على التأنيث، كما قال: " والله الاسماء الحسنی " (١) و " قال فما بال القرون الاولى " (٢) ولم يقل الاول. والشاهد: هو المبين لدعوى المدعي. قال الحسن: قال المشركون لرسول الله (صلى الله عليه وآله): من يشهد لك؟ فنزلت هذه الآية. وهي قوله: " وأوحى إلى هذا القرآن لانذركم به " أي اني أخوفكم به، لان الانذار هو الاعلام على وجه التخويف. " ومن بلغ " يعني القرآن و (من) في موضع نصب بالانذار. ثم قال موبخا " أنكم لتشهدون ان مع الله آلهة اخرى " ثم قال لنبيه: قل أنت يا محمد: لأشهد بمثل ذلك بل اشهد انه إله واحد " واني برئ مما تشركون " بعبادته مع الله واتخاذها إلهها.

قوله تعالى:

الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١٧٩ (٢) سورة ٢٠ طه آية ٥١

(٩٥)

الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون (٢٠) آية بلاخلاف.
" الذين آتيناهم الكتاب " رفع بالابتداء. وقوله " يعرفونه " خبر.
وقوله " الذين خسروا أنفسهم " أيضا رفع، ويحتمل رفعه وجهين:

أحدهما - ان يكون نعتا ل (الذين) الاولى - ويحتمل ان يكون رفعا على الابتداء وخبره " فهم لا يؤمنون. فان حملته على النعت كان المعني به أهل الكتاب وان حملته على الابتداء يتناول جميع الكفار.

وقال بعض المفسرين: مامن كافر الاوله منزلة في الجنة وأزواج فان أسلم وسعد صار إلى منزله وأزواجه، وان كفر صار منزله وأزواجه إلى من أسلم، فذلك قوله " الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون " (١) وقوله:

" الذين خسروا أنفسهم واهليهم يوم القيامة " وهذه الآية لا بد أن تكون مخصوصة بجماعة من أهل الكتاب، وهم الذين عرفوا التوراة والانجيل فعرفوا صحة نبوة محمد (صلى الله عليه وآله) بما كانوا عرفوه من صفاته المذكورة، ودلائله الموجودة في هذين الكتابين كما عرفوا ابناءهم في أنها صحيحة لامرية فيها ولم يرد أنهم عرفوا بنبوته اضطرارا، كما عرفوا ابناءهم ضرورة على أن احدا لا يعرف أن من ولد على فراشه ابنه على الحقيقة، لانه يجوز ان يكون من غيره، وان حكم بأنه ولده لكونه مولودا على فراشه، فصار معرفتهم بالنبي (صلى الله عليه وآله) أكد من معرفتهم بابنائهم لهذا المعنى. ولم يكن جميع أهل الكتاب كذلك، فلذلك خصصنا الآية.

فان قيل: كيف يصح - على مذهبكم في الموافاة - ان يكونوا عارفين بالله، وبنبيه ثم يموتون على الكفر؟! قلنا عنه جوابان:

احدهما - ان لا يكونوا عارفين بذلك بل يكونوا معتقدين أعتقاد تقليد،

(١) سورة ٢٣ المؤمنون آية ١١.

(٩٦)

ويعتقدون مع ذلك انهم عالمون به، فقال الله تعالى " يعرفونه كما يعرفون ابناءهم " في اعتقادهم، لانهم يعرفونه على الحقيقة كما قال " ذق إنك أنت العزيز الكريم " (١) يعني عند نفسك، وقومك.

الثاني - ان يكونوا عرفوا ذلك على وجه لا يستحق به الثواب، لانهم يكونون نظروا في الادلة لا لوجه وجوب ذلك عليهم، فولد ذلك المعرفة لكن لا يستحق بها الثواب. وقد بينا مثل ذلك في عدة مواضع فيما مضى (٢)

فسقط السؤال.

وقوله " الذين خسروا أنفسهم " يعني بكفرهم بمحمد (صلى الله عليه وآله) على وجه المعاندة " فهم لا يؤمنون " وخسرانهم أنفسهم اهلاكهم لها بهذا الكفر، وتصييرهم لها إلى ان لا ينتفعون بها. ومن جعل نفسه بحيث لا ينتفع بها فقد خسر نفسه.
قوله تعالى:

ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح الظالمون (٢١) آية.
أخبر الله تعالى ان من أفترى على الله الكذب فوصفه بخلاف صفاته، واخبر عنه بخلاف ما اخبر به عن نفسه، وعن أفعاله أنه لأحد أظلم لنفسه منه اذ كان بهذا الفعل قد أهلك نفسه وأوقعها في العذاب الدائم في النار. ثم أخبر أن الظالم لا يفلح أي لا يفور برحمة الله وثوابه ورضوانه، ولا بالنجاة من النار، لان الظلم - هاهنا هو الكفر بنبوة محمد (صلى الله عليه وآله) وذلك لا يغفر بلاخلاف.

قوله تعالى:
ويوم نحشرهم جميعا ث * نقول للذين أشركوا أين

(١) سورة ٤٤ الدخان آية ٤٩ (٢) في ١ / ١٩٢ و ٢ / ٢١ و ٤٩٨

(٩٧)

شركاؤكم الذين كنتم تزعمون (٢٢) آية.
قرأ يعقوب " ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول " بالياء فيهما. الباقون بالنون فيهما من قرأ بالياء رده إلى الله تعالى في قوله " على الله كذبا " وتقديره:
يوم يحشرهم الله فيقول. ومن قرأ بالنون ابتداءً، وتقدير الآية اذكر يوم نحشرهم جميعا، يعني يوم القيامة، لانهم يحشرون فيه جميعا من قبورهم إلى موضع الحساب، وأنه يقول - للذين اشركوا بالله، وعبدوا معه الها غيره - في هذا اليوم: أين الذين كنتم تزعمون أنهم شركائي؟! وأين شركائي في زعمكم؟! وإنما يقول هذا توبيخا لهم وتبكيئا على ما كانوا يدعون أنهم يعبدونه من الاصنام والوثان، ويعتقدون أنها شركاء لله، وأنها تشفع لهم، يوم القيامة، فاذا لم يجدوا لما كانوا يدعون صحة، ولم ينتفعوا بهذه الوثان ولا بعبادتهم، فيعلمون أنهم كانوا كاذبين في أقوالهم.
قوله تعالى:

ثم لم يكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين (٢٣)
أنظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون (٢٤)
آيتان بلاخلاف.

قرأ حمزة والكسائي والعليمي، ويقعوب " ثم لم يكن " بالياء. الباقرن بالتاء. وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وحفص الا ابن شاهين " ففنتهم " بالرفع.
الباقرن بالنصب. وقرأ حمزة والكسائي وخلف " والله ربنا " بنصب الباء.
الباقرن بكسرها.

من قرأ بالتاء ورفع الفتنة أثبت علامة التانيث. وتكون (أن) في موضع نصب. وتقديره ثم لم تكن ففنتهم الا قولهم. وقد روى شبل عن ابن كثير " تكن " بالتاء " ففنتهم " نصبا مثل قراءة نافع وأبي عمرو عن عاصم. ووجهه

(٩٨)

انه أنت " ان قالوا " لماكان الفتنة في المعنى، كما قال " فله عشر أمثالها " (١)
فأنت لماكانت الامثال في المعنى الحسنات. ومثله كثير في الشعر، قال ابوعلي والاول أجود من حيث كان الكلام محمولا على اللفظ. ويقوي قراءة من قرأ: (ففنتهم) بالنصب أن قوله (ان قالوا) أن يكون الاسم دون الخبر أولى لان (أن) اذا وصلت لم توصف، فأشبهت بامتناع وصفها المضمرة، فكما أن المضمرة اذا كان مع المظهر كان (أن يكون) الاسم أحسن، كذلك اذا كانت (أن) مع اسم غيرها كانت (أن يكون) الاسم أولى.
ومن قرأ (والله ربنا) - بكسر الباء - فعلى جعل الاسم المضاف وصفا للمفرد، لان قوله (والله) جربوا ولاقسم. ولو أسقطت لقال: (الله) بالنصب ومثله قولهم: رأيت زيدا صاحبنا وبكرا جارك، ويكون قوله " ماكانا مشركين " جواب القسم.
ومن نصب الباء يحتمل أمرين:

احدهما - أن ينصبه بفعل مقدر، وتقديره: اعني ربنا.
والثاني - على النداء. ويكون قد فصل بالاسم المنادى بين القسم والمقسم عليه بالنداء، وذلك غير ممتنع، لان النداء كثير في الكلام. وقد حال الفصل بين الفعل ومفعوله في قوله: " انك أتيت فرعون وملاه زينة وأمولا في الاحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك " (٢). والمعنى أتيتهم أمولا ليضلوا ولايؤمنوا وقد جاء الفصل بين الصلة والموصول، وهو اشدها قال الشاعر:

ذاك الذي وأبيك يعرف مالك * والحق يدفع ترهات الباطل (٣)
وقال ابوعبدة: من قرأ بالتاء المعجمة من فوقها ونصب " ففنتهم " أضمر في (يكن) إسمها مؤنثا ثم يجيء بالتاء لذلك الاسم، وانما جعله مؤنثا لتانيث (فتنة) قال لبيد:

(١) سورة ٦ الانعام آية ١٦٠ (٢) سورة ١٠ يونس آية ٨٨ (٣) اللسان (تره).

(٩٩)

فمضى وقدمها وكانت عادة * منه اذا هي عودت أقدامها (٢)
فأنت الاقدام لتأنيث (عادة). وقوله: " ثم لم تكن فنتتهم " أي لم تكن بليتهم التي ألزمتهم الحجة
وزادتهم لائمة الاقولهم.

ومعنى الاية: أنه تعالى لما ذكر قصص هؤلاء المشركين الذين كانوا مفتنين بشركهم، أعلم
النبي (صلى الله عليه وآله) أن افتنانهم بشركهم، وإقامتهم عليه لم يكن الا أن تبرعوا منه، وقالوا
انهم ماكانوا مشركين، كما يقول القائل اذا رأى إنسان انسانا يحب غاويا فاذا وقع في هلكة
تبرأ منه فيقول له ماكانت محبتك لفلان الا أن انتفتيت منه.

فان قيل: كيف قالوا وحلفوا أنهم ماكانوا مشركين - وقد كانوا مشركين - وهل هذا إلا كذب،
والكذب قبيح ولايجوز من أهل الاخرة أن يفعلوا قبيحا، لانهم ملجؤون إلى ترك القبيح، لانهم او
صح لم يكونوا ملجئين وكانوا مختارين، وجب أن يكونوا مزجورين عن فعل القبيح، وإلا أدى
إلى اغرائهم بالقبيح وذلك لايجوز، ولو زجروا بالوعيد عن القبائح لكانوا مكلفين ولوجب أن
يتناولهم الوعد والوعيد، وذلك خلاف الاجماع، وقد وصفهم الله تعالى أيضا بأنهم كذبوا على
انفسهم، فلايمكن جحد أن يكونوا كاذبين، فكيف يمكن أن يرفع ذلك؟ وماالوجه فيه؟ والجواب
عن ذلك من وجوه:

احدها - مقاله البلخي: إن القوم كذبوا على الحقيقة، لانهم كانوا يعتقدون أنهم على الحق،
ولايرون أنهم مشركون، كالنصارى ومن أشبههم، فقالوا في الموقف ذلك. وقيل: ان يقع بهم
العذاب فيعلموا بوقوعه أنهم كانوا على باطل فيقولوا " والله ربنا ماكانا مشركين " وهم
صادقون عند أنفسهم وكذبهم الله في ذلك، لان الكذب هو الاخبار بالشئ لاعلى ما هو به، علم
المخبر بذلك أو لم يعلم، فلما كان قولهم " والله ربنا ماكانا مشركين " كذبا في

(٢) اللسان (قدم) وروايته (عردت) بدل (عودت).

(١٠٠)

الحقيقة جاز أن يقال لهم " أنظر كيف كذبوا على أنفسهم. قال البلخي:
ويدل على ذلك قوله " وضل عنهم ماكانوا يفترون " أي ذهب عنهم وأغفلوه، لانهم لم يكونوا
نظروا نظرا صحيحا ولم يجاروا في نظرهم الالف والعادة، فيعلموا في هذا الوقت أن قولهم

شرك، ولو صاروا إلى العذاب لعلموا أنهم كانوا مشركين، واستغنوا بذلك، لكن هذا القول يكون عند الحشر. وقيل:

الجزء بدلالة أول الآية. وقال مجاهد: قوله " أنظر كيف كذبوا على أنفسهم " تكذيب من الله إياهم.

وقال الجبائي: قولهم " والله ربنا ما كنا مشركين " اخبار منهم أنهم لم يكونوا مشركين عند أنفسهم في دار الدنيا، لانهم كانوا يظنون انهم على الحق، فقال الله تعالى مكذبا لهم " أنظر " يامحمد " كيف كذبوا على أنفسهم " في دار الدنيا، لا أنهم كذبوا في الآخرة، لانهم كانوا مشركين على الحقيقة، وان اعتقدوا أنهم على الحق. وقوله: " وضل عنهم ماكانوا يفترون " أي ضلت عنهم أوثانهم التي كانوا يعبدونها ويفترون الكذب بقولهم: إنها شفعأؤنا عند الله غدا، فذهبت عنهم في الآخرة فلم يجدوها، ولم ينتفعوا بها.

وقال قوم: انه يجوز أن يكذبوا يوم القيامة للذهول والدهش، لانهم يصيرون كالصبيان الذين لا تميز لهم ولا تحصيل معهم - اختاره أحمد ابن علي بن الاخشاد. وأجاز النجار أن يكفروا في النار فضلا عن وقوعه قبل دخولهم فيها، وهذا بعيد. والوجهان الاولان أقرب.

وقيل فيه وجه آخر، وهو أنهم أملوا أملا فخاب أملهم ولم يقع الامر على ما أرادوا، لان من عادة الناس أنهم اذا عوقبوا بعقوبة فتكلموا واستعانوا وصاحوا فان العذاب يسهل عليهم بعض السهولة، وظنوا أن عذاب الآخرة كذلك، فقالوا: " والله ربنا ما كنا مشركين " وقالوا " ربنا ظلمنا أنفسنا " (١)

(١) سورة ٧ الاعراف آية ٢٢ (٢) سورة ٢٣ المؤمنون آية ١٠٧

(١٠١)

الجن والانس نجعلهما تحت أقدامنا " (٣) فأملوا أن يخف عنهم العذاب بمثل هذا الكلام على عادة الدنيا، فلم يخف ولم يكن لهم فيه راحة، فقال الله " انظر كيف كذبوا على أنفسهم " أي خابوا فيما أملوا من سهولة العذاب وذلك مشهور في كلام العرب، قال الشاعر:

كذبتم وبيت الله لاتأخذونها * مراغمة مادام للسيف قائم (٤)

وقال آخر:

كذبتم وبيت الله لاتتكحونها * بني شاب قرناها تصرو تحلب (٥)

أي كذبكم أملككم. وقال ابوداود الازدي:

قلت لما نصلا من فتنة * كذب العير وان كان برح (٦)

والمعنى أمل أنه يتخلص بشئ فكذبه أمله، لانه ظن أنه اذا مر بارحا وهو أن يأخذ في ناحية الشمال إلى ناحية اليمين لم يتهياً لي طعنه، فلما قلب رمحہ وطعنه قال: كذب العير أي كذب أمله.

و (الفتنة) في الاية معناها المعذرة - في قول قتادة - لانها اعتذار عن الفتنة، فسميت بأسم الفتنة. وقال قوم: هي المحنة. وقال قوم: تقديره عاقبة فنتتهم. وفتنتهم يجوز أن تكون بمعنى اغترارهم أي اغتروا بهذا الكذب وظنوا أنه سينجيهم، وكذبوا على أنفسهم لما رجعت مضرتة اليهم صار عليهم وان قصدوا أن يكون نهم.

وفي الاية دلالة على بطلان قول من قال المعارف ضرورية، لان الله تعالى أخبر عنهم أنهم قالوا " والله ربنا ما كنا مشركين " فلايخلو أن يكونوا صادقين أو كاذبين، فان كانوا صادقين لانهم كانوا عارفين في دار الدنيا فقد كذبهم الله في ذلك بقوله " أنظر كيف كذبوا " وان كانوا كاذبين لانهم كانوا عارفين، فقد وقع منهم القبيح في الاخرة، وذلك لايجوز. ومعنى الاية على ما بيناه

(١) سورة ٤١ حم السجدة آية ٢٩ (٤) مجمع البيان ٢: ٢٩٠ (٥) قائله الاسدي. اللسان (قرن).
(٦) اللسان (كذب).

(١٠٢)

من أنهم أخبروا أنهم لم يكونوا مشركين عند أنفسهم في دار الدنيا وان الله كذبهم وأنهم كانوا كاذبين على الحقيقة وان أعتقدوا خلافه في الدنيا. فأما معارفهم في الاخرة فضرورية عند البصريين، وعند البلخي ومن وافقه، حاصلة على وجه هم ملجؤن اليها، فعلى الوجهين معالايحوز أن يقع منهم القبيح لامحالة.
قوله تعالى:

ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاؤك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الاولين (٢٥)
آية بلاخلاف.

قال مجاهد قوله " ومنهم من يستمع إليك " يعني قریشا. وقال البلخي:
أي من أهل الكتاب والمشركين من يجالسك ويريد الاستماع منك والاصغاء إليك " وجعلنا على قلوبهم أكنة " لانهم لايفقهوه، لالفهم الكفر وشدة عدوتهم " حتى إذا جاؤك يجادلونك " أي حتى اذا صار الامر إلى الجدل ظهوروا الكذب وعاندوا، فقالوا " ان هذا الا أساطير الاولين " أي

ليس هذا إلا أساطير الاولين. وقال قوم: نزلت في النظر بن الحارث بن كلدة. وقال الضحاك: معنى أساطير الاولين أحاديث الاولين وكل شئ في القرآن أساطير، فهو أحاديث. و (الأكنة) جمع كنان) - بكسر الكاف - وهو كالغطاء والاعطية " وفي آذانهم وقرأ " أي تقلا، والوقر بكسر الواو الحمل، يقال وقرت الاذن لو قر قال الشاعر:

وكلام سيئ قد وقرت * أذني منه ومابي من صمم
ونخلة موقرة وموقر، ونخيل مواقير. قال يونس سألت رؤبة، فقال

(١٠٣)

وقرت أذنه - بضم الواو وكسر القاف - يوقر - بفتح الياء والقاف - اذا كان فيها الوقر. وقال أبو زيد: سمعت العرب تقول: أذن موقرة - بضم الميم وفتح القاف - ومن الحمل يقال: أوقرت الدابة فهي موقرة. ومن السمع وقرت سمعه - بتثديد القاف - فهو موقر، قال الشاعر:

ولي هامة قد وقر الضرب سمعها (١)

واساطير واحدها أسطورة، وإسطارة، مأخوذ من سطر الكتاب، قال الراجز:

اني وأسطار سطرن سطرًا * لقائل يانصر نصرا نصرا (٢)

وأسطار جمع سطر. ومن قال في واحده: سطر، قال في الجمع أسطر، وجمع الجمع أساطير، ومعناها الترهات البسباس يعني ليس له نظام. وقال الاخفش: أساطير جمع لاواحد له، نحو (مذاكير وأبائيل) وقال بعضهم:

واحد الابائيل إيبيل - بتثديد الباء وكسر الالف -.

ومعنى قوله: " وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه " قد مضى نظائره.

في قوله: " وجعلنا قلوبهم قاسية " (٣) أي منعناهم اللطاف التي تبسط المؤمنين وتبعثهم على الازدياد من الطاعة، لان الله تعالى لما أراح علتهم علله بالدعاء والبيان والانذار والترغيب والترهيب فأبوا الا كفرا وعنادا وتمردا على الله وإعراضا عنه و عما دعاهم اليه، فمنعهم الطافه عقوبة لهم حيث علم أنهم لا ينتفعون بذلك ولا ينتهون إلى الحق، وألفوا الكفر وأحبوه حتى صاروا كالصم عن الحق وصارت قلوبهم كأنها في أكنة فجاز أن يقال في اللغة جعل على قلوبهم أكنة وفي آذانهم وقرأ، كما يقول القائل لغيره أفسدت سيفك اذا ترك استعماله حتى يصدي، وجعلت أظافيرك سلاحا اذا لم يقلمها. ويقال للرجل اذا آيس من عبده أو ولده بعد الاجتهاد في تأديبه فخلاه واقصاه قد جعلته بحيث لا يفلاح

(١) تفسير الطبري ١١ : ٣٠٦ (٢) قائله رؤية ملحقات ديوانه ١٧٤ واللسان والصاح (نصر).

(١٠٤)

أبدا وتركته أعمى أصما، وجعلته ثورا وحمارا، وان كان لم يفعل به شيئا من ذلك ولم يردده بل هو مهموم به محب لخلافه، ولايجوز أن يكون المراد بذلك أنه كلفهم ما لا يطيقونه، وذلك لايليق بحكمته تعالى، ولكانوا غير ملومين في ترك الايمان حيث لم يمكنوا منه، وكانوا ممنوعين منه، وكانت الحجة لهم على الله تعالى دون أن تكون الحجة له، وذلك باطل، بل الله الحجة البالغة.

قوله " وان يروا كل آية لا يؤمنون بها " أي كل علامة ومعجزة تدلهم على نبوة النبي (صلى الله عليه وآله) لا يؤمنون بها لعنادهم. قال الزجاج (أن يفقهوه) في موضع نصب لانه مفعول له، والمعنى جعلنا على قلوبهم أكنة لكرهه أن يفقهوه فلما حذفت اللام نصب الكراهة، ولما حذفت الكراهة أنتقل نصبها إلى (أن).

قال أبو علي: كانوا اذا سمعوا القرآن من النبي آذوه ورجموه وشغلوه عن صلاته، فقال الله بينهم وبين استماع ذلك في تلك الحال التي كانوا عازمين فيها على ما ذكرناه بأن ألقى عليهم النوم اذا قعدوا يرصدونه فكانوا ينامون فلا يسمعون قراءته ولا يفقهون أنه قرآن، ولا يعرفون مكانه ليسلم النبي (صلى الله عليه وآله) من شرهم وأذاهم فجعل منعه إياهم عن استماع القرآن، وعن التعرف لمكان النبي (صلى الله عليه وآله) لئلا يرجموه ولا يؤذوه " أكنة أن يفقهوه " أنه قرآن وأن محمدا هو الذي يقرأه. وبين أن كل آية يرددها عليهم النبي (صلى الله عليه وآله) من قبل الله لا يؤمنون بها، فلهذا منعهم الله من إستماع القرآن، لانهم لم يكونوا يسمعونه ليستدلوا به على توحيد الله وصحة نبوة محمد (صلى الله عليه وآله) وانما كانوا يريدون بذلك تعرف مكانه ليؤذوه ويرجموه، فلهذا منعهم الله من استماع القرآن وفهمه ولو كانوا ممن يؤمن ويقبل ما يردد عليه من الايات من قبل الله ويستدلوا بها على نبوة محمد (صلى الله عليه وآله) ماكان الله يمنعهم من سماع ذلك وفهمه.

وقوله " حتى اذا جاؤك يجادلونك " يعني أنهم اذا دخلوا اليه بالنهار انما يجيئون مجيئ مخاصمين مجادلين رادين مكذبيين، ولم يكونوا يجيئون مجيئ من يريد الرشاد والنظر في الدلالة الدالة على توحيد الله ونبوة نبيه (صلى الله عليه وآله)

(١٠٥)

وكانوا يريدون ذلك بأن يقولوا هذا أساطير الاولين، يعنون إنه من كلام الاولين وحوادثهم. وفي معنى هذه الآية قوله تعالى في بني اسرائيل: " واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا.

وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا " (١) فمعنى الايتين واحد وسبب نزولهما واحد، وانما أنزلت هذه الايات لئلا يمتنع النبي من قراءة القرآن خوفا من أذى الكفار فيفوت المؤمنين سماعه فيغتمون لذلك وتفوتهم مصلحته بل حثه الله على قراءته وضمن له المنع من أذاهم.

وقوله: " وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها " كالتعليل لجعله قلوبهم في أكنة، والوقر في آذانهم، فقال: إنما فعلت هذا لعلمي بأنهم لا يؤمنون وأنه ليس في سماعهم ذلك الا تطرق الاذى به عليك منهم، وقولهم " ان هذا الا أساطير الاولين ".

وتحتمل الآية وجها آخر وهو: أنه يعاقب الكفار الذين لا يؤمنون بعقوبات يجعلها في قلوبهم من نحو الضيق الذي ذكر أنه يخلقه فيها، ويجعل هذه العقوبات دلالة لمن شاهد قلوبهم واستماعهم من الملائكة، وشاهد منها هذه العقوبات، على أنهم لا يؤمنون من غير أن يكون ذلك حائلا بينهم وبين الايمان. ثم أخبر أنها بمنزلة الاكنة على قلوبهم عن فقه القرآن وبمنزلة الوقر في الاذان على وجه التمثيل له بذلك تجوزا واستعارة. ووجه الشبه بينهما أن من كانت في نفسه هذه العقوبات معلوم أنه لا يؤمن كما أن من على قلبه أكنة لا يؤمن، وكما سمي الكفر عما، سماه باسم العمى على وجه التشبيه.

ويحتمل أيضا أن يكون الكفر الذي في قلوبهم من جحد توحيد الله وجحد نبوة نبيه، سماه كنا تشبيها ومجازا، وإعراضهم عن تفهم القرآن والاصغاء اليه على وجه الاستعارة وقرأ توسعا، لان مع الكفر والاعراض لا يحصل الايمان والفهم كما أن مع الكن - والوقر لا يحصلان، ونسب هذا

(١) سورة ١٧ الاسراء آية ٤٥ - ٤٦

(١٠٦)

الجعل إلى نفسه، لانه الذي شبه أحدهما بالآخر وذلك سائغ في اللغة كما يقول القائل لغيره - اذا أتني على إنسان وذكر فضائله ومناقبه - جعلته فاضلا خيرا عدلا، وان كان لم يفعل به ذلك. وبالعكس من ذلك اذا ذكر مقابحه ومخازيه وفسقه يحسن أن يقال له: جعلته فاسقا شريرا، وان لم يفعل في الحاليين شيئا من ذلك وكل ذلك مجاز. ومنه قولهم: جعل القاضي

فلانا عدلا وجعله ثقة وجعله ساقطا فاسقا، كل ذلك يراد به الحكم عليه بذلك والابانة عن حاله كما قال الشاعر .

جعلتني باخلا كلاب ورب معنى * اني لاسمح كفا منك في اللزب (١)
أي سميتني باخلا. وقوله " ومنهم من يستمع اليك.. " فكنى عنها بلفظ الواحد حملا له على اللفظ، فلما قال " وجعلنا على قلوبهم أكنة " رده إلى المعنى فعامله معاملة الجمع، لان لفظة (من) تقع على الواحد وعلى الجمع حقيقة.
قوله تعالى:

وهم ينهون عنه وينؤن عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون (٢٦) آية بلاخلاف.
وقوله " وهم " كناية عن الكفار الذين تقدم ذكرهم عند أكثر المفسرين:
الجبائي والبلخي وغيرهم. وقال قوم: نزلت في أبي لهب، لانه كان يتبعه في المواسم فينهى الناس عن أذاه وينأى عن اتباعه. والاول أشبه بسباق الآية.
وقيل: نزلت في أبي طالب، وهذا باطل عندنا، لانه دل الدليل على إيمانه بما ثبت عنه من شعره المعروف وأقويله المشهورة الدالة على أعترافه بالنبي (صلى الله عليه وآله).
وقال مجاهد: نزلت في قريش.

(١) مجمع البيان ٢: ٢٨٦. و (كلاب) اسم قبيلة.

(١٠٧)

بين الله تعالى أن هؤلاء الكفار الذين ذكرهم كانوا ينهون عن اتباع القرآن، وقبوله والتصديق بنبوة نبيه، ويبعدون عنه، لان معنى (ينأون) يبعدون إلى حيث لا يسمعونه خوفا من أن يسبق إلى قلوبهم الايمان به والعلم بصحته.

وقوله " وان يهلكون الا أنفسهم " معناه ليس يهلكون إلا أنفسهم " وما يشعرون " انهم ما يهلكون بنهيه عن قبوله، وبعدهم عنه " الا أنفسهم " لانهم لا يعلمون اهلاكهم اياها بذلك وإهلاكهم اياها هو ما يستحقون به الصيرورة إلى العذاب الابدي في النار. وهل هناك هلاك أعظم من ذلك؟! والنأي:

البعد " ينأون " أي يتباعدون عنه، نقول نأيت عن الشئ أنأى نأيا، اذا بعدت عنه. والنؤي حاجز يجعل حول البيت من الخوف لان لا يدخله الماء من خارج يحفر حفرة حول البيت فيجعل ترابها على شفير الحفيرة، فيمنع التراب الماء أن يدخل من خارج، وهو مأخوذ من النأي، أي تباعد الماء عن البيت.

وفي الآية دلالة على بطلان قول من قال معرفة الله ضرورة، وأن من لا يعرف الله ولا يعرف نبيه لاحجة عليه، لان الله بين أن هؤلاء الكفار قد أهلكوا أنفسهم بنهيهم عن قبول القرآن وتباعدهم عنه وانهم لا يشعرون ولا يعلمون باهلاكهم أنفسهم بذلك، فلو كان من لا يعرف الله ولانيه ولادينه لاحجة عليه، لكانوا هؤلاء معذورين ولم يكونوا هالكين وذلك خلاف مانطق به القرآن.

قوله تعالى:

ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولانكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين (٢٧) آية بلاخلاف.

قرأ حمزة ويعقوب وحفص " ولانكذب.. وتكون " بالنصب فيهما،

(١٠٨)

وافقه ابن عامر في " ونكون " الباقيون بالرفع فيهما، فمن قرأ بالرفع أحتملت قراءته أمرين: أحدهما - ان يكون معطوفا على نرد، فيكون قوله: " نرد ولانكذب.. ونكون " داخلا في التمني ويكون قد تمني الرد وألا يكذب وأن يكون من المؤمنين، وهو اختيار البلخي والجبائي والزجاج.

والثاني - أن يكون مقطوعا عن الاول، ويكون تقديره ياليتنا نرد ولانكذب كما يقول القائل: دعني ولأعود، أي فاني ممن لايعود، فانما يسألك الترك، وقد أوجب على نفسه ألا يعود ترك أو لم يترك. ولم يقصد أن يسأل أن يجمع له الترك وأن لايعود. وهذا الوجه الذي اختاره أبو عمرو في قراءة جميع ذلك بالرفع، فالاول الذي هو الرد داخل في التمني ومابعد على نحو دعني، ولأعود، فيكونون قد أخبروا على النيات أن لا يكذبوا ويكونوا من المؤمنين.

واستدل أبو عمرو على خروجه من المتمني بقوله " وإنهم لكاذبون " فقال ذلك يدل على أنهم أخبروا بذلك عن أنفسهم، ولم يتمنوا، لان التمني لا يقع فيه الكذب وانما يقع في الخبر دون التمني.

ومن نصب " نكذب.. ونكون " أدخلهما في التمني، لان التمني غير موجب، فهو كالاستفهام والامر والنهي والعرض، في إنتصاب مابعد ذلك كله من الافعال اذا دخلت عليها الفاء أو الواو على تقدير ذكر المصدر من الفعل الاول، كأنه قال: ياليتنا يكون لنا رد، وانتفاء للتكذيب وكون من المؤمنين.

ومن نصب " ونكون " فحسب، ورفع " نرد ولانكذب " يحتمل أيضا وجهين:

أحدهما - أن يكون داخلا في التمني، فيكون في المعنى كالنصب.

والثاني - انه يخبر على النيات أن لا يكذب رد أولم يرد.

(١٠٩)

ومن نصب " ولانكذب.. ونكون " جعلهما جميعا داخلين في التمني كما أن من رفع وعطفه على التمني كان كذلك. فان قيل: كيف يجوز أن يتمنوا الرد إلى الدنيا وقد علموا عند ذلك انهم لا يريدون؟ قيل عن ذلك أجوبة:

احدها - قال البلخي: إنا لانعلم أن أهل الآخرة يعرفون جميع أحكام الآخرة، وانما نقول: انهم يعرفون الله بصفاته معرفة لا يتخالجهم فيها الشك لما يشاهدونه من الايات والعلامات الملجئة لهم إلى المعارف. وأما التوجع والتأوه التمني للخلاص والدعاء بالفرج يجوز أن يقع منهم وأن تدعوهم أنفسهم اليه. وقال ابو علي الجبائي والزجاج: يجوز أن يقع منهم التمني للرد، ولأن يكونوا من المؤمنين، ولأمانع منه. وقال آخرون: التمني قد يجوز لما يعلم انه لا يكون ألا ترى أن المتمني يتمنى أن لا يكون فعل ما قد فعله ومضى وقته، وهذا لاحيلة فيه، فعلى هذا قوله في الآية الثانية " وانهم لكاذبون " يكون حكاية حال منهم في دار الدنيا، كما قال: " وكلبهم باسط ذراعيه " (١) وكما قال " وان ربك ليحكم بينهم يوم القيامة " (٢) وانما هو حكاية للحالة الآتية.

وقوله " ولوترى إذ وقفوا على النار " أمال في الموضوعين ابو عمرو وغيره وهي حسنة في أمثال ذلك، لان الرء بعده الالف مكسورة وهو حرف كأنه مكرر في اللسان فصارت الكسرة فيه كالكسرتين، فحسن لذلك الامالة. وقوله " إذ وقفوا " يحتمل ثلاثة أو جه:

احدها - أن يكون عاينوها ووردوها قبل ن يدخلوها. ويجوز أن يكونوا أقيموا عليها نفسها.

والثاني - أن يكونوا عليها وهي تحتهم.

وثالثها - أن يكون معناه دخلوها فعرفوا مقدار عذابها كما يقول القائل:

(١) سورة ١٨ الكهف آية ١٨ (٢) سورة ١٦ النحل آية ١٢٤

(١١٠)

قدوقفت على ما عند فلان، أي فهمته وتبينته. قال الكسائي: يقال: وقفت الدابة وغيرها اذا حبستها - بغير ألف وهي لغة القرآن، وهو الافصح، وكذلك وقفت الارض اذا جعلتها صدقة. وقال ابو عمرو ماسمعت احدا من العرب يقول: أوقفت الشيء بالالف الا أنني لو رأيت رجلا بمكان، فقيل له ما أوقفك ها هنا لرأيتك حسنا.

وأستدل أبو علي بهذه الآية على ان القدرة قبل الفعل خلافا للمجبرة بأن قال تمنوا الرد إلى دار الدنيا إلى مثل الحالة التي كانوا عليها، ولا يجوز من عاقل أن يتمنى أن يرد إلى الدنيا ويخلق فيه القدرة الموجبة للكفر، لان ذلك لا يخلصه من العذاب بل يؤديه إلى حالته التي كان عليها. وهذا ضعيف، لان لقائل أن يقول: إنهم تمنوا الرد ورفع التكذيب وحصول الايمان بأن تحصل لهم قدرة الايمان، ولاتحصل لهم قدرة التكذيب، وليس في الآية أنهم سألوا الرد إلى الحالة التي كانوا عليها، فلا متعلق في ذلك. واستدل ايضا على أنه اذا كان المعلوم من حال الكافر أنه يؤمن وجب تبقيته بأن قال: أخبر الله أنه انما لم يردهم لانهم " لوردوا لعادوا لما نهوا عنه " وظاهر ذلك يقتضى أنه لو علم أنه لو ردهم لامنوا، لوجب أن يردهم، واذا وجب أن يردهم اذا علم أنهم يؤمنون بأن يجب تبقيتهم اذا علم أنهم يؤمنون أولى. وهذا أيضا ضعيف.

لان الظاهر أفاد أنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وليس فيه أنهم لو ردوا لامنوا أو ما حكمهم بل هو موقوف على الدلالة، لانه دليل الخطاب على أن غاية ما فيه أنه يفيد أنه لو علم من حالهم أنه متى ردهم آمنوا يردهم، فمن أين أن ذلك واجب عليه؟! وهل هذا الاكفوله " وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا " في أنه لاختلاف بين أهل العدل أنه كان يجوز له أن يعذب وان لم يبعث رسولا بأن لاتقتضي المصلحة بعثته ويقتصر بهم على التكليف العقلي، فانهم متى عصوا كان له أن يعذبهم فلا شبهة في الآية.

قوله تعالى:

بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا

(١١١)

عنه وإنهم لكاذبون آية (٢٨).

قوله " بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل " معناه من عقاب الله فعرفوه معرفة من كانوا يسترونه عنه. وقال قوم: بدا لبعضهم من بعض ما كان علماءهم يخفونه عن جهالهم وضعفائهم مما في كتبهم فبدا للضعفاء عنادهم.

وقيل: معناه بل بدا من أعمالهم ما كانوا يخفونه، فأظهره الله وشهدت به جوارحهم. وقال الزجاج: ظهر للذين اتبعوا الغواية ما كان الغواة يخفونه من أمر البعث والنشور، لان المتصل بهذا قوله " وقالوا إن هي الاحياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين " لنجزى على المعاصي.

وقوله: " ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه " قال بعضهم: لو ردوا ولم يعاينوا العذاب لعادوا كأنه ذهب إلى أنهم لم يشاهدوا ما يضطرهم إلى الارتداد، وهذا ضعيف، لان هذا القول يكون منهم

بعد أن يبعثوا ويعلموا أمر القيامة ويعاينوا النار بدلالة قوله: " ولو ترى إذ وقفوا على النار " وهذه الايات كلها في المعاندين، لانه قال في أولها " الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم " ثم قال بعد ذلك " وان يروا كل آية لايؤمنوا بها " وقال ابو علي الجبائي: الاية مخصوصة بالمنافقين وظهر لهم ماكانوا يخفونه من كفرهم الذي كانوا يضمرونه. قال والاية الاولى وان كان ظاهرها يقتضي جميع الكفار والمنافقون داخلون فيهم فيجوز أن يخبر عنهم بهذا الحكم. قال:

ويحتمل أن يكون أراد بها الكافرين الذين كان النبي يخوفهم بالعذاب على كفرهم فلم يؤمنوا بذلك لكن دخلهم الشك والخوف وأخفوه عن ضعفائهم وعوامهم، فاذا كان يوم القيامة ظهر ذلك وان أخفوه في الدنيا فيتمنون حينئذ الرد إلى حال الدنيا. وقيل: " بل بدالهم ماكانوا يخفون من قبل " معنى " يخفون " يجدونه خافيا. ومعنى " بل بدا " ليس تمنى الرجعة واطهار الانابة حقا للايمان الصحيح، بل لما شاهده من العذاب الاليم.

(١١٢)

وقوله " ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه " معناه إنهم لو ردوا إلى حال التكليف والى مثل ماكانوا عليه في الدنيا من المهلة والتمكين من الايمان والتوبة والقدرة على ذلك، لعادوا لمثل ماكانوا عليه من الكفر الذي نهوا عنه.

وقوله تعالى " وانهم لكانبون " قدينا ان المراد به الحكاية عن حالهم في الدنيا وأنهم كانوا فيها كاذبين في كفرهم وتكذيبهم رسول الله والقرآن. وقال البلخي هذا الكذب وقع منهم في الحال وان لم يعلموه كذبا، لانهم أخبروا عن عزمهم أنهم لو ردوا لكانوا مؤمنين. وقد علم الله أنهم لو عادوا إلى الدنيا لعادوا إلى كفرهم، وكان إخبارهم بذلك كذبا، وان لم يعلموه كذلك، لان مخبره على خلاف ماأخبروه وهذا الذي ذكره ضعيف، لانهم اذا أخبروا عن عزمهم على الايمان ان ردوا أو كانوا عازمين عليه لا يكونون كاذبين، لان مخبر خبرهم العزم، وهو على ماأخبروا فكيف يكذبون فيه، والاول أقوى.

فأما الكذب مع العلم بأنه ليس كذلك، فلاخلاف بين أبي علي وأبي القاسم أنه لايجوز أن يقع منهم في الاخرة، لان أهل الاخرة ملجؤون إلى ترك القبيح، لانهم لو لم يكونوا ملجئين لوجب أن يكونوا مزجورين من القبيح بالامر والنهي والثواب والعقاب، وذلك يوجب أن يكون ذلك التكليف، ولاخلاف أنه ليس هناك تكليف. وإن لم يزجروا ولم يلجؤا إلى تركه كانوا مغربين بالقبيح وذلك فاسد. فاذا لايجوز أن يقع منهم القبيح بحال.

وقال بعض المفسرين سئل النبي (صلى الله عليه وآله) فقيل له: ما بال أهل النار عملوا في عمر قصير بعمل أهل النار فخلدوا في النار؟ وأهل الجنة عملوا في عمر قصير بعمل أهل الجنة فخلدوا في الجنة؟ ! فقال: (ان الفريقين كان كل واحد منهما عازما على أنه لو عاش أبدا عمل بذلك).

قوله تعالى:

وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين (٢٩)

(١١٣)

ولوترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون (٣٠) آيتان بلاخلاف.

اخبر الله تعالى في هذه الآية عن الكفار الذين ذكرهم في الآية الاولى، وبين أنهم قالوا لما دعاهم النبي (صلى الله عليه وآله) إلى الايمان والاقرار بالبعث والنشور وخوفهم من العقاب في خلافه، وحذرهم عذاب الآخرة والحشر والحساب على سبيل الانكار لقوله والتكذيب له " ماهي الا حياتنا الدنيا " وعنوا أنه لاحياة لنا في الآخرة على ما ذكرت، وانما هي هذه حياتنا التي حيننا بها في الدنيا وانا لسنا بمبعوثين إلى الآخرة بعد الموت. ثم خاطب نبيه (صلى الله عليه وآله) فقال " ولو ترى إذ وقفوا على ربهم " يعني على ما وعدهم ربهم من العذاب الذي يفعله بالكفار في الآخرة والثواب الذي يفعله بالمؤمنين، وعرفوا صحة ماكان اخبرهم به من الحشر والحساب. وقال لهم ربهم عند مشاهدتهم ووقوفهم عليه " أليس هذا بالحق؟ قالوا بلى وربنا " مقربين بذلك مدعنين له وان كانوا قبل ذلك في الدنيا ينكرونه، قال حينئذ " فذوقوا العذاب بماكنتم تكفرون " بذلك.

ويحتمل أن يكون معنى " اذ وقفوا على ربهم " أنهم حبسوا ينتظر بهم ماياأمر كقول القائل: احبسه على أمره به. وقد ظن قوم من المشبهة أن قوله " اذ وقفوا على ربهم " أنهم يشاهدونه، وهذا فاسد، لان المشاهدة لاتجوز الا على الاجسام أو على ماهو حال في الاجسام، وقد ثبت حدوث ذلك أجمع، فلايجوز أن يكون تعالى بصفة ماهو محدث. وقد بينا أن المراد بذلك:

وقوفهم على عذاب ربهم وثوابه، وعلمهم بصدق ما أخبرهم به في دار الدنيا دون أن يكون المراد به رؤيته تعالى ومشاهدته، فبطل ماظنوه، وايضا فلا خلاف أن الكفار لا يرون الله، والاية مختصة بالكافرين فكيف يجوز أن يكون

(١١٤)

المراد بها الرؤية ! فلا بد للجمع من التأويل الذي بيناه. ويجوز ان يكون المراد بذلك اذا عرفوا ربهم، لانه سيعرفهم نفسه ضرورة في الاخرة، وتسمى المعرفة بالشئ وقوفا عليه يقول القائل: وقفت على معنى كلامك، والمعنى علمته، واذا كان الكفار لا يعرفون الله في الدنيا وينكرونه، عرفهم الله نفسه ضرورة، فذلك يكون وقوفهم عليه، فاذا عرفوه قال لهم " أليس هذا بالحق " يعني ما وعدهم به، فيقولون " بلى " لانهم شاهدوا العقاب والثواب ولم يشكوا فيهما. قوله تعالى:

قد خسر الذين كذبوا بقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألاساء مايزرون (٣١) آية بلاخلاف. اخبر الله تعالى أنه خسر هؤلاء الكفار " الذين كذبوا بقاء الله " يعني الذين كذبوا بما وعد الله به من الثواب والعقاب وجعل لقاءهم لذلك لقاء له تعالى مجازا، كما يقول المسلمون لمن مات منهم: قد لقي الله وصار اليه. وانما يعنون: لقي ما يستحقه من الله وصار إلى الموضع الذي لايملك الامر فيه سواه، كما قال " ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنتظرون " (١) والموت لايشاهد، وانما أراد انكم كنتم تمنون الموت من قبل ان تلقوا أسبابه، فقد رأيتم أسبابه وانتم تنتظرون، فجعل لقاء أسبابه لقاء هـ. وقوله " حتى اذا جاءتهم الساعة بغتة " كل شئ أتى فجأة، فقد بغت يقال: قد بغته الامر ببغته بغتا وبغته اذا أتاه فجأة قال الشاعر:

(١) سورة ٣ آل عمران آية ١٤٣

(١١٥)

ولكنهم ماتوا ولم أحش بغتة * واطع شئ حين يفجؤك البغت (٢) وقوله " قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها " قد علم أن الحسرة لاتدعى وانما دعاؤها تنبيه للمخاطبين. و (الحسرة) شدة الندم حتى يحسر النادم كما يحسر الذي تقوم به دابته في السفر البعيد. قال الزجاج: العرب اذا اجتهدت في المبالغة في الاخبار عن أمر عظيم يقع فيه جعلته نداء، فلفظه لفظ ماينبه، والمنبه به غيره، كقوله " يا حسرة على العباد " (٣) وقوله " يا حسرتي على ما فرطت " (٤) و " ياويلنا ألد وأنا عجوز " (٥) و " ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا " (٦)، فهذا أبلغ من ان يقول: أنا اتحسر على العباد وابلغ من ان يقول: الحسرة علينا في تفرطنا. قال سيبويه: اذا قلت يا عجباه فكأنك قلت احضر وتعال يا عجب، فانه من أزمانك. وتأويل " يا حسرتنا " انتبهوا على أنا قد خسرنا. وقوله " على ما فرطنا فيها "

يعني قدمنا العجز. وقيل معناه ماضيعنا فيها يعني في الساعة. وانما يحسروا على تفریطهم في الايمان والتأهب لكونها بالاعمال الصالحة.

وقوله " وهم يحملون أوزارهم " يعني ثقل ذنوبهم، وهذا مثل جائزان يكون جعل ماينالهم من العذاب بمنزلة أثقل مايتحمل، لان الثقل قد يستعمل في الوزن وقد يستعمل في الحال تقول في الحال: قد ثقل علي خطاب فلان، ومعناه كرهت خطابه كراهة اشتدت علي. ويحتمل أن يكون المراد بالاوزار العقوبات التي استحقوها بالذنوب والعقوبات قدتسمى اوزارا، فبين أنه لثقلها عليهم يحملونها على ظهورهم. وذلك يدل على عظمها. و (الوزر) الثقل في اللغة اشتقاقه من الوزر، وهو الجبل الذي يعتصم به. ومنه قيل: وزير،

(٢) قائله: يزيد بن ضبة الثقفي. اللسان (بغت) ومجاز القرآن ١: ١٩٣ (٣) سورة ٣٦ يس آية ٣٠ (٤) سورة ٣٩ الزمر آية ٥٦ (٥) سورة ١١ هود آية ٧٢ (٦) سورة ٣٦ يس آية ٥٢

(١١٦)

كأنه يعتصم الملك به، ومنه قوله " واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي " (٣) وقال " وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا " (٤). وقوله " الاساء مايزرون " يعني بئس الشيء شيئا يزرونه أي يحملونه، وقدينا عمل (بئس، ونعم) فيما مضى. ومثله " ساء مثلا القوم " (٥) ومعناه ساء مثلا مثل القوم. وقال بعضهم: معنى " يحملون أوزارهم على ظهورهم " وصف افتضاحهم في الموقف بما يشاهدونه من حالهم وعجزهم عن عبور الصراط كما يعبره المخفون من المؤمنين. ومعنى قوله " ألساء " ماينالهم جزاء لذنوبهم واعمالهم الردية اذ كان ذلك عذابا ونكالا.

وقوله " يزررون " من وزر يزر وزرا اذا أثم. وقيل أيضا، وزر، فهو موزور اذا فعل به ذلك. ومنه الحديث في النساء يتبعن جنازة قتيل لهن (أرجعن موزورات غير مأجورات) والعامّة تقول مازورات.

قوله تعالى:

وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ولدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون (٣٢) آية بلاخلاف.

قرأ ابن عامر " ودار الآخرة " بلام واحدة مع تخفيف الدال. وخفض (الآخرة) على الاضافة. الباقرن بلامين وتشديد الدال وضم الآخرة. وقرأ اهل المدينة وابن عامر وحفص ويعقوب " تعقلون " بالتاء هاهنا وفي (الاعراف ويوسف) وافقهم يحيى والعلمي في (يوسف). ومن قرأ بلامين وشدد الدال جعل (الآخرة) صفة ل (ولدار)، وأجراها في الاعراب مجراها. واستدل

على كونها صفة (الدار) بقوله: " وللآخرة خير لك من الأولى " (٦) فاقامتها مقامها يدل على أنها هي وليس غيرها. فيجوز أن يضيف إليها، وقوا ذلك

(٣) سورة ٢٠ طه آية ٢٩ - ٣٠ (٤) سورة ٢٥ الفرقان آية ٣٥ (٥) سورة ٧ الاعراف آية ١٧٦ (٦) سورة ٩٣ الضحى آية ٤

(١١٧)

بقوله " وإن الدار الآخرة لهي الحيوان " (٢) وقوله " تلك الدار الآخرة " (٣) ومن قرأ بلام واحدة وخفف الدال فانه لم يجعل " الآخرة " صفة (الدار) لان الشئ لا يضاف إلى نفسه لكنه جعلها صفة للساعة، وكأنه قال: ودار الساعة الآخرة، وجاز وصف الساعة ب (الآخرة) كما وصف اليوم بالآخر في قوله: " وارجوا اليوم الآخر " (٤) وحسن اضافة (الدار) إلى الآخرة ولم يقبح من حيث استقبح اقامة الصفة مقام الموصوف، لان الآخرة صارت كالابطح والابرق، ألا ترى أنه قد جاء " وللآخرة خير لك من الأولى (٥) واستعملت استعمال الاسماء ولم تكن مثل الصفات التي لم تستعمل استعمال الآخرة. ومثل (الآخرة) في انها استعملت استعمال الاسماء قولهم: الدنيا، لما استعملت استعمال الاسماء حسن أن لاتلحق لام التعريف في نحو قول الشاعر: في سعي دنيا طال ماقد مدت وقال الفراء: جعلت (الدار) هاهنا اسما و (الآخرة) صفتها، وأضيفت في غير هذا الموضوع. ومثله مما يضاف إلى مثله قوله: " حق اليقين " (٦) والحق هو اليقين، ومثله قولهم بارحة الأولى، ويوم الخميس، فيضاف الشئ إلى نفسه اذا اختلف اللفظ، واذا اتفق لم يجز ذلك، لا يقولون حق الحق ولا يقين اليقين، لانهم يتوهمون اذا اختلفا في اللفظ أنهما مختلفان في المعنى.

بين الله تعالى في هذه الآية أن ما يتمتع به في الدنيا بمنزلة اللعب واللهو، اللذين لاعاقبة لهما في المنفعة ويقتضي زوالهما عن أهلها في أدنى مدة وأسرع زمان، لانه لاثبات لهما ولابقاء، فأما الاعمال الصالحات، فهي من أعمال الآخرة وليست بلهو ولالعب. وبين ان الدار الآخرة وما فيها من أنواع النعيم والجنان خير للذين يتقون معاصي الله، لانها باقية دائمة لا يزول عنهم نعيمها

(٢، ٤) سورة ٢٩ العنكبوت آية ٦٤، ٣٦ (٣) سورة ٢٨ القصص آية ٨٣ (٥) سورة ٩٣ الضحى آية ٤ (٦) سورة ٥٦ الواقعة آية ٥.

ولا يذهب عنهم سرورها.

وقوله " أفلا تعقلون " أن ذلك كما وصفت لهم فيزهدوا في شهوات الدنيا ويرغبوا في نعيم الآخرة بفعل ما يؤديهم إليه من الأعمال الصالحة.

ومن قرأ (يعقلون) بالياء، فلانه قد تقدم ذكر الغيبة في قوله " للذين يتقون " والتقدير أفلا يعقل الذين يتقون ان الدار الآخرة خير لهم من هذه الدار فيعملوا بما ينالون به من النعيم الدائم. ومن قرأ بالتاء قصد خطاب جميع الخلق المواجهين به.

والعقل هو الامسك عن القبيح وقصر النفس وحبسها على الحسن والحجاء أيضا احتباس وتمكث، قال الشاعر:

فهن يعكفن به اذا حجا (١)

وانشد الاصمعي حيث يحجا مطرق بالفالق (٢)

حجا أقام بالمكارة، والحجا مصدر كالشبع، ومنه الحجيا اللغز للتمكث الذي يلقي عليه حتى يستخرجها. قال ابوزيد: جمع حجي حجيات، فجاءت الحجيا مصغرة كالثريا والجديا، والنهي يحتمل أن يكون جمعا بدلالة قوله " لاولي النهي " (٣) لانه اضافه إلى الجمع. ويجوز ان يكون مفردا في موضع الجمع، وهو في معنى ثبات، وحسن. ومنه النهي، والنهي والتهيئة للمكان الذي ينتهي إليه الماء فينتقع فيه لتسفله ويمنعه ارتفاع ماحوله من أن يسبح فيذهب على وجه الارض.

قوله تعالى:

قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فانهم لا يكذبونك

(١) قائله العجاج. اللسان (حجا) وعجزه (عكف النبيت يلعبون الفنرجا)

(٢) قائله عمار بن أيمن الرياني. اللسان (حجا).

(٣) سورة ٢٠ طه آية ٥٤، ١٢٨.

ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون (٣٣) آية بلا خلاف.

قرأ نافع والكسائي والاعشى الالنفار " لا يكذبوك " بسكون الكاف وتخفيف الدال، وهو المروي عن علي (ع) وعن ابي عبدالله (ع). الباقر بفتح الكاف وتشديد الال من التكذيب. وقرأ نافع " انه ليحزنك " بضم الياء وكسر الزاي. الباقر بفتحها وضم الزاي. قال ابو علي الفارسي (فعل، وفعلته) جاء في حروف، والاستعمال في (حزنته) أكثر من (أحزنته) فالي كثرة

الاستعمال ذهب عامة القراء. وقال تعالى " اني ليحزني أن تذهبوا به " (١) ويقال حزن يحزن حزنا وحزنا، قال تعالى " ولا تحزن عليهم " (٢)

ثم قال: " ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون " (٣) قال سيبويه: قالوا (حزن الرجل، وحزنته) قال وزعم الخليل: أنك حيث قلت (حزنته) لم ترد ان تقول جعلته حزينا كما أنك حيث قلت أدخلته أردت جعلته داخلا، ولكنك أردت ان تقول جعلت فيه حزنا كما قلت كحلته أي جعلت فيه كحلا، ودهنته جعلت فيه دهنا، ولم يرد ب (فعلته) هذا تعدية قوله حزن، ولو أردت ذلك لقلت احزنته ومثل ذلك ستر الرجل وسترت عليه، فاذا اردت تغيير ستر الرجل قلت أسترت كما تقول فزع وافزعته.

وحجة نافع أنه اراد تغيير (حزن) فنقله بالهمزة. وقال الخليل: اذا أردت تغيير (حزن) قلت (أحزنته) فدل ذلك على أن (أحزن) مستعمل وان كان (حزنته) اكثر. وحكى أبو زيد: أحزنتي الامر احزانا، وهو يحزنتي، ضموا الياء. وقال سيبويه: قال بعض العرب: افنيت الرجل وأحزنته وارجعته واعورت عينه، أي جعلته حزينا وفانيا، فغيروا ذلك كما فعلوا بالباب الاول.

(١) سورة ١٢ يوسف آية ١٣ .

(٢) سورة ١٥ الحجر آية ٨٨ والنحل ١٦ آية ١٢٧ والنمل ٢٧ آية ٧٠ (٣) سورة ٢ البقرة آية ٣٨، ٦٢، ١١٢، ٢٦٢، ٢٧٤، و ٥ المائدة آية ٧٢ و ٦ الانعام آية ٤٨ و ٧ الاعراف آية ٣٤ و ١٠ يونس آية ٦٢ وغيرها.

(١٢٠)

وقوله " قد نعلم انه " انما كسرت الهمزة، لان في خبرها لاما للتأكيد.

لما علم الله تعالى أن النبي (ص) يحزنه تكذيب الكفار له وجدهم نبوته سلاه عن ذلك بأن قال " فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون " ومن قرأ بالتخفيف قال: معناه لا يلفونك كاذبا، كما يقولون: سألته فما ابخلته، وقائلته فما أجبنته أي ما وجدته بخيلا ولا جبانا. وقال أبو عبد الله (ع)

معنى " لا يكذبونك " لا يأتون بحق يبطلون به حقك. وقال الفراء: معنى التخفيف لا يجعلونك كاذبا، وانما يريدون أن ماجئت به باطل، لانهم لم يفتروا عليك كذبا، فيكذبوا لانهم لم يعرفوه (ص) وانما قالوا: ان ماجئت به باطل لانعرفه من النبوة، فأما التكذيب بأن يقال له كذبت، وقال بعض اهل اللغة: هذا المعنى لا يجوز، لانه لا يجوز أن يصدقوه ويكذبوا ماجاء به، وهو ان الله ارسلني اليكم وأنزل علي هذا الكتاب وهو كلام ربي. ومن قرأ بالتشديد احتمل وجوها:

أحدها - انهم لا يكذبونك بحجة يأتون بها أو برهان يدل على كذبك، لان النبي (صلى الله عليه وآله) اذا كان صادقاً فمحال أن يقوم على كذبه حجة، ولم يردأنهم لا يكذبونه سفها وجهلا به. والثاني - أنه اراد فانهم لا يكذبونك بل يكذبوني لانا من كذب النبي (صلى الله عليه وآله) فقد كذب الله، لان الله هو المصدق له كما يقول القائل لصاحبه: فلان ليس يكذبك، وانما يكذبني دونك، يريد ان تكذبيه اياك راجع إلى تكذبي، لاني أنا المخبر لك وانت حال عني. وثالثها - ان يكون اراد انهم لا ينسبونك إلى الكذب لانك كنت معروفاً عندهم بالامانة والصدق فانه (صلى الله عليه وآله) كان يدعى فيهم الامين قبل الوحي، وكان معروفاً بينهم بذلك لكنهم لما أتيتهم بالآيات جحدوها بقصدتهم التكذيب بآيات الله وجحدوها لا لتكذبيك، قال أبو طالب: ان ابن أمة الامين محمداً

(١٢١)

ورابعها - ان تكون الآية مخصوصة بقوم معاندين كانوا عارفين بصدقه ولكنهم يجحدونه عنادا وتمردا. وقال الحسن: معناه " نعلم انه ليحزنك الذي يقولون " انك ساحر وانك مجنون فانهم لا يكذبونك، لان معرفة الله في قلوبهم بانه واحد " ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ". وخامسها - قال الزجاج: لا يكذبونك، لا يقدر ان يقولوا لك فيما انبأت به بما في كتبهم كذبت. قال أبو علي: يجوز ان يكون المعنى - فيمن ثقل - قلت له كذبت، مثل زنيته وفسقته اذا نسبته إلى الزنا والفسق. و (فعلت) جاء على وجوه نحو خطأته أي نسبته إلى الخطأ، وسقيته ورعيتيه، أي قلت له سقاك الله ورعاك، وقد جاء في هذا المعنى أفعلته، قالوا: أسقيته، أي قلت له سقاك الله، قال الشاعر: وأسقيته حتى كاد مما أبثه * تكلمني أحجاره وملاعبه (١) فيجوز على هذا أن يكون معنى القراءتين واحداً، وان اختلف اللفظان، كما تقول: قلت وكثرت وأقلت وأكثرت بمعنى واحد حكاه سيبويه، وقال الكمي: فطائفة قد اكفروني بحبكم * وطائفة قالوا مسيئاً ومذنب (٢) وحكى الكسائي عن العرب أكذبت الرجل اذا أخبرت انه جاء بكذب، وكذبتة اذا اخبرت انه كذاب بقوله كذبتة اذا اخبرت انه جاء بكذب، كقولهم: اكفرته اذا نسبوه إلى الكفر، وكذبتة اخبرته أنه كذاب مثل فسقته اذا اخبرت انه فاسق. وقوله " ولكن الظالمين " يعني هؤلاء الكفار " بآيات الله " يعني القرآن والمعجزات يجحدون ذلك بغير حجة، سفها وجهلا وعنادا.

(١) مقاييس اللغة ١: ١٧٢.

(٢) قد مر هذا البيت في ١: ١١٦.

(١٢٢)

قوله تعالى:

ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتيتهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبي المرسلين (٣٤) آية بلا خلاف.
سلى الله تعالى بهذه الآية نبيه (صلى الله عليه وآله) بان اخبر ان الكفار قد كذبوا رسلا من قبلك، وصبر الرسل على تكذيبهم وعلى ما نالهم من أذاهم، وتكذيب الكفار لهم، حتى اذا جاء نصر الله اياهم على المكذبين، فمنهم من نصرهم عليهم بالحرب ومكنهم من الظفر بهم حتى قتلوهم، ومنهم من نصرهم عليهم بان أهلكهم واستأصلهم كما أهلك عادا وثمودا وقوم نوح ولسوط، وغيرهم.

فأمر الله نبيه (صلى الله عليه وآله) بالصبر على كفار قومه وأذاهم إلى ان يأتيه نصره كما صبرت الانبياء. وقوله " لا مبدل لكلمات الله " معناه لأحد يقدر على تكذيب خبر الله على الحقيقة، ولا على إخلاف وعده فان ما أخبر الله به ان يفعل بالكفار، فلا بد من كونه لا محالة، وما وعدك به من نصره فلا بد من حصوله، لانه لا يجوز الكذب في اخباره، ولا الخلف في وعده. وقيل:

معناه انه لا يبطل لحجه وبراهينه ولا يفسد لادلته.

وقوله " ولقد جاءك من نبي المرسلين " معناه انه لا تبديل لخبر الله ولاخلف لذلك ولا تكذيب، وان ما أخبر الله به ان ينزله بالكفار فانه سيفعل بهم كما فعل بأمم من تقدم من الانبياء الذين أنزل الله عليهم العذاب واستأصلهم بتكذيبهم أنبياءهم وعرفك أخبارهم على صحتها.

قوله تعالى:

وإن كان كبر عليك إعراضهم فان استطعت أن تبتغي نفقا في الارض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله

(١٢٣)

لجمعهم على؟؟ فلا تكونن من الجاهلين (٣٥) آية بلا خلاف خاطب الله تعالى بهذه الآية نبيه (صلى الله عليه وآله) فقال له " ان كان كبر عليك " وعظم عندك " اعراضهم " أي اعراض هؤلاء الكفار عما أتيتهم به من القرآن والمعجزات وامتاعهم من اتباعك والتصديق لك وكنت حزينا

لذلك " فان استطعت " وقدرت أو تهيأ لك ان تبتغي نفقا ان تتخذ في جوف الارض مسكنا وهو النفق " في الارض " اذا كان له منفذ " أو سلما في السماء " أو ان تصعد إلى السماء بسلم " فتأتيهم بآية " يعني بآية تلجئهم إلى الايمان وتجمعهم عليه وعلى ترك الكفر فافعل ذلك. وحذف فافعل لدلالة الكلام عليه، كما تقول: ان رأيت ان تقوم ومعناه فقم، وان أراد غير ذلك لم يجز ان يسكت الا بعد ان يأتي بالجواب، لانه ان اراد ان أردت ان تقوم تصب خيرا فلا بد من الجواب، ولم يرد بذلك آية يؤمنون عندها مختارين، لانه تعالى فعل بهم الايات التي تزاح علتهم بها ويتمكنون معها من فعل الايمان لانه لو علم تعالى أنه اذا فعل بهم آية من الايات يؤمنون عندها مختارين وجب ان يفعلها بهم. وبين انه فعل بهم جميع ما لا ينافي التكليف وهم لا يؤمنون كما قال " ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة " (١) الاية، وكما قال " ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما اتبعوا قبلك " (٢) وانما لم يفعل ما يلجئهم إلى الايمان، لان ذلك ينافي التكليف ويسقط استحقاق الثواب الذي هو الغرض بالتكليف، وانما أراد الله تعالى ان يبين لنبيه (صلى الله عليه وآله) انه لا يستطيع هذا ولا يقدر عليه، فلا ينبغي ان يلزم نفسه الغم والجزع لكفرهم واعراضهم عن الايمان والتصديق به، وجعل ذلك عزاء لنبيه (صلى الله عليه وآله) وتسلية له ثم اخبر انه لو شاء ان يجمعهم على الايمان على وجه الاجاء لكان على ذلك قادرا لكنه ينافي ذلك الغرض بالتكليف، وجرى ذلك مجرى قوله " ان

(١) سورة ٦ الانعام آية ١١١ (٢) سورة ٢ البقرة آية ١٤٥

(١٢٤)

نشأ نزل عليهم من السماء آية فظلت اعناقهم لها خاضعين " (٣) فانه أراد بذلك الاخبار عن قدرته وانه لو شاء الجاءهم إلى الايمان لكان عليه قادرا. ولا يدل ذلك على أنه لم يشأ منهم الايمان على وجه الاختيار منهم أو لم يشأ ان يفعل ما يؤمنون عنده مختارين، لان الله تعالى قد شاء منهم الايمان على هذا الوجه وانما أفاد نفي المشيئة لما يلجئهم إلى الايمان، لانه متى ألجأهم اليه لم يكن ذلك ايمانا يستحق عليه الثواب، والغرض بالاية ان يبين تعالى ان الكفار لم يغلبوا الله بكفرهم ولا قهروه بخلافه وانه لو أراد أن يحول بينهم وبينه لفعل، لكنه يريد ان يكون ايمانهم على وجه يستحقون به الثواب، ولا ينافي التكليف.

وقوله " فلا تكونن من الجاهلين " انما هو نهي محض عن الجهل ولا يدل ذلك على ان الجهل كان جائزا منه (صلى الله عليه وآله) بل يفيد كونه قادرا عليه، لانه تعالى لا يأمر ولا ينهي الا بما يقدر المكلف عليه، ومثله قوله " لئن اشركت ليحبطن عملك " (٤) وان كان الشرك لا يجوز عليه لكن لما كان قادرا عليه جاز أن ينهاه عنه. والمراد هاهنا فلا تجزع ولا تحزن

لكفرهم واعراضهم عن الايمان، وانهم لم يجمعوا على التصديق بك فتكون في ذلك بمنزلة
الجاهلين الذين لا يصبرن على المصائب، ويأثمون لشدة الجزع.

والنفق: الطريق النافذ في الارض والنافاء ممدودا وجر حجر اليربوع يحفره من باطن
الارض إلى جلد الارض فاذا بلغ الجلدة أرقها فاذا رابه ريب وقع برأسه هذا المكان وخرج
منه، ومنه سمي المنافق منافق لانه أبطن غير ما أظهر، والسلم مشتق من السلامة لانه يسلمك
إلى مصعدك.

قوله تعالى:

إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى بيعتهم الله ثم إليه يرجعون (٣٦) آية بلا خلاف.

(٣) سورة الشعراء آية ٤ (٤) سورة ٣٩ الزمر آية ٦٥

(١٢٥)

الوقف عند قوله " الذين يسمعون " ومعنى الآية انما يستجيب إلى الايمان بالله وما أنزل اليك
من يسمع كلامك ويصغي اليك، والى ما تقرأ عليه من القرآن وما تبين له من الحجج والايات
ويفكر في ذلك لانه لا يتبين الحق من الباطل الا لمن تفكر فيه واستدل عليه بما يستمع أو
يعرف من الايات والادلة على صحته، وجعل من لم يتفكر ولم ينتفع بالايات بمنزلة من لم
يستمع كما قال الشاعر:

لقد اسمعت لو ناديت حيا * ولكن لا حياة لمن تنادي (١)

وكما جعله الشاعر بمنزلة الاصم في قوله:

اصم عما ساءه سميع (٢)

وقوله " والموتى بيعتهم الله " معناه ان الذين لا يصغون اليك من هؤلاء الكفار ولا يسمعون
كلامك ان كلمتهم، ولا يسمعون ما تقرأه عليهم وتبينه لهم من حجج الله وآياته، وينفرون عنه
اذا كلمتهم بمنزلة الموتى، فكما ان الموتى لا يستجيبون لمن يدعوهم إلى الحق والايمان،
فكذلك هؤلاء الكفار لا يستجيبون لك اذا دعوتهم إلى الايمان، فكما آيست ان يسمع الموتى
كلامك إلى ان بيعتهم الله والى ان يرجعوا اليه، فكذلك فأيس من هؤلاء أن يسمعوا كلامك وأن
يستجيبوا لك. وبين أن الموتى اذا بعثهم الله بمعنى أحياهم انهم يرجعون بعد الحشر والبعث
إلى الموضع الذي لا يملك الحكم فيه عليهم غير الله تعالى، ولا يملك محاسبتهم وضرهم
ونفعهم غيره، فجعل رجوعهم إلى ذلك الموضع رجوعا إلى الله وذلك مستعمل في اللغة:

وقال مجاهد: " انما يستجيب الذين يسمعون " يعني المؤمنين يسمعون الذكر " والموتى يبعثهم الله " يعني المشركين الصم يبعثهم الله فيحييهم من شركهم حتى يؤمنوا " ثم الينا يرجعون " يوم القيامة.

(١) مر هذا البيت في ٦٤ وهو مشهور.

(٢) انظر ٢: ٨٠.

(١٢٦)

قوله تعالى:

وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون
(٣٧).

قرأ ابن كثير " ينزل " بالتخفيف. الباقر بالتشديد.

ومعنى " وقالوا " اخبار عما قاله الكفار من انهم قالوا " لولا " ومعناه:

هلا " أنزل عليه آية " يعني الآية التي سألوها واقترحوا أن يأتيهم بها من جنس ما شاعوا لما قالوا " فليأتنا بآية كما أرسل الاولون " (١) يعنون فلق البحر واحياء الموتى. وانما قالوا ذلك حين أيقنوا بالعجز عن معارضته فيما أتى به من القرآن، فاستراحوا إلى أن يلتمسوا مثل آيات الاولين، فقال الله تعالى " أو لم يكفهم أنا نزلنا عليك الكتاب " (٢) وقال هاهنا قل يا محمد " ان الله قادر على ان ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون " ما في إنزالها من وجوب الاستئصال لهم اذا لم يؤمنوا عند نزولها. وما في الاقتصار بهم على ما أوتوا من المصلحة لهم. وبين في آية أخرى انه لو أنزل عليهم ما أنزل لم يؤمنوا، وهو قوله " ولو أننا اليهم الملائكة " إلى قوله: " ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله " (٣) ان يكرههم. وقال " وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الاولون " (٤) يعني الآيات التي اقترحوها انما لم نأتهم بها، لانا لو أتيناها بها ولم يؤمنوا وجب استئصالهم، كما وجب استئصال من تقدمهم ممن كذب بآيات الله. وقال في سورة العنكبوت " وقالوا لا أنزل عليه آية من ربه قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين أو لم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب " (٥) الآية. فبين ان الآيات لا يقدر عليها الا الله، وقد أتاهم بما فيه

(١) سورة ٢١ الانبياء آية ٥.

(٢) سورة ٢٩ العنكبوت آية ٥١ (٣) سورة ٦ الانعام آية ١١١ (٤) سورة ١٧ الاسرى آية ٥٩ (٥) سورة ٢٩

العنكبوت آية ٥٠ - ٥١

(١٢٧)

كفاية وإزاحة لعلتهم وهو القرآن، وغيره مما شاهدوه ومن المعجزات والايات، ولايلزم اظهار المعجزات بحسب اقتراح المقترحين، لانه لولزم ذلك لوجب اظهارها في كل حال ولكل مكلف وذلك فاسد.

وقد طعن قوم من الملحدين، فقالوا: لوكان محمد قد أتى بآية لما قالوا له " لولا أنزل عليه آية " ولما قال " ان الله قادر على ان ينزل آية ".

قيل: قيد بينا أنهم التمسوا آية مخصوصة وتلك لم يؤتوها وان كان الله تعالى قادرا عليها، وانما لم يؤتوها لان المصلحة منعت من انزالها، وانما اتى بالايات الاخر التي دلت على نبوته من القرآن وغيره على ماقتضته المصلحة، ولذلك قال فيما تلوناه " أو لم يكفهم أنا انزلنا عليك الكتاب " فبين ان في انزال الكتاب كفاية ودلالة على صدقه وانه لايجتاج معه إلى أمر آخر فسقط ماقلوه.

قوله تعالى:

ومامن دابة في الارض ولاطائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم مافرطنا في الكتاب من شئ ثم إلى ربهم يحشرون (٣٨)
آية بلا خلاف.

الوقف عند قوله " أمم أمثالكم " وقف تام.

ابتدأ الله تعالى بهذه الاية فأخبر بشأن سائر الخلق. وبازاحة علة عباده المكفين في البيان ليعجب عباده في الاية التي بينها من الكفار وذهابهم عن الله تعالى فقال: " ومامن دابة في الارض ولاطائر يطير بجناحيه " فجمع جميع الخلق بهذين اللفظين، لان جميع الحيوان لا يخلو من أن يكون مما يطير بجناحيه أويذب " الا امم أمثالكم " أي هم اجناس واصناف كل صنف يشتمل على العدد الكثير والانواع المختلفة وان الله خالقها ورازقها، وانه يعدل عليها فيما يفعله، كما خلقكم ورزقكم وعدل عليكم، وان جميعها دالة وشاهدة على مدبرها وخالقها وانتم بعد ذلك تموتون والى ربكم تحشرون. فبين بهذه العبارة أنه لاينبغي

(١٢٨)

لهم ان يتعدوا في ظلم شئ منها، فان الله خالقها وهو الناهي عن ظلمها والمنتصف لها. وفي قوله: " يطير بجناحيه " أقوال: احدها - ان قوله بجناحيه تأكيد كما يقولون: رأيت بعيني، وسمعت باذني، وربما قالوا: رأيت بعيني وسمعت اذني، كل ذلك تأكيد. وقال الفراء: معنى ذلك انه اراد مايطير بجناحيه دون مايطير بغير جناحين، لانهم يقولون قدام الفرس يطير طيرا

وسارت السفينة تطير تطيرا، فلولم يقل (بجناحيه) لم يعلم انه قصد إلى جنس مايطير بجناحيه دون سائر مايطير بغير جناحين. وقال قوم: انما قال " بجناحيه " لان السمك عند اهل الطبع طائر في الماء، ولا أجنحة لها، وانما خرج السمك عن الطائر، لانه من دواب البحر، وانما أراد مافى الارض ومافى الجو، ولاحيوان موجود غيرهما. وقال قوم: انما قال ذلك ليدل على الفرق بين طيران الطيور بأجنحتها وبين الطيران بالاسراع تقول: طرت في جناحين، اذا أسرع، قال الشاعر:

فلو أنها تجري على الارض أدركت * ولكنها تهفوا بتمثال طائر
وانشد سيويه:

فطرت بمنصلي في يعملات * دوام الايد يحبطن السريحا (١)
وقال المغربي: أراد ان يفرق بين الطائر الذي هو الفائز الفالج في القسم، وقال مزاحم العقيلي:
وطير بمخراق أشم كأنه * سليل جيا دلم تتله الزعانف (٢)
أي فوزي واغمني. وقوله: " مافرطنا في الكتاب من شئ " قيل " مافرطنا " معناه ماتركنا.
وقيل: ماقصرنا. وفي الكتاب قولان:

احدهما - انه أراد الكتاب المحفوظ عنده من أجال الحيوان وأرزاقه وآثاره ليعلم ابن آدم ان عمله اولى بالاحصاء والاستقصاء، ذكره الحسن.
الثاني - مافرطنا في القرآن من شئ يحتاج اليه في أمور الدين والدنيا

(١، ٢) اللسان (طير).

(١٢٩)

الوقد بيناه اما مجملا أو مفصلا، فماهو صريح يفيد لفظا، وماهو مجمل بينه على لسان نبيه وأمر باتباعه في قوله " وماآتاكم الرسول فخذوه ومانها كم عنه فانتهوا " (١) ودل بالقرآن على صدق نبوته ووجوب أتباعه، فاذا لايبقى أمر من امورالدين والدنيا الا وهو في القرآن - وهذا الوجه اختاره الجبائي - وقال البلخي: " مافرطنا في الكتاب من شئ " أي لم ندع الاحتجاج بما يوضح الحق ويدعو إلى الطاعة والمعرفة ويزجر عن الجهل والمعصية، وتصريف الامثال وذكر أحوال الملائكة وبني آدم وسائر الخلق من أصناف الحيوان. وكل جنس من الحيوان أمة، لان الامة الجماعة ويقال للصبيان: أمة وان لم يجب عليهم التكليف. وقوله تعالى: " ثم إلى ربهم يحشرون " معناه يحشرون إلى الله بعد موتهم يوم القيامة كما يحشر العباد، فيعوض الله تعالى مايستحق العوض وينتصف لبعضها من بعض، فاذا عوضهما، قال قوم: انها تصير ترابا فحينئذ يتمنى الكافر فيقول " ياليتني كنت ترابا " (٢)

وقال قوم: يديم الله أعواضها ويخلقها على أحسن ما يكون من الصور فيسر بها المثابون ويكون ذلك من جملة ما ينعمون به، ذكره البلخي. وقال قوم: " يحشرون " معناه يموتون ويفنون وهذا بعيد، لان الحشر في اللغة هو بعث من مكان إلى غيره، وها هنا لا معنى للحشر الذي هو الفناء وإنما معناه انهم يصيرون إلى ربهم ويبعثون اليه. واستدل قوم من التناسخية بهذه الآية على ان البهائم والطيور مكلفة، لانه قال " أم امثالكم " وهذا باطل، لانا قد بينا من أي وجه قال: انها " أم امثالكم " ولو وجب حملها على العموم لوجب ان تكون أمثالنا في كونها ناسا وفي مثل صورنا واخلاقنا، فمتى قالوا لم يقل امثالنا في كل شيء، قلنا: وكذلك الامتحان والتكليف، على انهم مقرون بان الاطفال غير مكلفين ولا متحنين، فما يحملون به امتحان الصبيان بعينه نحمل بمثله امتحان البهائم، وكيف يصح

(١) سورة ٥٩ الحشر آية ٧ (٢) سورة ٧٨ النبا آية ٤٠

(١٣٠)

تكليف البهائم والطيور وهي غير عاقلة. والتكليف لا يصح الا لعاقل، على ان الصبيان أعقل من البهائم ومع هذا فليسوا مكلفين، فكيف يصح تكليف البهائم؟! واما قوله " وان من أمة الا خلا فيها نذير " (١) فانه مخصوص بالمكلفين العقلاء من البشر والجن، والملائكة بدلالة أن الاطفال أمم وليس فيها نذيره واستدل ابو القاسم البلخي بهذه الآية على ان العوض دائم بان قال:

بين الله تعالى انه يحشر الحيوان كلها ويعوضها، فلو كان العوض منقطعاً لكان اذا أماتها استحققت اعواضا آخر على الموت وذلك يتسلسل، فدل على انه دائم وهذا ليس بشيء، لانه يجوز ان يميت الله الحيوان على وجه لا يدخل عليهم الالم، فلا يستحقون عوضا ثانيا، فالاولى ان يقول: ان دام دام تفضلا منه تعالى.

وقوله " ولا طائر " فانه جر، عطف على دابة وتقديره ولا من طائر، وكان يجوز ان يقرأ بالرفع حملا على المعنى، كما تقول: وما جاعني من رجل ولا امرأة، وتقديره ما جاعني رجل ولا امرأة ومثله قوله " ولا اصغر من ذلك ولا أكبر " (٢) في موضع بالنصب وفي موضع آخر بالرفع على ما قلناه.

قوله تعالى:

والذين كذبوا باياتنا صم وبكم في الظلمات من يشاء الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم (٣٩) آية بلاخلاف.

الوقف التام عند قوله " في الظلمات ". وقوله " صم وبكم في الظلمات " يحتمل امرين:

أحدهما - أن يراد أن هؤلاء الكفار الذين كذبوا بآيات الله صم وبكم في الظلمات في الآخرة على الحقيقة عقوبة لهم على كفرهم، لأنه ذكرهم عند ذكر الحشر.

(١) سورة فاطر آية ٢٤ (٢) سورة ١٠ يونس آية ٦١ وسورة ٣٤ سبأ آية ٣

(١٣١)

والثاني - ان يكون عنى انهم صم وبكم في الظلمات في الدنيا، فمتى أريد الاول كان ذلك حقيقة، لانه تعالى لايمتتع ان يجعلهم صما بكما في الظلمات، ويضلهم بذلك عن الجنة وعن الصراط الذي يسلكه المؤمنون اليها ويصيرهم إلى النار. وان أريد به الوجه الثاني، فانه يكون مجازا وتوسعا.

وانما شبههم بالصم والبكم الذين في الظلمات، لان المكذبين بآيات الله لايهتدون إلى شئ مما ناله المؤمنون من منافع الدين ولايصلون إلى ذلك، كما أن الصم البكم الذين في الظلمات لايهتدون إلى شئ من منافع الدنيا ولايصلون اليها، فتشبيهم من هذا الوجه بالصم البكم. وقال البلخي " صم وبكم في الظلمات " معناه في الجهل والشرك والكفر وقوله " من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم " لايجوز ان يكون على عمومته، لانا قد علمنا ان الله تعالى لايشاء ان يضل الانبياء والمؤمنين ولايهدي الكافرين، لكن قد بين تعالى في موضع آخر من الذي يشاء ان يضلله، فقال " ومايضل به الا الفاسقين " (١) وقال " ويضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء " (٢) وقال " والذين اهتدوا زادهم هدى " (٣) وقال: " يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام " (٤) وقال " والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا " (٥).

وقوله " ومن يشأ الله يضلله " هاهنا يحتمل امرين:

احدهما - " من يشأ الله يضلله " أي من يشأ يخذله بأن يمنعه أطفاه وفوائده، وذلك اذا واطر عليه الادلة وأوضح له البراهين فأعرض عنها ولم يمعن النظر فيها، فصار كالاصم الاعمى، فحينئذ يشاء أن يضلله بان يخذله.

والثاني - من يشأ الله اضلاله عن طريق الجنة، ونيل ثوابها يضلله على

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٦ (٢) سورة ١٤ ابراهيم آية ٢٧ (٣) سورة ٤٧ محمد آية ١٧ (٤) سورة ٥ المائدة آية ١٨ (٥) سورة ٢٩ العنكبوت آية ٦٩.

(١٣٢)

وجه العقوبة " ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم " ومعناه من يشأ ان يرحمه ويهديه إلى الجنة ونيل الثواب يجعله على الصراط الذي يسلكه المؤمنون إلى الجنة، ويعدل الكافرين عنه إلى النار ولايلحق الاضلال الا الكفار والفساق المستحقين للعقاب وكذلك لايفعل الثواب والخلود في الجنة الا بالمؤمنين، لانه ثواب لايستحقه سواهم. قوله تعالى:

قل رأيكم إن أتاكم عذاب الله أو أتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين (٤٠) بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون (٤١) آيتان بلاخلاف قرأ الكسائي وحده " رأيكم " وما جاء منه إذا كان استفهما بحذف الهمزة التي بعد الراء. والباقون بأثباتها، وتخفيفها إلا أهل المدينة، فانهم جعلوها بين بين، فان كان غير استفهما اتفقوا على اثبات الهمزة وتخفيفها إلا ما رواه ورش في تحقيقها في ستة مواضع ذكرت في باب الهمزة في القراءات.

من حقق الهمزة، فلانه (فعلت) من الروية، فالهمزة عين الفعل، ومن خفف فانه جعلها بين بين، وهذا التخفيف على قياس التحقيق، ومن حذف الهمزة فعلى غير مذهب التخفيف، لان التخفيف القياس فيها أن تجعل بين بين، كما فعل نافع، وهذا حذف، كما قالوا، ويلمه، وكما أنشد احمد بن يحيى:

ان لم أقاتل فالبسوني برقا وقال ابو الاسود:

يا با المغيرة رب أمر معضل وذكر أن عيسى كذلك كان يقرأها ويقوي ذلك قول الراجز:

أريت ان جاءت به أملودا * مرجلا ويلبس البرودا

وقال الفراء: العرب لها في (أريت) لغتان:

(١٣٣)

احدهما - ان يسأل الرجل الرجل أريت زيدا بعينك؟ فهذه مهموزة، فاذا أوقعتها على الرجل منه قلت: أريتك على غير هذه الحال تريد هل أريت نفسك على غير هذه الحال ثم يثنى ويجمع، فتقول للرجلين أريتكما، وللقوم أريتكم، وللنساء أريتكن، وللمرأة أريتك بخفض التاء ولا يجوز إلا ذلك.

والاخر - ان تقول أريتك. وانت تريد اخبرني، فتهزمها وتنصب التاء منها وتترك الهمز ان شئت، وهو اكثر كلام العرب، وتترك التاء مفتوحة للواحد، وللجمع مؤنثه ومذكره، تقول للمرأة: أريتك زيدا، وللنساء أريتكن زيدا مافعل. وانما تركت العرب التاء واحدة لانهم لم يريدوا أن يكون الفعل منها واقعا على نفسها، فاكتفوا بذكرها في الكاف ووجهوا التاء إلى المذكر والتوحيد، اذا لم يكن الفعل واقعا على نفسها.

واختلفوا في هذه الكاف، فقال الفراء: موضعها نصب وتأويلها رفع، مثل قولك: دونك زيدا، فموضع الكاف خفض، ومعناه الرفع، لان المعنى خذ زيدا. قال الزجاج: هذا خطأ ولم يقله أحد قبله، قال: لان قولك أريتك زيدا ما شأنه يصير أريت قد تعدت إلى الكاف والى زيد، فنصب أريت اسمين فيصير المعنى: أريت نفسك زيدا ما حاله. وهذا محال. قال والصحيح

الذي عليه النحويون ان الكاف لاموضع لها والمعنى أرايت زيذا محاله، والكاف زيادة في بيان الخطاب، وهو المعتمد عليه في الخطاب ولذلك تكون التاء مفتوحة في خطاب المذكر والمؤنث والواحد والجمع. فنقول للرجل أرايتك زيذا محاله بفتح التاء والكاف والمرأة أرايتك بفتح التاء وكسر الكاف، لانها صارت آخر مافي الكلمة، وللاتنين أرايتكما، وللجمع أرايتكم، فتوحد التاء، فكما وجب ان توحدتها في التنثية والجمع، كذلك وجب ان تذكرها مع المؤنث، فان عدت الفاعل إلى المفعول في هذا الباب صارت الكاف مفعوله تقول: رأيتني عالما بفلان، فاذا سألت علي هذا الشرط قلت للرجل: أرايتك عالما؟ وللاتنين أرايتما كما

(١٣٤)

وللجمع أرايتموكم، لان هذا في تأويل أرايتم أنفسكم، وللمرأة أرايتك، وللاتنين أرايتما كما، وللجماعة أرايتكن، فعلى هذا قياس هذين البابين.

قال ابو علي الفارسي: لا يخلو ان يكون الكاف للخطاب مجردا، ومعنى الاسم مخلوعا منه أو يكون دالا على الاسم مع دلالاته على الخطاب، والدليل على انه للخطاب مجردا من علامة الاسم أنه لو كان اسما وجب ان يكون الاسم الذي بعده في نحو قوله " أرايتك هذا الذي كرمت علي " (١) وقولهم " أرايتك زيذا ماصنع هو الكاف في المعنى، ألا ترى ان (أرايت) يتعدى إلى مفعولين يكون الاول منهما هو الثاني في المعنى واذا لم يكن المفعول الذي بعده هو الكاف في المعنى، وإنما هو غيره وجب ان يدل ذلك على أنه ليس باسم، واذا لم يكن اسما كان حرفا للخطاب مجردا من معنى الاسم، كما أن الكاف في (ذلك وهنالك) للخطاب ومثله التاء في (أنت) لانه للخطاب معرى من معنى الاسم فاذا ثبت انه للخطاب معرى من معنى الاسماء ثبت ان التاء لا يجوز أن تكون بمعنى الخطاب ألا ترى أنه لا ينبغي ان يلحق الكلمة علامتان للخطاب، كما لا يلحقها علامتان للتأنيث، ولا علامتان للاستفهام، فلما لم يجر ذلك افردت التاء في جميع الاحوال لما كان الفعل لا بد له من فاعل وجعل في جميع الاحوال على لفظ واحد، لان ما يلحق الكاف من معنى الخطاب يبين الفاعلين، لتخصيص التأنيث من التذكير والتنثية من الجمع، فلو لحق علامة التأنيث والجمع التاء لاجتمع علامتان للخطاب بما كان يلحق التاء وما يلحق الكاف وذلك يؤدي إلى ما لانظير له فرفض لذلك.

أمر الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) بهذه الآية ان يقول لهؤلاء الكفار الذين يعبدون الاصنام " أرايتكم ان أتاكم عذاب الله " كما اتى الكافرين من قبلكم كعاد وشمود، وغيرهم " أواتكم الساعة " وهي القيامة. قال الزجاج: الساعة اسم للوقت الذي يصعق فيه العباد واسم للوقت الذي تبعث فيه، والمعنى أرايتكم

(١٣٥)

الساعة التي وعدتم فيها بالبعث والفناء، لان قبل البعث يموت الخلق كلهم، اتدعون فيها - لكشف ذلك عنكم - هذه الاوثان التي تعلمون أنها لاتقدر أن تنفع أنفسها ولاغيرها؟! أو تدعون لكشف ذلك عنكم الله تعالى الذي هو خالقكم ومالككم ومن يملك ضرركم ونفعمكم؟ ودلهم بذلك على انه لاينبغي لهم ان يعبدوا مالايملك لهم نفعا ولايقدر أن يدفع عنهم ضرا وان يعبدوا الله وحده الذي هو خالقهم ومالكهم والقادر على نفعمهم وضرهم.

وقوله " ان كنتم صادقين " يعني في ان هذه الاوثان آلهة لكم، فبين الله لهم بذلك انها ليست آلهة وانهم في هذا القول غير صادقين.

وقوله " بل اياه تدعون " معنى (بل) استدراك وايجاب بعد نفي تقول ماجاءني زيد بل عمرو. واعلمهم الله تعالى انهم لايدعون في حال الشدائد الا اياه، لانه إذا لحقهم الشدائد والاهوال في البحار والبراري القفار، التجؤا فيه اليه وتضرعوا لديه، كما قال " وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين " (١) وفي ذلك أعظم الحجج عليهم، لانهم عبدوا الاصنام.

وقوله " فيكشف ماتدعون اليه ان شاء " معناه يكشف الضر الذي من اجله دعوتهم، وهو مجاز كقوله " واسأل القرية " ومعناه واسأل اهل القرية.

وقوله " وتنسون ماتشركون " معنى تنسون يحتمل امرين:

احدهما - ان يكون بمعنى ماتشركون بالله.

الثاني - أنكم في ترككم دعاءهم بمنزلة من نسيتهم، وهذا الذي أحتج الله به على الكفار دلالة على صحة الاحتجاج في الدين على كل من خالف الحق، لانه لوكان الاحتجاج لايجوز ولايفضي إلى الحق لما احتج به على عباده في كتابه. وانما قال: " ان شاء " لانه ليس كلما يدعون لكشفه يكشفه عنهم بل يكشف ماشاء من ذلك مما تقتضيه المصلحة وصواب التدبير، وتوجيه الحكمة.

(١٣٦)

والاستثناء راجع إلى العذاب دون الساعة، لانه لايتكشف ولامحيص عنها.

قوله تعالى:

ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون (٤٢) فلولا إنجاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزيين لهم الشيطان ماكانوا يعملون (٤٣) آيتان اعلم الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) بهذه الآية انه قد ارسل الرسل قبله إلى اقوام بلغوا من القسوة إلى ان أخذوا بالشدة في أنفسهم واموالهم ليخضعوا ويذلوا لامر الله لان القلوب تخشع والنفوس تضرع عند مايكون من أمر الله البأساء والضراء. وقال قوم: البأساء الجوع، والضراء النقص في الاموال والانفس.

وبالبأساء: من البأس والخوف والضراء من الضر، وقد يكون البأساء من البؤس، فأعلمه الله انه ارسل إلى أمم واخذها بالبأساء والضراء، فلم تخشع ولم تضرع. وقال: " لعلهم يتضرعون " ومعناه لكي يتضرعوا. وقيل: معناها الترجي للعباد، كما قال: " لعله يتذكر او يخشى " (١). قال سيبويه: المعنى اذهباً أنتما على رجائكما، والله عالم بمايكون من وراء ذلك.

وقوله " فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا " معناه هلا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا " ولكن قست قلوبهم " أي أقاموا على كفرهم. قال الفراء كلما رأيت في الكلام (لولا) ولم تر بعدها اسماً، فهي بمعنى (هلا)، كقوله: " لو لا اخرتني إلى أجل قريب " (٢) و " فلولا أن كنتم غير مدينين " (٣) و اذا كان بعدها اسم، فهي بمعنى (لو) التي تكون في جوابها اللام، و (لوما) فيها مافي (لولا) من الاستفهام والخبر.

وقد اخبر الله في هذه الآية ان الشيطان هو الذي يزين الكفر للكافر بخلاف

(١) سورة ٢٠ طه آية ٤٤.

(٢) سورة ٦٣ المنافقون آية ١٠ (٣) سورة ٥٦ الواقعة آية ٨٦

(١٣٧)

مايقول المجبرة من ان الله هو المزين لهم ذلك، وفيها حجة على من قال: ان الله لم يرد من الكافر الايمان، وانه ارسل الرسل بينة عليهم، وعلى من زعم ان أخذه الكافرين بالبأساء والضراء في الدين ليس لما أراد من صلاحهم، لانه بين الله انما فعل بهم ذلك ليتضرعوا، وهذه لام الغرض، لان الشك لايجوز عليه تعالى " ويتضرعون " معناه يتذللون يقال ضرع فلان لفلان اذا بخر له وسأله أن يعطيه، و فلان ضارع أي نحيف.

قوله تعالى:

فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون (٤٤) فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين (٤٥) آيتان قرأ ابن

عامر وابوجعفر، وورش " فتحنا " وفي الاعراف " لفتحنا " وفي الانبياء " فتحت " وفي القمر " ففتحنا أبواب السماء " بالتشديد فيهن، وافقهم روح في الانبياء والقمر. والباقون بالتخفيف فيهن .

ومن ثقل أراد التكثير، ومن خفف أراد الفعل مرة واحدة.

بين الله تعالى بهذه الآية ان هؤلاء الكفار لمالم ينتفعوا بالبأساء والضراء على ما اقتضت مصلحتهم، ونسوها أي تركوها فصارت في حكم المنسى ابتليناهم بالتوسعة في الرزق ليرغبوا بذلك في نعيم الآخرة، وينبهوا عليه، فيطيعوا ويرجعوا عما هم عليه، فلما لم ينجح ذلك فيهم ولم يرتدعوا عن الفرح بما أوتوا، ولم ينعضوا ولم ينفعهم الزجر بالضراء والسراء، ولا الترغيب بالتوسعة والرءاء احلنا بهم العقوبة بغتة أي مفاجأة من حيث لا يشعرون " فاذا هم مبلسون " .

قال لزجاج: (المبلس) الشديد الحسرة و (البائس) الحزين. وقال البلخي:

معنى مبلسون يعني: أذلة خاضعين. وقال الجبائي: معنى (مبلسون) آيسون، وقال الفراء المبلس: المنقطع الحجة، قال رؤبة:

(١٣٨)

وحضرت يوم خميس الاخماس * وفي الوجوه صفرة وابلاس (١)

وقال مجاهد: الابلاس السكوت مع اكتاب.

وقوله " كل شئ " المراد به التكثير دون العموم، وهو مثل قوله " وأوتيت من كل شئ " (٢) وكقول القائل: أكلنا عنده كل شئ ورأينا منه كل خير، وكما يقال هذا قول اهل العراق، واهل الحجاز، ويراد به قول اكثرهم.

وقال تعالى: " ولقد أرينا آياتنا كلها " (٣) وكل ذلك يراد به الخصوص، وموضوعه التكثير، والتفخيم. واذا علمنا في الجملة بالعقل ان هذه الايات مخصوصة، فلا ينبغي ان يعتقد فيها تخصيص شئ بعينه، وليس علينا اكثر من ان نعتقد أنهم او توا خيرا كثيرا، وفتح عليهم أبواب أشياء كثيرة كانت متعلقة عليهم، وليس يلزمنا اكثر من ذلك.

فان قيل الذي يسبق إلى القلوب غير ما تأولتم عليه وهو ان الله انما فتح عليهم أبواب كل شئ ليفرحوا ويمرحوا ليستحقوا العقاب.

قلنا: الظاهر وان كان كذلك انصرفنا عنه بدليل، كما انصرفنا عنه قوله:

" الرحمن على العرش أستوى " (٤) وعن قوله " وجاء ربك " (٥) وعن قوله:

" أمنت من في السماء " (٦) فكما يجب ان نترك ظاهر هذه الايات وان كان ظاهرها التشبيه فكذلك ترك مآثره يوجب اضافة القبيح اليه، وينافي عدله ويعدل إلى مايليق بحكمته وعدله. وقوله " فقطع دابر القوم الذين ظلموا " معناه أخذهم الذي يدبرهم ويدبرهم، لغتان - بضم الباء وكسرها - وهو الذي يكون في أعقابهم. وروي عن أبي عبدالله (ع) انه قال: من الناس من لا يأتي الصلاة إلا دبريا - بضم الدال - يعني في آخر الوقت، هذا قول اصحاب الحديث. وقال

(١) مجمع البيان ٢: ٣٠٠ واللسان (بلس).

(٢) سورة النمل آية ٢٣.

(٣) سورة ٢٠ طه آية ٥٦ (٤) سورة ٢٠ طه آية ٥ (٥) سورة ٨٩ الفجر آية ٢٢ (٦) سورة ٦٧ الملك آية ١٦،

١٧

(١٣٩)

أبو زيد الادبريا بفتح الدال والباء. ثم حمد الله تعالى نفسه بأن استأصل ساقتهم وقطع دابرهم بقوله " والحمد لله رب العالمين " لانه تعالى أرسل اليهم وانظر هم بعد كفرهم وأخذهم بالأساء والضراء، والنعمة والرشاء، فبالغ في الانذار والامهال، فهو محمود على كل حال. قوله تعالى:

قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به أنظر كيف نصرف الايات ثم هم يصدفون (٤٦) آية بلاخلاف.

روي عن ورش: " به انظر " بضم الهاء الباقون بكسرها.

قال ابو علي: من كسر الهاء حذف الياء التي تلحق الهاء في نحو به انظر، لالتقاء الساكنين والالف من (انظر). ومن قرأ بضم الهاء فهو على قول من قال: " فحسبنا بهو بدار هو " (١)، فحذف الواو لالتقاء الساكنين، كما حذف الياء في (بهي) لذلك، فصار " به انظر " ومما يحسن هذا الوجه ان الضمة فيه مثل الضمة في (ان أقتلوا) أو (انقص) ونحو ذلك.

وقوله: " أرأيتم ان أخذ الله سمعكم وابصاركم وختم على قلوبكم " ثم قال: " يأتيكم به " قال ابو الحسن هو كناية عن السمع او على ما أخذ منكم وقال الفراء: الهاء كناية عن الهدى.

أمر الله تعالى نبيه (ع) ان يقول لهؤلاء الكفار " أرأيتم ان اخذ الله سمعكم " أي أصمكم، " وأبصاركم " أي أعماكم، تقول العرب: أخذ الله سمع فلان وبصره، أي أصمه وأعماه " وختم على قلوبكم " بأن سلب مافيهما من العقول التي بها يتهياً لكم ان تؤمنوا بربكم وتتوبوا من ذنوبكم ووسمها

(١٤٠)

بسمة من يكون خاتمة امره للصير إلى عذاب النار، فلو فعل بكم، هل من اله غيره يأتيكم بهذا الذي سلبكم الله اياه؟! وهل يقدر على ذلك اله غير الله؟! فبين بهذا انه كما لا يقدر على ذلك غير الله فكذلك يجب ان لا يعبدوا سواه:

القادر على جميع ذلك.

وقوله " انظر كيف نصرَف الايات ثم هم يصدفون " تنبيه للعباد على هذه الاية وعلى أمثالها من الايات التي بين فيها انه لا يستحق العبادة سواه تعالى.

ثم بين انهم مع ظهور هذه الايات يصدفون أي يعرضون عن تأملها، والتفكر فيها. يقال: صدف عنه، اذا عرض.

وفي الاية دليل على ان الله قد مكنهم من الاقبال على ماورد عليهم من البيان وانه لم يخلق فيهم الاعراض عنه ولا حملهم عليه، ولا اراده منهم ولا زينه لهم، لانه لو كان فعل شيئاً من ذلك لم يكن لتعجيبه من ذلك معنى.

قوله تعالى:

قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله بغتةً أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون (٤٧) آية.
أمر الله تعالى نبيه (ع) ان يخاطب كفار قومه، ويقول لهم أرأيتم " ان أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة " والبغتة المفاجأة وهو ان يأتيهم العذاب، وهم غافلون غير متوقعين لذلك " اوجهرة " أي وهم شاهدون له، ومعانين نزوله. وقال الحسن: (البغتة) ان يأتيهم ليلاو (جهرة) نهاراً. ثم قال:

" هل يهلك " بهذا العذاب " الا القوم الظالمون " الكافرون الذين يكفرون بالله ويفسدون في الارض. وهل ينجو منه الا المؤمنون العابدون لربهم.

ومتى هلك فيهم اطفال او قوم مؤمنون فانما يهلكون امتحانا ويعوضهم الله على ذلك أعواضا كثيرة، يصغر ذلك في جنبها، فجعل ذلك تحذيرا من المقام على الكفر وترغيبا في الايمان والنجاة من العذاب.

(١٤١)

قوله تعالى:

ومارس المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٤٨) والذين كذبوا بآياتنا يمسه العذاب بما كانوا يفسقون (٤٩) آيتان بلاخلاف.

بين الله تعالى في هاتين الآيتين انه لا يبعث الرسل أربابا يقدرون على كل شئ يسألون عنه من الآيات او يخترعون بل انما يرسلهم لما في ذلك من المصلحة لهم ومنبهين على ما في عقولهم من توحيد الله، وعدله وحكمته مبشرين بثواب الله لمن آمن به وعرفه، ومخوفين لمن انكره وجده، ثم اخبر ان المرسل اليهم مختارون غير مجبرين ولا مضطرين ودل على انه غير محدث لشيء من افعالهم فيهم، وان الافعال لهم، هم يكتسبونها بما خلق الله فيهم من القدرة، وانه قد هداهم، وبين لهم وبشرهم وانذرهم فمن آمن أثابه ومن عصاه عاقبه. ولو كانوا مجبورين على المعاصي مخلوقا فيهم الكفر ولم يجعل فيهم القدرة على الايمان لما كان للآية معنى.

قوله تعالى:

قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتكفرون (٥٠) آية بلاخلاف.

امر الله تعالى نبيه محمدا (صلى الله عليه وآله) ان يقول لعباده: " لا أقول لكم عندي خزائن الله " اغنيكم منها " ولا أعلم الغيب " الذي يختص بعلم الله تعالى فاعرفكم مصالح دنياكم، وانما اعلم قدر ما يعلمني الله من امر البعث والجنة

(١٤٢)

والنار، وغير ذلك، ولا ادعي اني ملك، لاني انسان تعرفون نسبي، لا اقدر على ما يقدر عليه الملك، وما أتبع إلا ما يوحى الله به إلي.

وبين لهم ان الملك من عند الله، والوحي هو البيان الذي ليس بايضاح نحو الاشارة والدلالة، لان كلام الملك كان له على هذا الوجه. وانما امره بأن يقول ذلك لئلا يدعوا فيه ما أدعت النصراني في المسيح، ولئلا ينزلوه منزلة خلاف ما يستحقه. ثم امره بأن يقول لهم: " هل يستوي الأعمى والبصير " أي هل يستوي العارف بالله تعالى وبدينه العالم به مع الجاهل به وبدينه، فجعل الأعمى مثلا للجاهل والبصير مثلا للعارف بالله ونبيه، هذا قول الحسن والجبائي.

وقال البلخي: معناه هل يستوي من صدق على نفسه واعترف بحاله التي هو عليها من الحاجة والعبودية لخالقه، ومن ذهب عن البيان وعمي عن الحق " افلا تتكفرون " ففتنصوا من أنفسكم

وتعملوا بالواجب عليكم من الاقرار بوحدانيته تعالى ونفي الشركاء والتشبيه عنه، وهذا وان كان لفظه لفظ الاستفهام فالمراد به الاخبار أي انهما لا يستويان.

وقال مجاهد: الاعمى الضال والبصير المهتدي. ثم قال: " افلا تتفكرون " تنبيهها لهم على الفكر في ما يدعوهم إلى معرفته ويدلهم عليه من آياته وأمثاله التي بينها في كتابه، للفرق بين الحق والباطل، والكافر والمؤمن.

وقال الحسن: " لا أقول لكم عندي خزائن الله " يعني خزائن الغيب الذي فيه العذاب لقولهم: ائتنا بعذاب الله، ولا اعلم الغيب متى يأتيكم العذاب " ولا أقول لكم اني ملك " من ملائكة الله. وانما أنا بشر تعرفون نسبي. ولكني رسول الله يوحى الي، ولا أتبع الا ما يوحى الي ولا أؤدي الا ما يأمرني بأدائه واستدل الجبائي والبلخي وغيرهما بهذه الآية على ان الملائكة افضل من الانبياء لانه قال " ولا أقول لكم اني ملك " فلو لا ان الملائكة أفضل وأعلى منزلة ماجاز ذلك. وهذا ليس بشئ لان الفضل الذي هو كثرة الثواب لامعنى له هاهنا، وانما المراد " ولا أقول اني ملك " فاشاهد من امر الله وغيبته عن

(١٤٣)

العباد ما يشاهده الملائكة المقربون المختصون بملكوت السماوات وان لم يكن في ذلك استحقاق ثواب زائد.

قوله تعالى:

وأندر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلمهم يتقون (٥١) آية بلاخلاف.

امر الله تعالى نبيه (ع) ان ينذر بهذه الايات أي يخوف بها من هو مقر بالبعث والنشور من المؤمنين، ومن يقر بذلك من الكفار ويعتقد انه لامعونة عند الشركاء يومئذ، لان الامر هناك له تعالى وحده. وقد كان خلق من مشركي العرب يعتقدون ذلك، فأمر الله ان يخص هؤلاء بالانذار، لان الحجة لهم ألزم وان كانت لازمة للجميع.

وقوله: " يخافون ان يحشروا إلى ربهم " أي يعلمون ذلك، فهم خائفون منه أي عاملون بما يؤديهم إلى السلام عنده.

وقال الفراء: يخافون الحشر إلى ربهم علما بأنه سيكون فلذلك فسره المفسرون يخافون بمعنى يعلمون.

وقال الجبائي: امر الله ان يخوف بالعقاب من هو خائف، لانه لما أعلمهم ان الله يعذبهم بكفرهم اذا حشروا، كانوا يخافون الحشر لكونهم شاكين فيما أخبرهم به النبي (صلى الله عليه وآله) من

الحشر والعذاب. وكانوا يخافون ذلك لشكهم فيه، وان كانوا غير مؤمنين. والاول قول البلخي والزجاج.

وقوله: " ليس لهم من دونه ولي " أو من يدفع عنهم ما يريد الله إنزاله بهم من عذابه، وعقوباته، ولأشفيح يشفع يدفع بشفاعته عنهم ما يريد الله انزاله بهم من ذلك على ما قالت النصارى انهم ابناء الله واحباؤه.

وقوله: " لعلمهم يتقون " أي لكي يتقوا معاصيه. والهاء في قوله " به " قال الزجاج: راجعة إلى القرآن. وقال الجبائي: راجعة إلى العذاب. وقال

(١٤٤)

البلخي: راجعة إلى الانذار.

قوله تعالى:

ولاتطرد الذين يدعون ربهم بالغدوة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين (٥٢) آية بلاخلاف.

قرأ ابن عامر " بالغدوة " هنا وفي الكهف - بضم الغين واسكانا الدال واثبات واوبعدها. الباقون بفتح الغين والدال واثبات الف بعد الدال.

سبب نزول هذه الاية مارواه ابن مسعود وغيره: ان ملا من قريش - وقال الفراء: من الكفار، منهم عيينة بن حصين الغزاي - دخلوا على النبي (صلى الله عليه وآله) وعنده بلال وسلمان وصهيب وعمار، وغيرهم، فقال عيينة بن حصين يارسول الله ول نحيت هؤلاء عنك، لاتاك أشراف قومك، وأسلموا، وكان ذلك خديعة منهم له وكا الله تعالى عالما ببواطنهم.

فأمر الله نبيه ان " لاتطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي " يعني انه نهاه عن طردهم لانهم يريدون باسلامهم ودعائهم وجه الله. قال الضحاك:

" يدعون ربهم بالغداة والعشي " يعني بذلك الصلاة المفروضة في هذين الوقتين وقال ابراهيم هم اهل الذكر. وقال قوم: الدعاء هاهنا هو التحميد والتسبيح وقوله: " يريدون وجهه " شهادة للمعنيين بالاية بالاخلاص وانهم يريدون بعبادتهم الله خالصا.

وقال البلخي: قراءة ابن عامر غلط، لان العرب اذا ادخلت الالف واللام قالوا: الغداة يقولون: رأيتك بالغداة، ولايقولون بالغدوة، فاذا نزعوا الالف واللام قالوا رأيتك غدوة. وانما كتبت واو في المصحف، كما كتبوا الصلاة والزكاة والحياة كذلك.

(١٤٥)

قال ابو علي الفارسي: الوجه الغداة، لانها تستعمل نكرة وتتعرف باللام فأما غدوة فمعرفة أبداً، وهو علم صيغ له. قال سيبويه: غدوة وبكرة جعل كل واحد منهما اسماً للجنس كما جعلوا أم حنين اسماً لدابة معروفة، كذلك هذا ووجه قراءة ابن عامر أن سيبويه قال زعم الخليل أنه يجوز ان تقول أتيتك اليوم غدوة وبكرة، فجعلها بمنزلة ضحوة. وقوله " فتطردهم " نصب الدال، لانه جواب النفي في قوله: " ما عليك من حسابهم " ونصب فيكون لانه جواب لقوله: " ولاتطرد الذين.. فتكون من الظالمين.. ما عليك من حسابهم من شئ " قال قوم يعني من حساب رزقهم في الدنيا ليس رزقهم في يدك ولارزقك في أيديهم، بل الله رازق الجميع. وقال الجبائي وهو الاظهر: ما عليك من اعمالهم، ولا عليهم من أعمالك، بل كل واحد يؤاخذ بعمله، ويجازي على فعله، لا على فعل غيره. وقوله " فتطردهم فتكون من الظالمين " اخبار منه تعالى انه لو طرد كل هؤلاء تقريبا إلى الكبراء منهم كان بذلك ظالماً. والنبى (صلى الله عليه وآله) وان لم يقدم على القبيح جاز ان ينهى عنه، لانه قادر عليه وان كان النهي والزجر يمتنع منه، كما قال تعالى " لئن اشركت ليحبطن عملك " وان كان الشرك مأموناً منه. قوله تعالى:

وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين (٥٣) آية بلاخلاف.

معنى الآية انه تعالى اخبر انه يمتحن (١) الفقراء بالاغنياء والاعنياء بالفقراء فيختبر صبر الفقراء على ما يرون من حال الاغنياء، واعراضهم عنهم إلى طاعة الرسل ويختبر شكر الاغنياء واقرارهم لمن يسبقهم من الفقراء، والموالي والعبيد

(١) في المخطوطة " ابتلى " بدل " يمتحن " .

(١٤٦)

إلى الايمان بالرياسة في الدين والتقدم فيه.

وقوله: " ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا " فليس المراد باللام الغوص لان الله لو قصد ذلك لكان قد قصد بما فعل ان يقولوا هذا القول فيكفروا به ويعصوا ويتعالى الله عن ذلك فكيف يقصده؟! وقد عابه من قولهم وهو يعاقبهم عليه وعابهم به ولكن اللام لام العاقبة.

والمعنى اني فعلت ذلك بهم ليصبروا ويشكروا، فكان عاقبة أمرهم ان قالوا " أهؤلاء من الله عليهم من بيننا " ومثله قوله: " فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا " (١) وقال الشاعر:

ام سماك فلا تجزعي * فللشكلى ماتلد الوالداه (٢)

والذي قال " أهؤلاء من الله عليهم من بيننا " هو عيينة بن حصين واصحابه وقال الزجاج: أي ليقول الكبراء " أهؤلاء من الله عليهم من بيننا " أي ليكون ذلك آية بينة انهم اتبعوا الرسول وصبروا على الشدة في حال شديدة.

وقال الجبائي: معنى قوله " فتنا بعضهم ببعض " أي شددنا التكليف على أشرف العرب وكبرائهم بأن امرناهم بالايمان برسول الله وبتقديم هؤلاء الضعفاء على نفوسهم لتقدمهم اياهم في الايمان، وكونهم افضل عند الله. وهذا أمر كان شاقاعليهم، فلذلك سماه الله فتنة.

وقوله " ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا " أي فعلنا هذا بهم ليقول بعضهم لبعض على وجه الاستفهام منه لا على وجه الانكار " أهؤلاء من الله عليهم من من بيننا " يعني بالايمان اذ رأوا النبي (صلى الله عليه وآله) يقدم هؤلاء عليهم ويفضلهم ولايرضوا بذلك من فعل رسول الله، ولم يجعل هذه الفتنة والشدة في التكاليف ليقولوا ذلك على وجه الانكار، لان إنكارهم ذلك كفر بالله ومعصية له والله تعالى لايريد ذلك ولايرضاه، لانه لو أراد ذلك منهم، وفعلوه كانوا مطيعين

(١) سورة ٢٨ القصص آية ٨ (٢) مر هذا البيت في ٣: ٦٠ وسيأتي في ٥: ٤٣

(١٤٧)

له لاعاصين وقد ثبت خلافه.

وقوله: " أليس الله بأعلم بالشاكرين " معناه ان الله تعالى أعلم بالشاكرين له ولنعمه من خلقه فيجازيهم على ذلك بما يستحقونه من الثواب والتعظيم والاجلال. والشاكرون المعنيون بالاية هم هؤلاء الضعفاء ويدخل معهم في ذلك سائر المؤمنين. فان قيل فعلى هذا الوجه الذي ذكرتموه قد وجد من الكفار القول على ما أراده فيجب ان يكونوا مطيعين.

قلنا: ليس في الاية ذلك وأنهم على أي وجه قالوه على وجه الانكار أو على وجه الاستفهام؟ وانما بين انه فعل بهم ليقولوا ذلك على وجه الاستفهام لا على وجه الانكار، فان كانوا قالوه على ما أراده الله فهم مطيعون وان قالوه منكبين فهم عصاة، فلما علمنا أن الله تعالى ذمهم بهذا القول علمنا أنهم لم يقولوه على وجه المراد منهم انما قالوه على خلاف ماأريد منهم. قوله تعالى:

وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم (٥٤) آية.

قرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب: " انه من عمل.. فانه غفور رحيم " بفتح الهمزة فيهما وافقهم اهل المدينة في الاولى منهما. الباقيون بالكسر فيهما. قال ابو علي الفارسي من كسر (أنه) الاولى جعلها تفسير للرحمة كما أن قوله " لهم مغفرة واجركريم " تفسير للوعد. واما كسر (إن) في قوله " فانه غفور رحيم " فلان ما بعد الفاء حكمه الابتداء، ومن ثم حمل قوله " ومن عاد

(١٤٨)

فبينتقم الله منه " (١) على أرادة المبتدأ بعد الفاء وحذفه. ومن فتح (أن) في قوله " انه " فانه جعل (ان) الاولى بدلا من الرحمة كأنه قال كتب ربكم على نفسه الرحمة انه من عمل منكم. واما فتحها بعد الفاء فانه غفور رحيم، فعلى انه أضمر له خبرا تقديره، فله انه غفور رحيم أي فله غفرانه. أو اضمر مبتدأ تكون (أن) خبره، كأنه قال فأمره انه غفور رحيم واما قراءة نافع: بفتح الاولى وكسر الثانية فالقول فيهما انه أبدل من الرحمة واستأنف ما بعد الفاء. قال سيبويه: بلغنا ان الاعرج قرأ " انه من عمل.. فانه غفور رحيم ". ونظيره قول ابن مقبل:

واني اذا ملت ركابي مناخها * فاني على حظي من الامر جامع
يريد ان قوله: (واني اذا ملت ركابي) محمول على ما قبله كما ان قوله " انه من عمل " محمول على ما قبله. وقوله: فاني على حظي مستأنف مثل قوله " فانه غفور رحيم " مستأنف به منقطع عما قبله.

قال الفراء: واختاره الزجاج ويجوز ان يحمل (فانه) على التكرار، قال: لان الكتاب يحتاج إلى (ان) مرة واحدة ولكن الخبر هو موضعها فلما دخلت في ابتداء الكلام أعيدت إلى موضعها، كما قال: " أيعدكم انكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما انكم مخرجون " (٢) فلما كان موضع (ان) أيعدكم انكم مخرجون اذا متم دخلت في اول الكلام وآخره. ومثله " كتب عليه انه من تولاه فانه يضلّه " (٣) ومثله " ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فان له " (٤) قال ولك ان تكسر (ان) بعد الفاء في هذه الاحرف. قال ابو علي هذا غير صحيح، لان (من) لا يخلو من ان تكون للجزاء الجازم الذي بني اللفظ عليه او تكون موصولة، ولا يجوز ان يقدر التكرير مع الموصولة فلو كانت موصولة

(١) سورة ٥ المائدة آية ٩٨.

(٢) سورة ٢٣ المؤمنون آية ٣٥ (٣) سورة ٢٢ الحج آية ٤ (٤) سورة ٩ التوبة آية ٦٤.

(١٤٩)

لبقي المبتدأ بلاخبر، ولايجوز ذلك في الجزء الجازم، لان الشرط يبقى بلا جزاء على اثبات الفاء في قوله: (فان له) ويمتنع من ان يكون بدلا لانه لا يكون بين المبدل والمبدل منه الفاء العاطفة ولالتي للجزاء، فان قيل: هي زائدة بقى الشرط بلاجزاء، فاذا بطل الامر ان اثبت ماقدمناه.

واما من كسرهما فعلى مذهب الحكاية كأنه لما قال " كتب ربكم على نفسه الرحمة " قال: " انه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده واصلح فانه عفور رحيم " بالكسر، ودخلت الفاء جوابا للجزاء.

هذه الاية متصلة بالاولى: نهى الله تعالى نبيه (ع) في الاولى عن ان يطردهم. ثم امره في هذه الاية ان يقول لمن ورد عليه منهم اعني المؤمنين المصدقين بآيات الله وحججه وبراهينه عربيا كان او أعجميا ضعيفا كان أو قويا - " سلام عليكم " فيبدأهم بالتحية، ويبشرهم بالرحمة ويقوي قلوبهم ويعرفهم أن من اذنب منهم ثم تاب، فتوبته مقبولة كل ذلك خلافا على الكافرين فيما أرادوه عليه من طردهم والغلظة عليهم.

وقال محمد بن يزيد: السلام في اللغة أربعة اشياء: احدها - سلمت سلاما مصدر. وثانيها - السلام جمع سلامة. وثالثها - السلام من أسماء الله. ورابعها - السلام شجر. ومعنى السلام الذي هو مصدر سلمت دعاء للانسان ان يسلم في دينه ونفسه، ومعناه التخلص. والسلام الذي هو اسم الله معناه ذو السلام أي الذي يملك السلام الذي هو تخليص من المكروه. والسلام الذي هو الشجر، فهو شجر عظيم سمي بذلك لسلامته من الافات. والسلام حجار صلبة لسلامتها من الرخاوة ويسمى الصلح: السلام والسلم والسلام، لان معناه السلامة من الشر. والسلام دلولها مروة واحدة نحو دلو السقائين. والسلم السبب إلى لشيء. والسلام الذي يرتقى عليه لانه يسلمك إلى حيث تريد وقوله " من عمل منكم سوءا بجهالة " ليس المراد أنهم يجهلون أنه سوء، لانه لوأتى

(١٥٠)

المسلم مايجهل أنه سوء لكان كمن لم يتعمد سوءا. وتحتل الاية أمرين: احدهما - انه عمله وهو جاهل بالمكروه فيه أي لم يعرف أن فيه مكروه. والاخر - انه أقدم مع علمه ان عاقبته مكروهة فأثر العاجل، فجعل جاهلا لانه أثر القليل على الراحة الكثيرة والعاقبة الدائمة ويحتمل عندي أن يكون أراد " من عمل منكم سوءا بجهالة "

بمعنى أنه لايعرفها سواء، لكن لما كان له طريق إلى معرفته وجب عليه التوبة منه، فإذا تاب قبل الله توبته.

فان قيل: قوله " وأصلح " هل فعل الصلاح شرط في قبول التوبة أولاً؟ فان لم يكن شرطاً فلم علق الغفران بمجموعهما.

قيل: لاخلاف أن التوبة متى حصلت على شرائطها التي قدمنا ذكرها في غير موضع، فانه يقبل التوبة ويسقط العقاب، وان لم يعمل بعدها عملاً صالحاً غير أنه اذا تاب وبقي بعد التوبة، فان لم يعمل الصالح عاد إلى الاصرار، لانه لا يخلو في كل حال من واجب عليه أو نذب من تجديد معرفة الله ومعرفة نبيه، وغير ذلك من المعارف وكثير من أفعال الجوارح، فاما ان قدرنا اختراعه عقيب التوبة من غير فعل صلاح، فان الرحمة باسقاط العقاب تلحقه بلاخلاف. قوله تعالى:

وكذلك فصل الايات ولتستبين سبيل المجرمين (٥٥).

آية بلاخلاف.

قرأ أهل الكوفة الاحفصا و " ليستبين " بالياء. الباقون بالتاء. وقرأ أهل المدينة " سبيل " بالنصب. الباقون بالرفع.

من قرأ بالتاء ورفع السبيل، فلان السبيل يذكر ويؤنث، فالتذكير لغة تميم، والتأنيث لغة أهل الحجاز فأنث - هاهنا - كما قال

(١٥١)

" قل هذه سبيلي " (١).

ومن قرأ بالياء فانه ذكر السبيل، لانه الطريق. وهو يذكر، كما قال " وان يروا سبيل الرشده لايتخذوه سبيلاً " (٢).

ومن قرأ بالتاء، ونصب (السبيل) أراد أن يكون خطاباً للنبي (صلى الله عليه وآله) كأنه قال: ولتستبين أنت يا محمد سبيل المجرمين. والنبي (صلى الله عليه وآله) وان كان مستبيناً لطريق المجرمين عالماً به فيجوز أن يكون ذلك على وجه التأكيد، ولان يستديم ذلك. ويحتمل أن يكون المراد به الامة، فكأنه قال ليزداد استبانة، ولم يحتج ان يقول: ولتستبين سبيل المؤمنين، لان سبيل المجرمين اذا بان، فقد بان معها سبيل المؤمنين، لانها خلافها. ويجوز ان يكون المراد، ولتستبين سبيل المجرمين ولتستبين سبيل المؤمنين، وحذف إحدى الجملتين لدلالة الكلام عليه، كما قال " سراييل تفيكم الحر " (٣) ولم يقل تفيكم البرد، لان السائر يستر من الحر والبرد، لكن جرى ذكر الحر، لانهم كانوا في مكانهم أكثر معاناة له من البرد، وكذلك

سبيل المجرمين، خص بالذكر، لان الكلام في وصفهم، وترك ذكر المؤمنين لدلالة الكلام عليه. وهذه الآية معطوفة على الايات التي احتج الله بها على مشركي العرب، وغيرهم فلذلك قال " وكذلك " أي كما قدمنا " نفصل الايات " أي نميزها ونبينها ونشرحها لتلزمهم الحجة و " لتستبين سبيل " من عائد بعد البيان أو ذهب عن فهم ذلك بالاعراض عنه لمن أراد التفهم منهم، ومن المؤمنين ليجانبوها ويسلكوا غيرها.
قوله تعالى:

قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله قل لأتبع أهواءكم قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين (٥٦)

(١) سورة ١٢ يوسف آية ١٠٨ (٢) سورة ٧ الاعراف آية ١٤٥ (٣) سورة ١٦ النحل آية ٨١.

(١٥٢)

روي عن يحيى بن وثاب أنه قرأ " ضللت " بكسر اللام. والقراء كلهم على فتحها، وهما لغتان. فمن كسر اللام فتح الضاد من " يضل ". ومن فتح اللام كسر الضاد. فقال " يضل " وقال أبو عبيدة اللغة الغالبة بالفتح.
وروى ابو العالية أن النبي (صلى الله عليه وآله) قرأ هذه الآية عند الكعبة وأظهر لهم المفارقة. وهذه الآية فيها خطاب للنبي (صلى الله عليه وآله) وأمر له بأن يقول للكافرين:
ان الله قد نهاني أن اعبد هذه الاوثان التي تعبدونها من دون الله وتدعونها آلهة وأنها تقربكم إلى الله زلفى، وأن يقول لهم اني لأتبع أهواءكم في عبادة الاوثان، واني لو فعلت ذلك لكنت قد ضللت عن الصواب، وبعدت عن الرشد ولم أكن من المهتدين إلى الخير والصلاح. ومعناه معنى الشرط وتقديره قد ضللت ان عبدتها. وقال الزجاج: " وما أنا من المهتدين " أي وما أنا من النبيين الذين سلكوا طريق الهدى.
قوله تعالى:

قل إني على بينة من ربي وكذبتم به ما عندي ما تستعجلون به إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين (٥٧)

آية بلاخلاف.

قرأ أهل الحجاز وعاصم " يقص الحق " من القصص وهو المروي عن ابن عباس ومجاهد. الباقر - بالضاد - المعجمة من فوقها من القضاء. وكان ابو عمرو يقوي القراءة بالضاد بقوله " وهو خير الفاصلين ". ويقول الفصل في القضاء لافي القصص ويقوي ذلك بقوله " والله يقضى الحق وهو يهدي السبيل ".

وحجة من قرأ بالصاد قوله: " نقص عليك أحسن القصص " (١) وقوله:
" ان هذا لهو القصص " (٢). وأما الفصل الذي قوى به أبو عمرو قراءته فقد

(١) سورة ١٢ يوسف آية ٣ (٢) سورة ٣ آل عمران آية ٦٢

(١٥٣)

جاء الفصل في القول كما جاء في الحكم والقضاء في نحو قوله " انه لقول فصل " (٣) وقال: " احكمت آياته ثم فصلت " (٤) وقال " نفصل الايات " (٥) وقال " لقد كان في قصصهم عبرة لاولي الالباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شى " (٦) فذكر في القصص انه تفصيل. والحق في قوله " يقض الحق " يحتمل امرين: احدهما - أن يكون صفة لمصدر محذوف وتقديره يقضي القضاء الحق أو يقص القصص الحق.

والثاني - أن يكون مفعولا به يعجل الحق كقول الهذلي:

وعليهما مسرودتان قضاهما * داود أن صنع السوابغ تبع (٧)
أي صنعهما داود.

وفي هذه الآية أمر من الله لنبيه ان يقول للكفار انه على بينة من ربه، أي على أمر بين من معرفة الله وصحة نبوته، لامتنع للهوى.

وقوله " وكذبتم به " الهاء راجعة إلى البيان، لان البينة والبيان واحد، وتقديره وكذبتم بالبيان الذي هو القرآن. وقال قوم: بينة من ربي من نبوتي " وكذبتم به " يعني بالله. وعلى الاول يكون تقديره كذبتم بما أتيتكم، لانه هو البيان.

وقوله: " ما عندي ماتستعجلون به " (ما) بمعنى ليس. والذي استعجلوا به يحتمل امرين:

احدهما - العذاب، كما قال " ويستعجلونك بالعذاب " (٨).

والثاني - أن يكونوا استعجلوا الايات التي أفترحوها عليه فأعلمهم الله أن ذلك عند الله وأن الحكم له تعالى " يقض الحق وهو خير الفاصلين " وكتبت

(٣) سورة ٨٦ الطارق آية ١٣ (٤) سورة ١١ هود آية ١ (٥) سورة ١٠ يونس آية ٢٤ (٦) سورة ١٢ يوسف آية ١١١ (٧) مر تخريجه في ١ / ٤٢٩ وفي ٤ / ٨٨.
(٨) سورة ٢٢ الحج آية ٤٧ وسورة ٢٩ العنكبوت آية ٥٣ - ٥٤

(١٥٤)

يقضى بغير ياء، لأنها اسقطت في اللفظ لالتقاء الساكنين، كما كتبوا " سنده الزبانية " (٣) بغير واو.

ومن قرأ: بالصاد من القصص حمله على أن جميع ما أنبأ به وأمر به، فهو من أقاصيص الحق.

وقال الحسن: (البنية) النبوة و (كذبتهم به) بالنبوة التي جاءت من عند الله و " ما تستعجلون به " من العذاب جواب لقولهم: " أتنا بعذاب الله " (٤)

وفي قراءة ابن مسعود " يقص بالحق " ولم يقرأ به احد.

وقوله " يقضى بالحق " يدل على بطلان قول من يقول: ان الظلم والجور بقضاء الله، لان ذلك كله ليس بحق.

قوله تعالى:

قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم والله أعلم بالظالمين (٥٨) آية امر الله تعالى نبيه ان يقول للكفار لو كان " عندي ما تستعجلون به " من كون العذاب وأنزله بكم برأيي و ارادتي لفعلت ذلك بكم ولانزلته عليكم و " لقضي الأمر بيني وبينكم " بذلك ولانفصل ولانقطع، ولكن ليس ذلك إلي وانما هو إلى الله " والله أعلم بالظالمين " وبمن ينبغي امهاله منهم ومن يجب معالجته بالعقوبة فهو يدبر ذلك بحسب ما يعلم من وجه الحكمة والصواب قوله تعالى:

وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين (٥٩) آية بلاخلاف وهي تمام السبع المثاني.

(٣) سورة ٩٦ العلق آية ١٨. (٤) سورة ٢٩ العنكبوت آية ٢٩

(١٥٥)

" مفاتيح الغيب " معناه الامور التي بها يستدل على الغائب فتعلم حقيقته، يقال: فتحت على الرجل، أي عرفته أولاً، ويستدل به على آخر، وجملة يعرف بها التفصيل. ومنه قولهم أفتح علي أي عرفني. قال الزجاج: معناه وعنده الوصلة إلى علم الغيب وكل ما لا يعلم اذا استعلم. وروي عن ابن عمر أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها الا الله: ان الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الارحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت.

ومعنى الآية أن الله تعالى عالم بكل شئ من مبتدئات الامور وعواقبها فهو يعجل ماتعجيله أصلح وأصوب، ويأخر ما تأخيره أصلح واصواب، وأنه الذي يفتح باب العلم لمن يريد إعلامه شيئاً من ذلك من أنبيائه وعباده، لانه لا يعلم الغيب سواه، فلايتهاً لاحد ان يعلم العباد ذلك، ولأن يفتح لهم باب العلم به الا الله، وبين أنه يعلم مافي البر والبحر من الحيوان والجماد. وبين أنه ماتسقط من ورقة من شجرة الايعلمها ولاحبة في جوف الارض وفي ظلماتها الا ويعلمها ولارطب ولايابس جميع أصناف الاجسام، لانه أجمع لاتخلو من احدى هاتين الصفتين.

وقوله: " وماتسقط من ورقة الا يعلمها " المعنى أنه يعلمها ساقطة وثابتة كما تقول: مايجبئك من أحد الا وأنا أعرفه، معناه الا وانا أعرف في حال مجيئه. وقوله: " ولاحبة في ظلمات الارض ولارطب ولايابس " خبر على تقدير (من). ويجوز الرفع فيها على معنى ولاتسقط ورقة ولاحبة. ويجوز ان يرفعه على الابتداء ويقطعه عن الاول ويكون خبره " الا في كتاب مبين ".

وقوله: " في كتاب مبين " يحتمل أمرين:

احدهما - ان يكون معناه في علم الله مبين.

وثانيهما - ان يكون " في كتاب مبين " ان يكون الله تعالى أثبت ذلك في

(١٥٦)

كتاب قبل أن يخلقه، كما قال " ماأصاب من مصيبة في الارض، ولافي انفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها " (١) ويكون الغرض بذلك اعلام الملائكة أنه علام الغيوب ليدل على أنه عالم بالاشياء قبل كونها. ويجوز ان يكون المراد بذلك أنه كتب جميع ما يكون ثم امتحن الملائكة بكتبه وتعبدهم باحصائه، كما تعبد سائر خلقه بمايشاء مما فيه صلاحهم. وقال البلخي: " في كتاب مبين " أي هو محفوظ غير منسي ولامغفول كما يقول القائل لصاحبه: ماتصنعه عندي مسطر مكتوب. وانما يريد بذلك أنه حافظ له يريد مكافأته عليه، قال الشاعر:

ان لسلمى عندنا ديوانا ويجوز أن يكون المراد بذكر الورقة والحبة والرطب والياس التوكيد في الزجر عن المعاصى والحث على البر والتخويف لخلقه بأنه اذاكانت هذه الاشياء التي لاثواب فيها ولاعقاب عليها محصاة عنده محفوظة مكتوبة، فأعمالكم التي فيها الثواب والعقاب أولى، وهو قول الحسن. وقال مجاهد: البر الفقار والبحار كل قرية فيها ماء. وعن أبي عبدالله: الورقة السقط والحبة الولد.

وظلمات الارض الارحام والرطب مايبقى ويحيا واليابس ما تغيض.

قوله تعالى:

وهو الذي يتوفيكُم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون (٦٠) آية بلاخلاف.
قوله: " وهو " كناية عن الله تعالى. و " الذي " صفة له " يتوفاكم بالليل " قيل في معناه قولان: احدهما - قال الجبائي: يقبضكم، وقال الزجاج: ينيمكم بالليل فيقبضكم

(١) سورة الحديد آية ٢٢.

(١٥٧)

الله إليه، كما قال: " الله يتوفى الانفس حين موتها " (١).
وقال البلخي: " واختاره الحسين بن علي المغربي " يتوفاكم " بمعنى يحصيكم عند منامكم وأستقراركم، قال الشاعر:
ان بني الادرم ليسوا من أحد * ليسوا من قيس وليسوا من أسد
ولاتوفاهم قريش في العدد (٢)
معناه لاتحصيهم في العدد.
وقوله: " ويعلم ما جرحتم بالنهار " أي كسبتهم، تقول فلان جارحة أهله أي كاسبهم، ومنه قوله: " وما علمتم من الجوارح مكلبين " (٣) أي من الكواسب التي تكسب على أهلها، وهو قول مجاهد.
وقوله: " ثم يبعثكم فيه " أي في النهار، فجعل أُنْبَاهَهُم من النوم بعثا " ليقضى أجل مسمى " ليستوفى الاجل المسمى للحياة إلى حين الموت. ثم " إليه مرجعكم " يعني يوم القيامة فيحشرهم الله إلى حيث لا يملك فيه الامر سواه. " ثم ينبئكم " يعني يخبركم ويعلمكم " بما كنتم تعملون " في الدنيا فيجازيكم على أعمالكم، وفيها دلالة على خزيهم وحاجتهم، واحتجاج عليهم أنه لا يستحق العبادة سواه اذ هو الفاعل لجميع ما يستحق به العبادة مما عدده والقادر عليه دون من يعبدونه من الاوثان والاصنام.
قوله تعالى:

وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون (٦١) ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين (٦٢) آيتان

(١) سورة الزمر آية ٤٢.

(٢) مقاييس اللغة ٣: ٢٧٠ واللسان (وفي) وروايته " الادرد " مع حذف البيت الثاني وجعل الثالث بعد الاول وكذلك في الطبري ١١: ٤٠٥.
(٣) سورة ٥ المائدة آية ٥.

(١٥٨)

كلهم قرأ " توفته رسلنا " بالتاء الاحمزة فانه قرأ " توفاه ". وحجة من قرأ بالتاء قوله " كذبت رسل من قبلك " (١) وقوله " انجاءتهم الرسل من بين أيديهم " (٢) و " جاءتهم رسلهم بالبينات " (٣) و " قالت رسلهم " (٤)
وحجة حمزة انه فعل متقدم مسند إلى مؤنث غير حقيقي. وانما التأنيث للجمع، فهو مثل قوله " وقال نسوة في المدينة " (٥) وما أشبه ذلك مما يأتيه تأنيث الجمع، قال وليس ذلك خلافا للمصحف، لان الالف الممالة تكتب ياء.
وقوله " وهو القاهر " معناه والله المتقدر المستعلي على عباده الذين هو فوقهم لا على أنه في مكان مرتفع فوقهم وفوق مكانهم، لان ذلك لا يجوز عليه، لانه صفة للجسام. ومثله في اللغة أمر فلان فوق أمر فلان، يراد به أنه أعلى امرا، وانفذ قولاً. ومثله قوله تعالى " يد الله فوق أيديهم " (٦) والمراد أنه أقوى واقدر منهم وانه القاهر لهم.
وقوله: " ويرسل عليكم حفظة " يعني يرسل عليكم ملائكة يحفظون أعمالكم ويحصونها عليكم ويكتبونها ليعلموا بذلك أن عليهم رقيبا من عند الله ومحصيا عليهم فينجزوا من عن المعاصي. وبين ان هؤلاء الحفظة هم شهداء عليكم بهذه الاعمال يوم القيامة.
وقوله " حتى اذا جاء احدكم الموت " يعني وقت الموت " توفته رسلنا " يعني قبضت الملائكة روح المتوفى، وهم رسل الله الذين عنا هم الله بهذه الالية.
وقال الحسن: " توفته رسلنا " قال هو ملك الموت وأعوانه وأنهم لا يعلمون آجال العباد حتى يأتيهم علم ذلك من قبل الله بقبض أرواح العباد. وقوله:

(١) سورة ٦ الانعام آية ٣٤ (٢) سورة ٤١ حم السجدة آية ١٤ (٣) سورة ٧ الاعراف آية ١٠٠ ويونس ١٠ آية ١٣ وابراهيم ١٤ آية ٩ الروم ٣٠ آية ٩ وسورة ٣٥ فاطر آية ٢٥ والمؤمن ٤٠ آية ٨٣.
(٤) سورة ١٤ ابراهيم آية ١٠ (٥) سورة ١٢ يوسف آية ٣٠ (٦) سورة ٤٨ الفتح آية ١٠.

(١٥٩)

" توفته رسلنا " أي تقبضه، والتوفى هو القبض على ما بيناه. ثم إن هؤلاء الرسل " لا يفرطون " أي لا يقصرون - في قول الزجاج - ولا يغفلون، ولا يتوانون. وقال الجبائي: لا يأخذون روحه

قبل أجله ويبادرون إلى مأمروا به عن غير تقصير، ولاتفريط. والمعنى في التوفي ان يعلم العباد أنهم يحصون اذا ماتوا فلا يرون أنهم يهملون اذا ماتوا وأن احدا منهم لا يثبت ذكره ليجزى بعمله.

ثم بين ان هؤلاء الذين تتوفاهم رسلنا يردون بعد الوفاة إلى الله فيردهم إلى الموضع الذي لا يملك الحكم عليهم فيه الا الله ولا يملك نفعهم ولا ضرهم سواء فجعل ردهم إلى ذلك الموضع ردا إلى الله، وبين أنه هو " مولا هم الحق " لانه خالقهم ومالكهم، والقاهر عليهم القادر على نفعهم وضرهم، ولا يجوز ان يوصف بهذه الصفة سواء، فلذلك كان مولا هم الحق. وقال البلخي: (الحق)

اسم من اسماء الله وهو خفض، لانه نعت لله، ويجوز الرفع على معنى الله مولا هم الحق، ويجوز ان ينصب على معنى يعني مولا هم، والقراءة بالخفض. وقوله: " ألا له الحكم " معناه ألا يعلمون أو ألا يقرون ان الحكم يوم القيامة هو له وحده؟، ولا يملك الحكم في ذلك اليوم سواء، كما قد يملك الحكم في الدنيا غيره بتملك الله اياه. وقوله: " وهو أسرع الحاسبين " روي أنه تعالى يحاسب عباده على مقدار حلب شاة، وذلك يدل على أنه لا يحتاج ان يكلفهم مشقة وآلة على ما يقوله المشبهة، لانه لو كان كذلك لا يحتاج ان يتناول زمان محاسبته أو أنه يشغله محاسبته عن محاسبة غيره. وروي عن أمير المؤمنين (ع) أنه قيل له: كيف يحاسب الله الخلق وهم لا يرونه؟ قال: كما يرزقهم ولا يرونه والمعنى في الآية أنه تعالى أحصى الحاسبين لما أحصى الملائكة وتوفوا من الانفس لا يخفى عليه من ذلك خافية ولا يحتاج في عده إلى فكر ونظر.

(١٦٠)

قوله تعالى:

قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجينا من هذه ل نكونن من الشاكرين (٦٣) قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون (٦٤) آيتان بلاخلاف.

قرأ يعقوب " قل من ينجيكم " مخففا. الباقر بالتشديد. وقرأ ابو بكر " وخفية " بكسر الخاء - هاهنا -، وفي الاعراف. وقرأ اهل الكوفة الا ابن شاهي " أنجانا " على لفظ الاخبار عن الواحد الغائب، وأماله حمزة والكسائي وخلف. الباقر " أنجيتنا " على وجه الخطاب. وقرأ اهل الكوفة الا العيسى وهشام وأبو جعفر " قل الله ينجيكم " بالتشديد. الباقر بالتخفيف. يقال: نجازيد بنجو، قال الشاعر:

* نجاسالم والنفس منه لشدقه * (١)

فاذا نقلت الفعل حسن ان تنقله بالهمزة فتقول انجيتته، ويجوز أن ننقله بتضعيف العين، فتقول نجيتته، ومثله فرحته وأفرحته وعرضته وأعرضته، قال الله تعالى " فأنجاه الله من النار " (٢) " فأنجيناه والذين معه " (٣) وقال " ونجينا الذين " (٤) فلما أستوت اللغتان وجاء التنزيل بهما تساوت القراءتان.

ووجه قراءة من قرأ " لئن أنجانا " أنه حمله على الغيبة كقوله " تدعونه... لئن أنجانا "، وكذلك ما بعده " قل الله ينجيكم " " قل هو القادر " فهذا كله أسماء غيبة ف (أنجانا) أولى من (انجيتنا) لكونه على ما قبله، وما

(١) اللسان " نجا " نسبه إلى الهذلي وروايته:

نجا عامر والنفس منه بشدقه * ولم ينج الاجفن سيف ومئزرا

(٢) سورة ٢٩ العنكبوت آية ٤

(٣) سورة ٧ الاعراف آية ٦٣، ٧١

(٤) سورة ٤١ حم السجدة آية ١٨

(١٦١)

بعده من لفظ الغيبة، وموضع (يدعونه) نصب على الحال، وتقديره قل من ينجيكم داعين وقائلين " لئن انجيتنا ". ومن قرأ من الكوفيين " لئن أنجانا " طلب المشاكلة. ومن قرأ بالتاء واجه بالخطاب ولم يراع المشاكلة. ويقوي ذلك قوله في أخرى " لئن انجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين. قل الله ينجيكم " فجاء انجيتنا على الخطاب وبعده اسم غيبة. وأما إمالة حمزة والكسائي فحسنة، لان هذا النحو من الفعل اذا كان على أربعة أحرف أستمرت فيه الامالة، لانقلاب الالف ياء في المضارع.

ومن قرأ " خفية " بكسر الخاء، فلان أباعبيدة قال " خفية " تخفون في أنفسكم وخفي غيره خفية، وخفية لغتان، وحكي خفوة وخفوة بالواو، كما قالوا حل حبوته وحبيتته، ولا يقرأ بذلك. فأما قوله " تصرعا وخيفة " ففعلته من الخوف. وانقلبت الواو، للكسرة. والمعنى أدعوا خائفين خافيين، قال الشاعر:

فلا تقعدن على زخة * وتضمير في القلب وجدا وخيفا (١)

يريد جمع خيفة.

أمر الله تعالى نبيه ان يخاطب الخلق ويقول لهم على وجه التقرير لمن يعبد الاصنام منهم - " من ينجيكم من ظلمات البر والبحر " ومعناه شدائد البر والبحر، تقول العرب لليوم الذي يلقى فيه الشدة: يوم مظلم حتى أنهم يقولون:

يوم ذو كواكب أي قد اشتدت ظلمته حتى صار كالليل، قال الشاعر:
ابني أسد هل تعلمون بلاءنا * اذا كان يوم ذو كواكب أشهب
وقال آخر:

فدى لبني ذهل بن شيبان ناقتي * اذا كان يوم ذو كواكب أشهب (٢)
فمعنا ظلمات البر والبحر شدائدهما. وقوله: " تدعونه.. وخفية " أي مظهرين الضراعة، وهي شدة الفقر إلى الشئ والحاجة و " تدعونه..

(١) قاتله صخر الغي. اللسان " زخخ ". الزخ والزخة " بتشديد الخاء ":

الحقد والغيط.

(٢) اللسان " شهب " أشده سيبويه. في المطبوعة " اشنع " بدل (اشهب)

(١٦٢)

خفيه " أي تدعونه في أنفسكم بما تظلمون من حاجاتكم اليه كما تظلمون. وقوله " لئن أنجيتنا من هذه " أي في شدة وقعوا فيها، يقولون " لئن أنجيتنا من هذه " لنشكرنك، فأمر الله ان يسألهم على وجه التوبيخ لهم والتقرير بأنه ينجيهم وأنه القادر على نفعهم وضرهم. ثم أعلمهم ان الله الذي أقروا بأنه ينجيهم هو ينجيهم ثم هم يشركون معه الاصنام التي قد علموا أنها من صنعهم وأنها لاتضر ولاتنفع وأنه تعالى على تعذيبهم قادر. قوله تعالى:

قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيئا ويذيق بعضكم بأس بعض أنظر كيف نصرف الآيات لعلمهم يفقهون (٦٥) آية بلاخلاف هذا أمر من الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وآله) أن يقول لهؤلاء الكفار: ان الله قادر على ان يبعث عليكم عذابا من فوقكم نحو الحجارة التي أمطرها على قوم لوط، والطوفان الذي غرق به قوم نوح " أو من تحت أرجلكم " نحو الخسف الذي نال قارون ومن خسف به " أو يلبسكم شيئا " معنى يلبسكم يخلط أمركم خلط اضطراب، لاخلط اتفاق يقال: لبست عليه الامر ألبسه اذا لم تبينه، وخلطت بعضه ببعض، ومنه قوله " وللبسنا عليهم ما يلبسون " (١) ويقال لبست الثوب ألبسه. ومعنى " شيئا " أي يجعلكم فرقا لا تكونون شيعة واحدة فاذا كنتم مختلفين قاتل بعضكم بعضا وهو معنى قوله " ويذيق بعضكم بأس بعض " وانما يلبسهم الله شيئا بأن يكلمهم إلى أنفسهم

ولا يلاطف لهم اللطف الذي يؤمنون عنده ويخليهم من أظفاه بذنوبهم السالفة، فيلبس عند ذلك عليهم أمرهم، فيختلفوا حتى يذوق بعضهم بأس بعض. ثم أكد الاحتجاج عليهم، فقال: " انظر كيف نصرف الآيات " لتفقهوا.

(١) سورة ٦ الانعام آية ٩

(١٦٣)

وقال الحسن: الآية متناولة، لاهل الكتابين في التهديد بالخسف، وانزال العذاب " أو يلبسكم شيعا " يتناول أهل الصلاة. وقال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (سألت ربي أن لا يظهر على أمتي أهل دين غيرهم فأعطاني، وسألته ألا يهلككم جوعا فأعطاني، وسألته أن لا يجمعهم على ضلالة، فأعطاني، وسألته أن لا يلبسهم شيعا، فمنعني ذلك).

وفي الآية دلالة على أنه تعالى أراد من الكفار الايمان، لانه قال: فعلت هذا بهم " لعلمهم يفقهون " ومعناه لكي يفقهوا، لان معنى الشك لا يجوز عليه تعالى. واذا ثبت أنها دخلت للغرض ثبت أنه أراد ان يؤمنوا به ويوحده، ويفقهوا أدلته ويعرفوها. وروي عن ابي عبدالله (ع) أنه قال معنى " عذابا من فوقكم " السلطان الجائر " ومن تحت أرجلكم " السفلة، ومن لاخير فيه " أو يلبسكم شيعا " قال: " العصبية " ويذيق بعضكم بأس بعض " قال سوء الجوار، ويكون معنى البعث على هذا الوجه التمكين ورفع الحيلولة دون أن يفعل ذلك أو يأمر به، يتعالى الله عن ذلك.

قوله تعالى:

وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل (٦٦)

لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون (٦٧).

آية في المدنيين والبصري وآيتان في الكوفي، آخر الاولى " بوكيل " .

قوله تعالى " وكذب به قومك " أي بما صرف من الآيات التي ذكرها في الآية الاولى - في قول البلخي والجبائي - وقال الازهري: الهاء راجعة إلى القرآن. ثم أخبر تعالى، فقال " وهو الحق " وأمره أن يقول لقومه " لست عليكم بوكيل " أي لم أؤمر بمنعكم من التكذيب بآيات الله وان أحفظكم من ذلك وان أحول بينكم وبينه، لان الوكيل على الشئ هو القائم بحفظه، والذي يدفع الضرر عنه.

(١٦٤)

وقال البلخي: هذه نزلت بمكة قبل أن يؤمر بالقتال، ثم امر فيما بعد ذلك. وأمره ان يخبرهم ان " لكل نباء " يخبرهم به " مستقر " وهو وقته الذي يعلمون فيه صحة ما وعدهم به وحقيقته، وذلك عند كون مخبره، اما في الدنيا، واما في الآخرة " وسوف تعلمون " فيه تهديد لهم بكون ما أخبرهم به من العذاب النازل بهم في الدنيا والآخرة، ووقت كون هذا العذاب هو مستقر الخبر. وقال بعضهم: أنبأه الله بالوقت الذي يظفره فيه بهم. وقال الزجاج يجوز أن يكون اراد وقت الاذن في محاربتهم حتى يدخلوا في الاسلام أو يقبلوا الجزية ان كانوا أهل كتاب. وقوله: " وكذب به قومك " المراد به الخصوص، لان في قومه جماعة صدقوا به، وهو كما يقول القائل: هؤلاء عشيرتي، يشير إلى جماعة وان لم يكونوا جميع عشيرته. قوله تعالى:

وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين (٦٨) آية بلاخلاف قرأ ابن عامر " وام ينسينك " بتشديد السين. الباقرن بالتخفيف.

خاطب الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) بهذه الآية، فقال له " اذا رأيت " هؤلاء الكفار " الذين يخوضون في آياتنا ". قال الحسن، وسعيد بن جبير: معنى " يخوضون " يكذبون " بآياتنا " وديننا والخوض التخليط في المفاوضة على سبيل العبث واللعب، وترك التفهم واليقين. ومثله قول القائل: تركت القوم يخوضون، أي ليسوا على سداد، فهم يذهبون ويجيئون من غير تحقيق ولا قصد للواجب - أمره حينئذ ان يعرض عنهم " حتى يخوضوا في حديث غيره " لان من حاج من هذه حاله وأراد التبيين له فقد وضع الشئ في غير موضعه

(١٦٥)

وحط من قدر الدعاء، والبيان والحجاج. ثم قال له (صلى الله عليه وآله) ان انساك الشيطان ذلك " فلا تقعد بعد الذكرى " - والذكرى والذكر واحد - " مع القوم الظالمين " يعني هؤلاء الذين يخوضون في ذكر الله وآياته. ثم رخص للمؤمنين بقوله: " وما على الذين يتقون من حسابهم " (١) بأن يجالسوهم اذا كانوا مظهرين للتكبر عليهم غير خائفين منهم، ولكن نكرى يذكرونهم أي ينبهونهم ان ذلك يسوءهم " لعلمهم يتقون " ثم نسخ ذلك بقوله " وقد نزل عليكم في الكتاب ان اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها " إلى قوله: " انكم اذا مثلهم " (٢) وبهذا قال سعيد بن جبير والسدي وجعفر بن مبشر، واختاره البلخي وقال: في أول الاسلام كان ذلك يخص النبي (صلى الله عليه وآله) ورخص المؤمنين فيه، ثم لما عز - الاسلام، وكثر المؤمنون نهوا عن مجالستهم ونسخت الآية.

واستدل الجبائي بهذه الآية على انه لايجوز على الائمة المعصومين على مذهبنا النقية. (وقال: لانهم اذاكانوا الحجة كانوا مثل النبي، وكما لايجوز عليه النقية فكذا الامام - على مذهبكم -) وهذا ليس بصحيح، لانا لانجوز على الامام النقية فيما لايعرف الا من جهته، كالنبي وانما يجوز النقية عليه فيما يكون عليه دلالة قاطعة موصلة إلى العلم، لان المكلف علمته مزاحة في تكليفه، وكذلك يجوز في النبي (صلى الله عليه وآله) أن لايبين في الحال، لامته مايقوم منه بيان منه أو من الله أو عليه دلالة عقلية، ولذلك قال النبي (صلى الله عليه وآله) لعمرحين سأله عن الكلاله فقال (يكفيك آية الصيف)

وأحال آخر في تعرف الوضوء على الآية، فأما ما لايعرف الا من جهته، فهو والامام فيه سواء لايجوز فيهما النقية في شئ من الاحكام.

واستدل الجبائي أيضا بالآية على ان الانبياء يجوز عليهم السهو والنسيان قال بخلاف مايقوله الرافضة بزعمهم من أنه لايجوز عليهم شئ من ذلك. وهذا ليس بصحيح أيضا لانا نقول انما لا يجوز عليهم السهو والنسيان فيما يؤديه عن الله، فأما غير ذلك فانه يجوز أن ينسوه أو يسهو عنه مما لم يؤدي ذلك إلى

(١) سورة ٦ الانعام آية ٦٩ (٢) سورة ٤ النساء آية ١٣٩

(١٦٦)

الاخلال بكمال العقل، وكيف لايجوز عليهم ذلك وهم ينامون ويمرضون ويعشى عليهم، والنوم سهو وينسون كثيرا من متصرفاتهم أيضا وماجرى لهم فيما مضى من الزمان ا، والذي ظنه فاسد.

وقال أيضا في الآية دلالة على وجوب انكار المنكر لانه تعالى أمره بالاعراض عنهم على وجه الانكار والازدراء لعلهم وكل أحد يجب عليه ذلك اقتداء بالنبي. قوله تعالى:

وما على الذين يتقون من حسابهم من شئ ولكن ذكرى لعلهم يتقون (٦٩) آية بلاخلاف.

لهذه الآية تأويلان:

أحدهما - قال الجبائي والزجاج واكثر المفسرين ان المراد ليس على المتقين من حساب الكافرين ومايخوض فيه المشركون، ولامن مكروه عاقبته شئ " ولكن ذكرى " أي نهوا عن مجالستهم ليزدادوا تقى وأمروا ان يذكروهم وينبهوهم على خطأهم لكي يتقي المشركون اذا رأوا أعراض هؤلاء المؤمنين عنهم، وتركهم مجالستهم فلا يعودون لذلك.

والثاني - قال البلخي: ليس على المتقين من الحساب يوم القيامة مكروه ولا تبعة ولكنه أعلمهم بأنهم محاسبون وحكم بذلك عليهم لكي يعلموا أن الله يحاسبهم، فيتقوا فعلى الأول الهاء والميم كناية عن الكفار وعلى الثاني عن المؤمنين.

و (ذكرى) يحتمل ان يكون في موضع رفع ونصب، فالنصب على تقدير ذكرهم ذكرى والرفع على وجهين: احدهما - ولكن عليكم ان تذكروهم، كما قال: " ان عليك الا البلاغ " (١) والثاني - على تقدير ولكن الذي يأمرونهم

(١) سورة ٤٢ الشورى آية ٨

(١٦٧)

به ذكرى ليتقوا عذاب الله.

وقال أبو جعفر (ع): لمانزلت " فلاتتعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين " قال المسلمون كيف نصنع ان كان كلما استهزء المشركون بالقرآن قمنا وتركناهم فلاندخل اذا المسجد الحرام ولانطوف بالبيت الحرام، فأنزل الله تعالى " وما على الذين يتقون من حسابهم من شئ " وامرهم بتذكيرهم وتبصيرهم ما أستطاعوا.
قوله تعالى:

وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لايؤخذ منها اولئك الذين أبسلوا بماكسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون (٧٠) آية عند الجميع.
معنى قوله " ذر " دع يقال: وذر يذر مثل ودع يدع، فاذا أمرت منه قلت: ذر كما قال " ذرهم يأكلوا ".

وقوله " الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا " يعني هؤلاء الكفار الذين وصفهم انهم اتخذوا دين الله لعبا ولهوا، لانه لامعنى لمحااجة من كانت هذه سبيله، لانه لابع عابث، لا يصغي لما يقال له، فالمكلم له والمحتج عليه غير منتفع ولانافع. وقد قطع الله عذر هؤلاء الذين يذهبون مذهب اللعب بما أدركوه بعقولهم، وماشاهدوه من آياته " وغرتهم الحياة الدنيا ". ثم امر نبيه (صلى الله عليه وآله) ان يذكر به، يعني القرآن. وقيل الحساب، لكي لاتبسل نفس بماكسبت أي تدفع إلى الهلكة على وجه الغفلة وتسلم لعملها غير قادرة على

(١٦٨)

التخلص، قال الشاعر في الغريب المضيف:

وابسالي بني بغير جرم * بعوناه ولا بدم مراق (١)

أي اسلامي اياهم. بعوناه اجترمناه، والبعو الجناية. وقيل: معنى تبسل ترهن ويسلم لعمله. قال الاخفش: معنى "تبسل" تجازى من ابسل ابسالاً، ومنه قوله "اولئك الذين أبسلوا" (٢) قال الكسائي: "تبسل تجزى يعني في الكلام. وقال الفراء: معناه يسلم ويقال اعط الراقي بسلته أي أجرته على رقيته. ويقال أسد باسل، معناه ان معه من الاقدام ما يستبسل له قرنه، ويقال هذا بسل أي حرام، وهو بسل أي حلال. وهذا من الاضداد.

" شراب من حميم " قال الضحاك الحميم هو الماء الذي احمي حتى انتهى غليانه.

وقوله: " وان تعدل كل عدل " قال بعضهم ان يفد كل فدية يريد ان يجعلها عدلاً لها من قوله " لا يقبل منها عدل " (٣) وقال غيره معناه وان تقسط كل قسط لا يقبل منها في ذلك اليوم لان التوبة انما هي في الحياة الدنيا. ثم أخبر تعالى انه ليس لهؤلاء الكفار " ولي ولا شفيع " أي لانصرلهم، ولا من يسأل فيهم واخبر أيضا أن هؤلاء في قوله " اولئك الذين أبسلوا " هم الذين يجازون بماكسبوا وان لهم شراباً من حميم وعقاباً أليماً بما كانوا يكفرون، نعوذ بالله منها. وقيل: مامن أمة الا ولهم عيد يلعبون فيه ويلهون، الأمة محمدفان أعيادهم صلاة وتكبير ودعاء وعبادة.

قوله تعالى:

قل أئذعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدينا الله كالذي استهوته الشياطين في الارض حيران له أصحاب يدعونه إلى

(١) تفسير الطبري ١١ / ٤٤٥ ومجاز القرآن ١ / ١٤٩ واللسان " بعمل " (٢) سورة ٦ الانعام آية ٧٠ (٣) سورة ٢ البقرة آية ١٢٣

(١٦٩)

الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين (٧١) آية بلاخلاف.

قرأ حمزة " استهواه الشياطين " بألف مماله، الباقون بالتاء المعجمة من فوق قال ابو عبيدة " كالذي استهوته الشياطين " أي استمالت به، ذهبت به، ومنه " فأزلهما الشيطان عنها " (١) وكذلك هوى وأهوى غيره، قال تعالى:

" والمؤتفة أهوى " (٢) يقال أهويته واستهويته، كما قال " فأزلهما الشيطان " و " انما استزلهما الشيطان " (٣)، فكما أن ازله بمعنى استزله كذلك استهواه بمنزلة أهواه، وكما أن معنى استجابته أجابه في قول الشاعر:

فلم يستجبه عند ذلك مجيب (٤)

وقرأ حمزة هاهنا مثل قراءته " توفاه " وكلا المذهبين حسن.

وقوله: " استهواه " انما هو من قولهم: هوى من حالق اذا تردى منه.

ويشبه به الذي زل عن الطريق المستقيم، كما أن زل انما هو من العباد، والمكان أمر الله نبيه (صلى الله عليه وآله) والمؤمنين أن يقولوا لهؤلاء الذين يدعونهم إلى عبادة الاوثان والاصنام " أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا " ان عبدناه، ولا يضرنا ان تركنا عبادته " ونرد على أعقابنا " بعد الهدى والرشاد وبعد معرفتنا بالله وتصديق رسله إلى الضلال، وذلك مثل يقال فيمن رجع عن خير إلى شر: رجع على عقبيه، وكذلك اذا خاب من مطلبه، يقال رد على عقبيه، وبصير في الحيرة " كالذي استهوته الشياطين في الارض حيران " لايهتدي إلى طريق، ولا معرفة " له أصحاب يدعونهم " إلى الطريق الواضح وهو الهدى ويقولون له " انتنا " ولا يقبل منهم، ولا يصير اليهم غير انه لذهاب عقله من فعل الله، فيستولي الشيطان حينئذ عليه، ولا يقبل من أحد لحيرته. شبه الله به الكافر الذي يرجع

(١) سورة ٢ البقرة آية ٣٦ (٢) سورة ٥٣ النجم آية ٥٣ (٣) سورة ٣ آل عمران آية ١٥٥ (٤) انظر / ١٣١

(١٧٠)

عن ايمانه وهداه إلى الضلال. قال ولا يقدر أحد من الشياطين على اذهاب عقل أحد، لانهم لو قدروا على ذلك لسلبوا عقول العلماء من حيث انهم أعداؤهم، فلما لم يقدروا على ذلك دل على أنه لا يقدر على ذلك الا الله.

ثم أمره الله أن يقول لهؤلاء الكفار " ان هدى الله هو الهدى " أي دلالة الله لنا على توحيديه وأمر دينه هو الهدى الذي يؤدي المستدل به إلى الفلاح والرشاد في دينه وهو الذي يجب أن يعمل عليه ويستدل به دون ما يدل عليه غيره من سوى أمور الدين. وقوله " وأمرنا لنسلم لرب العالمين " معناه أمرنا أن نسلم أمورنا لله رب العالمين وان نفوضها اليه ونتوكل عليه لا على غيره مما يعبده المشركون.

و " حيران " نصب الحال، وتقديره كالذي استهونه الشياطين في حال حيرته. وقوله " له أصحاب يدعونهم إلى الهدى " قيل: نزلت في عبدالرحمن ابن أبي بكر، كان أبواه يدعوانه إلى الايمان ويقولان له " انتنا "، أي تابعنا في ايماننا " وأمرنا لنسلم لرب العالمين " تقول العرب: أمرتك ان تفعل وأمرتك لتفعل وأمرتك بأن تفعل، فمن قال: أمرتك بأن تفعل، فالباء للالصاق. والمعنى وقع الامر بهذا الفعل. ومن قال أمرتك أن تفعل حذف الباء، ومن قال أمرتك لتفعل

المعنى أمرنا للاسلام. قال الزجاج: يكون اللام لام التعليل والتقدير أمرنا كي نسلم قال الشاعر:

أريد لانسى ذكرها فكأنما * تمثل لي ليلي بكل سبيل (١)

أي كي أنسى. وقال الطبري: معناه وأمرنا لنخضع له بالذلة والطاعة ونخلص ذلك له دون ماسواه من الانداد والالهة.

قوله تعالى:

وأن أقيموا الصلوة واتقوه وهو الذي إليه تحشرون (٧٢) آية بلاخلاف.

(١) مر هذا البيت في ٣ / ١٧٤ وهو في مجمع البيان ٢ / ٣١٩

(١٧١)

تحتمل هذه الآية وجهين:

احدهما - أن يكون التقدير أمرنا لان نسلم، ولان نقيم الصلاة.

والثاني - ان يكون محمولا على المعنى، لان معناه أمرنا بالاسلام، واقامة الصلاة، وموضع (أن) نصب، لان الباء لما أسقطت أفضى الفعل، فنصب. ويحتمل أن يكون محمولا على قوله " يدعونه إلى الهدى ائتنا " وان " أقيموا الصلاة " أي ويدعونه أن أقيموا الصلاة. وهذه الآية موصولة بالتي قبلها أي " أمرنا لنسلم لرب العالمين " وقيل لنا " أقيموا الصلاة واتقوه " اي اتقوا رب العالمين بأن تجتنبوا معاصيه وتتقوا عقابه. ثم بين أنه " هو الذي إليه تحشرون " أن تجمعون اليه يوم القيامة فيجازي كل عامل منكم بعمله، وتوفى كل نفس بماكسبت. قوله تعالى:

وهو الذي خلق السموات والارض بالحق ويوم يقول كن فيكون

(*) قوله الحق وله الملك يوم ينفخ في الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير (٧٢)

آيتان في البصري والمدنيين وآية في الكوفي.

أمر الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) أن يقول لهؤلاء الكفار الذين يعبدون الاصنام، ويدعون المؤمنين إلى عبادتها " وامرنا لنسلم لرب العالمين " الذي خلق السموات والارض بالحق، وفي معنى بالحق قولان:

احدهما - قال الحسن والبلخي والجبائي والزجاج والطبري: ان معناه خلقهما للحق لا للباطل. ومعناه خلقهما حقا وصوابا لا باطلا وخطأ، كما قال تعالى: " وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا " (١) وادخلت الباء

(١٧٢)

والالف واللام كما أدخلت في نظائرها يقولون: فلان يقول بالحق، بمعنى أنه يقول الحق، لا أن الحق معنى غير القول بل التقدير ان خلق الله السماوات والارض حكمة وصواب من حكم الله، وهو موصوف بالحكمة في خلقهما وخلق ماسواهما من جميع خلقه لأن هناك حقا سوى خلقهما خلقهما به، وذلك يدل على بطلان ما يقوله المجبرة: ان هذا كله باطل وسفه، وما يخالف الحكمة هو من فعل الله، تعالى الله عن ذلك.

والثاني - قال قوم: معنى ذلك أنه خلق السماوات والارض بكلامه، وهو قوله " انتيا طوعا أو كرها " (٢) قالوا: فالحق هو كلامه واستشهدوا على ذلك بقوله " ويوم يقول كن فيكون قوله الحق " (٣) أن الحق هو قوله وكلامه. قالوا والله خالق الاشياء بكلامه، وذلك يوجب أن يكون كلامه قديما غير مخلوق، وقد بينا فساد هذا الوجه فيما تقدم، والمعتمد الاول.

وقوله " ويوم يقول كن فيكون " نصب (يوم) على وجوه:

احدها - على معنى وانتقوا " يوم يقول كن فيكون " نسقا على الهاء كما قال: " وانتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس شيئا " (٤).

والثاني - أن يكون على معنى وانكر يوم يقول كن فيكون لان بعده " واذ قال ابراهيم والمعنى وانكر " يوم يقول كن فيكون " وانكر " انقال ابراهيم " وهو الذي اختاره الزجاج. والثالث - أن يكون معطوفا على " السماوات والارض بالحق " وخلق " يوم يقول كن فيكون ". فان قيل: ان يوم القيامة لم يخلق بعد؟ قيل:

ما أخبر الله بكونه حقيقة واقع له محالة وقال قول: التمام عند قوله " كن " وقوله " فيكون قوله الحق " ابتداء أي ما وعدوا به من الثواب وحذروا به من العقاب كائن حق قوله بذلك.

(٢) سورة ٤١ حم السجدة آية ١١ (٣) سورة ٦ الانعام آية ٧٣ (٤) سورة ٢ البقرة آية ٤٨

(١٧٣)

وقوله " كن فيكون " قال قوم هو خطاب للصور. والمعنى ويوم يقول للصور كن فيكون. وقد بينا فيما مضى أن ذلك عبارة عن سرعة الفعل وتيسيره وانه لا يتعذر عليه شئ بمنزلة أن يقول كن فيكون، لأن هناك أمر على الحقيقة وكيف يكون هناك أمر والامر لا يتوجه الا الى الحي القادر؟! والمعدومات والجمادات لا يحسن أمرها ولا خطابها. والغرض بالاية الدلالة على سرعة أمر البعث والساعة، كأنه قال ويوم يقول للخلق: موتوا فيموتون وانتشروا

فينتسرون اي لايتعذور عليه ولايتأخر عن وقت ارادته. وقيل " يوم يقول كن فيكون قوله الحق " أي يأمر فيقع امره. والحق من صفة قوله. كمايقول القائل قد قلت، فكان قولك. والمعنى ليس انك قلت فكان الكلام.

وانما المعنى انه كان مادل عليه القول. وعلى القول الاول يرفع (قوله) بالابتداء و (الحق) خبر الابتداء. وحكي عن قوم من السلف " فيكون " بالنصب باضمار (ان). وتقديره كن فأن يكون، وهذا ضعيف.

وقوله " وله الملك يوم ينفخ في الصور " يحتمل نصب " يوم ينفخ " ثلاثة أوجه: احدها - ان يكون متعلقا ب (له الملك) والتقدير له الملك يوم ينفخ في الصور وانما خص ذلك اليوم بأن الملك له كما خصه في قوله " لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ". وقرأ بعضهم " ينفخ " بفتح الياء. و " عالم الغيب والشهادة " فاعل (ينفخ) وهوشاذ، روي عن ابن عباس ذلك، والوجه أنه لايبقى ملك من ملكه الله في الدنيا او يغلب عليه بل ينفرد هو تعالى بالملك. والثاني - ان يكون يوم ينفخ بيانا على قوله " يوم يقول كن فيكون " الثالث - ان يكون منصوبا ب (قوله الحق). والمعنى وقوله الحق يوم ينفخ، الصور. والوجه في اختصاص ذلك اليوم بالذكر مابيناه في الوجه الاول، لان قوله حق في جميع الاوقات. وفي معنى الصور قولان:

احدهما - ماعليه اكثر المفسرين من انه اسم لقرن ينفخ فيه الملك

(١٧٤)

فيكون منه الصوت الذي يصعق له اهل السماوات واهل الارض، ثم ينفخ فيه نفخة أخرى للنشور، وهو الذي اختاره البلخي والجبائي والزجاج والطبري واكثر المفسرين. والثاني - أنه جمع صورة مثل قولهم سورة وسور اختاره ابو عبيدة.

وقرأ بعضهم في الشواذ في الصور بفتح الواو وذلك يقوى ماقاله ابو عبيدة، ويكون تقديره يوم ينفخ في الاموات. ويقوي الاول قوله تعالى " ونفخ في الصور فصعق من في السماوات " ثم قال " ثم نفخ فيه اخرى " (١)

ولم يقل فيها أخرى او فيهن وذلك يدل على انه واحد. وروى ابوسعيد الخدري قال قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): كيف انعم وقد التقم صاحب القرن وحنأ جنبيه وأصغا سمعه ينتظر ان يؤمر، فينفخ؟! قالوا: فكيف نقول يارسول الله؟ قال قالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل.

والعرب تقول نفخ الصور ونفخ في الصور، قال الشاعر:

لولا ابن جعدة لم يفتح فهندركم * ولاخراسان حتى ينفخ الصور (١)

وروي عن ابن عباس ان الصور يعني به النفخة الاولى. ثم بين انه عالم الغيب والشهادة اي مايشاهده الخلق وما لا يشاهدونه وما يعلمونه وما لا يعلمونه، ولا يخفى عليه شئ من ذلك. وبين انه الحكيم في أفعاله الخبير العالم بعباده وبأفعالهم، ورفع عالم الغيب لانه نعت للذي في قوله " وهو الذي خلق السماوات والارض بالحق عالم الغيب والشهادة " ويحتمل ان يكون اسم مالم يسم فاعله كمايقولون اكل طعامك عبدالله، فيظهر اسم فاعل الاكل بعدان قد جرى الخبر بمالم يسم فاعله، والاول أجود، فأما من فتح الياء في ينفخ فانه جعل عالم الغيب فاعله مرتفعا به.

قوله تعالى:

وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة

(١) سورة ٣٩ الزمر آية ٦٨.

(١٧٥)

إني أريك وقومك في ضلال مبين (٧٤) آية بلاخلاف.

قرأ أكثر القراء (آزر) بنصب الراء. وقرأ ابويريد المدني والحسن البصري ويعقوب بالضم. فمن قرأ بالنصب جعل (آزر) في موضع خفض بدلا من أبيه. ومن قرأ بالضم جعله منادى مفردا وتقديره ياآزر.

وقال الزجاج: لاختلاف بين اهل النسب ان اسم ابي ابراهيم تارخ والذي في القرآن يدل على ان اسمه (آزر) وقيل (آزر) ذم في لغتهم كأنه قال:

واذ قال ابراهيم لأبيه يامخطئ اتتخذ أصناما فعلى هذا قال الزجاج الاختيار الرفع. قال: ويجوز أن يكون وصفا له كأنه قال واذقال ابراهيم لأبيه المخطئ. قال الزجاج: وقيل (آزر) اسم صنم، فموضعه نصب على اضمار الفعل، كأنه قال: واذ قال ابراهيم لأبيه أتتخذ آزر، وجعل (أصناما) بدلا من آزر واشباهه. فقال بعد أن قال اتتخذ آزر الها اتتخذ اصناما آلهة.

والذي قاله الزجاج يقوي مقاله أصحابنا، ان آزر كان جده لامه أو كان عمه، لان أباه كان مؤمنا من حيث ثبت عندهم أن آباء النبي (صلى الله عليه وآله) إلى آدم كلهم كانوا موحدين لم يكن فيهم كافر، وحجتهم في ذلك اجماع الفرقة المحقة، وقد ثبت أن اجماعها حجة لدخول المعصوم فيها، ولاخلاف بينهم في هذه المسألة. وأيضا روي عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: نقلني الله من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات لم يدنسني بدنس الجاهلية، وهذا خبر لاخلاف في صحته، فبين النبي (صلى الله عليه وآله) أن الله نقله من أصلاب الطاهرين فلو

كان فيهم كافر لماجاز وصفهم بأنهم طاهرون، لان الله وصف المشركين بأنهم أنجاس، فقال " انما المشركون نجس " (١) ولهم في ذلك أدلة لانطول بذكرها الكتاب لئلا يخرج عن الغرض. واختلفوا في معنى (آزر) هل هو اسم أو صفة، فقال السدي ومحمد

(١) سورة ٩ التوبة آية ٢٩.

(١٧٦)

ابن اسحاق وسعيد بن عبدالعزيز والجبائي والبلخي: انه اسم أبي ابراهيم، وهوتارخ كما قيل ليعقوب: اسرائيل، قالوا: ويجوز ان يكون لقباً غلب عليه. وقال مجاهد: ليس آزر أباً ابراهيم وانما هو اسم صنم. وقال قوم هو سب وعبث بكلامهم، ومعناه معوج. و (اذ) في الآية متعلقة بقوله واذكر " انقال ابراهيم لابيه آزر اتخذ أصناما آلهة " والالف الف انكار لاستفهام وان كان قد خرج مخرج الاستفهام.

وقوله " اني أراك في ضلال مبين " يعني في ضلال عن الصواب وقوله " مبين " يدل على انه قال ذلك منكراً، والمبين هو البين الظاهر، والغرض بالاية حث النبي (صلى الله عليه وآله) على محاجة قومه الذين يدعونهم إلى عبادة الاصنام والازدراء على فعلهم والافتداء في ذلك بأبيه ابراهيم (صلى الله عليه وآله) وصبره على محاجة قومه العابدين للاصنام ليتسلى بذلك ويقوي دواعيه إلى ذلك.

والاصنام جمع صنم وهو مثال من حجر او خشب او من غير ذلك في صورة انسان وهو الوثن. وقد يقال للصورة المصورة على صورة الانسان في الحائط وغيره صنم ووثن. قوله تعالى:

وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين (٧٥) آية بلاخلاف. معنى قوله " وكذلك نري ابراهيم ملكوت " أي مثل ماوصفنا من قصة ابراهيم من قوله لابيه ماقال نريه " ملكوت السموات " أي اناكما أريناه أن قومه في عبادة الاصنام ضالون كذلك نريه ملكوت السموات والارض وقيل في معنى الملكوت أقوال: قال الزجاج، والفراء والبلخي والجبائي والطبري وهو قول عكرمة: ان الملكوت بمنزلة الملك غير أن هذه اللفظة ابلغ من الملك، لان الواو والتاء يزدان للمبالغة. ومثل الملكوت الرغبت

(١٧٧)

والرهبوت ووزنه (فعلوت) وفي المثل (رهبوت خير من رغبوت) * ومن روى (رهبوتي خير من رحموتي) معناه أن يكون له هيبه يرهب بها خير من أن يرحم.

وقال مجاهد (ملكوت السماوات والارض) ملكهما بالنبطية.

وقال الضحاك: يعني خلقهما، وبه قال ابن عباس، وقتادة. وروى عن مجاهد أيضا أن معناه آيات السماوات والارض. وروى عن مجاهد وابن عباس أيضا أنه أراد بذلك ما أخبر الله عنه أنه أراه من النجوم والشمس والقمر، حين خرج من المغارة، وبه قال القتادة. وقال الجبائي: المعنى انا كنا نرى ابراهيم ملكوت السماوات والارض والحوادث الدالة على أن الله مالك لها، ولكل شئ بنفسه، لا يملكه سواه، فأجرى الملكوت على المملوك الذي هو في السماوات والارض مجازا.

وقوله " وليكون من الموقنين " أي ارينا ملكوت السماوات ليستدل به على الله وليكون من الموقنين أن الله هو خالق ذلك والمالك له. والموقن هو العالم الذي يتيقن الشئ بعد أن لم يكن مثبتا، ولهذا لا يوصف تعالى بأنه متيقن كما يوصف بأنه عالم، لأنه تعالى عالم بها في عالم يزل،. وقال أبو جعفر (ع): كسط الله له السماوات والارض حتى رآهن وما عليهن من الملائكة وحملة العرش، وذلك قوله: " وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السماوات والارض ".

فان قيل كيف يجوز أن يرى ماتحت الارضين والارض حجاب لماتحتها وكذلك السماء فوقها؟ قلنا: لا يمتنع أن يجعل الله تعالى منها خروقا ومنافذ ويقوي شعاعه حتى ينفذ فيها فيرى ما فوقها وماتحتها ولا يمنع من ذلك مانع، ومثل هذا روي عن مجاهد والسدي وسعيد بن جبير وسلمان. قوله تعالى:

فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل

(١٧٨)

قال لأحب الافلين (٧٦) فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لاكونن من القوم الضالين (٧٧) فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني برئ مما تشركون (٧٨) إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والارض حنيفا وما أنا من المشركين (٧٩) أربع آيات بلاخلاف.

قرأ ابن ذكوان، وحمزة والكسائي وخلف، ويحيى والكسائي عن أبي بكر (رأى) بكسر الراء وامالة والهمزة منه ومن قوله " رأى أيديهم " (١) في هود، و " رأى قمصه " و " رأى برهان ربه " في يوسف (٢) و " رأى ناراً " في طه (٣) و " لقد رأى " في النجم (٤) سبعة مواضع. وهو مالم يقله ساكن ولم يتصل بمكنى، وافقهم العليمي في " رأى كوكبا " حسب.

وقرأ ابو عمرو - بفتح الراء - وإمالة الهمزة فيهن. البااقون بفتح الراء والهمزة. فأن لقي (رأى) ساكنا، وهوستة مواضع هاهنا: " رأى القمر " و " رأى الشمس " وفي النحل " واذا رأى الذين اشركوا " (٥) وفي الكهف " ورأى المجرمون " (٦) وفي الاحزاب " ولما رأى المؤمنون " (٧) بكسر الراء وكسر الهمزة فيهن حمزة وخلف وبصير وابوبكر الا الاعشى. البرجمي.

البااقون بفتح الراء والهمزة فان اتصل رأى بمكنى نحو (رأه ورآك ورآها) فكسر

(١) سورة ١١ هود آية ٧٠ (٢) آية ٢٤ وآية ٢٨.

(٣) آية ١٠ (٤) آية ١٨.

(٥) آية ٨٥، ٨٦ (٦) آية ٥٤.

(٧) آية ٢٢.

(١٧٩)

الراء وامال الهمزة حيث وقع حمزة والكسائي وخلف ويحيى والكسائي عن أبي بكر. وقرأ ابو عمرو والداقوني عن ابن ذكوان - بفتح الراء وامالة الهمزة - البااقون بفتحهما. قال ابو علي الفارسي: وجه قراءة من لم يملها انه ترك الامالة كما تركوا الامالة في قولهم: دعاء، ورمى. فلما لم يمل الالف لم يمل الالف التي قبلها، كما أمالها من يرى الامالة ليميل الالف نحو الياء.

ومن قرأ بين الفتح والكسر كما قرأ نافع، فلا يخلو أن يريد الفتحين اللتين على الراء والهمزة، او الفتحة التي على الهمزة وحدها، فان كان يريد فتحة الهمزة فانما أمالها نحو الكسرة ليميل الالف التي في " رأى " نحو الياء كما أمال الفتحة التي عدل الدال من (هدى) والميم من (رمى). وان كان يريد أنه أمال الفتحين جميعا التي على الراء والتي على الهمزة، فإمالة فتحة الهمزة على ماتقدم ذكره، واما امالة الفتحة التي على الراء فانما أمالها لاتباعه اياها امالة فتحة الهمزة، كأنه امال الفتحة كما أمال الالف في قولك: رأيت عمادا، اذ الفتحة الممالة بمنزلة الكسرة فكما أميلت الفتحة في قولك: من عامر، لكسرة الراء كذلك أميلت فتحة الراء من (رأى) لامالة الفتحة التي على الهمزة. والتقديم والتأخير في ذلك سواء.

ومن كسر الراء والهمزة فالوجه فيه أنه كسر الراء من (رأى) لان المضارع منه على (يفعل) واذا كان المضارع منه على (يفعل) كان الماضي على (فعل)

ألا ترى ان المضارع في الامر العام اذا كان على (يفعل) كان الماضي على فعل.

وعلى هذا قالوا: إيت بيتنا، فكسروا حرف المضارعة. كما كسروا في نحو يحيى، ويعلم، ويفهم. وكسروا الياء أيضا في هذه الحروف، فقالوا: إيتنا، ولم يكسروها في (يعلم ويفهم) اذا كان الماضى على فعل فيما يترك كسر الراء التي هي فاء، لان العين همزة. وحروف الحلق اذا جاءت في كلمة على زنة (فعل) كسرت فيها الفاء لكسر العين في الاسم والفعل، نحو قولهم: غير قعر،

(١٨٠)

ورجل حبر، وفحل، وفي الفعل نحو (شهد ولعب ونعم) فكسرة الياء على هذا كسرة مخرصة محضة، وليست بفتحة مماله، واما كسرة الهمزة فإنه يراد به اماله فتحتها إلى الكسرة، لتميل الالف نحو الياء.

ومن ترك الاماله اذا لقيها ساكن، فانهم كانوا يميلون الفتحة لميل الالف نحو الياء، فلما سقطت الالف بطلت امالتها بسقوطها، وبطلت بذلك اماله الفتحة نحو الكسرة لسقوط الالف التي كانت الفتحة المماله لميلها نحو الياء في مثل (رأى الشمس) و (رأى القمر) ونحوهما في جميع القرآن. ومن وافق في بعض ذلك دون بعض أحب الاخذ باللبس.

ووجه قراءة أبي بكر وحمزة في (رأى الشمس) و (رأى القمر) بكسر الراء وفتح الهمزة في جميع القرآن، أن كسر الراء انما هو للتزليل الذي ذكرناه، وهو معنى منفصل من إمالة فتحة الهمزة، ألا ترى انه يجوز ان يعمل هذا المعنى من لا يرى الاماله كما يجوز ان يعمل من يراها. واذ كان كذلك كان انفصال أحدهما من الآخر سائعا غير ممتنع. فأما رواية يحيى عن أبي بكر - بكسر الراء والهمزة معا - فانما يريد بكسرة الهمزة إمالة فتحتها، فوجه كسر الراء قد ذكروا إمالة فتحها مع زوال ما كان يوجب امالتها من حذف الالف، فلان الالف محذوفة لالتقاء الساكنين. وما يحذف لالتقاء الساكنين ينزل لتزليل المثبت. ألا ترى انهم أنشدوا:

ولذاكر الله الاقليلا (١)

فنصب الاسم بعد (ذاكر) وان كانت النون محذوفة لما كان الحذف لالتقاء الساكنين. والحذف لذلك في تقدير الاثبات، من حيث كان التقاؤهما غير لازم ولذلك لم تزد الالف في نحو (رمت المرأة) ويشهد لذلك أنهم قالوا:

شهد، فكسروا الفاء لكسر العين، ثم أسكنوا فقالوا - شهد، فأبقوا الكسرة في الفاء مع زوال ما كان أصلها وانشد قول الاخطل:

(١٨١)

إذا غاب عنا غاب عنا فرأيتنا * وان شهد أجدى فضله وجداوله (٢)
وقالوا: صعق، ثم نسبوا اليه فقالوا: صعقي، فأقروا كسرة الفاعم زوال كسرة العين التي لها
كسرت الفاء. وزعم ابوالحسن ان ذلك لغة مع مافيه من وجوه التلبيس وأنها قراءة.
يقال: جن عليه الليل، وجنه الليل، وأجنه، وأجن عليه، ومع حذف " على " فأجنه بالالف
أفصح من جنه الليل. وكل ذلك مسموع، فلغة أسد جنه الليل، ولغة تميم أجنه، والمصدر من
جن عليه جنا وجنونا وجنانا وأجن إجنانا. ويقال: أتانا فلان في جن الليل. والجن مشتق من
ذلك، لانهم استجنوا عن أعين الناس، فلا يرون، وكلما توارى عن أبصار الناس، فان العرب
تقول:

قد جن. ومنه قول الهذلي:

وماء وردت قبيل الكرى * وقدجنه السدف الادهم (٣)
وقال عبيد:

وخرق تصيح الهام فيه مع الصدى * مخوف اذا ماجنه الليل مرهوب (٤)
وتقول: اجننت الميت اذا واريته في اللحد وجننته وهو مثل جنون الليل في معنى غطيته
وسمي الترس مجنا لانه يجن اي يغطي، وقال الشاعر:
فلما أجن الليل بتنا كأننا * على كثرة الاعداء محترسان
قوله " فلما جن عليه الليل " أي أظلم. وقوله " فلما أفل " معناه غاب يقال: أفل يأفل أفولا،
وتقول اين أفلت عنا، واين غبت عنا، قال ذو الرمة:
مصاييح ليست باللواتي تقودها * نجوم ولا بالافات الد والك ١٥١

(١) ديوانه ٦٤ (٣) هكذا في المطبوعة والمخطوطتين وتفسير الطبري ١١ / ٤٧٩ وروي " وماء وردت على خيفة
" و " على جفنه " و " قبل الصباح ". ديوان الهذليين ٣: ٥٦ واللسان " سدف " " جنن ".
(٤) ديوانه ٣٨ والطبري ١١ / ٤٧٩.
(٥) ديوانه: ٢٤٥ ومجاز القرآن ١ / ١٩٩ واللسان والتاج " ذلك " -

(١٨٢)

وقوله " رأى القمر بازغا " أي طالعا، يقال: بزغت الشمس بزوغا اذا طلعت، وكذلك القمر،
وقوله للشمس " هذا ربي " وهي مؤنثة معناه هذا الشئ الطالع ربي او على أنه حين ظهرت

الشمس وقد كانوا يذكرون الرب في كلامهم، فقال لهم هذا ربي؟! وقيل في معنى هذه الآية وجوه أربعة:

الوجه الاول - مقاله الجبائي: ان ما حكى الله عن ابراهيم في هذه الآية كان قبل بلوغه، وقبل كمال عقله ولزوم التكليف له، غير انه لمقاربتة كمال العقل خطرت له الخواطر وحركته الشبهات والدواعي على الفكر فيما يشاهده من هذه الحوادث، فلما رأى الكوكب - وقيل: انه الزهرة - وبان نوره مع تنبيهه بالخواطر على الفكر فيه وفي غيره ظن انه ربه، وأنه هو المحدث لما شاهده من الاجسام وغيرها " فلما أقل قال لا أحب الافلين " لانه صار منتقلا من حال إلى حال وذلك مناف لصفات القديم " فلما رأى القمر بازغا " عند طلوعه رأى كبره واشراق ما انبسط من نوره في الدنيا " قال هذا ربي " فلما راعاه وجده يزول ويأفل، فصار عنده بحكم الكوكب الذي لايجوز ان يكون بصفة الاله، لتغيره وانتقاله من حال إلى حال، " فلما رأى الشمس بازغة " أي طالعة قد ملات الدنيا نورا ورأى عظمها وكبرها " قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت " وزالت وغابت، فكانت شبيهة بالكوكب والقمر قال حينئذ لقومه " اني برئ مما تشركون " فلما أكمل الله عقله ضبط بفكره النظر في حدوث الاجسام بأن وجودها غير منفكة من المعاني المحدثه، وأنه لايدلها من محدث، قال حينئذ لقومه " اني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والارض.. " إلى آخرها.

والوجه الثاني - مقاله البلخي وغيره: من أن هذا القول كان من ابراهيم في زمان مهلة النظر، لان مهلة النظر مدة، الله العالم بمقدارها، وهي اكثر من

والطبري ١١: ٤٨٥ والازمنة ٤٩ وكتاب القرطين ١: ٢٦. ويصف الابل بأنها مصابيح اي تصبح في مبركها فلا تقف في الطريق.

(١٨٣)

ساعة. وقال البلخي: وأقل من شهر، ولايدري ما بينهما الا الله، فلما أكمل الله عقله وخطر بباله ما يوجب عليه النظر وحركته الدواعي على الفكر والتأمل له. قال ما حكاها الله، لان ابراهيم (ع) لم يخلق عارفا بالله، وانما اكتسب المعرفة لما أكمل الله عقله، وخوفه من ترك النظر بالخواطر، فلما رأى الكوكب - وقيل هو الزهرة - رأى عظمها واشراقها وماهي عليه من عجيب الخلق، وكان قومه يعبدون الكواكب، ويزعمون أنها آلهة - قال هذا ربي؟! على سبيل الفكر والتأمل لذلك، فلما غابت وأفلت، وعلم ان الافول لا يجوز على الله علم انها محدثة متغيرة لتنتقلها، وكذلك كانت حاله في رؤية القمر والشمس، وأنه لما رأى افولهما قطع على حدوثهما واستحالة إلهيتهما، وقال في آخر كلامه " اني برئ مما تشركون اني وجهت وجهي

للذي فطر السماوات والارض حنيفا ومأنأنا من المشركين " وكان هذا القول منه عقيب معرفته بالله وعلمه بأن صفات المحدثين لاتجوز عليه.

فان قيل: كيف يجوز ان يقول: هذا ربي مخبرا، وهو يجوز أن يكون مخبره لاعلى ماخبر، لانه غير عالم بذلك، وذلك قبيح في العقول، ومع كمال عقله لابد أن يلزمه التحرز من الكذب؟ ! قلنا عن ذلك جوابان:

احدهما - انه قال ذلك فارضا مقدرا، لامخبرا بل على سبيل الفكر والتأمل، كما يقول الواحد منا لغيره اذاكان ناظرا في شئ ومحملا بين كونه على إحدى صفتين: انا نفرضه على احدهما لننظر فيما يؤدي ذلك الفرض اليه من صحة او فساد، ولايكون بذلك مخبرا، ولهذا يصح من احدهما اذا نظر في حدوث الاجسام وقدمها ان يفرض كونها قديمة ليتبين ما يؤدي اليه ذلك الفرض من الفساد.

والثاني - انه اخبر عن ظنه وقد يجوز ان يكون المفكر المتأمل ظانا في حال نظره وفكره مالا اصل له ثم يرجع عنه بالادلة والعلم ولايكون ذلك

(١٨٤)

منه قبيحا.

فان قيل: ظاهر الايات يدل على ان ابراهيم ماكان رأى هذه الكواكب قبل ذلك، لان تعجبه منها تعجب من لم يكن رآها، فكيف يجوز ان يكون إلى مدة كمال عقله لم يشاهد السماء وما فيها من النجوم؟ ! قلنا: لايمتنع ان يكون مارأى السماء الا في ذلك الوقت، لانه روي أن أمه ولدته في مغارة لايرى السماء، فلماقارب البلوغ وبلغ حد التكليف خرج من المغارة ورأى السماء وفكر فيها. وقد يجوز أيضا ان يكون رآها غير انه لم يفكر فيها ولانظر في دلائلها، لان الفكر لم يكن واجبا عليه، فلماكمل عقله وحركته الخواطر فكر في الشئ الذي كان يراه قبل ذلك ولم يكن مفكرا فيه.

والوجه الثالث - ان ابراهيم لم يقل ماتضمنته الايات على وجه الشك ولافي زمان مهلة النظر بل كان في تلك الحال عالما بالله وبما يجوز عليه، فانه لايجوز ان يكون بصفة الكوكب، وانما قال ذلك على سبيل الانكار على قومه والتنبية لهم على ان مايغيب وينتقل من حال إلى حال لايجوز ان يكون إليها معبودا، لثبوت دلالة الحدث فيه. ويكون قوله " هذاربي " محمولا على أحد وجهين.

احدهما - أي هو كذلك عندكم وعلى مذهبكم كما يقول احدها للمشبه على وجه الانكار عليه: هذا ربي جسم يتحرك ويسكن وان كان عالما بفساد ذلك.

والثاني - أن يكون قال ذلك مستفهما وأسقط حرف الاستفهام للاستغناء عنه، كما قال الاخلط:
كذبتك عينك أم رايت بواسط * غلس الظلام من الرباب خيالا (١)
وقال آخر:

(١) ديوانه ٤١، وقد مر في ١: ٤٠٣، ٤٧٥

(١٨٥)

لعمرك ما أدري وان كنت داريا * بسبع رمين الجمر ام بثمانيا (١)
وقال ابن أبي ربيعة:

ثم قالوا تحبها قلت بهرا * عدد النجم والحصى والتراب (٢)
وقال أوس بن حجر:

لعمرك ما أدري وان كنت داريا * شعيب بن سهم أم شعيب بن منقر (٣)
وانما أراد أشعيب بن سهم أم شعيب بن منقر.

فان قيل: حذف حرف الاستفهام انما يجوز اذا كان في الكلام عوضا منه نحو (أم) للدلالة عليه، ولا يستعمل مع فقد العوض، وفي الابيات عوض عن حرف الاستفهام، وليس ذلك في الآية.

قلنا: قد يحذف حرف الاستفهام مع ثبوت العوض تارة وأخرى مع فقده اذا زال اللبس، وبيت ابن أبي ربيعة ليس فيه عوض ولا فيه حرف الاستفهام، وانشد الطبري:

رفوني وقالوا ياخويلد لاترع * فقلت وانكرت الوجوه هم هم (٤)

أي أهم هم؟، وروي عن ابن عباس في قوله " فلا اقتحم العقبة " أنه قال معناه أفلا اقتحم العقبة، وحذف حرف الاستفهام. واذا جاز ان يحذفوا حرف الاستفهام لدلالة الخطاب جاز أن يحذفوه لدلالة العقل، لان دلالة العقل أقوى من غيرها.

والوجه الرابع - أن ابراهيم قال ذلك على وجه المحاجة لقومه بالنظر كما يقول القائل: اذا قلنا: ان لله ولدا لزمنا أن نقول له زوجة، وان يطاء النساء

(١) تفسير القرطبي ٧ / ٢٧.

(٢) ديوانه: ١١٧ " طبعة بيروت سنة ١٣١١ هـ ."

(٣) شواهد المغني: ١٥ والكامل للمبرد ١ / ٣٨٤، ٢ / ١١٥ والبيان والتبيين ٤ / ٤٠ وسيبويه ١ / ٨٤٥ وتفسير الطبري ١١ / ٤٨٤ وغيرها.

(٤) قائله ابوخراس الهذلي، ديوان الهذليين ٢: ١٤٤ واللسان (رفأ)

(رفو) والقرطبي ٧ / ٢٦ و (رفوني) اي اسكنوني من الرعب.

(١٨٦)

وأشبه ذلك، وليس هذا على * وجه الاقرار والاختبار والاعتقاد بذلك، بل على وجه المحاجة فيجعلها مذهبا ليرى خصمه المعتقد لها فسادها. وكل هذه الايات فيها تنبيه لمشركي العرب وزجر لهم عن عبادة الاصنام وحث على الاخذ بدين ابراهيم ابيهم وسلوك سبيله في النظر والفكر والتدين، لانهم كانوا قوما يعظمون أسلافهم وآباءهم فأعلمهم الله تعالى ان اتباع الحق من دين ابيهم الذي يقرون بفضله اوجب عليهم ان كان بهم تعظيم الاباء والكراهة لمخالفتهم.

وفي الاية دلالة على ان معرفة الله ليست ضرورية، لانها لو كانت ضرورية لما احتاج ابراهيم إلى الاستدلال على ذلك، وكان يقول لقومه: كيف تعبدون الكواكب وانتم تعلمون حدوثها وحدث الاجسام ضرورة، وتعلمون ان لها محدثا على صفات مخصوصة ضرورة، وما كان يحتاج إلى تكلف الاستدلال والتنبيه على هذا.

وقوله " لئن لم يهديني ربي " معناه لئن لم يطف بي ويسدني ويوقني لاصابة الحق في توحيده " لكونن من القوم الضالين " الذين ضلوا عن الحق وأخطأوا طريقه، فلم يصيبوا الهدى. وليس الهداية - ههنا - الادلة، لان الادلة كانت سبقت حال زمان النظر، فان التكليف لا يحسن من دونها ولا يصح مع فقدها.

وقوله في الشمس " هذا أكبر " يعني من الكواكب وحذف لدلالة الكلام عليه. وقوله " اني وجهت وجهي " معناه أخلصت عبادتي وقصدت بها إلى الله الذي خلق السماوات والارض. وفيه اخبار عن ابراهيم واقرار منه واعتراف بأنه (ع) خالف قومه أهل الشرك، ولم يأخذه في الله لومة لائم، ولم يستوحش من قول الحق لقله تابعيه. وقال لهم " اني برئ مما تشركون " مع الله - الذي خلقني وخلقكم - في عبادته من آلهتكم بل " وجهت وجهي " في عبادتي الي الذي خلق السماوات والارض الذي يبقى ولا يفني، الحي

(١٨٧)

الذي لا يموت. واخبر انه يوجه عبادته ويخلصها له تعالى. والاستقامة في ذلك لربه على ما يجب من التوحيد لاعلى الوجه الذي توجه له من حيث ليس بحنيف. ومعنى الحنيف هو المائل إلى الاستقامة على وجه الرجوع فيه. وقوله " وما أنا من المشركين " اني لست منكم، ولا ممن يدين بدينكم، ويتبع ملتكم أيها المشركون. قوله تعالى:

وحاجه قومه قال أتجاجوني في الله وقد هدان ولا
أخاف ماتشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون (٨٠) آية
عند الجيع قرأ أهل المدينة وابن ذكوان " أتجاجوني " بتخفيف النون. الباقون بتشديدها.
وقرأ الكسائي والعبيسي " وقد هداني " بالامالة. الباقون بالتخميم.
قال ابوعلي: من شدد فلا نظر في قوله. ومن خفف فانه حذف النون الثانية لالتقاء الساكنين.
والتضعيف يكره، فيتوصل إلى ازالته تارة بالحذف نحو علم أي فلان، وتارة بالابدال نحو لا
املاه عني تفارقاً، ونحو ديوان وقيراط، فحذفوا الثانية منهما كراهية التضعيف. ولايجوز ان
يكون المحذوفة الاولى، لان الاستتقال يقع بالتكرير في الامر الاعم وفي الاولى أيضاً أنها
دلالة الاعراب ولذا حذفت الثانية كما حذف الشاعر في قوله:
ليني أصادفه وافقد بعض مالي (١).
وقال بعضهم حذف هذه النون لغة غطفان. وحكى سيبويه هذه القراءة مستشهداً بها في حذف
النونات كراهية التضعيف. اما إمالة (هداني) فحسنة،

(١) قائله زيد الخيل، اللسان (ليت) وروايته.

كمنية جابر انقال ليني * أصادفه وأتلف جل مالي

(١٨٨)

لانه من هدى يهدي، فهو من الياء. واذا كانوا أمالوا (غزا، ودعا)، لانه قد يصير إلى الياء في
غزي ودعي. فهذا لا اشكال في حسنه.
قوله " وحاجة قومه " يعني في وجوب عبادة الله وترك عبادة آلهتهم وخوفه من تركها وان
لايأمن ان تخبله آلهتهم من الاصنام وغيرها، فقال لهم ابراهيم (ع) " أتجاجوني في الله وقد
هداني " بأن وفقني لمعرفته ولطف بي في العلم بتوحيده وترك الشرك واخلاص العبادة له "
ولاخاف ماتشركون به " أي لاخاف منه ضرراً ان كفرت به ولا أرجو نفعاً إن عبدته، لانه
بين صنم قد كسر، فلم يدفع عن نفسه أو نجم دل أقوله على حدوثه، فكيف تجاجوني وتدعونني
إلى عبادة من لا يخاف ضرره ولا يرجو نفعه " الا أن يشاء ربي شيئاً " فيه قولان:
احدهما - الا أن يقبلها الله، فيحييها ويقدرها فتضر وتنفع، فيكون ضررها ونفعها اذ ذلك دليلاً
على حدوثها أيضاً، وعلى توحيد الله وأنه المستحق للعبادة دون غيره وانه لا شريك له في
ملكه، ثم أثبت عليه تعالى فأخبر بأنه عالم بكل شيء، وامرهم بالتذكر والتدبر لما أورده عليهم
مما لا يدفونه ولا يقدرون على انكاره ان انصفوا.

الثاني - قال الحسن: قوله: " ولأخاف ماتشركون به " أي لاخاف الاوثان " الا أن يشاء ربي شيئاً " استوجبه على الله تعالى، او يشاء الله ان يدخلني في ملتكم بالكفر. والاول هو الاجود. (أتحاجوني) أصله (أتحاجونني) بنونين احدهما للجمع والآخرى لاسمه، فأدغمت احدهما في الآخرى، فشددت ومثله (تأمر ونني) وقد يخفف مثل هذا في بعض المواضع، قال الشاعر:
أبا لموت الذي لا بد أني * ملاق لأباك تخوفيني
فجاء بنون واحدة وخففها، والاول أجود واكثر في العربية.

(١٨٩)

قوله تعالى:

وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأي الفريقين أحق بالامن إن كنتم تعلمون (٨١) آية بلاخلاف.
في هذه الآية احتجاج من ابراهيم (ع) على قومه وتأكيد لما قدم من الحجاج لانه قال لهم: وكيف تلمونني ان اخاف ما أشركتم به من الاوثان المخلوقة وقد تبين حالهم، وانهم لا يضررون ولا ينفعون، وانتم لاتخافون من هو القادر على الضر والنفع بل تتجرؤن عليه وتتقدمون بين يديه بأن تجعلوا له شركاء في ملكه وتعبدونهم من دونه، فأى الفريقين احق بالامن: نحن المؤمنون الذين عرفنا الله بأدلته ووجهنا العبادة نحوه؟ ام أنتم المشركون بعبادته غيره من الاصنام والاثان؟ ولو أطرحتم الميل والحمية والعصبية لما وجدتم لهذا الحجاج مدفعا.
وقوله " ما لم ينزل به سلطانا " أي حجة لان السلطان هو الحجة في اكثر القرآن، وذلك يدل على ان كل من قال قولا واعتقد مذهبا بغير حجة مبطل.
وقوله " ان كنتم تعلمون " معناه ان كنتم تستعملون عقولكم وعلومكم وتحكمونها على ماتهوونه وتميل اليه أنفسكم.

وفي الآية دلالة على فساد قول من يقول بالتقليد وتحريم النظر والحجاج، لان الله تعالى مدح ابراهيم لمحاجته لقومه وامر نبيه بالافتداء به في ذلك فقال " وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه " (١). ثم قال بعد ذلك: " اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده " اي بأدلتهم اقتده.

(١) آية ٨٣ من هذه السورة.

(١٩٠)

قوله تعالى:

الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون (٨٢) آية عند الجميع.
تحتل هذه الآية ان تكون اخبارا عن الله تعالى دون الحكاية عن ابراهيم بأنه قال تعالى: ان
من عرف الله تعالى وصدق به وبما أوجب عليه ولم يخلط ذلك بظلم، فان له الامن من الله
بحصول الثواب والامان من العقاب وهو المحكوم له بالاهتداء - وهو قول ابن اسحاق وابن
زيد والطبري والجبائي وابن جريج - وقال البلخي: ان ذلك من قول ابراهيم، لانه لما قطع
خصمه والزمه الحجة أخبر ان الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم فانهم الامنون المهتدون.
قال: وكذلك يفعل من وضحت حجته وانقطع بعد البيان خصمه.

والظلم المذكور في الآية هو الشرك عند أكثر المفسرين: ابن عباس وسعيد ابن المسيب وقتادة
ومجاهد وحمادين زيد وأبي بن كعب وسلمان (رحمة الله عليه) قال أبي ألم تسمع قوله " ان
الشرك لظلم عظيم " (١) وهو قول حذيفة.

وروي عن عبدالله بن مسعود انه قال لما نزلت هذه الآية شق على الناس، وقالوا يارسول الله
وأينا لا يظلم نفسه، فقال: انه ليس الذي تعنون ألم تسمعوا إلى ما قال العبد الصالح " يا بني
لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم " (٢).

وقال الجبائي والبلخي واكثر المعتزلة: انه يدخل فيه كل كبيرة تحبط ثواب الطاعة، قال فان
من هذه صورته لا يكون آمنا ولا مهتديا. قال البلخي:

ولو كان الامر على ما قالوه انه يختص بالشرك لوجب ان يكون مرتكب الكبيرة اذا كان مؤمنا
يكون آمنا وذلك خلاف القول بالارجاء.

وهذا الذي ذكره خلاف أقاويل المفسرين من الصحابة والتابعين. وما

(١، ٢) سورة ٣١ لقمان آية ١٣.

(١٩١)

قاله البلخي لا يلزم لانه قول بدليل الخطاب لان المشرك غير آمن بل هو مقطوع على عقابه
بظاهر الآية، ومرتكب الكبيرة غير آمن لانه يجوز العفو، ويجوز المؤاخذة وان كان ذلك
معلوما بدليل، وظاهر قوله " ولم يلبسوا إيمانهم بظلم " وان كان عاما في كل ظلم، فلنا ان
نخصه بدليل أقوال المفسرين وغير ذلك من الادلة الدالة على أنه يجوز العفو من غير توبة.
وروي عن علي (ع): أن الآية مخصوصة بابراهيم. وقال عكرمة مختصة بالمهاجرين. واما
الظلم في أصل اللغة فقد قال الاصمعي هو وضع الشيء في غير موضعه، قال الشاعر يمدح
قوما:

هرت الشقاشق ظلامون للجزر (١)

فوصفهم انهم ظالمون للجزر، لانهم عرقبوها فوضعوا النحر في غير موضعه، وكذلك الارض المظلومة سميت بذلك لانه صرف عنها المطر، ومنه قول الشاعر:

والنؤي كالحوض بالمظلومة الجلد (٢)

سماها مظلومة لانهم كانوا في سفر فتحوضوا حوضا لم يحكموا صنعته ولم يضعوه في موضعه.

قوله تعالى:

وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم (٨٣) آية بلاخلاف.

قرأ أهل الكوفة ويعقوب " درجات من نشاء " الباقون بالاضافة، من اضاف ذهب إلى ان المرفوعة هي الدرجات لمن نشاء ومن نون اراد ان المرفوع صاحب الدرجات، وتقديره نرفع من نشاء درجات، والدرجات معناها المراتب.

(١) مقاييس اللغة ٣: ٤٦٩ وصدرة: (عاد الاذلة في دار وكان بها).

(٢) اللسان " بين "، " ظلم ".

(١٩٢)

وفي أصل اللغة هي المراقي فشبه علو المنازل بها.

أخبر الله تعالى ان الحجج التي ذكرها ابراهيم لقومه آتاه الله اياها واعطاها اياه، بمعنى انه هداه لها فانه احتج بها بأمر الله ورضيها منه وصوبه فيها، ولهذا جعلها حجة على الكفار.

وقوله " نرفع درجات من نشاء " من المؤمنين الذين يؤمنون بالله ويطيعونه ويبلغون من الايمان والدعاء إلى الله منزلة عظيمة وأعلى درجة ممن لم يبلغ من الايمان مثل منزلتهم، وبين انه حكيم فيما يدبره من أمور عباده عليم بهم وبأعمالهم، وفي ذلك دلالة على صحة المحاجة والمناظرة في الدين والدعاء إلى توحيد الله والاحتجاج على الكافرين، لانه تعالى مدح ذلك واستصوبه. ومن حرم الحجج فقد رد - صريح القرآن.

قوله تعالى:

ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجزي المحسنين (٨٤) وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين (٨٥) وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين (٨٦) ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم (٨٧) ذلك هدى الله يهدي به

من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون (٨٨) أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فان يكفر بها هؤلاء فقدوكلنا بها قوما ليسوا

(١٩٣)

بها بكافرين (٨٩) أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لأسئلكم عليه اجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين (٩٠) سبع آيات قرأ حمزة والكسائي وخلف (اليسع) بتشديد اللام، وفتحها وسكون الياء هاهنا، وفي (ص). الباقون بسكون اللام وفتح الياء. قال الزجاج التشديد والتخفيف لغتان. وقال ابو علي الالف واللام ليستا للتعريف بل هما زائدتان وكان الكسائي يستصوب القراءة بلامين ويخطئ من قرأ بغيرهما كأن الاسم عنده (اليسع) ثم يدخل الالف واللام. قال ولو كانت (يسع) لم يجز أن يدخل الالف واللام، كما لا يدخل في (يزيد) و (يحيى). قال الاصمعي فقلت له، ف (اليرصع) من الحجارة و (اليعمل) من الابل و (اليحمد) حي من اليمن، فكأنما ألقمته حجرا، وبعدها فانا قد سمعناهم يسمعون ب (يسع)

ولم نرهم يسمعون ب (اليسع). وقال الفراء: القراءة بالتشديد اشبه بالاسماء العجمية التخفيف. قال لانهم لا يكادون يدخلون الالف واللام في ما لا يجر مثل (يزيد، ويعمر) الا في الشعر أنشدني بعضهم:

وجدنا الوليد بن يزيد مباركا * شديدا بأعباء الخلافة كاهله (١)

قال وانما أدخلوا الالف واللام في يزيد لدخولهما في الوليد، فاذا فعلوا ذلك فقد أمسوا الحرف مدحا.

قوله (ووهبنا له اسحاق ويعقوب) الهاء في (له) كناية عن ابراهيم (ع)

" كلا هدينا " نصب كلا ب (هدينا) و (نوحا هدينا من قبل) معناه هديناه قبل ابراهيم. وقوله (ومن ذريته داود وسليمان) تقديره وهدينا داود وسليمان

(١) معاني القرآن ١ / ٣٤٢ وشواهد المغني ٦٠ وخزانة الادب ١ / ٣٢٧ وتفسير الطبري ١١ / ٥١١، وامالي ابن الشجري ١ / ١٥٤ و ٢ / ٢٥٢، ٣٤٢. من شعر يمدح به الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان.

(١٩٤)

نسقا على نوح. ويحتمل أن يكون قوله " ومن ذريته " الهاء راجعة إلى نوح لان الانبياء المذكورين كلهم من ذريته. قال الزجاج ويجوز أن يكون من ذريته ابراهيم لان ذكرهما جميعا قد جرى، وأسماء الانبياء التي جاءت بعد قوله " ونوحا هدينا من قبل " نسق على (نوح) نصب كلها، ولو رفعت على الابتداء كان صوابا. قال أبو علي الجبائي: الهاء لا يجوز أن تكون كناية

عن ابراهيم، لأن فيمن عدد من الانبياء لوطا وهو كان ابن اخته، وقيل ابن اخيه، ولم يكن من ذريته.

وهذا الذي قاله ليس بشئ، لانه لا يمنع أن يكون غلب الاكثر. وجميع من ذكر من نسل ابراهيم، على أنه قال فيما روى عنه ابن مسعود أن الياس:

إدريس، وهو جد نوح، ولم يكن من ذريته، ومع هذا لم يطعن على قول من قال: إنها كناية عن نوح. وقال ابن اسحاق: الياس هو ابن اخي موسى ويجوز أن تكون الهاء كناية عن ابراهيم ويكون من سماهم إلى قوله " وكل من الصالحين " من ذريته، ثم قال " واسماعيل واليسع ويونس ولوطا " فعطفهم على قوله " ونوحا هدينا " .

وفي الآية دلالة على أن الحسن والحسين من ولد رسول الله (صلى الله عليه وآله)، لأن عيسى جعله الله من ذرية ابراهيم أو نوح، وإنما كانت أمه من ذريتهما،

والوجه في الايات أن الله تعالى أخبر أنه رفع درجة ابراهيم بما جعل في ذريته من الانبياء جزاءه بما وصل اليه من السرور والابتهاج عندما أعلمه عن ذلك وبما أبقى له من الذكر الرفيع في الاعقاب، والجزاء على الاحسان لذة وسرور من أعظم السرور واكثر اللذات إذا علم الانسان بأنه يكون من عقبه وولده المنسوبين اليه أنبياء يدعون إلى الله ويجاهدون في سبيله ويكونون ملوكا وخلفاء يطيعون الله ويحكمون بالحق في عباد الله.

ثم اخبر انه جزى نوحا بمثل ذلك على قيامه في الدعاء اليه والجهاد في سبيله. والهداية في الايات كلها هو الارشاد إلى الثواب دون الهداية التي هي

(١٩٥)

نصب الادلة، لانه تعالى قال في آخر الايات: " وكذلك نجزي المحسنين " فبين أن ذلك جزاء ولايليق إلا بالثواب الذي يختص به المحسنون دون الهداية التي هي الدلالة ويشترك فيها المؤمن والكافر، وهو قول أبي علي الجبائي والبلخي.

وقوله: " أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة " إشارة إلى من تقدم ذكره من الانبياء. وقوله " فان يكفر بها هؤلاء " يعني الكفار الذين جحدوا نبوة النبي (صلى الله عليه وآله) في ذلك الوقت، " فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين " معنى (وكلنا بها)

اي وكلنا بمراعاة أو النبوة وتعظيمها والاخذ بهدي الانبياء قوما ليسوا بها بكافرين. وإنما اضاف ذلك إلى المؤمنين وان كان قد فعل بالكافرين أيضا اراحة العلة في التكليف من حيث أن المؤمنين هم الذين قاموا بذلك وعملوا به فأضافه اليهم، كما اضاف قوله " هدى للمتقين " وان كان هداية لغيرهم.

وقيل في المعنيين بقوله " ليسوا بها بكافرين " ثلاثة اقوال: احدها - انه عنى بذلك الانبياء الذين جرى ذكرهم آمنوا بما أتى به النبي (صلى الله عليه وآله) في وقت مبعثهم وهو قول الحسن والزجاج والطبري والجبائي. قال الزجاج لقوله تعالى " اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده " وذلك اشارة إلى الانبياء الذين ذكرهم ووصفهم وامر النبي (صلى الله عليه وآله) بالاعتداء بهداهم. والثاني - انه عنى به الملائكة، ذهب اليه أبو رجاء العطاردي. وقال قوم عنى به من آمن من أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله) في وقت مبعثه. وقال الفراء والضحاك: قوله " فان يكفر بها هؤلاء " يعني أهل مكة " فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين " يعني أهل المدينة، والاول أقوى. وفي الآية دلالة على ان الله تعالى يتوعد من يعلم انه لا يشرك ولا يفسق وان الوعد والوعيد قديكونان بشرط. وقوله: " اولئك الذين هدى الله " معناه اولئك الذين حكم الله لهم

(١٩٦)

بالهدى والرشاد، وزادهم هدى حين اهتدوا. والمراد به الانبياء الذين تقدم ذكرهم اثمانية عشر. وأمر النبي (صلى الله عليه وآله) بأن يسلك سبيلهم ويأخذ بهداهم في تبليغ الرسالة والصبر على المحن وان يقول لقومه " لأسألكم عليه اجرا " يعني على الاداء والابلاغ، ولكنه يذكر به العالمين وينبهم على ما يلزمهم من عبادة الله والقيام بشكره. وقوله (فبهداهم اقتده) قرأ حمزة والكسائي وخلف ويعقوب والكسائي عن ابي بكر بحذف الهاء في الوصل واثباتها في الوقف. الباقرن باثباتها في الوصل والوقف وسكونها، إلا ابن ذكوان فانه كسرهما، ووصلها بياء في اللفظ وإلا هشام فانه كسرهما من غير صلة بتاء، ولا خلاف في الوقف انها بالهاء ساكنة.

قال ابو علي الفارسي الوجه الوقف بالهاء لاجتماع الكثرة، والجمهور على إثباته، ولا ينبغي أن يوصل والهاء ثابتة، لانه هذه الهاء في السكت بمنزلة همزة الوصل في الابتداء في أن الهاء للوقف كما أن همزة الوصل للابتداء بالساكن، فكما لا تثبت همزة في الوصل كذلك ينبغي أن لا تثبت الهاء.

قال ابو علي وقراءة ابن عامر بكسر الهاء وإشمام الهاء الكسرة من غير بلوغ ياء ليس بغلط، ووجهها أن يجعل الهاء كناية عن المصدر لالتي تلحق للوقف. وحسن اضماره لذكر الفعل الدال عليه، ومثل ذلك قول الشاعر: فجال على وحشية وتخاله * على ظهره سبأ حديدا يمانيا

كأنه قال تخال خيلا على ظهره سبأ حديدا، ومثل ذلك قول الشاعر:

هذا سرقة للقرآن يدرسه * والمرؤ عند الرشا أن يلحقها ذئب (١)

فالفاء كناية عن المصدر، ويدل يدرسه على الدروس، ولا يجوز أن يكون ضمير القرآن، لأن الفعل قد تعدى إليه باللام، فلا يجوز أن يتعدى إليه والى ضميره كما أنك إذا قلت أزيذا ضربته لم ينصب زيذا بضربت لتعديه

(١) اللسان "سرق"

(١٩٧)

إلى الضمير، وقياسه إذا وقف عليه أن يقول اقتده فيكسر (هاء) الضمير، كما تقول اشتريه في الوقف. وفي الوصل اشتريه لنا يا هذا.

واستدل قوم بقوله (فبهدهم اقتده) على ان النبي (صلى الله عليه وآله) كان متعبدا بشريعة من قبله من الانبياء وهذا لادلالة فيه، لان قوله (فبهدهم اقتده)

معناه فبأدلتهم اقتده. والدلالة ماوجب العلم ويجب الاقتداء بها، لكونها موجبة للعلم لاغير ولذلك قال تعالى (ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده) فنسب الهدى إلى نفسه، فعلم بذلك أنه أراد ماقلناه. وقوله (ولو اشركوا لحبط عنهم ماكانوا يعملون) يدل على أن الهدى في قوله (واجتبيناهم وهديناهم) هداية الثواب على الاعمال الصالحة، لان الثواب على الاعمال هو الذي ينحبط تارة ويثبت اخرى دون الهداية التي هي الادلة الحاصلة للمؤمن والكافر. وقوله (وكلا فضلنا على العالمين) يعني على عالمي زمانهم الذين ليسوا أنبياء وإنما دخلت (من) في قوله " من آبائهم وذرياتهم " للتبعيض كأنه قال: وبعض آبائهم وبعض ذرياتهم وبعض اخوانهم هديناهم ولولم تدخل (من) لاقتضى انه هدى جميعهم الهداية التي هي الثواب، والامر بخلافه. وقوله " اجتبيناهم " معناه اخترناهم.

وقوله (ولو اشركوا لحبط عنهم ماكانوا يعملون) لايدل على صحة ثواب طاعتهم التي اشركوا في توجيهها إلى غير الله لانهم اوقعوها على خلاف الوجه الذي يستحق به الثواب، فأما ماتقدم فليس في الآية مايقضي بطلانه غير أنا قد عملنا أنه إذا أشرك لاثواب معه أصلا، لاجماع الامة على أن المشرك لايستحق الثواب، فلو كان معه ثواب وقد ثبت أن الاحباط باطل، لكان يؤدي إلى أن معه ثوابا وعقابا، لانا قد بينا بطلان القول بالتحباط في غير موضع وذلك خلاف الاجماع.

(١٩٨)

قوله تعالى:

وماقدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قرا طيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولآبائكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون (٩١) آية بلاخلاف.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو " تجعلونه قرا طيس تبدونها وتخفون كثيرا " بالتاء فيهن. الباقيون بالياء فيهن. ومن قرأ بالياء حملة على أنه للغيبة بدلالة قوله:

" وماقدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى يجعلونه " فيحملة على الغيبة لان ما قبله غيبة.

ومن قرأ بالتاء حملة على الخطاب يعني قل لهم: " تجعلونه قرا طيس تبدونها وتخفون كثيرا " ويقوي القراءة بالتاء، قوله " وعلمتم مالم تعلموا فجاء على الخطاب، وكذلك ما قبله.

ومعنى " تجعلونه قرا طيس " تجعلونه ذوي قرا طيس اي تودعونهم إياها " وتخفون " أي تكتمونه، وموضع قوله " تبدونها وتخفون كثيرا " يحتمل أمرين:

احدهما - ان يكون صفة القرا طيس، لان النكرة توصف بالجمل.

والاخر - أن نجعله حالا من ضمير الكتاب من قوله " تجعلونه قرا طيس " على أن تجعل القرا طيس الكتاب في المعنى، لانه مكتوب فيها.

روي أن سبب نزول هذه الآية أن النبي (صلى الله عليه وآله) رأى حبرا من أحبار اليهود سميئا يقال له: مالك بن الضيف، وقيل: فنحاص، فقال له النبي (صلى الله عليه وآله)

(١٩٩)

أليس في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين؟ فغضب، وقال: ما أنزل الله على بشر من شيء، فلعنته اليهود وتبرأت منه، فنزلت هذه الآية، ذكر ذلك عكرمة وقتادة، وقال محمد بن كعب القرطبي: نزلت في جماعة من اليهود. وروي مثل ذلك عن ابن عباس. وقال مجاهد نزلت في مشركي قريش، وروي ذلك عن ابن عباس أيضا، وهو أشبه بسياق الآية، لانهم الذين أنكروا أن يكون الله أنزل كتابا على بشر، دون اليهود والنصارى.

ومعنى قوله " وماقدروا الله حق قدره " أي ما عرفوه حق معرفته وما وصفوه بما هو أهل أن يوصف به " إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء " أي ما أرسل الله رسولا، ولم ينزل على بشر من شيء، مع أن المصلحة والحكمة يقتضيان ذلك، ودلت المعجزات الباهرة على بعثة كثير منهم. ثم أمر الله نبيه أن يقول لهم " من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى

للناس " فانهم يقرون بذلك، وان الله أنزله وبعث موسى (ع) نبيا وإن لم يقرؤا بذلك فقد خرجوا من اليهودية إلى قول من ينكر النبوات. والكلام على من انكر ذلك أصلا مذكور في النبوات مستوفى لانطول بذكره هاهنا.

وعلى ماقلناه: من أن الآية متوجهة إلى مشركي قريش من حيث أن الله تعالى من أول السورة إلى هاهنا في الاخبار عن أوصاف المشركين وعن أحوالهم وكذلك أول الآية في قوله " وماقدروا الله حق قدره " لانهم كانوا لايعتقدون التوحيد ويعبدون مع الله الاصنام، وأهل الكتاب كانوا بخلاف ذلك، لانهم كانوا يعتقدون التوحيد فلا يليق بهم ذلك، وإن كان اليهود عندنا أيضا غير عارفين بالله على وجه يستحقون به الثواب. والقول الاخر أيضا محتمل. فعلى ما اخترنا يكون قوله " قل من انزل الكتاب " متوجها إلى اليهود والنصارى، لانهم المقرون بذلك دون قريش ومشركي العرب، ويجوز أن يكون متناولا للمشركين أيضا، ويكون على وجه الاحتجاج عليهم، والتنبيه لهم على مآظهم من معجزات موسى وظهور نبوته، وهذا الذي اخترناه قول

(٢٠٠)

مجاهد واختاره الطبري والجبائي.

وقوله " تجعلونه قراطيس " أي تقطعون فتجعلونه كتبا متفرقة وصحفا تبدون بعضها وتخفون بعضها، يعني مافي الكتب من صفات النبي (صلى الله عليه وآله) والبشارة به. ثم عطف على ما ابتدأ به من وصف الكتاب الذي جاء به موسى وانه نور وهدى، فقال " وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولأبائكم " على لسان النبي (صلى الله عليه وآله)، ثم أجاب عن الكلام الاول، فقال " قل الله " وهذا معروف في كلام العرب، لان الانسان اذا أراد البيان والاحتجاج بما يعلم أن الخصم مقربه ولايستطيع دفعه ذكر ذلك. ثم تولى الجواب عنه بما قد علم أن لاجواب له غيره.

وقوله " ثم ذرهم في خوضهم يلعبون " يقال مثل هذا لمن قامت عليه الحجة الواضحة التي لايمكنه دفعها، وليس على إباحة ترك الدعاء والاذنار بل على ضرب من الوعيد والتهديد، كأنه قال دعهم فسيعلمون عاقبة أمرهم.

ويجوز أن يكون أراد: دعهم فلاتقاتلهم، ولاتعمل على قهرهم على قبول قولك إلى أن يؤذن لك في ذلك، فيكون إنما أباح ترك قتالهم لترك الدعاء والتحذير وترك البيان والاحتجاج " ويلعبون " رفعه لانه لم يجعله جوابا لقوله " ذرهم " ولوجعله جوابا لجزمه، كما قال " ذرهم يأكلوا ويتمتعوا " (١)

وكان ذلك جوابا وموضع " يلعبون " نصب على الحال، وتقديره ذرهم لاعبين في خوضهم.
وقال قوم: إن هذه الآية مدنية مع الايتين اللتين ذكرناهما في أول السورة، ويجوز أن يكون ذلك بمكة أيضا.

قوله تعالى:

وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون
بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون (٩٢) آية بلاخلاف.

(١) سورة ١٥ الحجر آية ٣

(٢٠١)

قرأ أبوبكر وحده " ولينذر " بالياء. الباقون بالتاء. من قرأ بالتاء، فلقوله " إنما أنت منذر من
يخشاه " (١) وقوله " وانذر به الذين يخافون " (٢)
ومن قرأ بالياء جعل الكتاب هو المنذر، لان فيه إنذارا لانه قد خوف به في قوله " هذا بلاغ
للناس ولينذروا به " (٣) وقوله " إنما انذركم بالوحي " (٤)
فلايتمتع أسناد الانذار اليه على وجه التوسع.

وقوله " وهذا كتاب " إشارة إلى القرآن الذي أنزله الله على نبيه محمد (صلى الله عليه وآله)
فعطف هذه الآية على ذكره الكتاب الذي جاء به موسى (ع) فلما وصفه قال تعالى " وهذا
كتاب أنزلناه مبارك ". وانه مصدق لما بين يديه يعني مامضى من كتب الانبياء كالتوراة
والانجيل وغيرهما، وبين انه انما انزله لتنذر به اهل مكة وهي ام القرى، ومن حولها.
قال ابن عباس وقتادة وغيرهما: ام القرى مكة، ومن حولها اهل الارض كلهم وانما خص اهل
مكة بذلك لانها اعظم قدرا لان فيها الكعبة ولان الناس يقصدونها بالحج والعمرة من جميع
الافاق. وإنذاره بالقرآن هو تخويله إياهم بألوان عذاب الله وعقابه ان اقاموا على كفرهم بالله
ولم يؤمنوا به وبرسوله.

وقوله: " والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به " يعني بالقرآن. ويحتمل ان يكون كناية عن محمد
(صلى الله عليه وآله) لدلالة الكلام عليه، وهذا يقوي مذهبنا في انه لايجوز ان يكون مؤمنا ببعض
ماأوجب الله عليه دون بعض. وبين انهم " على صلاتهم " يعني على أوقات صلاتهم "
يحافظون " بمعنى يراعون أوقاتها ليؤدوها في الاوقات ويقوموا باتمام ركوعها وسجودها
وجميع فرائضها.

وقيل سميت مكة ام القرى لانها اول موضع سكن في الارض، وقيل ان الارض كلها دحيت
من تحتها فكانت اما لها. وقال الزجاج سميت بذلك لانها أعظم القرى شأنًا.

(١) سورة النازعات آية ٤٥ (٢) سورة ٦ الانعام آية ٥١ (٣) سورة ١٤ ابراهيم آية ٥٢ (٤) سورة ٢١ الانبياء آية ٤٥

(٢٠٢)

قوله تعالى:

ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلي ولم يوح إليه شئ ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملئكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون (٩٣) آية بلاخلاف.

اختلفوا فيمن نزلت فيه هذه الآية فقال اكثر المفسرين ان قوله " ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا " نزلت في مسيلمة الكذاب حيث ادعى النبوة.

وقال انه يوحى اليه، وان قوله " من قال سأنزل مثل ما أنزل الله " نزلت في عبدالله بن سعد ابن ابي سرح، فانه كان يكتب الوحي للنبي (صلى الله عليه وآله) وكان إذا قال له: اكتب عليما حكيمًا، كتب عفورا رحيمًا. وإذا قال: اكتب عفورا رحيمًا، كتب حكيمًا، وارتد ولحق بمكة. وقال إني انزل مثل ما أنزل الله، ذهب اليه عكرمة وابن عباس ومجاهد والسدي والجبائي والفراء والزجاج وغيرهم.

وقال قوم: نزلت في مسيلمة خاصة.

وقال آخرون: نزلت في ابن ابي سرح خاصة والاول هو المروى عن أبي جعفر (ع).

وقال البلخي: قوله " ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا وقال اوحى الي " هم الذين ادعوا النبوة بغير برهان وكذبوا على الله " ومن قال سأنزل مثل ما انزل الله " هم الذين قالوا " لونشاء لقلنا مثل هذا ان هذا الا أساطير الاولين " (١) فادعوا بمالم يفعلوا واعرضوا وبذلوا الانفس والاموال

(١) سورة ٨ الانفال آية ٣١

(٢٠٣)

واستعملوا في اطفاء نور من جاء بالكتاب سائر الحيل. ثم اخبر تعالى عن حال من فعل ذلك، فقال: " ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت " وحذف جواب (لو) وتقديره: ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت لرأيت عذابا عظيما وكل من كان في شئ كثير يقال له: غمر

فلانا ذلك. ويقال قد غمر فلانا الدين معناه كثر، فصار فيما يعلم بمنزلة ما يبصر قد غمر وغطى من كثرته وقوله " والملائكة باسطوا أيديهم " معناه باسطوا أيديهم بالعذاب وقيل بقبض ارواح الكفار .

وقوله: " اخرجوا انفسكم اليوم " يحتمل امرين:

احدهما - ان يكون تقديره يقولون: اخرجوا انفسكم، كما تقول للذي تعذبه لازهقن نفسك ولاخرجن نفسك، فهم يقولون لهم اخرجوا انفسكم على معنى الوعيد والتهديد، كما يدفع الرجل في ظهر صاحبه ويكرهه على المضي بأن يجره او بغير ذلك، وهو في ذلك يقول امض الان لتري ما يحل بك.

والغمرات جمع غمرة، وغمرة كل شئ كثرته ومعظمه، وأصله الشئ الذي يغمر الاشياء فيغطيها. وقال ابن عباس غمرات الموت سكراته، وبسط الملائكة ايديها فهو مدها، وقال ابن عباس ايضا: البسط الضرب، يضربون وجوههم وأدبارهم وملك الموت يتوفاهم، وقال الضحاك: بسطها ايديها بالعذاب.

والثاني - ان يكون معناه خلصوا انفسكم اي لستم تقدرون على الخلاص " اليوم تجزون عذاب الهون " اي العذاب الذي يقع به الهوان الشديد، والهون - بفتح الهاء وسكون الواو - من الرفق والدعة، كقوله " وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا " (١) وقال الشاعر:
هونا كما لايرد الدهر مافاتا لاتهلكن أسفا في أثر من ماتا (٢)

(١) سورة ٢٥ الفرقان آية ٦٣ (٢) قاتله زوجن الحميري. معجم البلدان (بينون) واللسان (هون)
والاغاني ١٦ / ٧٠ وسيرة ابن هشام ١ / ٣٩ وتاريخ الطبري ٢ / ١٨٠ وتفسير الطبري ١١ / ٥٤١ وغيرها.

(٢٠٤)

وقدروي فتح الهاء في معنى الهوان، قال عامر بن جوين:
يهين النفوس وهون النفوس * س عند الكريهة اغلى لها (٣)
والمعروف ضم الهاء اذا كان بمعنى الهوان. قال ذو الاصبغ العدواني: اذهب اليك فما امي
براعية ترعى المخاض ولا اغضي على الهون (٤)
يعني على الهوان، وعن ابي جعفر (ع) عذاب الهون يعني العطش.
وقوله: " ومن قال سانزل مثل ما أنزل الله " في موضع جر كأنه قال:
ومن اظلم ممن قال ذلك.
قوله تعالى:

ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ماخولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاء كم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ماكنتم تزعمون (٩٤) آية بلاخلاف.

قرأ أهل المدينة والكسائي وحفص " بينكم " بنصب النون. الباقر برفعها. والبيّن مصدر بان يبين إذا فارق قال الشاعر:

بان الخليط برامتين فودعوا * اوكلما ظعنوا لبين تجرع (٥)

وقال ابوزيد: بان الحي بينونة وبيننا إذا ضعنوا، وتباينوا تباينا اذا كانوا جميعا ففترقوا، قال والبيّن ماينتهي اليه بصرك من حائط او غيره واستعمل هذا ا

(٣) وقيل أنه للخنساء. ديوان الخنساء: ٢١٥ والاغاني ١٣ / ١٣٦ واللسان " هون " وروايتهم " يوم الكريهة ابقى لها " والطبري ١١ / ٥٤٢ (٤) أمالي القالي ١ / ٣٦٦ واللسان " هون " وشرح المفضليات: ٣٢٣ وتفسير الطبري ١١ / ٥٤٢.

(٥) لم أجد بهذه الرواية وفي اللسان (خلط) أبيات كثيرة تشبهه.

(٢٠٥)

الاسم على ضربين: احدهما - ان يكون اسما منصرفا كالاقتراق. والآخر - ان يكون ظرفا فمن رفعه رفع ماكان ظرفا استعمله اسما ويدل على جواز كونه اسما قوله: " هذا فراق بيني وبينك " (٦) وقوله " من بيننا وبينك حجاب " (٧)

فلما استعمل اسما في هذه المواضع جاز ان يسند اليه الفعل الذي هو تقطع في قراءة من رفع. ويدل على ان هذا المرفوع هو الذي استعمل ظرفا انه لا يخلو من ان يكون الذي هو ظرف اتسع فيه او يكون الذي هو مصدر ولا يجوز ان يكون الذي هو مصدر، لان التقدير يصير لقد تقطع افتراقكم، وهذا خلاف المعنى المراد، لان المراد لقد تقطع وصلكم، وماكنتم تتألفون عليه.

فان قيل كيف جاز ان يكون بمعنى الوصل واصله الاقتراق والتباين وعلى هذا قالوا: بان الخليط اذا فارق، وفي الحديث ما بان من الحي فهو ميتة؟! .

قيل: انه لما استعمل مع الشيين المتلابسين نحو بيني وبينك شركة، وبينى وبينه صداقة ورحم صار لذلك بمنزلة الوصلة وعلى خلاف الفرقة فلذلك صار " لقد تقطع بينكم " بمعنى لقد تقطع وصلكم ومثل بين في انه يجري في الكلام ظرفا اثم يستعمل اسما بمعنى (وسط) ساكن العين ألا ترى أنهم يقولون:

جلست وسط القوم، فيجعلونه ظرفا لا يكون الا كذلك، وقد استعملوه اسما كما قال الشاعر:

من وسط جمع بني قريظة بعدما * هتفت ربيعة يابني خوات
وحكى سيبويه: هو احمر بين العينين. واما من نصب بينكم ففيه وجهان:
احدهما - انه اضمر الفاعل في الفعل ودل عليه ماتقدم من قوله: وما نرى معكم شفعاءكم
الذين زعمتم انهم فيكم شركاء " لان هذا الكلام فيه دلالة على التقاطع والتهاجر وذلك المضمرة
هو الاصل، كأنه قال لقد تقطع وصلكم بينكم والثاني - ان يكون على مذهب ابي الحسن ان
يكون لفظه منصوبا ومعناه مرفوعا، فلما جرى في كلامهم منصوبا ظرفا تركوه على ما يكون
عليه

(٦) سورة ١٨ الكهف آية ٧٩ (٧) سورة ٤١ حم السجدة آية ٥

(٢٠٦)

في اكثر الكلام وكذلك تقول في قوله " يوم القيامة يفصل بينكم " (١) وكذلك قوله: " وانا منا
الصالحون ومنا دون ذلك " (٢) فدون في موضع رفع عنده وان كان منصوب اللفظ، كما تقول
منا الصالح ومنا الطالح فترفع.

وقال الزجاج: الرفع أجود وتقديره لقد تقطع وصلكم. والنصب جائز على تقدير لقد تقطع
ماكنتم فيه من الشركة بينكم.

وقال الفراء في قراءة عبدالله " لقد تقطع ما بينكم ": وهو وجه الكلام اذا جعل الفعل ل (بين)
ترك نصبا في موضع رفع، لانه صفة، فاذا قالوا هذا دون من الرجال، فلم يضيفوه رفعوه في
موضع الرفع. وكذلك تقول بين الرجلين بين بعيد وبون بعيد اذا افردته اجرته في العربية
وأعطيته الاعراب.

قال مهلهل:

كأن رماحهم اشطانا بئر * بعيد بين جاليها جرور (٣)

فرفع بين حيث كانت اسما. وقال مجاهد: معنى تقطع بينكم اي تواصلكم، وبه قال قتادة وابن
عباس، فمعنى الاية الحكاية عن خطاب الله تعالى يوم القيامة لهؤلاء الكفار الذين اتخذوا مع
الله اندادا وشركاء، وانه يقول لهم عند ورودهم:

" لقد جنتمونا فرادى " وهو جمع فرد، وفريد، وفردان قال الازهري لا يجوز فرد على
هذا المعنى. والعرب تقول: فرادى وفراد فلا يصرفونها يشبهونها بثلاث ورباع قال الشاعر:

ترى النعرات الزرق تحت لبانه * فرادى ومثنى أضعفتها صواوله (٤)

وقال نابغة بني ذبيان:

(١) سورة ٦٠ الممتحنة آية ٣ (٢) سورة ٧٢ الجن آية ١١ (٣) اللسان " بين " وأمالى القالي ٢ / ١٣٢ وتفسير الطبري ١١ / ٥٤٩.

" الاشطان " الحبال المحكمة الفتل وجالي البئر جوانبها. و " جرور " صفة للبئر البعيد القعر.
(٤) مرتخرجه في ٣ / ١٠٦ تعليقة ٢.

(٢٠٧)

من وحش وجرة موشي أكارعه * طاوي المصير كسيف الصيقل الفرد (٥)
وكان يونس يقول: فرادى جمع فرد كما قيل: توأم وتوعم. ومثل الفرادى الردافى والعرابى،
ورجل افرد وامرأة فرداء: إذا لم يكن لها اخ. وقد فرد الرجل فهو يفرد فرودا يراد به تفرد
فهو فارد.

فمعنى قوله " جنئتمونا فرادى " اي وحدانا لامال لكم ولأثاث ولا رقيق ولاشئ مما كان الله
خولكم في الدنيا " كما خلقناكم اول مرة ".

وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) انه قال: (يحشرون حفاة عراة عزلا) والعزل هم الغلف.
وروي ان عائشة قالت لرسول الله حين سمعت ذلك واسوأته ينظر بعضهم إلى سوءة بعض
من الرجال والنساء، فقال رسول الله: " لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه " (٦) فيشغل بعضهم
عن بعض.

قال الزجاج: يحتمل ان يكون المعنى كما بدأكم اول مرة، اي كان بعثكم كخلقكم من غير كلفة
ولامشقة.

وقال الجبائي: معناه جنئتم فرادى واحدا واحدا " كما خلقناكم اول مرة " اي بلاناصر ولامعين
كما خلقكم في بطون امهاتكم، ولا احد معكم.

وقوله: " وتركتكم ماخولناكم وراء ظهوركم " يعني ماملكناكم في الدنيا مما كنتم تتباهون به في
الدنيا وهذا تعبير من الله لهم لمباهاتهم التي كانوا يتباهون في الدنيا باموالهم، يقال: خولته اي
اعطيته. ويقال خال الرجل يخال أشد الخيال بكسر الخاء وهو خائل ومنه قول ابي النجم:

اعطى فلم يبخل ولم يبخل * كوم الذرى من خول المخول (٧)

" وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم انهم فيكم شركاء " يقول تعالى

(٥) ديوانه: ٢٦ واللسان " فرد ". و (وجرة) اسم مكان بين مكة والبصرة قال الاصمعي: هي أربعون ميلا ليس فيها منزل فهي مرتع للوحوش وقد أكثر الشعراء ذكرها. و (موشى اكارعه) فيها سواد و (طاوي المصير) ضامر البطن. و (المصير) جمع مصران. (٦) سورة ٨٠ عيس آية ٣٧.

(٢٠٨)

لهؤلاء الكفار: ما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم انهم فيكم شركاء الذين كنتم تزعمون في الدنيا انهم يشفعون لكم عند ربكم يوم القيامة.

وقال عكرمة: ان الآية نزلت في النظر بن الحارث بن كلدة حيث قال سوف يشفع في اللات والعزى، فنزلت الآية.

وقوله " لقد تقطع بينكم " اي وصلكم " وضل عنكم ما كنتم تزعمون " اي جار عن طريقكم ما كنتم تزعمون من آلهتكم انه شريك لله تعالى وانه يشفع لكم عند ربكم فلا شفيع لكم اليوم. قوله تعالى:

إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فإني تؤفكون (٩٥) آية بلاخلاف.

في هذه الآية تنبيه لهؤلاء الكفار الذين اتخذوا مع الله آلهة عبودها، وحجة عليهم، وتعريف منه لهم خطأ ما هم عليه من عبادة الاصنام، بأن قال:

إن الذي له العبادة ومستحقها هو الله الذي فلق الحب، يعني شقه من كل ما ينبت عن النباتات، فأخرج منه الزروع على اختلافها، " والنوى " من كل ما

يغرس مما له نواة فأخرج منه الشجر، والحب هو جمع حبة، والنوى جمع نواة وذلك لا يقدر عليه إلا الله تعالى القادر بنفسه، لأن القادر بقدره لا يقدر على شق ذلك إلا بآلة، ولا يقدر على انبات شئ واخراج شئ منهما، فعلم انه من فعل ذلك هو الله الذي لا يشبه شيئاً من الاجسام، ولا يشبهه شئ، القادر على اختراع الاعيان بلا معاناة ولا مزاولة.

ثم أخبر أنه " يخرج الحي من الميت " لأن الله تعالى يخلق الحي من النطفة، وهي موات، ويخلق النطفة، وهي موات من الحي، وهو قول الحسن وقتادة وابن زيد وغيرهم. وقال الضحاك وابن عباس: معنى " فالق الحب

(٢٠٩)

والنوى " خالقهما. وقال مجاهد وابومالك: هو الشق الذي في الحبة والنوى. والاول أقوى الاقوال.

وقال قوم: أراد باخراج الحي من الميت إخراج السنبل وهي من الحب وهو ميت، ومخرج الحب الميت من السنبل الحي، والشجر الحي من النوى الميت، والنوى الميت من الشجر الحي. والعرب تسمي الشجر مادام غضاقاً بأنه حي، فاذا يبس أو قطع من أصله أو

قلع سموه ميتا، ذهب اليه السدي والطبري والجبائي. وماذكرناه أولا قول ابن عباس، وهو الاقوى، لانه الحقيقة.

وماذكره مجاز، وان كان جائزا محتملا.

وقوله " ذلكم الله فأنى توفكون " معناه أن فاعل ذلك كله الله تعالى فأنى وجوه الصد عن الحق أيها الجاهلون تصدون، وعن العذاب تصدفون، أفلا تتدبرون، فتعلمون أنه لا ينبغي أن يجعل لمن أنعم عليكم - فخلق الحب والنوى واخرج من الحي الميت، ومن الميت الحي، ومن الحب الزرع ومن النوى الشجر - شريك في عبادته مالا يضر ولا ينفع ولا يسمع ولا يبصر وفي الآية دلالة على بطلان قول من قال: إن الله تعالى يحول بين العبد وبين مادعاه اليه إذ يخلق فيه مانهاه عنه، لانه قال: فاني توفكون، ولو كان شيئا من ذلك لكان هو المؤفك لهم والصارف. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

ومعنى قوله " فاني توفكون " اي تصرفون عقولكم، وهو قول الحسن وغيره والافك هو الكذب. قوله تعالى:

فالق الاصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم (٩٦) آية بلاخلاف.

قرأ أهل الكوفة " جعل الليل " على الفعل. الباقون " جاعل " على الفاعل. من قرأ " جاعل " على وزن فاعل فلان قبله اسم فاعل، وهو قوله:

(٢١٠)

" فالق الحب والنوى.. " و " فالق الاصباح " فقرأ " وجاعل الليل " ليكون (فاعل) المعطوف على (فاعل) المعطوف عليه، فيكون متشاكلا، لان من حكم الاسم ان يعطف على اسم مثله، لانه به أشبه من الفعل بالاسم، وهذه المشاكلة مراعاة في كلام العرب، ومثله " فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة " (١)

وقوله " يدخل من يشاء في رحمته والظالمين " (٢) وقوله " وكلا ضربنا له الامثال وكلا تبرنا تنبيرا " (٣) نصبوا هذا كاله ليكون القارئ بنصبها كالعاطف جملة من فعل وفاعل على جملة من فعل وفاعل، فكما أن الفعل أشبه من المبتدأ بالفعل، كذلك الاسم بالاسم أشبه من الفعل بالاسم، ويقوي ذلك قول الشاعر:

لبس عباءة وتقر عيني * أحب الي من لبس الشفوف (٤)

ومن قرأ " وجعل " فلان اسم الفاعل الذي قبله بمعنى الماضي، فلما كان (فاعل) بمعنى (فعل) في المعنى عطف عليه بالفعل لموافقته له في المعنى ويدل ذلك على أنه بمنزلة (فعل) أنه نزل

منزلته فيما عطف عليه، وهو قوله " والشمس والقمر حسبانا " ألا ترى أنه لما كان المعنى (فعل) حمل المعطوف على ذلك فنصب الشمس والقمر على (فعل) لما كان فاعل كفعل. ويقوي ذلك قولهم: هذا معطي زيد درهما أمس، فالدرهم محمولا على (اعطى)، لأن اسم الفاعل اذا كان لما مضى لم يعمل عمل الفعل، فاذا جعل (معطي) بمنزلة (أعطى) كذلك جعل (فالق) بمنزلة (فلق) لأن اسم الفاعل لما مضى، فعطف على (فعل) لما كان بمنزلته، ولايجوز حمل (جاعل) على الليل، لأن اسم الفاعل اذا كان لما مضى لايعمل عمل الفعل، وقد أجاز به بعض الكوفيين.

(١) سورة ٧ الاعراف آية ٢٩ (٢) سورة ٧٦ الدهر آية ٣١ (٣) سورة الفرقان آية ٣٩ (٤) حاشية الصبان على الاشموني ٣ / ٣١٣ الشاهد ٨٢٧ ويروى " ولبس " بدل " للبس " .

(٢١١)

معنى قوله " فالق الاصباح " أي شاق عمود الصبح عن ظلمة الليل، وذلك دال على القدرة العجيبة التي لايقدر عليها غير الله، ويحتمل أن يكون معناه خالقه على ماحكيناها عن الضحاك وذكره الزجاج، ورفع " فالق " لانه خبر عن الله تعالى بعد خبر كأنه قال " ان الله فالق الحب والنوى " فالق الاصباح.

ويحتمل أن يكون خبر أبتداء محذوف، فكأنه قال: هو فالق الاصباح.

والاصباح مصدر أصبحنا إصباحا، والمراد أصبح كل يوم، فهو في معنى الاصباح. وروي عن الحسن أنه قرأ " فالق الاصباح " بفتح الالف وماقرأ به غيره. ومعنى " وجاعل الليل سكنا " أي تسكنون فيه وتتودعون فيه، وهو قول مجاهد والضحاك وقتادة وابن عباس وأكثر المفسرين. وروي عن ابن عباس أن معناه، خالق الليل والنهار. وقوله " والشمس والقمر حسبانا " نصبهما عطفًا على موضع الليل، لأن موضعه النصب بأنه مفعول جاعل.

واختلفوا في معناه، فقال ابن عباس والسدي والربيع وقتادة، ومجاهد والجبائي: إنهما يجريان في أفلاكهما بحساب، تقطع الشمس الفلك في سنة ويقطعه القمر في شهر قدره الله تعالى به، فهو قوله " والشمس والقمر بحسبان " (١) وقوله: " وكل في فلك يسبحون " (٢)

وقال قتادة معناه انه جعل الشمس والقمر ضياء. والاول أجود لأن الله تعالى ذكر بمثل هذا من ايديه عند خلقه وعظيم سلطانه بقلقه الاصباح لهم واخراج النبات والغراس من الحب والنوى، وعقب ذلك بذكر خلق النجوم للاهتداء بها في البر والبحر، وكان وصفه اجراء الشمس والقمر بمنافعهم أشبه، وأنها تجري بحسبان مااحتاج الخلق اليه في معائشهم ومعاملاتهم: أما الشمس

فللزرع والحراث، واما القمر فللموا عيد وآجال الديون في المعاملات، وفيها منافع لايعرف
تفصيلها الا الله تعالى، لانه قال " فائق الاصبح " ذكر

(١) سورة ٥٥ الرحمان آية ٥ .

(٢) سورة ٣٦ يس آية ٤٠ وسورة ٢١ الانبياء آية ٣٣

(٢١٢)

الضياء والامنى لتكريره دفعة ثانية. والحسبان جمع حساب على وزن شهبان وشهاب. وقيل
في هذا الموضوع انه مصدر حسبت الحساب أحسبه حسابا.
وحكي عن بعض العرب على ذلك حسابان فلان وحسبته أي حسابيه. والحسبان - بكسر الحاء
- جمع حسابانة، وهي وسادة صغيرة. ونصب حسابانا على تقدير بحسبان، فلما حذف الباء
نصبه. وقال قوم: هو نصب لقوله " وجعل ".
وقوله: " ذلك تقدير العزيز العليم " أي هذا الذي وصفه بأنه فعله من فلقه الاصبح، وجعل
الليل سكنا، والشمس والقمر حسابانا، تقدير الذي عز سلطانه فلا يقدر أحد اراده بسوء او
عقاب او انتقام على الامتناع منه العليم بمصالح خلقه وتديبيرهم، لاتقدير الاصنام والاوثاق
التي لاتسمع ولاتبصر ولاتفقه شيئا ولاتعقل.
قوله تعالى:

وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الايات لقوم يعلمون
(٩٧) آية هذه الاية موصولة بالتي قبلها، ومعناها متقارب، وهو أن الله تعالى عددنعمه على
خلقها وأن من جملتها أنه جعل لهم النجوم بمعنى خلقها ليهتدوا بها في اسفارهم في ظلمات البر
والبحر، وأنه قد فصل آياته لقوم يعلمون.

وانما أضاف الايات إلى الذين يعلمون وان كانت آيات لغيرهم، لانهم المنتفعون بها، كما قال "
هدى للمتقين " وليس في قوله انه خلقها ليهتدوا بها في ظلمات البر والبحر مايدل على أنه لم
يخلقها لغير ذلك. قال البلخي: بل يشهد أنه خلقها لامور جليلة عظيمة. ومن فكر في صغر
الصغير منها وكبر الكبير، واختلاف مواقعها ومجاريها وسيرها، وظهور منافع الشمس والقمر
في نشؤ الحيوان والنبات علم أن الامر كذلك. ولولم يخلقها إلا للاهتداء لماكان

(٢١٣)

لخلقها صغارا وكبارا، ولاختلاف سيرها معنى. قال الحسين بن علي المغربي:
هذا من البلخي اشارة منه إلى دلالتها على الاحكام.

قوله تعالى:

وهو الذي أنشاكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون (٩٨) آية
بلاخلاف قرأ ابن كثير وأبو عمرو، وروح " فمستقر " بكسر القاف. الباقون بفتحها.
قال ابو علي النحوي: قال سيبويه: قالوا: قر في مكانه واستقر، كما قالوا: جلب وأجلب، يراد
بهما شئ واحد، فكما بني هذا على (أفعلت)
بني هذا على (استفعلت) فمن كسر القاف كان المستقر بمعنى القار، والخبر مضمر، وتقديره
منكم مستقر كقولك: بعضكم مسقر أي مستقر في الارحام.
وقال " يخلفكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق " (١) كما قال " وقد خلفكم أطوارا " (٢)
ومن فتح فليس على أنه مفعول، لان استقر لا يتعدى، واذالم يتعد لم يبين منه اسم مفعول، فاذا
له يكن مفعولا كان اسم الفاعل مكانه، فالمستقر بمنزلة المقر كما أن المستقر بمعنى القار،
وعلى هذا، لا يجوز أن يكون خبره المضمر (منكم) كما جاز في قول من كسر القاف، واذا لم
يجز ذلك جعلت الخبر المضمر (لكم) وتقديره: لكم مقر، ومستودع، فان استودع فعل يتعدى
إلى مفعولين تقول: استودعت زيدا ألفا وأودعت زيدا الفاء، فاستودع مثل أودع، ومثل استجاب
واجاب، فالمستودع يجوز ان يكون الانسان الذي استودع ذلك المكان، ويجوز أن يكون المكان
نفسه. فمن فتح القاف في (مستقر) جعل المستودع مكانا ليكون مثل المعطوف عليه أي فلكم
مكان استقرار ومكان استيداع. ومن كسر القاف، فالمعنى منكم

(١) سورة الزمر آية ٦ (٢) سورة نوح آية ١٤

(٢١٤)

مستقر في الارحام ومنكم مستقر في الاصلاب، فالمستودع اسم المفعول به ليكون مثل المستقر
في أنه اسم لغير المكان. قال الزجاج: ويحتمل ان يكون مستقرا في الدنيا موجودا ومستودعا
في الاصلاب لم يخلق بعد. ويحتمل مستقر - بكسر القاف - في الاحياء، ومنكم مستودع في
الثرى. ورفع (مستقر ومستودع) على معنى فلكم مستقر ومستودع. ومن كسر فمعناه فمنكم
مستقر ومنكم مستودع. وقال الفراء: تقديره ثم مستقر ومستودع.
واختلف المفسرون في قوله " فمستقر ومستودع " فقال عبدالله بن مسعود:
المستقر مافي الرحم، والمستودع حيث يموت، وبه قال ابراهيم ومجاهد.
وقال سعيد ابن جبير: مستودع ماكان في أصلاب الرجال، فاذا قرؤوا في أرحام النساء وعلى
ظهر الارض وفي بطونها، فقد استقروا به. وقال ابن عباس، وروي عن مجاهد - في رواية
أخرى - المستقر الارض، والمستودع عند ربك.

وروي عن ابن مسعود - في رواية - ان مستقرها في الاخرة ومستودعها في الصلب. وقال
عكرمة: مستقر في الاخرة ومستودع في صلب لم يخلق سيخلق.
وبه قال قتادة والضحاك والسدي وابن زيد. وقال الحسن: المستقر في القبر والمستودع في
الدنيا.

ومعنى الآية أن الله تعالى هو الذي أنشأ الخلق ابتداء من نفس واحدة يعني آدم، منهم مستقر
ومستودع، وإذا حمل على العموم، فإنه يتناول كل أحد على تأويل من قال المستقر في القبر
والمستودع في الحشر، وعلى تأويل من قال المستودع من كان في الاصلاب والمستقر من
كان في الارحام، لان كل الخلائق داخلون فيه، فالاولى حمل الآية على عمومها وهو اختيار
الطبري.

وقوله " قد فصلنا الايات لقوم يفقهون " معناه قد بينا الحجج وميزنا الايات والادلة والاعلام،
واحكامها لقوم يفقهون مواقع الحجج ومواضع العبر، ويعرفون الايات والذكر، وهو قول قتادة
والمفسرين.

(٢١٥)

قوله تعالى:

وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرج جنا به نبات كل شيء فأخرج جنامه خضرا نخرج منه حبا
مترابا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير
مشتبها أنظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لايات لقوم يؤمنون (٩٩) آية.

روى الاعشى والبرجمي " وجنات " بالرفع. الباقون " جنات " على النصب. وقرأ حمزة
والكسائي وخلف " ثمره " و " كلوا من ثمره " وفي (يس) " لتأكلوا من ثمره " بضم الثاء
والميم فيهن. الباقون بفتحها. من كسر التاء فلانها تاء جمع المؤنث في موضع النصب عطفها
على قوله " فأخرجنا به نبات كل شيء " فأخرجنا به " جنات " ومن رفع عطفها على القنوان في
الاعراب وإن لم يكن من جنسها، كما قال الشاعر:

ورأيت زوجك في الوغى * متقلدا سيفا ورمحا (١)

أي وحاملا رمحا. ومن قرأ " ثمره " بالفتح فيهما فوجهه ان سيبويه يرى ان الثمر جمع ثمرة
مثل بقرة وبقرة وشجر وشجر وخرزة وخرز: ويقويه قوله ايضا " ومن ثمرات النخيل
والاعناب " (٢) وقد كسر على (فعال) فقالوا: ثما ركما قالوا أكمة واكم، وجذبة وجذاب
ورقبة ورقاب. ومن جمعها احتمل امرين:

أحدهما - أن يكون جمع ثمرة على ثمر، مثل خشبة وخشب في قوله " كأنهم خشب مسندة " (٣) واكمة واكم في قول الشاعر:
ترى الاكم منه سجدا للحوافر (٤)

(١) مر هذا البيت في ١: ٦، ٢٤٢، ٣: ٤٦٥ (٢) سورة النحل آية ٦٧ (٣) سورة المنافقون آية ٤ (٤)
انظر ١ / ١١ تعليقة ٥

(٢١٦)

ومن المعتل ساحة وسوح، وقارة وقور، ولابة ولوب وناقاة ونوق.
والثاني - أن يكون جمع ثمار على ثمر، فيكون ثمر جمع الجمع، وجمعه على (فعل) كما
جمعه على (فعائل) في قولهم جمال وجمائل.
ومعنى الآية أن الذي يستحق العبادة خالصة لأشريك له فيها سواه هو الذي أنزل من السماء
ماء. وأصل الماء ماة إلا أن الهمزة ابدلت من الهاء بدلالة قولهم أمواه في الجمع ومويه في
التصغير.

وقوله " فأخرجنا به نبات كل شئ " معناه أخرج بالماء الذي أنزله من السماء من غذاء الانعام
والبهائم والطير والوحش وارضاق بني آدم واقواتهم مايتغذون به ويأكلونه فينبتون عليه
وينمون، ويكون معنى قوله " فأخرجنا به نبات كل شئ " أخرجنا به ماينبت كل شئ وينمو
عليه ويصلح. ويحتمل أن يكون المراد أخرجنا به جميع أنواع النبات فيكون كل شئ هو
اصناف النبات. والاول أحسن.

وقوله " فأخرجنا به يعني من الماء " خضرا " يعني أخضر رطبا من الزرع. والخضر
والاخضر واحد يقال: خضرت الارض خضرا وخضارة.
والخضرة رطب البقول يقال: نخلة خضرة اذا كانت ترمي ببسرها أخضرا قبل ان ينضج، وقد
اختضر الرجل واغتضر اذامات شابا مصححا، ويقال:
هو لك خضرا مضرا أي هنيئا مريئا.

وقوله " يخرج منه حبا متراكبا " يعني يخرج من الخضر حبا يعني مافي السنبل من الحنطة
والشعير والارز وغيرها من السنابل، لان حبا يركب بعضه بعضا.
وقوله " ومن النخل من طلعا " إنما خص الطلع بالذكر لما فيه من المنافع العجيبة والاغذية
الشريفة التي ليست في شئ من كمام الثمار.

قوله " قنوان دانية " تقديره ومن النخل من طلعتها ماقنوانه دانية، ولذلك رفع القنوان. والقنوان جمع قنو، كصنوان وصنو، وهو العذب، يقال لواحد قنو وقنو، وقني ويثنى قنوان على لفظ الجمع وقنيان وانما يميز بينهما

(٢١٧)

بأعراب النون، ويجمع قنوان وقنوان وفي الجمع القليل ثلاثة أقناء، فالقنوان لغة أهل الحجاز، والقنوان لغة قيس قال امرؤ القيس:

فأنت اعياله وأدت اصوله * ومال بقنوان من البسر أحمر (١)

وقنيان وقنوان لغة تميم وقوله " دانية " معناه قريبة متهدلة، وهو قول ابن عباس وقتادة والسدي والضحاك. وقال الجبائي دانية أي متدانية في حلق النخل متكوربها.

وقوله " وجنات " يعني وأخرجنا به أيضا جنات من أعناب يعني بساتين من أعناب.

وقوله " والزيتون والرمان " عطف الزيتون على الجنات على تقدير وأخرجنا الزيتون والرمان مشتبهها وغير متشابه، قال قتادة متشابه ورقه مختلف ثمره. ويحتمل أن يكون المراد مشتبهها في الخلق مختلفا في الطعم. وقال الجبائي مشتبهها ما كان من جنس واحد، وغير متشابه إذا اختلف جنسه.

والمعنى وشجر الرمان والزيتون، فاكتفى بذكر ثمره عن ذكر شجره، كما قال " واسأل القرية " فاكتفى بذكر القرية عن ذكر أهلها لدلالة الحال عليه.

وقوله " انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه " الثمر جمع ثمرة، وهو ما انعقد على الشجر يقال: ثمر الثمر إذا نضج والمراد إذا أطلع ثمره.

وقوله " وينعه " قال بعضهم: إذا فتحت يأؤه فهو جمع يانع مثل صاحب وصحب وتاجر وتجر. وقال آخرون: هو مصدر قولهم ينع الثمر فهو ينع ينع.

ويحكى في مصدره ثلاث لغات ينع وينع وينع، وكذلك نضج ونضج ونضج قال الشاعر:

في قباب حول دسكرة * حولها الزيتون قد ينعا (٢)

(١) ديوانه ٨٤ واللسان (قنا) والطبري ١١ / ٥٧٥ ورواية الديوان:

سواحق جبار أثيث فروعه * وعالين قنوانا من البسر أحمر

(٢) الحيوان للجاحظ ٤ / ٦ (طبع بيروت) والكامل للمبرد ١ / ٢٢٦ ومجاز -

(٢١٨)

وسمع أيضا أينعت الثمرة تونع إيناعا فمعنى " وينعه " نضجه وبلوغه حين يبلغ وفي ينعه لغتان: فتح الياء وضمها، فالفتح لغة أهل الحجاز والضم لغة نجد. وقال ابن عباس وقتادة والسدي والضحاك والطبري والزجاج وغيرهم: معنى وينعه ونضجه.

وقوله " إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون " يعني في انزال الله الماء من السماء الذي أخرج به نبات كل شيء، والخضر الذي أخرج منه الحب المتراكب وسائر ما عدد في الآية " لآيات " أي

دلالات أيها الناس اذا نظرتم فيها أداكم إلى التصديق بتوحيده وخلع الانداد دونه، وأنه لا يستحق العبادة سواه، لان في ذلك بيانا وحججا وبرهانا لقوم يؤمنون، فتصدقون بوحداية الله وقدرته على ما يشاء. وانما خص المؤمنين بالذكر، لانهم المنتفعون بذلك والمعتبرون به، كما قال " هدى للمتقين " وفي الآية دلالة على بطلان قول من يقول بالطبع، لان من الماء الواحد والتربة الواحدة يخرج الله ثمارا مختلفة وأشجارا متباينة ولا يقدر على ذلك غير الله تعالى. قوله تعالى:

وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون (١٠٠) آية بلاخلاف قرأ أهل المدينة " خرقوا " بتشديد الراء. الباقون بتخفيفها، قال أبو عبيدة " وخرقوا له بنين وبنات " أي جعلوا له وأشركوه. يقال: خرق واخترق واختلق بمعنى، اذا افتعل وافترا وكذب، قال أحمد بن يحيى: خرق واخترق، وقال ابو الحسن الخفيفة أحب الي، لانها أكثر.

(١) القرآن ١ / ٢٠٢ واللسان والتاج (بنع)، (دسکر) وتفسير القرطبي ٧ / ٦٧ وقد روى (قدوقعا) بدل (قدینعا).

(٢١٩)

وقيل ان المعنى المشركين ادعوا أن الملائكة بنات الله، والنصارى المسيح ابن الله واليهود عزيز ابن الله ومن شدد كأنه ذهب إلى التكثر. أخبر الله تعالى أن هؤلاء الكفار العادلين عن الحق المتخذين معه آلهة جعلوا له أندادا وشركاء الجن، كما قال " وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا " (١) وقال " وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن أناثا " (٢) وقال " ويجعلون لله البنات " (٣) ووصفهم بالجن لخفائهم عن الابصار وقوله " وجعلوا لله شركاء الجن " أراد به الكفار الذين جعلوا الملائكة بنات الله والنصارى الذين جعلوا المسيح ابن الله، واليهود الذين جعلوا عزيزا ابن الله، ولذلك قال " وخرقوا له بنين وبنات " ففصل أقوالهم.

وقيل ان معنى " شركاء الجن " في استعازتهم بهم.

وقيل ان المعنى ان المجوس تنسب الشر إلى إبليس وتجعله بذلك شريكا.

والهاء والميم في قوله " وخلقهم " يحتمل أن تكون عائدة إلى الكفار الذين جعلوا لله الجن شركاء. ويحتمل أن تكون عائدة على الجن، ويكون المعنى " وجعلوا لله شركاء الجن " والله خلق الجن فكيف يكونون شركاء له.

وفي نصب الجن وجهان أحدهما - ان يكون تفسيراً للشركاء وبدلاً منه. والآخر - ان يكون مفعولاً به ومعناه وجعلوا لله الجن شركاء وهو خالقهم.

وروي عن يحيى بن يعمر انه قرأ " وخلقهم " بسكون اللام بمعنى أن الجن شركاء لله في خلقه إيانا، وهذه القراءة ضعيفة. والقراءة المعروفة أجود، لأن المعنى وخلقهم بمعنى أن الله خلقهم متقربا بخلقهم إياهم.

وقوله " وخرقوا له بنين وبنات " معناه تخرصوا، وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي وابن زيد وغيرهم، فيتلخص الكلام أن هؤلاء الكفار جعلوا لله الجن شركاء في عبادتهم إياه مع انه المتفرد بخلقهم بغير شريك ولا معين

(١) سورة ٣٧ الصافات آية ١٥٨ (٢) سورة ٤٣ الزخرف آية ١٧ (٣) سورة ١٦ النحل آية ٥٧.

(٢٢٠)

ولأظهر " وخرقوا له بنين وبنات " معناه تخرصوا له كذبا بنين وبنات " بغير علم " أي بغير حجة. ويحتمل أن يكون معناه بغير علم منهم بما عليهم عاجلا وأجلا ويحتمل ان يكون معناه بغير علم منهم بما قالوه على حقيقة ما يقولون، لكن جهلا منهم بالله وبعظمته، لأنه لا ينبغي لمن كان لها أن يكون له بنون وبنات ولاصاحبة ولأن يشركه في خلقه شريك، ثم نزه نفسه تعالى وأمرنا بتتزيهه عما أضافوه إليه، وأنه يجلب عن ذلك ويتعالى عنه، فقال " سبحانه وتعالى عما يصفون " من ادعائهم له شركاء واختراقهم له بنين وبنات لأن ذلك لا يليق بصفته ولا بواحدانيته.

قوله تعالى:

بديع السموات والارض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبه وخلق كل شئ وهو بكل شئ
عليم (١٠١)
آية بلاخلاف.

البدیع هو المبدع وهي صفة معدولة عن (مفعل) إلى (فعل) ولذلك تعدى (فعل) لأنه يعمل عمل ماعدل عنه، فإذالم يكن معدولا للمبالغة لم يتعد نحو طویل وقصير، وارتفع بدیع، لأنه خبر ابتداء محذوف، وتقديره هو بديع السموات والارض. ويجوز أن يكون رفعا بالابتداء وخبره (انى)

يكون له ولد).

والفرق بين الابتداء والاختراع فعل مالم يسبق إلى مثله، والاختراع فعل مالم يوجد سبب له، ولذلك يقال: البدعة والسنة، فالبدعة احداث مالم يسبق اليه مما خالف السنة، ولايوصف بالاختراع غير الله، لأن حد ما ابتدئ في غير محل القدرة عليه، ولايقدر على ذلك الا القادر للنفس، لأن القادر بقدرة اما ان يفعل مباشرة وحده ما ابتدئ في محل القدرة عليه او متولد

وحده ما وقع بحسب غيره، وهو على ضربين: أحدهما تولده في محل القدرة عليه. والآخر أنه يتعداه بسبب هو الاعتماد لاغير، ولايقدر غير

(٢٢١)

الله على الاختراع أصلاً. فاما الابتداء فقد يقع منه، لانه قد يفعل فعلاً لم يسبق اليه. واما " بديع السماوات والارض " فلا يوصف به غير الله لانه خالقهما على غير مثال سبق. وقوله " اني يكون له ولد " معناه وكيف يكون له ولد. وقيل: معناه من اين يكون له ولد؟ ولم تكن له صاحبة، فالولد هو الحيوان المتكون من حيوان، فعلى هذا آدم ليس بولد، لانه لم يتكون عن والد، والمسيح (ع)

ولد، لان مريم ولدتها فهو متكون عنها، وان لم يكن عن ذكر، والصاحب هو القرين اللازم، ولذلك يقال: اصحاب الصحراء وفي القرآن اصحاب النار وأصحاب الجنة. ومعناه المقارنون لها. وقد يكون المقارن لما هو من جنسه وماليس من جنسه، فيوصف بانه صاحب الا انه لا بد من مشاكلكته ويقال: صاحب القرآن أي حافظه، وصاحب الدار مالكها. وقوله: " وخلق كل شئ " يحتمل امرين:

أحدهما - ان يكون اراد ب (خلق) قد ر، فعلى هذاتكون الاية عامة، لانه تعالى مقدر كل شئ. ويحتمل ان يكون احدث كل شئ، فعلى هذا يكون مخصوصاً، لانه لم يحدث اشياء كثيرة من مقدرات غيره، ما هو معدوم لم يوجد على مذهب من يسميها أشياء. وكقديم آخر، لانه يستحيل.

وقوله: " وهو بكل شئ عليم " عام، لان الله تعالى يعلم الاشياء كلها قديمها ومحدثها، موجودها ومعدومها، لاتخفى عليه خافية. قوله تعالى:

ذلكم الله ربكم لاإله إلا هوخالق كل شئ فاعبدوه وهو على كل شئ وكيل (١٠٢) آية بلاخلاف.

" ذلك " اشارة إلى ماتقدم ذكره من وصف الله بانه " بديع السماوات

(٢٢٢)

والارض " وغير ذلك من صفاته تعالى. وانما ادخل فيه الميم، لانه خطاب لجميع الخلق. " الله ربكم " صفة بعد صفة.

وقوله: " لاإله إلا هو " اخبار بانه لامعبود سواه تحقق له العبادة.

وبين انه " خالق كل شئ " من اصناف الخلق. وحذف اختصارا - في المبالغة - لقيام الدلالة على انه لا يدخل فيه مالم يخلقه من اصناف الاشياء من المعدوم، وافعال العباد والقبائح، ومثله في المبالغة قوله: " تدمر كل شئ بأمر ربها " (١). وقوله: " واوتيت من كل شئ " (٢). ثم امر الخلق

بعبادة من كان خالق الاشياء كلها، والمنعم على خلقه بما يستحق به العبادة: من خلق الحياة والقدرة والشهوة والبقاء، وغير ذلك. واخبر انه تعالى " على كل شئ وكيل " أي حافظ. والوكيل على الشئ هو الحافظ الذي يحوطه ويدفع الضرر عنه. وانما وصف بانه وكيل مع انه مالك الاشياء، لانه لما كانت منافعه لغيره لاستحالة المنافع عليه والمضار، صحة الصفة له من هذه الجهة بانه وكيل، وكان فيها تذكير بالنعمة مع كونه مالكا من جهة انه قادر عليه له ان يصرف اتم التصريف مما يريد بمنزلة ما يريده الوكيل في ان منافعه تعود على غيره، ولا يلزم على هذا ان يقال: هو وكيل على القبائح والفواحش، لانه يوهم انها عرض وانما تدخل في الجملة على طريق التبع، لانه يجازي عليها بالعذاب المستحق بها. ورفع " خالق كل شئ " بانه خبر ابتداء محذوف كأنه قيل هو خالق كل شئ، لانه تقدم ذكره فاستغني عن ذكره. ولا يجوز رفعه على ان خبره " فاعبدوه " لدخول الفاء. وكان يجوز نصبه على الحال لانه نكرة اتصل بمعرفة بعد التمام.

(١) سورة ٤٦ الاحقاف آية ٢٥ (٢) سورة ٢٧ النمل آية ٢٣

(٢٢٣)

قوله تعالى:

لاتدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير (١٠٣) آية بلاخلاف. في هذه الآية دلالة واضحة على انه تعالى لا يرى بالابصار، لانه تمدح بنفسه الادراك عن نفسه. وكلما كان نفيه مدحا غير متفضل به فائباته لا يكون الانقضا، والنقص لا يليق به تعالى. فاذا ثبت انه لا يجوز ادراكه، ولا رؤيته، وهذه الجملة تحتاج إلى بيان اشياء:

احدها - انه تعالى تمدح بالآية.

والثاني - ان الادراك هو الرؤية.

والثالث - ان كلما كان نفيه مدحا لا يكون اثباته الانقضا. والذي يدل على تمدحه شيان:

احدهما - اجماع الامة، فانه لا خلاف بينهم في انه تعالى تمدح بهذه الآية، فقولنا: تمدح بنفسه

الادراك عن نفسه لاستحالتة عليه. وقال المخالف:

تمدح لانه قادر على منع الابصار من رؤيته، فالاجماع حاصل على ان فيها مدحة.

والثاني - ان جميع الاوصاف التي وصف بها نفسه قبل هذه الاية وبعدها مدحة، فلا يجوز ان يتخلل ذلك ماليس بمدحة. والذي يدل على ان الادراك يفيد الرؤية ان اهل اللغة لا يفرقون بين قولهم: ادركت ببصري شخصا، وأنست، واحسست ببصري. وانه يراد بذلك اجمع الرؤية. فلو جاز الخلاف في الادراك، لجاز الخلاف فيما عداها من الاقسام. فاما الادراك في اللغة، فقد يكون بمعنى اللحق، كقولهم: ادراك قتادة الحسن. ويكون بمعنى النضج، كقولهم ادركت الثمرة، وادركت القدر، وادرك الغلام اذا بلغ حال الرجال. وأيضا فان الادراك اذا اضيف

(٢٢٤)

إلى واحد من الحواس أفاد ماتلك الحاسة آلة. فيه ألا ترى انهم يقولون: ادركته بأذني يريدون سمعته، وادركته بانفي يريدون شمته وادركته بفمي يريدون ذقته. وكذلك اذا قالوا: ادركته ببصري يريدون رأيته. واما قولهم ادركت حرارة الميل ببصري فغير معروف ولا مسموع، ومع هذا ليس بمطلق بل هو مقيد، لان قولهم حرارة الميل تقييد لان الحرارة تدرك بكل محل فيه حياة، ولو قال ادركت الميل ببصري لما استفيد به الا الرؤية. وقولهم ان الادراك هو الاحاطة باطل، لانه لو كان كذلك لقالوا: أدرك الجراب بالدقيق وأدرك الحب بالماء وأدرك السور بالمدينة لاحاطة جميع ذلك بما فيه، والامر بخلاف ذلك. وقوله " حتى اذا أدركه الغرق " (١) فليس المراد به الاحاطة بل المعنى حتى اذا لحقه الغرق، كما يقولون أدركت فلانا اذا لحقته، ومثله " فلما تراء الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون " (٢) أي لملحقون، والذي يدل على أن المدح اذا كان متعلقا بنفي فاثباته لا يكون الا نقصا، قوله " لاتأخذ سنة ولانوم (٣) وقوله " ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله " (٤) لما كان مدحا متعلقا بنفي فلو ثبت في حال لكان نقصا.

فان قيل كيف يتمدح بنفي الرؤية ومع هذا يشاركه فيها ماليس بممدوح من المعدومات والضمائر؟ قلنا: انما كان ذلك مدحا بشرط كونه مدركا للابصار وبذلك يميز من جميع الموجودات لانه ليس في الموجودات ما يدرك ولا يدرك.

فان قيل: ولم اذا كان يدرك ولا يدرك يجب ان يكون ممدوحا؟ قلنا: قد ثبت ان الاية مدحة بمادللنا عليه، ولا بد فيها من وجه مدحة فلا يخلو من أحد وجهين: اما أن يكون وجه المدحة أنه يستحيل رؤيته مع كونه رائيا أو ما قالوه من أنه يفدر على منع الابصار من رؤيته بأن لا يفعل

(١) سورة ١٠ يونس آية ٩٠ (٢) سورة ٢٦ الشعراء آية ٦٢ (٣) سورة ٢ البقرة آية ٢٥٦. (٤) سورة ٢٣

(٢٢٥)

فيها الإدراك، وماقالوه باطل لقيام الدلالة على أن الإدراك ليس بمعنى الاحاطة، فاذا بطل ذلك لم يبق الاماقلناه، والاخرجت الاية من كونهامدحة. وقد قيل: ان وجه المدحة في ذلك أن من حق المرئي أن يكون مقابلا أو في حكم المقابل وذلك يدل على مدحته، وهذا دليل من أصل المسألة لايمكن ان يكون جوابا في الاية. فان قيل: انه تعالى نفى أن تكون الابصار تدركه فمن أين ان المبصرين لا يدركونه؟ قلنا: الابصار لاتدرك شيئا البتة فلااختصاص لها به دون غيره، وأيضا فان العادة ان يضاف الإدراك إلى الابصار ويراد به ذووا الابصار، كما يقولون: بطشت يدي وسمعت أذني وتكلم لساني ويراد به أجمع ذووا الجارحة فان قيل: انه تعالى نفى أن جميع المبصرين لايدركونه، فمن أين أن البعض لايدركونه وهم المؤمنون؟ قلنا: اذاكان تمدحه في استحالة الرؤية عليه لماقدمناه فلا اختصاص لذلك براء دون رائي، ولك ان تستدل بأن تقول: هو تعالى نفى الإدراك عن نفسه نفيا عاما كما أنه أثبت لنفسه ذلك عاما فلو جاز ان يخص ذلك بوقت دون وقت لجاز مثله في كونه مدركا. واذا ثبت نفى ادراكه على كل حال فكل من قال بذلك قال الرؤية مستحيلة عليه. ومن أجاز الرؤية لم ينفها نفيا عاما فالقول بنفيها عموما مع جواز الرؤية عليه قول خارج عن الاجماع. فان عورضت هذه الاية بقوله " وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة " (١) فانا نبين انه لاتعارض بينهما وانه ليس في هذه الاية مايدل على جواز الرؤية اذا انتهينا اليها ان شاء الله.

وقوله " وهو اللطيف الخبير " قيل في معنى " اللطيف " قولان:
أحدهما - أنه اللطيف لعباده بسبوغ الانعام، غير انه عدل من وزن

(١) سورة ٧٥ القيامة آية ٢٣

(٢٢٦)

(فاعل) إلى (فعل) للمبالغة.

الثاني - أنه لطيف التدبير، وحذف لدلالة الكلام عليه.

والخبير هو العالم بالاشياء المتبين لها، وماذكرناه من أن معنى الاية نفى الرؤية عن نفسه على كل حال قول جماعة منهم عائشة، روى مسروق عن عائشة انها قالت: من حدثك أن رسول الله رأى ربه فقد كذب " لاتدركه الابصار وهو يدرك الابصار " و " ماكان لبشر أن

يكلمه الله الا وحيًا أو من وراء حجاب (١) ولكن رأى جبرائيل في صورته مرتين. وفي رواية أخرى أن مسروقًا لما قال لها: هل رأى محمد ربه؟ قالت: سبحان الله، لقد وقف شعري مما قلت، ثم قرأت الآية. وقال الشعبي قالت عائشة من قال: ان أحدا رأى ربه فقد أعظم الفرية على الله، وقرأت الآية، وهو قول السدي وجماعة أهل العدل من المفسرين كالحسن والبلخي والجبائي والرماني وغيرهم. وقال أهل الحشو والمجبرة بجواز الرؤية على الله تعالى في الآخرة وتولوا الآية على الاحاطة وقد بينا فساد ذلك.

قوله تعالى:

قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ (١٠٤) آية بلاخلاف.

البصائر جمع بصيرة وهي الدلالة التي توجب العلم الذي يبصر به نفس الشيء على ما هو به والمراد ههنا قد جاءكم القرآن الذي فيه الحجج والبراهين، قال الشاعر:

جاؤا بصائرهم على أكتافهم * وبصيرتي يعدو بها عتد وأي (٢)

(١) سورة ٤٢ الشورى آية ٥١ (٢) اللسان (بصر)، (عتد)، (وأي) وتفسير الطبري ١٢ / ٢٤ والبصيرة الدم، والشاعر يعبر أخوته لابيهم لعدم أخذهم بثأر أبيهم وقد أخذ هو بدم أبيه ويروى (حملوا بصائرهم) و (راحوا بصائرهم). والعتد الحاضر المعد للكروب

(٢٢٧)

ونعني بالبصيرة الحجة البينة الظاهرة. وأما الابصار فهو الإدراك ولذلك يوصف تعالى بأنه مبصر كما يوصف بأنه مدرك ويسمى بأنه بصير، لانه يجب أن يدرك المبصرات اذا وجدت وانما وصفت الدلالة بأنها جائية وان كان لايجوز أن يقال جاءت الحركة، ولاجاء السكون ولاالاعتماد، وغير ذلك من الاعراض لتفخيم شأن الدلالة حيث كانت بمنزلة الغائب المتوقع حضوره للنفس كما يقال جاءت العافية وانصرف المرض وأقبل السعد وأدبر النحس.

وقوله " فمن أبصر فلنفسه " يعني من تبين بهذه الحجج بأن نظر فيها حتى اوجبت له " العلم وتبين بها، فمنفعة ذلك تعود عليه ولنفسه بمانظر. ومن عمي فلم ينظر فيها وصدف عنها حتى جهل فعلى نفسه لان عقاب تفريطه لازم له وحال به، فسمي العلم والتبيين إيصارا مجازا، وسمي الجهل عمى توسعا.

وفي ذلك دلالة على ان الخلق غير مجبرين بل هم مخيرون في أفعالهم.

ثم خاطب الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) وأمره بأن يقول لهم " وما أنا عليكم بحفيظ " يعني برقيب على أعمال العباد حتى يجازيهم بها، - في قول الحسن - بل هو شهيد عليهم، لانه

يرجع إلى الحال الظاهرة التي تقع عليها المشاهدة. قال الزجاج: هذا قبل أن يؤمر بالقتال. ثم أمر أن يمنعهم بالسيف عن عبادة الاوثان.

وهذه الآية فيها أمر من الله لنبيه أن يقول لهؤلاء الكفار: قد جاءكم حجج من الله وهو ما ذكره في قوله " فائق الحب والنوى " (١) إلى هاهنا. وما يبصرون به الهدى من الضلال، فمن نظر وعلم فلنفسه نفع، ومن جهل وعمي فلنفسه ضرر. ولست أمنعكم منه ولا أحول بينكم وما تحتاجون، وهو قول قتادة وابن زيد.

قوله تعالى:

وكذلك نصرف الايات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون (١٠٥) آية بلاخلاف.

(١) آية ٩٥ من هذه السورة.

(٢٢٨)

قرأ ابن كثير وابوعمر و (دارست) بألف وفتح التاء. الباقر بلا الف " درست " بفتح التاء، الا ابن عامر فانه قرأ " درست " بسكون " التاء وفتح السين بمعنى (انمحت) وذكر الاخفش (درست) وهو أشد مبالغة في الامحاء وقيل (درست) على ما لم يسم فاعله. والمعاني متقاربة غير ان هذين لم يقرأ بهما أحد من المعروفين. وفي قراءة عبدالله (درس) أي ليقولوا درس محمد.

قال أبو زيد: درست أدرس دراسة وهي القراءة. وانما يقال ذلك اذا قرأت على غيرك. قال الاصمعي أنشدني ابن ميادة:

يكفيك من بعض إزديار الافاق * سمراء ممدارس ابن مخراق (١)

يقال درس يدرس مثل داس يدوس. قال: وقال بعضهم: سمراء ناقته، ودرسها رياضها قال ودرس السورة من هذا أي يدرسها لتخف على لسانه، والدريس الثوب الخلق، وأصل الدرس استمرار التلاوة. وقال ابو علي النحوي: من قرأ " دارست " معناه أهل الكتاب وذاكرتهم، قال وقد يحذف الالف في مثل هذا في المصحف. قال ويقوي ذلك قوله " وقالوا اساطير الاولين اكتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا " (٢) وقالوا " ان هذا الا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون (٣) ومن قرأ (درست) قال لان أبيا وابن مسعود قرءا به فاسندا الفعل فيه إلى الغيبة كما اسند إلى الخطاب ومعناه درست فتعلمت من أهل الكتاب. وقال المغربي: درست معناه علمت كما قال " ودرسوا ما فيه " (٤) أي علموه فعلى هذا يكون اللام لام الغرض، كأنه قال فعلنا ذلك ليقولوا علمت. ووجه قراءة ابن عامر انه ذهب إلى الدرس الذي هو تعفية الاثر وإمحاء الرسم. واللام من قوله " وليقولوا درست " على ضربين:

من قال (درست) بلالف، فالمعنى لكرهه أن يقولوا أو لئلا يقولوا:
درست، كما قال " يبين الله لكم أن تضلوا " (٥) ومعناه لئلا تضلوا وكرهه

(١) اللسان " سمر " (٢) سورة ٢٥ الفرقان آية ٥ (٣) سورة ٢٥ الفرقان آية ٤ (٤) سورة ٧ الاعراف آية ١٦٨
(٥) سورة ٤ النساء آية ١٧٥

(٢٢٩)

ان تضلوا، والمعنى اني فصلت الايات وأحكمتها لئلا يقولوا: انها أخبار قد تقدمت وطال العهد
بها وباد من كان يعرفها، كما قالوا " أساطير الاولين " (٦)
لان تلك الاخبار لاتخلو من خلل فاذا سلم الكتاب منه لم يكن لطاعن موضع طعن.
والثاني - ليقولوا (درست) ذلك بحضرتنا أي ليقروا بورود الآية عليهم فنقوم الحجة عليهم.
وقال الزجاج: اللام لام العاقبة ومن قرأ (دارست) فاللام على قوله كالتي في قوله " ليكون "
لهم عدوا وحرنا " (٧) ولم يلتقطوه لذلك لكن كان عاقبته كذلك كما أنه تعالى لم يفصل الايات
ليقولوا دارست ودرست. لكن لماقالوا ذلك أطلق ذلك عليه اتساعا.
وموضع الكاف في وكذلك نصب، لان المعنى نصرف الايات في غير هذه السورة مثل
التصريف في هذه السورة، فهو في موضع صفة المصدر كأنه قال تصريفا مثل هذا
التصريف. قال الرماني: التصريف اجراء المعنى الدائر في المعاني المتعاقبة ليجتمع فيه
وجوه الفائدة.

وقال الحسن ومجاهد والسدي وابن عباس وسعيد بن جبیر (دارست)
أي ذاکرت أهل الكتابين وقارأتهم، وقوله " ولنبينه لقوم يعلمون " معناه لنبين الذي هذه الايات
دالة عليه لقوم يعلمون مانورده عليهم من هذه الايات، ويعقلون ذلك وهم الذين يلزمهم
الاستدلال بذلك على الله وعلى صحة دينه.
وقال قوم " ليقولوا درست " معناه التهديد كما يقول القائل: قل لفلان: يوفينا حقنا وليصنع
ماشاء، وقل للناس الحق وليقولوا ماشاؤا أي ذلك لا يضرک، ولان ضرره يعود عليهم من
العقاب والذم.

(٦) سورة ١٦ النحل آية ٢٤ (٧) سورة ٢٨ القصص آية ٨.

(٢٣٠)

قوله تعالى:

إتبع ما أوحى إليك من ربك لإله إلا هو وأعرض عن المشركين (١٠٦) آية بلاخلاف.
أمر الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) أن يتبع ما أوحى إليه من ربه، والاتباع هو أن يتصرف
الثاني بتصريف الأول، والنبي (صلى الله عليه وآله) كان يتصرف في الدين بتصريف الوحي
فلذلك كان متبعا، وكذلك كل متدبر بتدبير غيره فهو متبع له والإيحاء هو اللقاء المعنى إلى
النفس من جهة يخفى، وإنما أعاد قول " لإله إلا هو " لأن المعنى ادعهم إلى انه لإله إلا هو،
فعلى هذا ليس بتكرار، هذا قول الحسن. وقال الجبائي: لانه بمعنى الزمه وحده. وقال غيره:
لأن معناه اتبع ما أوحى إليك من أنه لا إله إلا هو.

وقوله " وأعرض عن المشركين " أمر للنبي (صلى الله عليه وآله) بالأعراض عن المشركين، ولا
ينافي ذلك أمره إياه بدعائهم إلى الحق وقتالهم على مخالفتهم لأمرين:
أحدهما - أنه أمره بالأعراض عنهم على وجه الاستجهاال لهم فيما اعتقدوه من الإشراك
بربهم.

الثاني - قال ابن عباس: نسخ ذلك بقوله " اقتلوا المشركين " (١) وأصل الأعراض هو
الانصراف بالوجه إلى جهة العرض. والعرض خلاف الطول، ومنه (وأعرضت اليمامة). أي
ظهرت كالظهور بالعرض ومنه العارضة لظهور المساواة بها كالظهور بالعرض،
والاعتراض المنع من الشيء بحاجز عنه عرضا ومنه العرض الذي يظهر كالظهور بالعرض
ثم لا يلبث. وحد أيضا بانه ما يظهر في الوجود ولا يكون له لبث كلبث الجواهر.

(١) سورة ٩ التوبة آية ٦

(٢٣١)

قوله تعالى:

ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظا وما أنت عليهم بوكيل (١٠٧) آية.
ان قيل: كيف قال تعالى " ولو شاء الله ما أشركوا " والمشية لاتتعلق الا بفعل يصح حدوثه،
ولاتتعلق بأن لا يكون الشيء؟! قلنا: التقدير لو شاء الله ان يكونوا على غير الشرك قسرا
ما أشركوا فمتعلق المشية محذوف، فمراد هذه المشية حالهم التي تنافي الشرك قسرا
بالاقتطاع عن الشرك عجزا او منعا أو الجاء. وإنما لا يشاء الله هذه الحال لانها تنافي التكليف.
وانما لم يمنع العاصي من المعصية لانه انما اتى بها من قبل نفسه، والله تعالى فعل به جميع
ما فعل بالمطيع من اراحة العلة، فاذا لم يطع وعصى كانت الحجة عليه. وربما كان في بقائه
لطف للمؤمن فيجب تبقيته وليس لاحد ان يقول الآية دالة على انه تعالى لم يرد هدايتهم لانه

لو أراد ذلك لاهتدوا، وذلك أنه لو لم يرد أن يهتدوا لم يكونوا عصاة بمخالفة الاهتداء، لان المعاصي هو الذي خالف ماأريد منه ولما صح أمرهم أيضا بالاهتداء. والفرق بين الحفيظ والوكيل هو أن الحفيظ يحفظهم من أن يزلوا بمنعه لهم، والوكيل القيم بأمرهم في مصالحهم لدينهم أو دنياهم حتى يلفظ لهم في تناول مايجب عليهم، فليس بحفيظ في ذلك ولاوكيل في هذا، فذلك قال تعالى: انه لم يجعل نبيه حفيظا ولاجعله وكيلا عليهم، بل الله تعالى هو الرقيب الحافظ عليهم والمتكفل بأرزاقهم. وانما النبي (صلى الله عليه وآله) مبلغ منذر ومخوف. وقيل: ان ذلك كان بمكة قبل أن يؤمر بالقتال.

(٢٣٢)

قوله تعالى:

ولانتسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بماكانوا يعملون (١٠٨) آية بلاخلاف.

قرأ الحسن ويعقوب " عدوا " بضم العين والبدال وتشديد الواو. والباقون بفتح العين وبسكون الدال. وأصل ذلك من العدوان. و " عدوا " مخففا و " عدوا " لغتان، يقال عدا علي عدوا وعدوانا وعداءا اذا ظلم مثل ضرب ضربا. وعدا فلان على فلان أي ظلمه. والاعتداء افتعال من عدا.

فهى الله تعالى المؤمنين أن يسبوا الذين يدعون من دون الله. والسب الذكر بالقبيح ومثله الشتم والذم وهو الطعن فيه بمعنى قبيح، كما يطعن فيه بالسنان، وأصله السبب، فهو تسبب إلى ذكره بالعيب.

والمعنى في الآية لاتخرجوا في مجادلتهم ودعائهم إلى الايمان ومحاجتهم إلى ان تسبوا مايعبدونه من دون الله، فان ذلك ليس من الحجاج في شئ، وهو أيضا يدعوهم إلى أن يعارضوكم ويسبوا الله بجهلهم وحميتهم، فأنتم اليوم غير قادرين على معاقبتهم بما يستحقون، وهم أيضا لايتقونكم، لان الدار دارهم ولم يؤذن لكم في القتال.

وكان سبب نزول الآية - في قول الحسن - أن المسلمين كانوا يسبون آلهة المشركين من الاوثان، فاذا سبوا يسب المشركون الله تعالى، فأنزل الله تعالى الآية. وقال أبو جهل: والله يامحمد لتتركوا سب آلهتنا أو لنسب الهك الذي بعثك، فنزلت الآية. وفي ذلك دلالة على ان المحق يلزمه الكف عن سب السفهاء الذين يسرعون إلى سبه مقابلة له، لانه بمنزلة البعث على المعصية والمفسدة فيها. وانما قال " يدعون من دون الله " بمعنى يعبدون،

(٢٣٣)

لان معناه يدعونه إليها فلما قال " من دون الله " وهو من صفة الكفار دل على هذا المعنى فحذف اختصارا. وانما قال " من دون الله " مع انهم كانوا يشركون في العبادة بين الله وبين الاصنام لامرين:

أحدهما - ان ما وجهوه من العبادة إلى الاوثان انما هو عبادة لها لا لله، وليس كالتوجه إلى القبلة عبادة لله.

والثاني - أن ذلك غير معتد به، لانهم أوقعوا العبادة على خلاف الوجه المأمور به فما أطاعوا الله بحال.

وقوله " كذلك زينا لكل أمة عملهم " قيل في معناه أربعة أقوال:

أحدها - قال الحسن والجبائي والطبري والرماني: انا كما أمرناكم بحسن الدعاء إلى الله تعالى وتزيين الحق في قلوب المدعويين كذلك زينا للامم المتقدمين أعمالهم التي أمرناهم بها ودعوناهم اليها بأن رغبتناهم في الثواب، وحذرناهم من العقاب ويسمى مايجب على الانسان أن يعمل بأنه عمله كما يقول القائل لولده أو غلامه: اعمل عملك يريد به ماينبغي له أن يفعله، لان ما وجد وتقضى لا يصح الامر بأن يفعله.

الثاني - زينا الحجة الداعية اليها والشبهة التي من كمال العقل ان يكون المكلف عليها، لانه متى لم يفعل منى الشبهة لم يكن عاقلا.

الثالث - التزيين المراد به ميل الطبع إلى الشيء فهو إلى الحسن ليفعل والى القبيح ليجتنب. والرابع - ذكره البلخي أيضا، وهو أن المعنى ان الله زين لكل أمة عملهم من تعظيم من خلقهم ورزقهم وانعم عليهم، والمحامات عنه وعداوة من عاداه طاعة له، فلما كان المشركون يظنون شركاءهم هم الذين يفعلون ذلك أو أنهم يقربونهم إلى الله زلفى، حاموا عنهم وتعصبوا لهم وعارضوا من شتمهم بثتم من يعز عليهم، فهم لم يعدوا فيما صنعوا مازينه الله لهم في الحملة، لكن غلطوا فقصدوا بذلك من لم يجب ان يقصدوه فكفروا وضلوا.

(٢٣٤)

وقوله " عدوا " نصب على المصدر، وقرئ " عدوا " والمعنى جماعة يعني أعداء وعلى هذا يكون نصبا على الحال.

قوله تعالى:

وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون (١٠٩) آية.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وأبو بكر الأيحيى ونصير وخلف " وما يشعركم انها " بكسر
الهمزة. الباقر بفتحها.

وقرأ ابن عامر وحمزة " لاتؤمنون " بالتاء. الباقر بالياء.

و (ما) في قوله " ومايشعركم " استفهام وفاعل (يشعركم) ضمير (ما) ولا يجوز ان يكون نفيًا،
لان الفعل فيه يبقى بلافاعل، ولايجوز ان يكون نصبا ويكون الفاعل ضمير اسم الله، لان
التقدير يصير، ومايشعركم الله انتفاء ايمانهم، وهذا ليس بصحيح، لان الله قد أعلمنا أنهم
لايؤمنون بقوله " ولواننا نزلنا اليهم الملائكة. " آية (١١١) فالمعنى ومايدريك ايمانهم اذا جاءت
الايات، فحذف المفعول، وتقديره ومايدريك ايمانهم اذا جاءت أي هم لا يؤمنون مع مجئ الاية.
ومن كسر الالف فلانه استئناف على القطع بأنهم لا يؤمنون، ولو فتحت ب " يشعركم " كان
عدوا لهم، ويجوز فتحها على وجهين:

الاول قال الخليل: بمعنى لعلها اذا جاءت لا يؤمنون، كما يقول القائل: انت السوق انك تشتري
لنا شيئاً معناه لعلك، قال عدي بن زيد:

أعاذل مايدريك ان منيتي * إلى ساعة في اليوم أو في ضحى الغد (١)

وقال درى بن الصمة:

(١) جمهرة اشعار العرب ١٠٣ واللسان (أنن) وتفسير الطبري ١٢ / ٤١

(٢٣٥)

ذريتي أطوف في البلاد لانني * أرى ماترين أوبخيلا مخذ (٢)
وقال آخر:

هل أنتم عائجون بنا لانا * نرى العرصات أو أثر الخيام (٣)
وقال الفراء: انهم يقولون: لعلك، ولعنك، ورعنك، وعلك، ورأنك، ولانك بمعنى واحد. وقال
ابوالنجم:

قلت لشيبان ادن من لقائه * انا نخدى اليوم من شوائه (٤)

الثاني - قال الفراء (لا) - ههنا - صلة كقوله " مامنعك أن لاتسجدان أمرتك " (٥) والتقدير
ومايشعركم انها اذا جاءت يؤمنون، والمعنى على هذا لو جاءت لم يؤمنوا ومثل زيادة (لا)
قول الشاعر:

أباجوده لالنجل واستعجلت به * نعم من فتى لايمنع الجود فاعله

بنصب النجل وجره، فمن نصب جعلها زيادة، وتقديره أبا جوده النجل ومن جره أضاف (لا) إلى (النجل) ومثله قوله تعالى " وحرام على قرية أهلكتناها أنهم لا يرجعون " (٦) وهو يحتمل أمرين:

أحدهما - ان تكون (لا) زائدة و (ان) في موضع رفع بأنه خبر المبتداء الذي هو (حرام) وتقديره وحرام على قرية مهلكة رجوعهم، كما قال " فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون " (٧).

والثاني - أن تكون (لا) غير زائدة بل تكون متصلة بأهلكتنا، والتقدير بأنهم لا يرجعون أي أهلكتناهم بالاستئصال، لانهم لا يرجعون إلى أهلهم

(٢) تفسير الطبري ٣ / ٧٨ و ١٢ / ٤٢ والشعر والشعراء ٢١٠، ٢١١ ومجاز القرآن ٦ / ٥٥ واللسان (أثن)

(٣) قاتلة جرير، ومجمع البيان (صيدا) ٢ : ٣٤٨ واللسان (أثن)

(٤) المعاني الكبير لابن قتيبة ٣٩٣ وخزانة الاداب ٣ / ٩٥١ والطبري ١٢ / ٤٣ (٥) سورة ٧ الاعراف آية ١١

(٦) سورة ٢١ الانبياء آية ٩٥ (٧) سورة ٣٦ يس آية ٥٠

(٢٣٦)

للاستئصال الواقع بهم. وخبر الابتداء محذوف وتقديره حرام على قرية أهلكتناها بالاستئصال بقاؤهم أو حياتهم ونحو ذلك.

من قرأ (يؤمنون) بالياء فلان قوله " وأقسموا " انما يراد به قوم مخصوصون بدلالة " ولو أننا انزلنا اليهم الملائكة. " الآية (١١١)، وليس كل الناس بهذا الوصف، فالمعنى وما يشعركم ايها المؤمنون لعلهم اذا جاءت الايات التي اقترحوها لم يؤمنوا.

ومن قرأ بالتاء فانه انصرف من الغيبة إلى الخطاب، ويكون المراد بالمخاطبين في " يؤمنون " هم القوم المقسمون الذين أخبر الله عنهم أنهم لا يؤمنون، ومثله قوله " الحمد لله " ثم قال " اياك نعبد " ونحو ذلك مما ينصرف فيه إلى خطاب بعد الغيبة.

وقوله " جهد أيمانهم " أي اجتهدوا في اليمين وبالغوا فيه. والاية التي سألوا النبي (صلى الله عليه وآله) اظهارها قيل فيها قولان:

أحدهما - انهم سألوا تحول الصفا ذهباً.

الثاني - ما ذكره في موضع آخر من قوله " لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا " إلى قوله " كتابا نقرؤه " (١) والمعنى ان هؤلاء الكفار أقسموا متحكمين على النبي (صلى الله عليه وآله) وبالغوا في أيمانهم أنهم اذا جاءتهم الاية التي اقترحوها ليؤمنن بها أي عندها، فأمر الله نبيه (صلى الله عليه وآله) ان يقول لهم: إنما الايات عند الله.

فان قيل: كيف قال " الايات عند الله " وذلك معلوم؟ ! قيل: معناه من أجل أن الايات عند الله، ليس لكم أن تتحكموا في طلبها، لانه لايجوز أن يتخلف عنكم ولاعن غيركم مافيه المصلحة في الدين لانه تعالى لا يخل بذلك.

قوله " ومايشعركم " فيه تنبيه على موضع الحجة عليهم من أنه ليس

(١) سورة ١٧ الاسرى آية ٩٠ - ٩٤.

(٢٣٧)

لهم ان يدعوا مالا سبيل لهم إلى علمه. وقال مجاهد وابن زيد: الخطاب متوجه إلى المشركين وقال الفراء وغيره: هو متوجه إلى المؤمنين، لانهم قالوا ظنا منهم أنهم لو اجيبوا إلى الايات لامنوا.

قوله تعالى:

ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعملون (١١٠) آية بلاخلاف.

أخبر الله تعالى أنه يقلب الله أفئدة هؤلاء الكفار، وأبصارهم عقوبة لهم وفي كيفية تقلبها قيل قولان:

قال ابو علي الجبائي: انه يقلبها في جهنم على لهب النار وحر الجمر، وجمع بين صفتهم في الدنيا وصفتهم في الآخرة، كما قال " هل أتاك حديث الغاشية وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى نارا حامية " (١) لان قوله " وجوه يومئذ خاشعة " يعني في الآخرة، و " عاملة ناصبة " في الدنيا.

الثاني - انه يقلبها بالحسرة التي تغم وتزعج النفس. وقوله " كما لم يؤمنوا به أول مرة " قيل فيه قولان:

أحدهما - أول مرة أنزلت الايات، فهم لا يؤمنون ثاني مرة بما طلبوا من الايات كما لم يؤمنوا أول مرة بما أنزل من الايات، وهو قول ابن عباس وابن زيد ومجاهد.

الثاني - روي أيضا عن ابن عباس يعني أول مرة في الدنيا وكذلك لو اعيدوا ثانية، كما قال تعالى " ولو ردوا لعادوا لما نهوه عنه " (٢)

والكاف في قوله " كما لم يؤمنوا به أول مرة " قيل فيه قولان:

أحدهما - انها دخلت على محذوف كأنه قيل: فلا يؤمنون به ثاني مرة كما لو يؤمنوا به أول مرة.

(٢٣٨)

والثاني - انها دخلت على معنى الجزاء كما قال " وجزاء سيئة سيئة مثلها " (٣). والهاء في قوله " به " يحتمل ان تكون عائدة على القرآن وما أنزل من الايات. ويحتمل أن تكون عائدة على النبي (صلى الله عليه وآله). وقال بعضهم: انها عائدة على التقليل، لانه الحائل بينهم وبين الايمان.

وهذا خطأ لانه لو حيل بينهم وبين الايمان لما كانوا مأمورين به، ولان تقليل الابصار لا يمنع من الايمان كما لا يمنع الاعمى عماه من الايمان.

وقوله " ونذرهم في طغيانهم يعمهون " لا يدل على أنه تركهم فيه ليطغوا لانه انما أراد انه خلى بينهم وبين اختيارهم وان لم يرد منهم الطغيان، كما ان الائمة والصالحين اذا خلوا بين اليهود والنصارى في دخولهم كنائسهم لا يدل على انهم خلوهم ليكفروا.

وقال الحسين بن علي المغربي قوله " ونقلب أفئدتهم وابصارهم " معناه إنا نحيط علما بذات الصدور، وخائنة الاعين - وهو حشو بين الجملتين - وهو ان يختبر قلوبهم فيجد باطنها بخلاف الظاهر.

قوله تعالى:

ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون (١١١) آية بلاخلاف.

قرأ ابن عامر ونافع وابوجعفر " قبلاً " بكسر القاف وفتح الباء.

الباقون بضمها، قال أبو زيد: يقال لقيت فلا ناقبلاً وقبلاً وقبلاً وقبلاً ومقابلة كله بمعنى المواجهة فعلى هذا المعنى واحد في اختلاف القراءات.

(٢٣٩)

وقال أبو عبيدة " قبلاً " أي معاينة، فعلى هذا من كسر القاف وفتح الباء أراد معناه عياناً، ومن قرأ بالضم فيهما قيل في معناه ثلاثة أقوال:

احدها - قال ابن عباس وقتادة وابن زيد: معناه مقابلة.

الثاني - قال مجاهد وعبدالله بن زيد: معناه قبيلة قبيلة أي جماعة جماعة فيكون جمع قبيل، وقبيل جمع قبيلة نحو سفين وسفينة ويجمع أيضا سفنا.

الثالث - قال الفراء انه جمع قبيل بمعنى كفيل نحو رغيف ورغف لقوله " أوتأتي بالله والملائكة قبيلة (١) " أي يضمون ذلك.

قال أبوعلی الفارسي: وهذا الوجه ضعيف لانهم اذالم يؤمنوا مع انزال الملائكة عليهم وكلام الموتى لهم مع ظهوره وبهوره ومشاهدته والضرورة اليه، فألا يؤمنوا بالمقالة التي هي قول لايبهر ولايضطر أجدر، اللهم الا ان يقال موضع الاية الباهرة انه جمع القبيل الذي هو الكفيل هو حشر كل شيء، وفي الاشياء المحشورة ماينطق ومالاينطق، فاذا نطق بالكفالة من لاينطق كان ذلك موضع بهر الاية وكان ذلك قويا. فاما اذا حملت قوله " قبلا " على جمع القبيل الذي هو الصنف، فان موضع الايات هو حشر جميع الاشياء جنسا جنسا، وليس في العادة ان يحشر جميع الاشياء إلى موضع واحد، فاذا اجتمعت كذلك كان ذلك باهرا واذا حملت " قبلا " بمعنى مواجهة فانه يكون حالا من المفعول به، والمعنى حشرناه معاينة ومواجهة، فيكون في معنى قراءة نافع " قبلا " أي معاينة. فأما قوله " العذاب قبلا " فمعناه مواجهة أو جمع قبيل. والمعنى يأتيهم العذاب صنفا صنفا. وقيل فيمن نزلت هذه الاية قولان:

احدهما - قال ابن عباس: نزلت في الكفار أهل الشقاء الذين علم الله انهم لا يؤمنون على حال.
الثاني - قال ابن جريج: نزلت في المستهزئين الذين سألوا الايات.

(١) سورة ١٧ الاسرى ٩٢

(٢٤٠)

أخبر الله تعالى بهذه الاية عن هؤلاء الكفار الذين سألوا الايات وعلم من حالهم أنهم لا يؤمنون ولو فعل بهم مافعل حتى لو أنزل عليهم الملائكة وكلمهم الموتى بأن يحييهم الله حتى يكلموهم، وحشر عليهم كل شيء قبلا، على المعنى الذي فسرناه من ظهور خرق العادة فيه والمعجزة الباهرة فيه لم يؤمنوا لشدة عنادهم وعتوهم في كفرهم. ثم قال " الا ان يشاء الله " ومعناه احد أمرين:

أحدهما - قال الحسن: إلا أن يشاء الله أن يجبرهم على الايمان بأن يمنعهم من اضرار الايمان كلها منهم الايمان.

الثاني - قال أبوعلی الجبائي: الا ان يشاء الله ان يلجئهم بأن يخلق فيهم العلم الضروري بانهم ان راموا خلافه منعوا منه كما ان الانسان ملجأ إلى ترك قتل بعض الملوك بمثل هذا العلم. وانما قلنا: ذلك، لان الله تعالى قد شاء منهم الايمان على وجه الاختيار، لانه أمرهم به وكلفهم

اياهم، وذلك لا يتم إلا بأن يشاء منهم الايمان، ولو أراد الله من الكفار الكفر للزم أن يكونوا مطيعين اذا كفروا، لان الطاعة هي فعل ماأريد من المكلف. وللزم أيضا أن يصح أن يأمرهم. ولجاز ان يأمرنا بأن نريد منهم الكفر كما أراد هو تعالى وفي الآية دلالة على ان ارادة الله محدثة، لان الاستثناء يدل على ذلك لانها لوكانت قديمة لم يجز هذا الاستثناء، كما لايجوز ان يقول القائل:

لايدخل زيد الدار الا أن يقدر الله أو الا ان يعلم الله لحصول هذه الصفات فيماالم يزل. وقوله " ولكن اكثرهم يجهلون " انما وصف أكثرهم بالجهل مع أن الجهل يعمهم لان المعنى يجهلون انه لو أوتوا بكل آية ما آمنوا طوعا. وفي الآية دلالة على انه لو علم الله انه لو فعل بهم من الايات ما اقترحوها لآمنوا أنه كان يفعل ذلك بهم وأنه يجب في حكمته ذلك، لانه لو لم يجب ذلك لما كان لهذا الاحتجاج معنى. وتعليقه بأنه انما لم يظهر هذه الايات لعلمه بأنه لو

(٢٤١)

فعلها لم يؤمنوا، وذلك يبين ايضا فساد قول من يقول: يجوز ان يكون في معلوم الله ما اذا فعله بالكافر آمن، لانه لو كان ذلك معلوما لفعله ولامنوا والامر بخلافه. قوله تعالى:

وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك مافعلوه فذرهم ومايفترون (١١٢) آية.

التشبيه في قوله " وكذلك " يحتمل أن يرجع إلى أحد أمرين:

أحدهما - أن يكون تقديره جعلنا لك عدوا كما جعلنا لمن قبلك من الانبياء.

الثاني - جعلنا تمكين من يعادي الانبياء وتخليتنا بينهم وبين اختيارهم كتمكين غيرهم من السفهاء. وانما جعلهم اعداء على أحد معنيين:

أحدهما - بأن حكم بأنهم أعداء، وهو قول ابي علي.

الثاني - بأن خلى بينهم وبين اختيارهم ولم يمنعهم من العداوة.

ويجوز ان يكون المراد بذلك أن الله تعالى لما أنعم على انبيائه بضروب النعم وبعثهم إلى خلقه وشرفهم بذلك، حسدهم على ذلك خلق، وعادوهم عليه، فجاز أن يقال على مجاز القول بأن الله جعل لهم اعداء كما يقول القائل اذا أنعم على غيره بنعم جزيلة فحسده عليها قوم وعادوه لاجلها: جعلت لك أعداء. وقيل المعنى أمرنا الانبياء بمعاداتهم فكأنما جعلناهم أعداء الانبياء.

وهذا القول من الله تعالى تسلية للنبي (صلى الله عليه وآله) في أنه أجراه مجرى غيره من الانبياء، ولايجوز على قياس ذلك أن يقول: جعلنا للكافر كفرا، لان فيه ايهاما.

وقوله " شياطين الانس والجن " قيل في معناه قولان:

(٢٤٢)

أحدهما - انه أراد مردة الكفار من الفريقين الانس والجن، وهو قول الحسن وقتادة ومجاهد.
الثاني - قال السدي وعكرمة: شياطين الانس الذين يغوونهم، وشياطين الجن الذين هم من ولد ابليس. ويحتمل نصب (عدوا) وجهين:

أحدهما - على انه مفعول (جعلنا) وشياطين الانس بدل منه.

الثاني - على أنه خبر (جعلنا) في الاصل ويكون هنا مفعول (جعلنا)

كأنه قال جعلنا شياطين الانس والجن عدوا.

وقوله " يوحى بعضهم إلى بعض " معناه يلقي اليه بكلام خفي، وهو الدعاء والوسوسة. وقوله " زخرف القول " معناه هو المزين يقال زخرفه زخرفة اذا زينها و " غرورا " نصب على المصدر.

ثم أخبر الله تعالى أنه لو شاء ربك أن يمنعهم من ذلك ويحول بينهم وبينه لقدرة على ذلك، لكن ذلك ينافي التكليف، ولو حال بينهم وبين لما فعلوه.

ثم أمر نبيه (صلى الله عليه وآله) أن يتركهم وما يفترون أي وما يكذبون بأن يخلي بينهم وبين ما يختارونه ولا يمنعهم منه بالقهر، فان الله تعالى سيجازيهم على ذلك.

وهو تهديد لهم كقوله " اعملوا ما شئتم " (١) " دون أن يكون ذلك أمرا واجبا أو ندبا أو اباحة كما يقول القائل لصاحبه: دعني واياه، ويريد بذلك التهديد لا غير.

وروي عن أبي جعفر (عليه السلام) في معنى قوله " يوحى بعضهم إلى بعض " ان الشياطين يلقي بعضهم بعضا فيلقي اليه ما يغوي به الخلق، حتى يتعلم بعضهم من بعض.

قوله تعالى:

ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقتروا ما هم مقترفون (١١٣) آية بلاخلاف.

(١) سورة ٤١ حم السجد (فصلت) آية ٤٠

(٢٤٣)

العامل في قوله " ولتصغى " قوله " يوحى " وهي لام الغرض وتقديره يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول ليغروونهم ولتصغى اليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة، وتكون الهاء في

قوله " اليه " عائدة إلى القول المزخرف، ولا يجوز أن يكون العامل فيها جعلنا، لان الله تعالى لا يجوز أن يريد منهم أن تصغى قلوبهم إلى الكفر ووحى الشياطين، اللهم الا ان يجعلها لام العاقبة كما قال " فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا " (٢) غير ان هذا غير معلوم أن كل من أرادوا منه الصغو صغى، ولم يصح ذلك أيضا في قوله " وليرضوه وليقتروا ما هم مقترفون " لانه غير معلوم حصول جميع ذلك.

وعلى ماقلناه يكون جميع ذلك معطوفا بعضه على بعض ويكون مرادا كله للشياطين. وقال الجبائي: ان هذه لام الامر، والمراد بها التهديد، كما قال " واستفز " (٣) وقال " اعملوا ماشئتم " (٤) قال لان علامة النصب والجزم تتفق في سقوط النون في قوله " وليرضوه وليقتروا " وهذا غير صحيح، لانها لو كانت لام الامر لقال " ولتصغ بحذف الالف ومقاله انما يمكن ان يقال في قوله " وليرضوه وليقتروا " فأما في قوله " ولتصغى " فلا يمكن، فبان بذلك أنها لام كي. وقال الزجاج والبلخي: اللام في " ولتصغى " لام العاقبة ومابعده لام الامر الذي يراد به التهديد، وهذا جائز غير أن فيه تعسفا. ومعنى (صغا) مال و " لتصغى " أي لتميل، وهو قول ابن عباس وابن زيد، تقول: صغوت اليه أصغى صغوا وصغوا وصغيت أصغى بالياء أيضا وأصغيت اليه اصغاء بمعنى قول الشاعر:

ترى السفية به عن كل محكمة * زيغ وفيه إلى التشبيه اصغاء (٥)

ويقال أصغيت الاناء اذا أملتته لتجمع مافيه فاصله الميل لغرض من الاغراض.

(٢) سورة ٢٨ القصص آية ٨ (٣) سورة ١٧ الاسرى آية ٦٤ (٤) سورة ٤١ حم السجدة (فصلت) آية ٤٠ (٥) اللسان (صغا) وتفسير القرطبي ٧ / ٦٩ وتفسير الطبري ١٢ / ٥٨

(٢٤٤)

وقوله " وليقتروا " عطف على " ولتصغى " والاقتراف اكتساب الاثم، ومعناه وليكتسبوا الاثم - في قول ابن عباس وابن زيد والسدي - ويقال: خرج يقترف لاهله أي يكتسب لهم. وقارف فلان هذا الامر اذا واقعه وعمله وقرفتني بما دعيت علي أي رميتني بالرؤية، وقرف القرحة أي أفشر منها، واقترف كذبا قال رؤبة:

أعيا أقتراف الكذب المقروف * يقوي البغي وعفة العفيف (٦)

وأصله اقتطاع قطعة من الشئ ولام كي تنصب باضمار (أن) مثل (حتى)

غير أنها قد تظهر مع اللام، ولا تظهر مع (حتى) لان (حتى) محمولة على التأويل، ومعناها (إلى أن لمامي) (حتى) من الاشتراك. وليس في اللام حمل على تأويل حرف آخر. وقال البلخي: الاقتراف الادعاء والتهمة، يقول الرجل لغيره: أنت قرفتني أي نسبتني إلى التهم.

قوله تعالى:

أفغير الله أبتغي حكما وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين (١١٤) آية بلاخلاف.
قرأ ابن عامر وحفص " منزل " بتشديد الزاي. الباقون بالتخفيف من شدد حمله على التكرير بدلالة قوله " تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم " (٧).
ومن خفف فلقوله " انا انزلناه في ليلة مباركة " (٨) وما أشبهها.
امر الله تعالى نبيه أن يقول لهؤلاء الكفار الذين مضى ذكرهم " أفغير

(٦) مجاز القرآن ١ / ٢٠٥ وتفسير الطبري ١٢ / ٥٩.

(٧) سورة الزمر آية ١، وسورة ٤٥ الجاثية آية ١ وسورة ٤٦ الاحقاف آية ٢ (٨) سورة ٤٤ الدخان آية ٣

(٢٤٥)

الله ابتغي حكما " أي أطلب سوى الله حاكما، ونصب أفغير الله بفعل مقدر يفسره (أبتغي) تقديره أبتغي غير الله أبتغي حكما، والحكم والحاكم بمعنى واحد، الا ان الحكم هو من كان أهلا أن يتحاكم اليه فهو أمدح من الحاكم، والحاكم جار على الفعل، وقد يحكم الحاكم بغير الحق، والحكم لا يقضي الا بالحق لانها صفة مدح وتعظيم.
والمعنى هل يجوز لاحد ان يعدل عن حكم الله رغبة عنه، لانه لا يرضى به؟! أو هل يجوز مع حكم الله حكم يساويه في حكمه؟! وقوله " وهو الذي " يعني الله الذي " أنزل إليكم الكتاب مفصلا " وانما مدح الكتاب بأنه مفصل، لان التفصيل تبين المعاني بما ينفي التخليط المعمي للمعنى، وينفي ايضا التداخل الذي يوجب نقصان البيان عن المراد.
وانما فصل القرآن بالآيات التي تفصل المعاني بعضها من بعض وتخليص الدلائل في كل فن. وقيل: معنى (مفصلا) أي بما يفصل بين الصادق والكاذب من أمور الدين. وقيل: فصل فيه الحرام من الحلال، والكفر من الايمان، والهدى من الضلال - في قول الحسن -.
وقوله " والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق " لا يجوز ان يكون على عمومته، لان كثيرا من أهل الكتاب، بل أكثرهم جهال لا يعرفون. وقوله: أهل الكتاب، قد يستعمل تارة بمعنى العلم، وبمعنى الاقرار أخرى، كما يقال للعلماء بالقرآن: أهل القرآن. ويقال لجميع المسلمين أهل القرآن بمعنى أنهم مقرون به. وقوله " يعلمون أنه منزل من ربك بالحق " قيل في معناه قولان:

أحدهما - يعلمون ان كل ما فيه بيان عن الشيء على ما هو به، فترغيه، وترهيبه، ووعده، ووعيده، وقصصه، وأمثاله، وغير ذلك مما فيه كله بهذه الصفة والثاني - أن معنى " بالحق " البرهان الذي تقدم لهم حتى علموه به.

(٢٤٦)

فان قيل كيف يصح على أصلكم في الموافاة ونفي الاحباط وصف الكفار بأنهم يعلمون الحق وذلك مما يستحق به الثواب ولاخلاف أن الكافر لا ثواب معه؟! .

قلنا عنه جوابان: أحدهما - أن تكون الآية مخصوصة بمن آمن منهم في المستقبل، فانا نجوز أن يكونوا في الحال عالمين بالله وبأن القرآن حق ثم يظهرون الاسلام فيما بعد فيتكامل الايمان، لان الايمان لا يحصل دفعة واحدة بل يحصل جزءا فجزءا، لان أوله العلم بحدوث الاجسام، ثم ان لها محدثا، ثم العلم بصفاته، ومايجوز عليه وما لايجوز، ثم العلم بالثواب والعقاب وما يتبعهما، وذلك يحصل في أوقات كثيرة.

والثاني - أن يكونوا علموه على وجه لا يستحقون به الثواب لانهم يكونون نظروافي الأدلة لا لوجه وجوب ذلك عليهم، بل لغير ذلك فحصل لهم العلم وان لم يستحقوا به ثوابا.

ويحتمل أن يكون المراد بذلك أنهم يعلمون عند أنفسهم، لانهم اذاكانوا معتقدين بصحة التوراة وأنها من عندالله، وفيها دلالة على صحة نبوة النبي (صلى الله عليه وآله) وهم يدعون أن اعتقادهم علم، فهم اذا على قولهم عالمون بأن القرآن منزل من ربك بالحق.

ويحتمل أن يكون المراد بقوله " الذين آتيناهم الكتاب " المؤمنين المسلمين دون أهل الكتاب، ويكون المراد بالكتاب القرآن لانا قد بينا أن الله سماه كتابا بقوله " الركتاب احكمت " (١) وبقوله " هو الذي انزل عليك الكتاب " (٢) فعلى هذا سقط السؤال، لان هذه صفة المؤمنين المستحقين للثواب وقوله " فلاتكونن من الممترين " معناه لاتكونن من الشاكين.

والامتراء الشك وكذلك المرية ويكون الخطاب للنبي (صلى الله عليه وآله) والمرادبه الامة. وقيل المراد بذلك " فلاتكونن من الممترين " يامحمد في أنهم يعلمون أن ذلك من ربك بالحق.

(١) سورة ١١ هود آية ١ (٢) سورة ٣ آل عمران آية ٧

(٢٤٧)

قوله تعالى:

وتمت كلمت ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم (١١٥) آية بلاخلاف.

قرأ أهل الكوفة ويعقوب " كلمة " على التوحيد. الباقون " كلمات " جمع كلمة، والكلمة والكلمات ما ذكره الله من وعده ووعيده وثوابه وعقابه، فلا تبديل فيه، ولا تغيير له كما قال " ما يبدل القول لدي " (٣)، وقال " لا تبديل لكلمات الله " (٤) وكان التقدير، وتمت ذوات الكلمات، ولا يجوز أن يعني بالكلمات الشرائع ههنا كما عنى بقوله " واذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن " (٥) وقوله " وصدقت بكلمات ربها " (٦) لانه قال لامبديل لكلماته. والشرائع يدخلها النسخ. وقوله " صدقا وعدلا " مصدران ينتصبان في موضع الحال من الكلمة وتقديره صادقة عادلة، وقال قوم: هما نصبا على التمييز. فمن قرأ (كلمات) فلانه لما كان جمعا في المعنى جمعه. ومن أفرد فلان الكلمة قد يعنى بها الكثرة، كما قالوا: قال زهير في كلمته، يعني في قصيدته وقال قس في كلمته، يعني خطبته، فالمفرد يفع على الكثرة فاغنى عن الجمع ومثله " وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل " (٧). وقيل انه أراد به بقوله " ونريد أن نمن على الذين استضعفوا " (٨) إلى آخر الاية فسمى هذا القصص كلمة. وقال مجاهد في قوله " كلمة التقوى " (٩) قول لإله إلا الله. ومعنى

(٣) سورة ٥٠ ق آية ٢٩ (٤) سورة ١٠ يونس آية ٦٤ (٥) سورة ٢ البقرة آية ١٢٤ (٦) سورة ٦٦ التحريم آية ١٢ (٧) سورة ٧ الاعراف آية ١٣٦ (٨) سورة ٢٨ القصص آية ٥ (٩) سورة ٤٨ الفتح آية ٢٦

(٢٤٨)

" وتمت كلمات ربك " انها بتمامها موافقة لما توجب المصلحة من غير زيادة ولا نقصان. والتمام والكمال والاستيفاء نظائر. وان جميعه صدق ولا كذب فيه كما يقال: كمل فلان اذا تمت محاسنه.

وفي الاية دلالة على ان كلام الله محدث، لانه وصفه بالتمام والعدل وذلك لا يكون الاحداثا. والتبديل وضع شئ مكان شئ، فلا أحد يقدر ان يضع مكان كلمة الله يناقضها به. وقال قتادة: لامبديل لها فيما حكم به لانه وان أمكن التغيير والتبديل في اللفظ كما بدل أهل الكتاب التوراة والانجيل، فانه لا يعتد بذلك، لانه لا يقلبه بحق ينقضه. ويجوز أن يكون المراد بقوله " وتمت كلمات ربك " أنها أنتك شيئا بعد شئ حتى كملت.

وقوله " وهو السميع العليم " معناه أنه على صفة يجب ان يسمع المسموعات اذا وجدت عالم بما يكون ظاهرا وباطنا، فلا يظن ظان أن شيئا من ذلك يخفي عليه تعالى. قوله تعالى:

وإن تطع أكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون (١١٦)

آية بلاخلاف.

هذا خطاب من الله لنبيه ولجميع المؤمنين انه من يطع أكثر من في الارض من الكفار ويتبع مايريدونه يضلوه عن سبيل الله، لانه كان في ذلك الوقت أكثر أهل الارض كفارا. والطاعة هي امتثال الامر واجابة ماأريد منه اذا كان المرید فوقه، والفرق بينه وبين الاجابة أن الاجابة عامة في موافقة الارادة الواقعة موقع المسألة، ولاتكون اجابة الا بأن يفعل لموافقة الدعاء بالامر، ومن أجله لايراعي فيها الرتبة.

(٢٤٩)

والفرق بين الاكثر والاعظم أن الاعظم قد يوصف به واحد، ولايوصف بالاكثر واحد بحال، ولهذا يقال في الله تعالى انه عظيم وأعظم من كل شيء، ولايقال أكثر وانما يقال أكبر بمعنى أعظم.

وانما قال: ان تطعمهم يضلوك، وان كانت البداية بالاغواء منهم لامرين: احدهما - ان المطيع يبتدأ باستشعار الطاعة، فاذا كان من الداعي أمر بشيء من الاشياء كان اطاعة وصدق بأنه مطيع.

والثاني - ان دعاءهم لا يوصف بأنه اضلال لمن دعوه الا بعد الاجابة فكأنه قال: ن تجبهم تستحق الصفة بأنهم قد أضلوك، ثم أخبر تعالى عن هؤلاء الكفار انهم لا يتبعون الا الظن الذي يخطئ ويصيب " وان هم الا يخرصون " ومعناه وماهم الاكاذبين. والخرص الكذب يقال ا: خرص يخرص خرصا وخروصا وتخرص وتخرصا واخترص اخترصا وأصله القطع قال الشاعر:

ترى قصد المران تلقى كأنها تذرع خرصان بأيدي الشواطب (١)

يعني جريدا يقطع طويلا ويتخذ منه الحصر، وهو جمع الخرص. ومنه خرص النخل يخرصه خرصا اذا جزره، والخريص الخليج ينقطع اليه الماء، والخريص حبة القرط اذا كانت منفردة، والخرص العود، لانقطاعه عن نظائره بطيب ريحه.

وقيل معنى " وان تطع أكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله " يعني في أكل الميتة، لانهم قالوا للمسلمين: أتاكلون ماقتلتهم ولاتأكلون ماقتل ربكم؟ ! فهذا إضلالهم. وقال بعضهم قوله " ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون " مثل قوله " يوحى بعضهم إلى بعض

زخرف القول غرورا " (٢)

يعني المتعمدين المتردين.

وفى الآية دلالة على بطلان قول أصحاب المعارف، وبطلان قولهم ان الله تعالى لا يتوعد من لا يعلم الحق، لان الله بين في هذه الآية أنهم يتبعون الظن ولا يعرفونه، وتوعدهم على ذلك. وذلك بخلاف مذهبهم.

(١) قاتلة قيس بن الخطيم اللسان (شطب) (٢) سورة ٦ الانعام آية ١١٢

(٢٥٠)

قوله تعالى:

إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين (١١٧) آية بلاخلاف. خاطب الله تعالى بهذه الآية نبيه (صلى الله عليه وآله) وان عنى به جميع الامة انه تعالى " أعلم من يضل عن سبيله " بمعنى أعرف، والمعنى انه أعلم به ممن يعلمه، لانه يعلمه من وجوه تخفى على غيره، لانه تعالى يعلم ما كان وما يكون، وما هو كائن إلى يوم القيامة، وعلى جميع الوجوه التي يصح ان تعلم الاشياء عليها وليس كذلك غيره، لان غيره لا يعلم جميع الاشياء، وما يعلمه لا يعلمه من جميع وجوهه. وأما من هو غير عالم أصلا، فلا يقال الله أعلم منه، لان لفظة أعلم تقتضي الاشتراك في العلم وزيادة لمن وصف بأنه أعلم، وهذا لا يصلح في من ليس بعالم أصلا الا مجازا، ولا يصح أن يقال: هو تعالى أعلم بأن الجسم حادث من كل من يعلم كونه حادثا، لان هذا قد ذكر الوجه الذي يعلم منه وهو انه حادث، فان أريد بذلك المبالغة في الصفة، وأن هذه الصفة فيه أثبت من غيره فجاز أن يقال ذلك.

وذكروا في موضع (من) وجهين من الاعراب:

قال بعضهم: موضعه نصب على حذف الباء وتقديره أعلم بمن يضل ليكون مقابلا لقوله " وهو أعلم بالمهتدين " وقال الفراء والزجاج: موضعها الرفع لانها بمعنى (أي) كقوله " لنعلم أي الحزبين " (١) وصفة (أفعل) من كذا لا تتعدى لانها غير جارية على الفعل، ولا معدولة عن الجارية كعدل ضروب عن ضارب ومنحار عن ناحر. وقال قوم: ان (اعلم) ههنا بمعنى يعلم كما قال حاتم الطائي:

(١) سورة ١٨ الكهف آية ١٢

(٢٥١)

فخالفت طي من دوننا خلفا * والله أعلم ما كنا لهم خولا (٢)
وقالت الخنساء:

القوم أعلم ان جفنته * تغدو غداة الريح أو تسري (٣)
قال الرماني: هذا لايجوز لانه لا يطابق قوله " وهو أعلم بالمهتدين " فمعنى الاية ان الله تعالى أعلم بمن يملك سبيل الضلال المؤدي إلى الهلاك بالعقاب، ومن سلك سبيل الهدى المفضي به إلى النجاة والثواب.
قوله تعالى:

فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين (١١٨)
آية بلا خلاف.

قيل في دخول الفاء في قوله " فكلوا " قولان:
أحدهما - انه جواب لقول المشركين لما قالوا للمسلمين: أتأكلون ماقتلتهم ولاتأكلون ماقتل ربكم؟ فكأنه قيل: اعرضوا عن جهلكم فكلوا.
والثاني - ان يكون عطفًا على ما دل عليه أول الكلام، كأنه قال: كونوا على الهدى فكلوا مما ذكر اسم الله عليه.

وقوله " فكلوا "، وان كان لفظه لفظ الامر، فالمراد به الاباحة، لان الاكل ليس بواجب ولا مندوب، اللهم الا ان يكون في الاكل استعانة على طاعة الله، فانه يكون الاكل مرغبا فيه، وربما كان واجبا، فأما مايمسك الرمق فخارج عن ذلك، لانه عند ذلك يكون الانسان ملجأ إلى تناوله. ومثل هذه الاية في لفظ الامر والمراد به الاباحة قوله " واذا حللتهم فاصطادوا " (٤)
وقوله " فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض " (٥) والاصطياد والانتشار

(٢) تفسير القرطبي ٧٢ / ٧ وتفسير الطبري ١٢ / ٦٦ (٣) ديوانها: ١٠٤ وتفسير الطبري ٢ / ٦٦ (٤) سورة ه المائدة آية ٣ (٥) سورة ٦٣ الجمعة آية ١٠

(٢٥٢)

مباحان بلاخلاف.

وقوله " ما ذكر اسم الله عليه " فالذكر المسنون هو قول بسم الله.
وقيل كل اسم يختص الله تعالى به أو صفة مختصة كقوله بسم الله الرحمن الرحيم أو بسم التقدير أو بسم القادر لنفسه أو العالم لنفسه، وما يجري مجرى ذلك. والاول مجمع على جوازه والظاهر يقتضي جوازه غيره، ولقوله " قل ادعوا لله أو ادعوا الرحمن أيما تدعوا فله الاسماء الحسنى ". (٦)

وقوله " فكلوا مما ذكر اسم الله عليه " خطاب للمؤمنين وفيه دلالة على وجوب التسمية على الذبيحة، لان الظاهر يقتضي أن ما لا يسمى عليه لايجوز أكله بدلالة قوله " ان كنتم بآياته

مؤمنين " لان هذا يقتضي مخالفة المشركين في أكلهم ما لم يذكر اسم الله عليه، فأما ما لم يذكر اسم الله عليه سهوا أو نسيانا فانه يجوز أكله على كل حال. والاية تدل على أن ذبائح الكفار لايجوز أكلها، لانهم لايسمون الله عليها. ومن سمى منهم لانه لايعتقد وجوب ذلك بل يعتقد ان الذي يسميه هو الذي أبدى شرع موسى أو عيسى وكذب محمد بن عبدالله، وذلك لا يكون الله، فاذا هم ذاكرون اسم شيطان والاسم انما يكون المسمى مخصوص بالقصد. وذلك مفتقر إلى معرفته واعتقاده، والكفار على مذهبنا لا يعرفون الله تعالى، فكيف يصح منهم تسميته تعالى؟! وفي ذلك دلالة واضحة على ما قلناه.

ومعنى قوله " ان كنتم بآياته مؤمنين " ان كنتم عرفتم الله وعرفتم رسوله وصحة ما أتاكم به من عندالله، وهذا التحليل عام لجميع الخلق وان خص به المؤمنين بقوله " ان كنتم بآياته مؤمنين " لان ما حلل الله للمؤمنين، فهو حلال لجميع المكلفين وما حرم عليهم حرام على الجميع. قوله تعالى:

ومالكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد

(٦) سورة ١٧ الاسرى آية ١١٠

(٢٥٣)

فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين (١١٩) آية بلا بلا خلاف.

قرأ نافع وحفص عن عاصم " وقد فصل لكم ما حرم " بفتح الفاء والصاد والحاء والراء. وقرأ ابن كثير، وابوعمر، وابن عامر (فصل) و (حرم) بضم الفاء والحاء. وقرأ حمزة والكسائي وابوبكر (فصل) بفتح الفاء و (حرم) بضم الحاء. وقرأ أهل الكوفة (ليضلون) بضم الياء وكسر الضاد. الباقيون بفتح الياء.

من ضم الفاء والحاء، فلقوله " حرمت عليكم الميتة والدم. " الاية (١) فهنا تفصيل هذا العام بقوله (حرم) وكذلك (فصل) لان هذا المفصل هو ذلك المحرم الذي حل في هذه الاية.

ومن فتحهما فلقوله " اتل ما حرم ربكم " (٢) وقوله " فصلنا الايات " (٣) وكذلك قوله " الذين يشهدون أن الله حرم هذا " (٤) ولانه قال " وما لكم أن لاتأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل " فينبغي أن يكون الفعل مبنيًا للفاعل لتقدم ذكر اسم الله.

ومن فتح الفاء وضم الحاء، فلقوله " فصلنا الايات " وقوله " حرمت عليكم الميتة والدم " وقوله " ومالك " خطاب للمؤمنين الذين ذكرهم في الاية الاولى ومعناه لم لتأكلوا، وقيل بينهما فرق، لان (لم لاتفعل) أعم من حيث انه قديكون لحال يرجع، اليه وقد يكون لحال يرجع إلى غيره، فأما (مالك أن لاتفعل)

(١) سورة ٥ المائدة آية ٤ (٢) سورة ٦ الانعام آية ١٥٣ (٣) سورة ٦ الانعام آية ٩٧، ٩٨، ١٢٦ (٤) سورة ٦ الانعام آية ١٥٠

(٢٥٤)

فلحال يرجع اليه. وقيل في معنى (لا) في قوله (أن لتأكلوا) قولان: احدهما - انها للجدد، وتقديره أي شئ لكم في أن لتأكلوا، اختاره الزجاج وغيره من البصريين.

والثاني - أن يكون صلة، والمعنى مامنعكم ان تأكلوا، لان (مالك ان لاتفعل) (ومالك لاتفعل) بمعنى واحد. وقال قوم: معناه ليس لكم ان لا تأكلوا مما أمرناكم بأكله على الوصف الذي أمرناكم بفعله، ويجوز حذف (في) من " مالكم لتأكلوا " ولايجوز حذفها من مالكم في ترك الاكل لان (ان) تلزمها الصلة فهي أحق بالاستحقاق من المصدر، لان المصدر - رلا تلزمه الصلدا، كما حسن حذف الهاء من صلدا (الذي) ولم يحسن من الصفة.

وقوله " وقد فصل لكم ما حرم عليكم " يعني ما ذكره في مواضع من قوله " حرمت عليكم الميتة " (١) الاية وغيرها.

وقوله " الا ما اضطررتم اليه " معناه الا اذا خفتم على أنفسكم الهلاك من الجوع وترك تناول، فحينئذ يجوز لكم تناول ما حرمه الله في قوله " حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير " (٢) وما حرمه في هذه الاية.

واختلفوا في مقدار ما يسوغ له حينئذ تناوله، فعندنا لايجوز له ان يتناول الا ما يمسك الرمق. وفي الناس من قال: يجوز له أن يشبع منه اذا اضطر اليه وان يحمل منها معه حتى يجد ما يأكله. وقال الجبائي: في الاية دلالة على أن ما يكره عليه من أكل هذه الاجناس أنه يجوز له أكله، لان المكروه يخاف على نفسه مثل المضطر.

ومن قرأ " ليضلون " بفتح الياء ذهب إلى ان المعنى ليضلون بأهوائهم أي يضلون باتباع أهوائهم، كما قال " واتبع هواه " (٣) أي يضلون في انفسهم من غير أن يضلوا غيرهم من أتباعهم بامتناعهم من أكل ما ذكر اسم الله

(١، ٢) سورة ٥ المائدة آية ٤ (٣) سورة ٧ الاعراف آية ١٧٥، سورة ١٨ الكهف آية ٢٨ وسورة ٢٠ طه آية ١٦ وسورة ٢٨ القصص آية ٥٠

(٢٥٥)

عليه وغير ذلك.
ومن قرأ بضم الياء اراد انهم يضلون أشياعهم، فحذف المفعول به، وحذف المفعول كثير،
ويقوي ذلك قوله " وما أضلنا الا المجرمون " (٤)
وقوله " ربنا هؤلاء أضلونا " (٥).
وقوله " وان كثيرا " أوقع (ان) على النكرة، لان الكلام اذا طال احتمل ودل بعضه على بعض.

قوله تعالى:

وذروا ظاهر الاثم وباطنه إن الذين يكسبون الاثم سيجزون بما كانوا يقترفون (١٢٠) آية
بلاخلاف.

الواو في قوله " وذروا "، واو العطف ولايستعمل " وذر " لاماضى ولا " واذر " لاسم الفاعل
واستغني عنه ب (ترك) وانما يستعمل منه يذر و (ذر) وامثاله ومثله (يدع) لم يستعمل منه
(فعل) ولا (فاعل) استغنوا أيضا ب (ترك) و (تارك) وأشعروا بذلك كراهية الواو في الابتداء
حتى لم يزيدوها هناك أصلا مع زيادتهم أخواتها. والظاهر هو الكائن على وجه يمكن ادراكه.
الباطن هو الكائن على وجه يتعذر ادراكه.

أمر الله تعالى في هذه الآية بترك الاثم مع قيام الدلالة على كونه اثما، ونهى عن ارتكابه سرا
وعلانية، وهو قول قتادة والربيع بن أنس ومجاهد، لان الجاهلية كانت ترى ان الزنا اذا أظهر
واعلن كان فيه اثم، فاذا استسر به صاحبه لم يكن اثما - ذكره الضحاك - وقال الجبائي
الظاهر أفعال الجوارح، والباطن أفعال القلوب. وقال غيره: الظاهر الطواف بالبيت عريانا
والباطن الزنا. والاول أعم على ماقلناه - ذكره ابن زيد - وقال قوم: ظاهر الاثم الزنا،
وباطنه اتخاذ الاخذان - ذكره السدي والضحاك - وقال سعيد

(٤) سورة ٢٦ الشعراء آية ٩٩ (٥) سورة الاعراف آية ٣٧

(٢٥٦)

بن جبير ظاهر الاثم امرأة الاب وباطنه الزنا.

أمر الله تعالى باجتتاب الاثم على كل حال، ثم أخبر أن الذين يكسبون الاثم يعني المعاصي والقبائح وسيجازيهم الله يوم القيامة بما كانوا يرتكبونه.
وقد بينا أن معنى الاقتراف هو معنى الاكتساب. والكسب هو فعل مايجتلب به نفع إلى نفسه أو يدفع به ضرر، ولذلك يوصف الواحد منا بأنه مكتسب ولايوصف الله تعالى به، والكواسب الجوارح من الطير، لانها تكسب ما ينتفع به.
قوله تعالى:

ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم، وإن أطعتموهم إنكم لمشركون (١٢١) آية بلاخلاف.
نهى الله تعالى في هذه الآية عن أكل مالم يذكر اسم الله عليه، وذلك صريح في وجوب التسمية على الذبيحة، لانها لولم تكن واجبة، لكان ترك التسمية غير محرم لها. فأما من ترك التسمية ناسيا، فمذهبا أنه يجوز أن تؤكل ذبيحته بعد أن يكون معتقدا لوجوبها.
وكان الحسن يقول: يجوز أن يأكل منها. وقال ابن سيرين: لا يجوز أن يأكل منها. وبه قال الجبائي.

فأما اذا تركها متعمدا فعندنا لايجوز اكله بحال. وفيه خلاف بين الفقهاء فقال قوم: اذا كان تارك التسمية متعمدا من المسلمين جاز أكل ذبيحته. وقال آخرون لايجوز أكلها كما قلنا.
وذلك يدل على ان ما يذبحه؟؟ الكتاب لايجوز أكله، لانهم لا يعتقدون وجوب التسمية ولا يذكرونها، ومن ذكر اسم الله منهم فانما يقصد

(٢٥٧)

به اسم من أبدى شرعهم، ولم يبعث محمدا (صلى الله عليه وآله)، بل كذبه، وذلك ليس هو الله، فلايجوز اكل ذبيحتهم. ولانهم لايعرفون الله، فلا يصح منهم القصد إلى ذكر اسمه.
فأما من عدا أهل الكتابين فلا خلاف في تحريم ما يذبحونه.
وليست الآية منسوخة ولاشئ منها، ومن ادعى نسخ شئ منها فعليه الدلالة.
وقال الحسن وعكرمة: نسخ منها ذبائح الذين أوتوا الكتاب بقوله " وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم " (١) وعندنا ان ذلك مخصوص بالحبوب دون الذبائح.
وقال قوم: ليس أهل الكتاب داخلين في جملة من يذكر اسم الله على ذبيحته، وليس واحد من هؤلاء معنيا بالآية، فلا يحتاج إلى النسخ.
وقوله " وانه لفسق " يعني مالم يذكر اسم الله عليه أي أكله فسق.
وحذف لدلالة الكلام عليه.

وقوله " وان الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم " يعني بالشياطين علماءهم ورؤساءهم المتمردين في كفرهم يوحدون ويشيرون إلى أوليائهم الذين اتبعوهم من الكفار بأن يجادلوا المسلمين في استحلال الميتة. وقال الحسن يجادلونهم بقولهم: ان ماقتل الله أولى بأن يؤكل مما قتله الناس وقال عكرمة: المراد بالشياطين مرده الكفار من مجوس فارس " إلى أوليائهم " من مشركي قريش. وقال ابن عباس: المراد بالشياطين ههنا ابليس وجنوده بأن يوسوسوا اليهم ويوحون إلى أهل الشرك بذلك، وبه قال قتادة. وقال قوم:

الذين جادلوا بذلك كانوا قوما من اليهود جادلوا رسول الله (صلى الله عليه وآله) بأن ما قتله الله أولى بالاكل مما قتله الناس. ثم قال تعالى " وان أطعموهم " ايها المؤمنون فيما يقولونه من استحلال أكل الميتة وغيره " انكم لمشركون " لان من استحل الميتة كافر بالاجماع. ومن اكلها محرما لها مختارا، فهو فاسق

(١) سورة ٥ المائدة آية ٦

(٢٥٨)

وهو قو الحسن وجماعة من المفسرين. والتقدير في قوله " انكم " فانكم، لان جواب الشرط لا يكون ب (أن بلافاء. وانما يكون ذلك جواب القسم.

واختلفوا في ما عناه الله تعالى بقوله " ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه " فقال عطاء: ذلك يختص بزبائح كانت في الجاهلية على الاوثان كانت العرب تذبحها وقريش. وقال ابن عباس ذلك الميتة. وقال قوم: عنى بذلك كل ذبيحة لم يذكر اسم الله عليها. وهذا الوجه أقوى على ما بيناه. ومن حمل الآية على الميتة فقد أبعد، لان احدا من العرب ماكان يستحل الميتة. وانما ذلك مذهب قوم من المجوس، فالآية اما أن تكون مختصة بماكانت تذبح للاصنام على ما قاله عطاء، أو عامة في كل ما لم يذكر اسم الله عليه الا ماأخرجه الدليل. وقد بينا ان ذلك أعم وأولى بحمل الآية عليه.

قوله تعالى:

أو من كان ميتا فاحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ماكانوا يعملون (١٢٢) آية بلاخلاف.

قرأ أهل المدينة ويعقوب (ميتا) بالتشديد. الباقرن بالتخفيف. قال أبو عبيدة الميتة مخففة ومنقلة معناهما واحد، وانما خفف إستقالا، قال ابن الرعاء الغساني:

ليس من مات فاستراح بميت * انما الميت ميت الاحياء

انما الميت من يعيش كئيبا * كاسفا باله قليل الرجاء (١)

وقد وصف الله الكفار بأنهم أموات بقوله " أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون " (٢) وكذلك " أو من كان ميتا فأحييناه " والمعنى من كان ميتا

(١) مرتخرجه في ٢ / ٤٣٢، ٨٤ و ٣ / ٤٢٨ (٢) سورة ١٦ النحل آية ٢١

(٢٥٩)

بالكفر فصار حيا بالاسلام بعد الكفر، كالمصر على كفره؟! وقوله " وجعلنا له نورا يمشي به في الناس " يحتمل امرين:

أحدهما - أن يراد به النور المذكور في قوله يسعى " نورهم بين أيديهم " (٣)

وقوله " يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم " (٤)

الثاني - أن يراد بالنور الاحكام التي يؤتاها المسلم باسلامه، لانه اذا جعل الكافر بكفره في الظلمات فالؤمن بخلافه.

ومن خفف حذف الياء الثانية المنقلبة عن الواو، أعلنت بالحذف كما أعلنت بالقلب اختلفوا في من نزلت هذه الاية، فقال ابن عباس والحسن وغيرهما من المفسرين: نزلت في كل مؤمن وكافر. وقال عكرمة: نزلت في عمارين ياسر وابي جهل، وهو قوله ابي جعفر (ع). وقال الضحاك: نزلت في عمر بن الخطاب وقال الزجاج: نزلت في النبي (صلى الله عليه وآله) وأبي جهل. والاول أعم فائدة، لانه يدخل فيه جميع مآقوله.

بين الله تعالى أن " من كان ميتا " يعني كافرا " فأحييناه " يعني وفقناه للايمان، فأمن أو صادفناه مؤمنا بأن آمن، لان الاحياء بعد الاماتة - ههنا - هو الاخراج من الكفر إلى الايمان عند جميع أهل العلم: كابن عباس والحسن ومجاهد والبلخي والجبائي وغيرهم.

وقوله " وجعلنا له نورا يمشي به في الناس " يعني جعلنا له علماء، فسمى العلم نورا وحياة، والجهل ظلمة وموتا، لان العلم يهتدى به إلى الرشاد، كما يهتدى بالنور في الظلمات، وتدرك به الامور كما تدرك بالحياة. والظلمة كالجهل لانه يؤدي إلى الحيرة والهلكة، والموت كالجهل في أنه لاتدرك به حقيقة.

وانما قال " كمن مثله في الظلمات " ولم يقل كمن هو في الظلمات، لان التقدير كمن مثله مثل من في الظلمات ويجوز أن يدل بأن مثله في الظلمات على أنه في الظلمات الا انه يزيد فائدة أنه ممن يضرب به المثل في ذلك.

(٣، ٤) سورة ٥٧ الحديد آية ١٢ - ١٣

(٢٦٠)

وقيل في المراد بالنور الذي يمشي به في الناس قولان:
أحدهما - قال الحسن: وهو القرآن. وقال غيره: هو الايمان الذي لطف له به.
ووجه التشبيه في قوله " كذلك زين للكافرين " أي زين لهؤلاء الكفر، فعملوه كما زين لأولئك
الايمان فعملوه، فشبهت حال هؤلاء في التزيين بحال أولئك فيه، كما قال " كل حزب بما لديهم
فرحون " (١) وانما زين الله تعالى الايمان عند المؤمنين، وزين الغواية من الشياطين وغيرهم
الكفر عند الكافرين وهو قول الحسن وأبي علي والرماني والبلخي وغيرهم.
وفي الآية دلالة على وجوب طلب العلم، لانه تعالى رغب فيه بأن جعله كالحياة في الادراك
بها والنور في الاهتداء به.
قوله تعالى:

وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ومايمكرون إلا بأنفسهم ومايشعرون
(١٢٣) آية بلاخلاف معنى قوله " كذلك جعلنا " أي جعلنا ذا المكر من المجرمين، كما جعلنا ذا
النور من المؤمنين، فكلما فعلنا بهؤلاء فعلنا بأولئك الا أن أولئك اهدوا بحسن اختيارهم
وهؤلاء ضلوا بسوء اختيارهم، لان كل واحد منهما جعل بمعنى صار به كذا الا أن الاول
باللطف، والثاني بالتمكين من المكر، فصار كأنه جعل كذا.
وموضع الكاف في " وكذلك " نصب بالعطف على قوله " كذلك زين للكافرين ماكانوا يعملون
" والمعنى مثل ذلك الذي قصصنا عليك زين للكافرين عملهم. ومثل ذلك " جعلنا في كل قرية
أكابر مجرميها " وانما خص أكابر المجرمين بهذا المعنى دون الاصاغر، لانه أحسن في
الافتقار على الجميع، لان الاكابر اذا كانوا في قبضة القادر فالاصاغر بذلك أجدر.

(١) سورة ٢٣ المؤمنون آية ٥٤ وسورة ٣٠ الروم آية ٣٢

(٢٦١)

والاكابر جمع الاسماء، والكبر جمع الصفات تقول: كبير وأكابر ويجوز أن يكون جمع أكبر
على أكابر. وقد قالوا: الاكابة والاصاغرة، كما قالوا:
الاساورة والاحامرة قال الشاعر:
ان الاحامرة الثلاثة أهلكت * مالي وكنت بهن قدما مولعا
الخمير واللحم السمين أحبه * والزعفران فقد أبيت مودعا (١)
وقوله " ليمكروا فيها " اللام لام العاقبة ويسمى لام الصيرورة، كما قال " فالتقطه آل فرعون
ليكون لهم عدوا وجزنا " (٢) وقال الشاعر:

فاقسم لو قتلوا مالكا * لكننت لهم حية راصدة

وام سماك فلاتجزعي * فللموت ماتلد الوالدة (٣)

وليس المراد بها لام الغرض، لانه تعالى لا يريد أن يمكروا، وقد قال وماخلفت الجن والانس الا ليعبدون " (٤) وإرادة القبيح قبيحة. والتقدير وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليطيعوني ويمتثلوا أمري، وكان عاقبتهم أن مكروا بالمؤمنين وخدعوهم، فقال الله تعالى " ومايمكرون الا بأنفسهم " لان عقاب ذلك يحل بهم. والمكر هو قتل الشئ إلى خلاف الرشد على وجه الحيلة في الامر. والمكر والختل والغدر نظائر. وأصل المكر القتل. ومنه جارية مكورة أي مفتولة البدن. ووجه مكر الانسان بنفسه أن وبال مكره يعود عليه، كأنه قال ومايضرون بذلك المكر الا أنفسهم، ومايشعرون انهم يمكرون بها، ولايصح أن يمكر الانسان بنفسه على الحقيقة، لانه لايصح أن يخفي عن نفسه معنى مايحتمل به عليها ويصح أن يخفي ذلك عن غيره.

وفائدة الاية ان أكابر المجرمين لم يمكروا بالمؤمنين على وجه المغالبة لله، اذكأنه جعلهم ليمكروا مبالغة في انتفاء صفة المغالبة.

(١) قاتلة الاعشى. ديوان الاعشيين: ٢٤٧ واللسان " حمر " وتفسير الطبري ١٢ / ٩٤ وفيه اختلاف كثير في الرواية، وقد اثبتنا مافي مخطوطة التبيان (٢) سورة ٢٨ القصص آية ٨ (٣) مرتخرجه في ٣ / ٦٠ وسيأتي في ٥ / ٤٣ (٤) سورة ٥١ الذاريات آية ٥٦.

(٢٦٢)

قوله تعالى:

وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتي مثل ماأوتى رسل الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عندالله وعذاب شديد بماكانوا يمكرون (١٢٤)
قرأ ابن كثير وحفص رسالته على التوحيد ونصب التاء. الباقر على الجمع. ومن وحد، فلان الرسالة تدل على القلة والكثرة لكونها مصدرا.

ومن جمع، فلما تكرر من رسل الله وتحمله اياهم رسالة بعد أخرى فاتى بلفظ الجمع.
أخبر الله تعالى عن هؤلاء الكفار أنه اذا جاءتهم آية ودلالة من عندالله تدل على توحيد الله وصدق انبيائه ورسله " قالوا لن نؤمن " اي لانصدق بها " حتى نؤتي " أي نعطي آية مثل ماأعطي رسل الله حسدا منهم للانبياء (عليهم السلام). ثم أخبر تعالى على وجه الإنكار عليهم بأنه تعالى أعلم منهم ومن جميع الخلق حيث يجعل رسالاته، لان الرسالة تابعة للمصلحة، ولايبعث الله تعالى الا من يعلم ان مصلحة الخلق تتعلق ببعثه دون من لايتعلق ذلك به.

ومن يعلم انه يقوم بأعباء الرسالة دون من لايقوم بها. وتوعدهم فقال: " سيصيب الذين أجرموا " أي سينال الذين انقطعوا إلى القبيح وأقدموا عليه " صغار عندالله " والصغار الذل الذي يصغر إلى الانسان نفسه يقال:

صغر يصغر صغارا وصغرا، وقيل في معنى الصغار عند الله ثلاثة اقوال: اولها - صغار أي ذلة من عندالله، ولايجوز على هذا أن يقال: زيد عند عمر بمعنى من عنده، لان حذف (من) تلبس - ههنا - .

الثاني - قال الفراء اكتسب من ترك اتباع الحق صغارا عندالله. الثالث - قال الزجاج يعني صغار في الاخرة، وهو أقواها، لقوله " وعذاب شديد بماكانوا يمكرون " في دار الدنيا، و " عندالله " يتعلق بقوله

(٢٦٣)

" سيصيب الذين أجرموا صغار " ويجوز أن يكون متعلقا ب " صغار "، وتقديره سيصيب الذين أجرموا صغار ثابت لهم عندالله.

ومعنى الآية الانكار لما طلبوا الاحتجاج عليهم فيما جهلوا، والوعيد على ما فعلوا. وقوله " رسل الله " اللام مفخمة في (الله) ولاتفخم من قوله " الله أعلم " لان ماوقع بعد فتح وضم صح تفخيمه، كقولك من الله، لانه بمنزلة تفخيم الالف مع هاتين الحركتين في نحو كامل وعالم وترك التفخيم في الثاني كماترك في الالف مع الكسرة في نحو عائد، وانما فخمت اللام في تلك المواضع تعظيم الاسم من غير اخلال بالخروج عن نظيره.

قوله تعالى:

فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون (١٢٥) آية بلاخلاف.

قرأ ابن كثير " ضيقا " بتخفيف الياء وسكونها - ههنا - وفي الفرقان. الباقون بتشديدها وكسرها. وقرأ أهل المدينة وأبو بكر " حرجا " بكسر الراء. الباقون بفتحها. وقرأ ابن كثير " يصعد " بتخفيف الصاد والعين وسكون الصاد من غير الف، ورواه أبو بكر بتشديد الصاد وألف بعدها وتخفيف العين. الباقون بتشديد الصاد والعين وفتح الصاد من غير الف.

قال ابو علي النحوي: الضيق والضيق مثل الميت والميت في أن معناهما واحد. والياء والواو يشتركان في الحذف، وان لم تغل الياء بالقلب كما أعلنت الواو به فاتبعت الياء الواو في هذا، كما اتبعتها في قولهم أيسر، قالوا في أيسار

(٢٦٤)

الجزور اتسر، فجعلت بمنزلة اتعد. وقال غيره: يجوز أن يكون من ضاق الامر يضيق ضيقا. وقد قرأه من قرأ " ولاتك في ضيق ". ومن فتح الراء من (حرج) جعلها وصفا للمصدر، لان المصادر قدتوصف بمثل ذلك، كقولهم رجل دنف أي ذو دنف ولا يكون كبطل لان اسم الفاعل في الاكثر من (فعل)

انما يجئ على (فعل). ومن كسر الراء فهو مثل دنف، وفرق. قال ابو زيد وخرج عليه السحور والسحر: اذا أصبح قبل أن يتسحر وخرج عليه حرجا وهما واحد، وخرجت على المرأة الصلاة تخرج حرجا، وحرمت عليها الصلاة تحرم حرما بمعنى واحد، ويقال حرج فلان يخرج اذا هاب ان يتقدم على الامر أو قاتل فصبر وهو كاره.

وقال غيره: هما بمعنى واحد كالدنف والدنف، والوحد والوحد، والفرد والفرد وقيل: الحرج الاثم والحرج الضيق الشديد.

ومن قرأ " يصعد " من الصعود، فالمعنى أنه في نفوره عن الاسلام، وثقله عليه بمنزلة من تكلف مالا يطيقه، كما أن صعود السماء لا يستطاع.

ومن قرأ " يصعد " بتشديد الصاد والعين بلا الف أراد يتصعد فادغم.

والمعنى كأنه يتكلف ما يتقل عليه. وكأنه تكلف شيئا بعد شيء كقولك يتصرف ويتحرج وغير ذلك مما يتعاطى فيه الفعل شيئا بعد شيء ويصاعد مثل يصعد ومثل ضاعف وضعف وناعم ونعم.

والضمير في قوله " يشرح صدره للاسلام " يحتمل ان يكون راجعا إلى (من) وتقديره ان المهدي يشرح صدر نفسه، وهو جيد ويكون تقديره: من أراد الله أن يثيبه ويهديه إلى طريق الجنة فليطعه. ومن أراد ان يعاقبه فليعصه فالارادة واقعة على فعل العبد بقلبه بالاحراج والضيق. ويقوي ذلك قوله " من كفر بالله من بعد ايمانه الامن اكراه وقلبه مطمئن بالايمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله " (١) فان الطمأنينة إلى الايمان فعلهم

(٢٦٥)

لامحالة، لانه ايمان. ثم نسب تعالى شرح صدورهم بالكفر اليهم.
والثاني - أن يكون الضمير فيه عائداً أبداً إلى اسم الله تعالى وهو الاقوى لقوله " أفمن شرح
الله صدره للاسلام " وقوله " ألم نشرح لك صدرك " (٢)
وكذلك يكون الضمير في قوله " يشرح صدره للاسلام " عائداً لاسم الله تعالى.
والمعنى ان الفعل مستند إلى اسم الله في اللفظ وفي المعنى للمشروح صدره، وانما نسبه إلى
ضمير اسم الله لانه بقدرته كان وتوفيقه، كما قال " ومارميت اذ رميت ولكن الله رمى " (٣)
ويدل على ان المعنى لفاعل الايمان اسناد هذا الفعل إلى الكافر في قوله " ولكن من شرح
بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله " فكما اسند الفعل إلى فاعل الكفر كذلك يكون اسناده في
المعنى إلى فاعل الايمان، ومعنى شرح الصدر اتساعه للايمان أو الكفر وأنقياده له وسهولته
عليه، بدلالة وصف خلاف المؤمن بخلاف الشرح الذي هو اتساع.
وقوله " ومن يرد أن يصله " يعني يعاقبه أو يعدل به عن طريق الجنة يجعل صدره ضيقا
حرجا كأنما يفعل ما يعجز عنه ولايستطيعه لثقله عليه وتكاؤده عليه.
وقوله " يصعد " و" يصاعد من المشقة وصعوبة الشئ. ومن ذلك قوله " يسلكه " عذابا صعداً "
(٤) وقوله " سأرهقه صعودا " (٥) اي سأغشيه عذابا صعودا أي شاقا. ومن ذلك قول عمر:
مايصعدني شئ كما يصعدني خطبة النكاح أي مايشق علي مشقتها، فكان معنى يصعد يتكلف
مشقة في ارتقاء صعودا. وعلى هذا قالوا: عقبة عنوت وعتوت، وعقبة كؤد، ولايكون السماء
في هذا الموضع - على هذا القول - هي المظلة للارض لكن كما قال سيبويه: القيدود الطويل
في غير سمائه يريد في غير ارتفاع صعدا، ومثله " قد نرى تقلب وجهك في السماء " (٦)
واما قوله " يجعل صدره ضيقا " حرجا "

(٢) سورة ٩٤ الانشراح آية ١ (٣) سورة ٨ الانفال آية ١٧.

(٤) سورة ٧٢ الجن آية ١٧ (٥) سورة ٧٤ المدثر آية ١٧ (٦) سورة ٢ البقرة آية ١٤٤

(٢٦٦)

فانه يحتمل امرين:

احدهما - التسمية كقوله " وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا " (٧) اي سموهم بذلك
فالذلك يسمى القلب ضيقا لمحاولته الايمان وحرجا عنه والآخر - الحكم كقولهم اجعل البصرة
بغداد، وجعلت حسني قبيحا أي حكمت بذلك ولايكون هذا من الجعل الذي يراد به الخلق

والذي يراد به الالتقاء كقولك جعلت متاعك بعضه على بعض. وقوله " ويجعل الخبيث بعضه على بعض " (٨)

وقيل في معنى الهداية والاضلال في الاية قولان:

احدهما أنه يريد بالهدى تسهيل السبيل إلى الاسلام بالدلائل التي يشرح بها الصدر، والاضلال تصعيب السبيل اليه بالدلائل التي يضيق بها الصدر، لان حاله أوجبت تغليظ المحنة عليه من غير أن يكون هناك مانع له ولاتدبير غيره أولى منه، وانما هو حض على الاجتهاد في طلب الحق حتى ينشرح بالدلائل الصدر، ولايضيق بدعائها إلى خلاف ماسبق من العقد، والهدى إلى ماطلبه طالب الحق، والاضلال عما طلبه طالب تأكيد الكفر.

والثاني - ان يراد بالهداية الهداية إلى الثواب وبالاضلال الاضلال عن الثواب والسلوك به إلى العقاب، ويكون التقدير من يرد الله أن يهديه للثواب في الاخرة فيشرح صدره للاسلام في الدنيا بأن يفعل له اللطف الذي يختار عنده الاسلام، ومن يرد أن يعاقبه ويعدل به عن الثواب إلى النار يجعل صدره ضيقا حرجا بما سبق من سوء اختياره الكفر جزاء على فعله ويخذله ويخلي بينه وبين مايريده من الكفر أو يحكم على قلبه بالضيق والحرج، أو يسميه بذلك على مافسرناه. وهذا الاضلال لا يكون الامستحقا كما أن تلك الهداية لا تكون الا مستحقة، وقد سمى الله تعالى الثواب هداية في قوله " الحمد لله

(٧) سورة ٤٣ الزخرف آية ١٩ (٨) سورة ٨ الانفال آية ٣٨

(٢٦٧)

الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لول أن هدانا الله " (١) وقال " والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم، سيهديهم ويصلح بالهم " (٢) والهداية بعد القتل انما هي الثواب في الجنة، وقال تعالى " والذين اهتدوا زادهم هدى " (٣)

وقال " ومن يؤمن بالله يهد قلبه " (٤) وقال يهدي به الله من اتبع رضوانه " (٥)

وقال " والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا " (٦) وكل ذلك يراد به الثواب وقد سمى العقاب ضلال في قوله " ويضل الله الظالمين " (٧) وقوله " وما يضل به الا الفاسقين " (٨) وهذه الجملة معنى قول أبي علي الجبائي والبلخي، والاول قول الرمانى وقيل أيضا: انما يشرح قلب المؤمن بالآيات والدلائل لكونه طالب للحق، ولم يفعل ذلك بالكافر لكونه طالبا لتأكيد الكفر وفي هذا الوجه حض على طلب الحق.

والحرج الضيق الشديد، وقال ابن عباس: أصله الحرجة، وهي الشجرة الملتفة بالشجر حولها، فلا يصل إليها الراعي، فكذا قلب هذا لا يصل إليه خير - في قول عمر - وقال ابن عباس لا يصل إليه حكمة.

وقوله " كأنما يصعد في السماء " قيل في معناه قولان:

أحدهما - كأنما كلف الصعود إلى السماء بالدليل الذي يدعوه إلى خلاف مذهبه. وقال سعيد بن جبير: كأنه لا يجد مسلكا الاصعدا.

والثاني - كأنما ينزع قلبه إلى السماء نبوا عن الحق بأن يتباعد في الهرب.

وفي معنى الرجس قولان:

أحدهما - قال مجاهد: كلما لاخير فيه. وقال ابن زيد وغيره من أهل اللغة: هو العذاب. ويقال الرجس والنجس لما كان رجسا، ولقد رجس رجاسة ونجس نجاسة. ووجه التشبيه في قوله " كذلك يجعل الله الرجس على

(١) سورة ٧ الاعراف آية ٤٢ (٢) سورة ٤٧ محمد آية ٤ - ٥ (٣) سورة ٤٧ محمد آية ١٧ (٤) سورة ٦٤ التغابن آية ١١ (٥) سورة ٥ المائدة آية ١٨ (٦) سورة ٢٩ العنكبوت آية ٦٩ (٧) سورة ١٤ ابراهيم آية ٢٧ (٨) سورة ٢ البقرة آية ٢٦

(٢٦٨)

الذين لا يؤمنون " أنه يجعل الرجس على هؤلاء كما يجعل ضيق الصدر في قلوب أولئك وان كل ذلك على وجه الاستحقاق. ولا يجوز أن يكون المراد بالآية ان الله تعالى يجعل سبب الايمان الذي يكون به الايمان، وسبب الكفر الذي يكون به الكفر، وانهما جميعا من فعل الله على مايقوله المجرى، وذلك أن الله تعالى أنزل القرآن حجة له على عباده، لا حجة للعباد عليه، فلو كان كما قالوه لكانت الحجة عليه لاله على انه لا يجوز أن يكون في كلام الله تعالى مناقضة، وقد ذكره الله تعالى في مواضع أنه هدى للكفار نحو قوله " وأما ثمود فهديناهم فاستحقوا العمى على الهدى " (١) وقال " وهدينا النجدين فلا اقتحم العقبة " (٢) وقال " وامنع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى " (٣) وقال " قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها " (٤) فبين بجميع ذلك انه تعالى هدى الكفار كما هدى المؤمنين، فكيف ينفي ذلك في موضع آخر، وهل ذلك الا مناقضة وكلام الله منزه عنها؟! ومتى حملنا الايات على ماقلناه ووقفنا بينها لم يؤد إلى المناقضة ولاالتضاد، ويقوي ذلك ان الله اخبر انه يجعل قلب الكافر ضيقا حرجا ونحن نجد كثيرا من الكفار غير ضيقي الصدر بماهم فيه من الكفر بل هم في غاية السرور والفرح بذلك، فكيف يقال ان الله تعالى ضيق صدورهم بالكفر؟

! ولا يلزمنا ذلك اذا قلنا ان الله يفعل ذلك بهم على وجه العقوبة لانه تعالى اذا كان يفعل بهم ذلك عقوبة يجوز أن يفعل بهم ذلك اذا أراد عقابهم لافي جميع الاحوال، ولا يلزم ان يجدوا نفوسهم على ذلك في كل وقت. وأيضا فان سبب القبيح لا يكون الا قبيحا فعلى هذا سبب الكفر يجب ان يكون قبيحا، لانه موجب له لا يصلح لصدده من الايمان، لانه لو صلح لذلك لم يكن سببا، والله تعالى لا يفعل

(١) سورة ٤١ حم السجدة آية ١٧ (٢) سورة ٩٠ البلد آية ١٠ - ١١ (٣) سورة ١٧ الاسرى آية ٩٤ وسورة ١٨ الكهف آية ٥٦ (٤) سورة ٦ الانعام آية ١٠٤

(٢٦٩)

القبيح. وانما ذكر الله ضيق صدر الكافر، وهو مما يصح ان يدعا به إلى الايمان في بعض الاحوال، كما يصح ان يدعا بانشرحه في غير تلك الحال. ويقوي ما قلناه قوله " كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون " وانما أريد بذلك ما يفعله بهم من العقاب والبراءة واللعنة والشتم والاسماء القبيحة مع ما أعد لهم من العقاب. وقال الحسن: معناه انه يكون مقبول الايمان منشرح الصدر، ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقا حرجا، ومعناه انه يتقل عليه ما يدعا اليه من الايمان كانما يصعد إلى السماء، فبذلك صار ضيق الصدر عن الايمان. " ويجعل الله الرجس " يعني رجاسة الكفر على الذين لا يؤمنون. ووجه آخر في الآية، وهو أن نحملها على التقديم والتأخير كأنه قال: من يشرح الله صدره للاسلام يرد الله أن يهديه، ومن يجعل صدره ضيقا حرجا يرد الله أن يضلّه. ووجه آخر وهو أن يكون الله تعالى لمادعاهم إلى الايمان وأمرهم ففعلوه انشرح صدورهم، فنسب شرح ذلك إلى الله تعالى، ولما ضاقت صدور الكفار عند دعاء الله واقامة الحجج عليهم وامره اياهم بذلك فضلوا عند ذلك، صح ان ينسب اضلالهم اليه، كما يقولون: أضل فلان بغيره اذا ضل عنه، وهو لم يرد ذلك. واللام في قوله " للاسلام " يحتمل أمرين:

احدهما - أن يكون الله تعالى هداه بالالطاف التي ينشرح بها صدره للتمسك بالاسلام والاستبصار فيه، ولا يكون فعل ذلك بالكفار وان لم يخل بينهم وبين الايمان ولا منعهم منه، لانه تعالى قد اعطى الكافر الصحة والسلامة والقوة، وجميع ما يتمكن به من فعل ما أمره به، وانما لم يفعل بهم اللطف الذي يؤمنون عنده، لانهم لم يعدلوا عن النظر في آيات الله وحججه خرجوا من أن يكون لهم لطف يختارون عنده الايمان وصاروا مخذولين،

(٢٧٠)

فخلى الله تعالى بينهم وبين اختيارهم، فعبر عن ذلك بأنه جعل صدر الكافر ضيقاً حرجاً. والثاني - ان يكون اللام بمعنى لاجل الشئ وبسببه كما يقول القائل: انما قلت هذا الكلام لزيد ولمراعات عمرو، المعنى من أجله وبسببه، فيكون المعنى انه شرح صدره من أجل الاسلام، لانه فعل اسلاما استحق به شرح الصدر. قوله تعالى:

وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الايات لقوم يذكرون (١٢٦) لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بماكانوا يعملون (١٢٧) آيتان بلا خلاف.

الاشارة بقوله " وهذا صراط ربك مستقيماً " يمكن ان تكون إلى أحد شيئين:

احدهما - ماقال ابن عباس: انه راجع إلى الاسلام.

والثاني - أن تكون اشارة إلى البيان الذي في القرآن، وأضيف الصراط إلى الله في قوله " صراط ربك مستقيماً " لانه لماكانت الاضافة فيه انماهي على أنه الذي نصبه ودل به، وغلب عليه الاستعمال. ولم يجز قياساً على ذلك ان يقال: هذا طريق ربك، لانه لم تجر العادة باستعماله كما انهم استعملوا قولهم: هذا في سبيل الله، ولم يقولوا في طريق الله، لماقلناه. وقوله " مستقيماً " نصب على الحال ومعناه الذي لا اعوجاج فيه.

فان قيل كيف يقال: انه مستقيم مع اختلاف وجوه الادلة؟! قلنا: لانها مع اختلافها يؤدي كل واحد منها إلى الحق، وكأنها طريق واحد لسلامة جميعها من التناقض والفساد، وكلها تؤدي من تمسك بها إلى الثواب وقوله " قد فصلنا الايات " أي بينها " لقوم يذكرون " وانما أعيد ذكر تفصيل الايات للاشعار بأن هذا الذي تقدم من الايات التي فصلها الله عز

(٢٧١)

وجل للعباد. وقوله " يذكرون " أصله يتذكرون فقلبت التاء ذالا وأدغمت الاولى في الثانية، ولم يجز قلب الذال إلى الدال كما جازفي " فهل من مدكر " (١)

لانهم لما لم يجيزوا ادغام التاء في الدال، لانها أفضل منها بالجهر، قلبت إلى الدال لتعديل الحروف وليس كذلك ادغام التاء في الذال. وانماخص الايات بقوم يتذكرون لانهم المنتفعون بها وان كانت آيات لغيرهم، كما قال " هدى للمتقين " وفي الاية دلالة على بطلان قول من قال: المعارف ضرورية لانها لو كانت ضرورية لم يكن لتفصيل الايات ليتذكر بها فائدة.

وقوله " لهم دار السلام " هذه لام الاضافة وانما فتحت مع المضمرة وكسرت مع الظاهر لامرين:

أحدهما - طلبا للتخفيف، لان الاضرار موضع تخفيف، وفتحت في الاستغاثة في (يال بكر) تشبيها بالكناية، ولانه موضع تخفيف بالترخيم وحذف التنوين.
والثاني - أن اصلها الفتح، وانما كسرت مع الظاهر للفرق بينها وبين لام الابتداء.
وقيل في معنا " السلام " ههنا قولان:
أحدهما - قال الحسن والسدي: انه الله وداره الجنة.
والثاني - قال الزجاج والجبائي: انها دار السلامة الدائمة من كل آفة وبليّة.
وقوله " عند ربهم " قيل في معناه قولان:
أحدهما - مضمون عند ربهم حتى يوصله اليهم.
الثاني - في الآخرة يعطيهم اياه.
وقوله " وهو وليهم " يعني الله. وفي معنى (الولي) قولان:
أحدهما - انه يتولى ايصال المنافع اليهم ودفع المضار عنهم.

(١) سورة ٥٤ القمر آية ١٥، ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠، ٥١

(٢٧٢)

الثاني - ناصرهم على اعدائهم.
وقوله " بماكانوا يعملون " يعني جزاء باعمالهم، وهو وان كان مطلقا فالمراد بماكانوا يعملونه من الطاعات، لان من المعلوم ان مالم يكن طاعة فلا ثواب عليه. ويجوز ايضا ان يكون مقيدا لدلالة قوله " يذكرون " عليه.
والموعود بهذا الوعد المتذكر لايات الله بحقها، وهو العامل بها.
قوله تعالى:
ويوم يحشرهم جميعا يامعشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال اولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثويكم خالدين فيها إلا ماشاء الله إن ربك حكيم عليم (١٢٨)
آية بلاخلاف.
قرأ حفص وروح " ويوم يحشرهم " بالياء. الباقر بالنون.
من قرأ بالياء فلقوله " لهم دار السلام عند ربهم. ويوم يشحروهم " والنون كالياء في المعنى، ويقوي النون قوله " وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا " (١) وقوله " ونحشره يوم القيامة أعمى " (٢) والذي يتعلق به (اليوم) هذا القول المضمّر. والمعنى ويوم نحشرهم جميعا نقول " يامعشر الجن قد استكثرتم من الانس " أي قد استكثرتم ممن أضللتموه من الانس بالاغواء والاضلال.

قال ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد: معناه استكثرتم من اغوائهم واضلالهم " وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض ".
وقيل في وجه الاستمتاع من بعضهم؟؟ قولان:

(١) سورة ١٨ الكهف آية ٤٨ (٢) سورة ٢٠ طه آية ١٢٤

(٢٧٣)

احدهما - بتزيين الامور التي يهونها حتى يسهل عليهم فعلها.
والثاني - قال الحسن وابن جريج والزجاج والفراء وغيرهم: انه اذا كان الرجل أراد ان يسافر فيخاف سلوك طريق من الجن فيقول: اعوذ بسيد هذا الوادي، ثم يسلك فلا يخاف، كما قال تعالى " وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا " (٣) ووجه استمتاع الجن بالانس أنهم اذا اعتقدوا ان الانس يتعذون بهم، ويعتقدون انهم ينفعونهم ويضرونهم أو أنهم يقبلون منهم إذا أغوهم كان في ذلك تعظيم لهم وسرور ونفع، ذكر ذلك الزجاج والبلخي والرماني. وقال البلخي: ويحتمل ان يكون قوله " استمتع بعضنا ببعض " مقصورا على الانس، فكان الانس استمتع بعضهم ببعض دون الجن.
وقوله " بلغنا أجلنا الذي أجلت لنا " قيل في معناه قولان:

احدهما - قال الحسن والسدي: انه الموت.

الثاني - الحشر، لان كل واحد منهما اجل في الحكم، فالموت اجل استدراك ماضى، والحشر أجل الجزاء. وقال ابوعلي: في الاية دلالة على انه لاجل الا واحد، قال لانه لو كان له اجلان فكان اذا اقتطع دونه بأنه قتل ظلما لم يكن بلغ اجله، والاية تتضمن انهم اجمع يقولون: بلغنا اجلنا الذي اجلت لنا. وقال الرماني وغيره من البغداديين: لاتدل على ذلك، بل لايمتنع ان يكون له أجلان: احدهما مايقع فيه الموت، والاخر ما يقع فيه الحشر، وماكان يجوز أن يعيش اليه.

وقوله " قال النار مثواكم " جواب من الله تعالى لهم بأن النار مثواهم، وهو المقام، يقال: ثوى يثوي ثواء، قال الشاعر:

لقد كان في حول ثواء ثويته * تقضي لياتات ويسأم سائم (٤)

ومعنى الاية التفرغ للغواة من الجن والانس مع إعترافهم بالخطيئة في

(٣) سورة ٧٢ الجن آية ٦ (٤) قائله الاعشى ديوانه: ٥٦ وسيبويه ١ / ١٢٣، وتأويل مشكل القرآن: ٥٩.

(٢٧٤)

وقت لاينفعهم الندم على ماسلف، وخاصة اذا كان الجواب لهم بأن مثواهم النار " خالدين فيها " أي مؤبدين فيها، وهونصب على الحال.

وقوله " الاماشاء الله " قيل في معنى هذا الاستثناء ثلاثة اقوال:

احدها - " الاماشاء الله " من الفائت قبل ذلك من الاستحقاق من وقت الحشر إلى زمان المعاقبة، وتقديره: خالدين فيها على مقادير الاستحقاق الا ماشاء الله من الفائت قبل ذلك، لان مافات يجوز اسقاطه بالعفو عنه. والفائت من الثواب لايجوز تركه، لانه بخص لحقه، ذكره الرماني والبخي والطبري والزجاج والجبائي.

الثاني - " الاماشاء الله " من تجديد الخلود بعد احتراقهم وتصريفهم في انواع العذاب فيها، والتقدير خالدين فيها على صفة واحدة الاماشاء الله من هذه الامور.

الثالث - ماكي عن ابن عباس، حكاه الرماني والطبري عنه أنه قال:

هذه الاية توجب الوقف في جميع الكفار، فانه ذهب إلى ان وعيدهم بالقطع يدل عليه فيما بعد، وهو قوله " ان الله لا يغفر ان يشرك به " (١) وقال قوم:

معنى (ما) (من) وتقديره الامن شاء الله اخراجه من النار من المؤمنين الذين لهم ثواب بعد استيفاء عقابهم.

وقوله " ان ربك حكيم عليم " أي هو حكيم فيما يفعله من جزائهم.

وعالم بذلك وبغيره من المعلومات لا يخفى عليه شئ منها.

قوله تعالى:

وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون (١٢٩) آية بلاخلاف.

قيل في معنى قوله " نولي بعض الظالمين بعضا " قولان:

(١) سورة ٤ النساء آية ٤٧، ١١٥.

(٢٧٥)

احدهما - انا نكل بعضهم إلى بعض في النصره والمعونه في الحاجه، ولا نحول بينهم.

الثاني - نجعل بعضهم يتولى القيام بأمر بعض.

وقيل في كيفية تولية الله الظالمين بعضهم بعضا أقوال:

أحدها - بأن حكم ان بعضهم يتولى بعضا فيما يعود عليه بالوبال من الاعمال التي يتفقون عليها.

الثاني - بأن يخلي بينهم وبين ما يختارونه من غير نصره لهم.

وثالثها - مقال قتادة: انه من الموالات والتتابع في النار، أي يدخل بعضهم عقيب بعض. ووجه التشبيه في قوله " وكذلك " قال الرماني: اي كذلك المهل بتخلية بعضهم مع بعض للامتحان الذي معه يصح الجزاء على الاعمال، بجعل بعضهم يتولى أمر بعض للعقاب الذي يجري على الاستحقاق. وقال الجبائي: المعنى إنا كما وكلنا هؤلاء الظالمين من الجن والانس بعضهم إلى بعض يوم القيامة وتبرأنا منهم كذلك نكل الظالمين بعضهم إلى بعض يوم القيامة ونكل الاتباع إلى المتبوعين، ونقول للاتباع قولوا للمتبوعين حتى يخلصوكم من العذاب. والغرض بذلك اعلامهم انه ليس لهم يوم القيامة ولي يدفع عنهم شيئاً من العذاب. وقال غيره: لما حكى الله تعالى مايجري بين الجن والانس من الخصام والجدال في الاخرة، قال الله لهم: النار مثواكم. ثم قال " وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً " أي كما فعلنا بهؤلاء من الجمع بينهم في النار وتولية بعضهم بعضاً وجعل بعضهم أولى ببعض، نفعل مثله بالظالمين جزاء على أعمالهم.

والفرق بين (ذلك) و (ذاك) أن زيادة اللام في (ذلك) قامت مقام هاء التثنية التي تدخل في ذاك فتقول هناك ولاتقول هنالك. ولايجوز إمالة (ذلك) لان (ذا) بمنزلة الحرف، والاصل في الحروف ألا تمال، لان التصريف انما هو للافعال والاسماء.

(٢٧٦)

وقوله " بماكانوا يكسبون " معناه بماكانوا يكسبونه من المعاصي وان مايفعله بهم من العقاب جزاء على أعمالهم القبيحة. قوله تعالى:

يامعشر الجن والانس ألم ياتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين (١٣٠) آية بلاخلاف.

أخبر الله تعالى انه يخاطب الجن والانس يوم القيامة بأن يقول " يامعشر الجن والانس " والمعشر الجماعة. والفرق بينه وبين المجمع: أن المعشر يقع عليهم هذا الاسم مجتمعين كانوا او مفترقين كالعشيرة، وليس كذلك المجمع، لانه مأخوذ من الجمع. والجن مشتق الاجتنان عن العيون وهو اسم علم لجنس مما يعقل متميز عن جنس الانسان والملك. والانس هم البشر. وقوله " ألم يأتكم رسل منكم " احتجاج عليهم بأن الله بعث اليهم الرسل إعدارا واندارا وتأكيدا للحجة عليهم، ولا بد أن يكون خطابا لمن بعث الله اليهم الرسل، فأما اول الرسل فلا يمكن ان يكونوا داخلين فيه، لانه كان يؤدي إلى مالا نهاية لهم من الرسل وذلك محال.

وقوله " منكم " وان كان خطابا لجميعهم، الرسل من الانس خاصة، فانه يحتمل ان يكون لتغليب احدهما على الاخر، كما يغلب المذكر على المؤنث، وكما قال " يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان " بعد قوله " مرج البحرين يلتقيان " (١) وانما يخرج اللؤلؤ من الملح دون العذب. وكقولهم أكلت خيزا ولبنا وانما شرب اللبن. وكما يقولون: في هذه الدار سرو، وانما هو في بعضها. وهذا

(١) سورة ٥٥ الرحمن آية ١٩

(٢٧٧)

قول أكثر المفسرين: منهم ابن جريج والفراء والزجاج والرماني والبلخي والطبري. وروي عن ابن عباس انه قال: هم رسل الانس إلى غيرهم من الجن كما قال تعالى " ولوا إلى قومهم منذرين " (٢). وقال الضحاك: ذلك يدل على انه تعالى ارسل سلا من الجن. وبه قال الطبري واختاره البلخي أيضا، وهو الاقوى. وقال الجبائي والحسين بن علي المغربي: المعنى " ألم يأتكم " يعني معشر المكلفين والمخلوقين " رسل منكم " يعني من المكلفين. وهذا اخبار وحكاية عما يقال لهم في وقت حضورهم في الآخرة، وليس بخطاب لهم في دار الدنيا، وهم غير حضور، فيكون قبيحا، بل هو حكاية على ما قلناه. وقوله " يقصون عليكم آياتي " مثل يتلون عليكم دلائلي وبياناتي " وينذرونكم " يعني يخوفونكم " لقاء يومكم هذا " يعني لقاء ما تستحقونه من العقاب في هذا اليوم وحصولكم فيه. ثم أخبر تعالى عنهم انهم يشهدون على أنفسهم بالاعتراف بذلك والاقرار بأن الحياة الدنيا غرتهم، ويشهدون أيضا بانهم كانوا كافرين في دار الدنيا، فلذلك كرر الشهادة.

ومعنى غرتهم الحياة الدنيا أي غرتهم زينة الدنيا ولذتها وما يرون من زخرفها وبهجتها. واستدل بهذه الآية قوم على ان الله لا يجوز ان يعاقب الا بعد ان يرسل الرسل، وان التكليف لا يصح من دون ذلك، وهذا ينتقض بما قلناه من اول الرسل، وانه صح تكليفهم وان لم يكن لهم رسل، فالظاهر مخصوص بمن علم الله ان الشرع مصلحة له، فان الله لا يعاقبهم الا بعد ان يرسل اليهم الرسل ويقم عليهم الحجة بتعريفهم مصالحهم، فاذا خالفوا بعد ذلك استحقوا العقاب.

(٢) سورة ٤٦ الاحقاف آية ٢٩

(٢٧٨)

قوله تعالى:

ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون (١٣١) آية بلاخلاف.

موضع (ذلك) من الاعراب يحتمل أمرين:

أحدهما - أن يكون رفعا كأنه قال: الامر ذلك، لانه لم يكن (ذلك)

إشارة إلى ماتقدم ذكره من العقاب والجواب بأن مثواهم النار.

والثاني - ان يكون نصبا، وتقديره فعلناه ذلك لهذا.

وانما جازت الاشارة بذلك إلى غير حاضر لان ماضى صفة حاضرة للنفس فقام مقام

حضوره، ويجوز الاشارة إلى هذا الذي تقدم ذكره.

وقوله " ان لم يكن " ف (ان) هي المخففة من الثقيلة. والمعنى لانه لم يكن ومثلها التي في قول

الشاعر:

في فتية كسيوف الهند قد علموا * أن هالك كل من يحفي وينتعل (١)

ف (أن) المفتوحة لابد فيها من إضمار الهاء، لانه لامعنى لها في الابتداء وانما هي بمعنى

المصدر المبني على غيره. والمكسورة لاتحتاج إلى ذلك، لانهما يصح ان تكون حرفا من

حروف الابتداء فلا تحتاج إلى اضما ر.

وقوله " بظلم " قيل في معناه قولان:

أحدهما ما ذكره الفراء والجبائي: انه بظلم منه على غفلة من غير تنبيه وتذكير ومثله قوله "

وماكان ربك ليهلك القرى بظلم واهلها مصلحون " (٢).

الثاني - بظلم منهم حتى يبعث اليهم رسلا يزجرونهم ويذكرونهم على وجه الاستظهار في

الحجة دون ان يكون ذلك واجبا، لانهم بما فعلوه من الظلم

(١) قائله الاعشى ديوانه: ٤٥ القصيدة ٦ وروايته:

في فتية كسيوف الهند قد علموا أن ليس يدفع عن ذوي الحيلة الحيل (٢) سورة ١١ هود آية ١١٨.

(٢٧٩)

قد اسحقوا العقاب.

ومن استدل بذلك على انه لا يحسن العقاب الا بعد انفاذ الرسل، فقد أجبنا عن قوله في الاية

الاولى.

قوله تعالى:

ولكل درجات مما عملوا وماربك بغافل عما يعملون (١٣٢) آية بلاخلاف.

قرأين عامر " عما تعملون " بالتاء. الباؤون بالياء.

ومن قرأ بالياء حملة على الغيبة. ومن قرأ بالتاء حملة على الخطاب للمواجهة. وفي الآية حذف وتقديرها، ولكل عامل بطاعة الله او معصيته منازل من عمله حتى يجازيه ان خيرا فخييرا، وان شرا فشرا. وماتقدم من ذكر الغافلين يدل على هذا الحذف. و (قبل. وبعد) بنيتا عند حذف المضاف في مثل قوله " الله الامر من قبل ومن بعد " (٣) لانهما في حال الاعراب لم يكونا على التمكن التام، لانه لا يدخلهما الرفع في تلك الحال، فلما انضاف إلى هذا النقصان من التمكن بحذف المضاف اليه أخرجا إلى البناء، وليس كذلك (كل) فاته متمكن على كل حال ولذلك لم يبين.

و (الدرجات) يحتمل أمرين: احدهما - الجزاء. والثاني - الاعمال فاذا وجهت إلى الجزاء كان تقديره: ولكل درجات جزاء من اجل ما عملوا، واذا حمل على الاعمال كان تقديره: ولكل درجات أعمال من اعمالهم. وانما مثل الاعمال بالدرجات ليبين انه وان عم احد قسميها صفة الحسن، وعم الاخر صفة القبيح، فليست في المراتب سواء، وانه بحسب ذلك يقع الجزاء، فالاعظم من العقاب للاعظم من المعاصي، والاعظم من الثواب للاعظم من الطاعات.

(٣) سورة ٣٠ الروم آية ٤

(٢٨٠)

وقوله " وماربك بغافل عما يعملون " انما ذكره ليعلموا انه لا يفوته شئ منهما ولا من مراتبهما حتى يجازي عليه بما يستحق من الجزاء، وفيه تنبيه وتذكير للخلق في كل امورهم. والغفلة ذهاب المعنى عن يصح ان يدركه. والغفلة عن المعنى والسهو عنه والغروب عنه نظائر، وضد الغفلة اليقظة، وضد السهو الذكر، وضد الغروب الحضور. قوله تعالى:

وربك الغني ذو الرحمة إن يشا يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين (١٣٣)
آية بلاخلاف.

اخبر الله تعالى في هذه الآية بأنه الغني. والغني هو الحي الذي ليس بمحتاج. والغني عن الشئ هو الذي يكون وجود الشئ وعدمه وصحته وفساده عنده بمنزلة واحدة، في انه ولا يلحقه صفة نقص. و " ذو الرحمة " يعني صاحب الرحمة، وهو تعالى بهذه الصفة لرحمته بعباده.

ثم اخبره عن قدرته وانه لو شاء ان يذهب الخلق بأن يميتهم ويهلكهم ويستخلف من بعدهم ما يشاء بان ينشئ بعد هلاكهم كما أنشأهم في الاول من ذرية من تقدمهم. وكذلك ينشئ قوما آخرين من نسلهم وذريتهم، والجواب محذوف والكاف في (كما) في موضع نصب وتقديره

ويستخلف من بعدكم مايشاء مثل ما استخلفكم. وفي ذلك دلالة على انه يصح القدرة على ما علم انه لا يكون لانه بين انه لو شاء لذهب بهم وأتى بقوم آخرين ولم يفعل ذلك، فدل ذلك على انه يقدر على ما يعلم انه لا يفعله.

و (من) في قوله " ويستخلف من بعدكم " للبدل كقولك: اعطيتك من

(٢٨١)

دينارك ثوبا اي مكان دينارك وبدله، ومعنى (من) في قوله " كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين " ابتداء الغاية لان التقدير، ان ابتداء غايتكم من قوم آخرين وقيل في وزن " ذرية " ثلاثة أقوال: اولها - فعلية من الذر. الثاني - فعيلة على وزن خليفة من ذرأ الخلق يذراًهم. الثالث - فعولة من (ذروة) الا أن الهمزة ابدلت واوا، ثم قلبت ياء، فيكون بمنزلة عليّة من علوة. وقرئ في الشواذ (ذرية) بكسر الذال وهما لغتان.

وانشأ الله الخلق اذا خلقه وابتدأه وكل من ابتدأ شيئاً فقد انشأه. ومنه قولهم: انشأ فلان قصيدة، والانشأة الاحداث من الاولاد، واحدها ناشئ مثل خادم وخدم، ويقال للجواري أنشاء، وللذكور نشاء، قال نصيب:

ولولا أن يقال صبا نصيب * لقلت بنفسي النشأ الصغار (١)

ويقال لهذا السحاب نشؤ حسن، وهو اول ظهوره في السماء.

قوله تعالى:

إن ماتوعدون لات وماأنتم بمعجزين (١٣٤)

آية بلاخلاف.

اخبر الله تعالى في هذه الاية ان الذي أوعد الخلق به من عقابه على معاصيه والكفر به واقع بهم لان (ما) في قوله " انما " بمعنى الذي، وليست كافة مثل قولك: انما قام زيد، لان خبرها جاء بعدها، وهو قوله " لات وهي في موضع نصب، والجنس في موضع رفع، والكافة لاخبر لها، واللام في قوله (للات) لام الابتداء ولايجوز ان تكون لام القسم، لان لام القسم لاتدخل على الاسماء ولاالافعال المضارعة الاأن تكون معها النون الثقيلة، ولاتعلق الفعل في (علمت ان زيدا ليقومن).

(١) اللسان (نشأ) النشأ: الشباب او الشبابات.

(٢٨٢)

ومعنى "توعدون" من الإيعاد بالعقاب يقال: أوعدته أو وعده إيعادا، وقال الحسن: إنما توعدون من مجئ الساعة، لأنهم كانوا يكذبون بالبعث، فعلى هذا يجوز أن يكون المصدر الوعد لاختلاط الخير والشر، فيكون على التغليب إذ مجئ الساعة خير للمؤمنين وشر على الكافرين. وقال الجبائي: إن معناه "إن ماتوعدون" من الثواب والعقاب، فإن الله يأتي به. وقوله "وما أنتم بمعجزين" أي لستم معجزين الله عن الاتيان بالبعث والعقاب، وإنما قيل ذلك لأن من يعبد الوثن يتوهم أنه ينفعه في صرف المكروه عنه جهلا منه ووضعاً للامر في غير موضعه. وإيضاً فإنهم يعملون عمل من كان يفوته العقاب لتأخره عنه وطول السلامة بالامهال فيه.

قوله تعالى:

قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون (١٣٥)

آية بلاخلاف.

قرأ أبو بكر "مكاناتكم" على الجمع. الباقر على التوحيد، وقرأ حمزة والكسائي يكون بالياء. الباقر بالتاء المعجمة من فوق. ومن قرأ بالياء فلان المصدر المؤنث يجوز تأنيثه على اللفظ وتذكيره على المعنى. ومن قرأ بالتاء فعلى اللفظ، فمما جاء منها على اللفظ قوله "فأخذتهم الصيحة" (١)

وقوله "قد جاءكم موعظة من ربكم" (٢) وعلى المعنى قوله "واخذ الذين

(١) سورة الحجر آية ٧٣، ٨٣ وسورة المؤمنون آية ٤١ (٢) سورة يونس آية ٥٧

(٢٨٣)

ظلموا الصيحة" (٣) وقوله "فمن جاءه موعظة" (٤). ومن وحد "مكانتكم" فلانه مصدر، والمصادر في الأكثر لاتجمع. ومن جمع فلانها قد تجمع كقولهم: الحلوم والاحلام. قال أبو عبيدة "مكانتكم" أي على حيالكم. وقال أبو زيد: رجل مكين عند السلطان من قوم مكنا، وقد مكن مكانة، كأنه قال: اعملوا على قدر منزلتكم وتمكنكم من الدنيا، فإنكم لن تضرونا بذلك شيئاً.

أمر الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) أن يخاطب المكلفين من قومه ويأمرهم بأن يعملوا على مكانتهم، والمكانة الطريقة يقال: هو يعمل على مكانته ومكينته أي طريقته وجهته. وقال ابن عباس والحسن: على ناحيتكم. وقال الجبائي:

على حالتكم. وقال الزجاج: يجوز ان يكون المراد على تمكنكم، وهذا وان كان صيغته صيغة الامر فالمراد به التهديد كما قال " اعملوا ماشئتم " (٥)
وانما جاء التهديد بصيغة الامر لشدة التحذير، أي لو امر بهذا لكان يجوز قبول أمره. ووجه آخر - هو ان التقدير " اعملوا على مكانتكم " ان رضيتم بالعقاب أي انكم في منزلة من يؤمر به ان رضيتم بالعقاب، فهذا على التباعد أن يقيموا عليه، كالتباعد أن يرضوا. ووجه ثالث هو ان الضرر يخص المقيم على المنكر، لان غيره بمنزلة الامن في انه لا يأمره بما يضره.
وقوله " اني عامل " إخبار من الرسول انه عامل بما امر الله تعالى به.
وقوله " فسوف تعلمون " فيه تهديد، ومعناه فسوف تعلمون جزاء اعمالكم.
وقوله " من تكون " يحتمل موضع (من) أمرين من الاعراب:
احدهما - الرفع وتقديره أينما يكون له عاقبة الدار.
والثاني - النصب بقوله " يعلمون " ويكون بمعنى الذي.

(٣) سورة ١١ هود آية ٦٧ (٤) سورة ٢ البقرة آية ٢٧٥ (٥) سورة ٤١ حم السجدة آية ٤٠

(٢٨٤)

وانما قال: ان عاقبة الدار للمؤمنين دون الكافرين وان كان الكفار أيضا لهم عاقبة من حيث يصيرون إلى العقاب المؤبد وهي للمؤمنين من حيث يصيرون إلى النعيم الدائم، كما يقول العرب: لهم الكرة، ولهم الحملة، لانه اذا فصل قيل: لهم وعلى اعدائهم.
وقوله " انه لايفلح الظالمون " أي لايفوز الظالمون بشئ من الثواب والمنافع، وانما لم يقل (الكافرون) وان كان الكلام في ذكرهم لانه أعم واكثر فائدة، ولانه اذا لم يفلح الظالم، فالكافر بذلك اولى، على ان الكافر يسمى ظالما فيجوز ان يكون عنى به انه لايفلح الظالمون الذين هم الكافرون، كما قال " والكافرون هم الظالمون " (٦) وقال (ان الشرك لظلم عظيم " (٧).
قوله تعالى:

وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فماكان لشركائهم فلا يصل إلى الله وماكان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء مايحكمون (١٣٦) آية بلاخلاف.

قرأ الكسائي " بزعمهم " بضم الزاي في الموضعين. الباقر بفتحها.
وفي الزعم ثلاث لغات: الفتح والضم، والكسر مثل فتك وفتك وفتك.
وقبل وقبل وقبل. وود وود وود. ولم يقرأ بالكسر احد. فالفتح لغة اهل الحجاز، والضم لغة تميم، والكسر لغة بعض بني قيس.

أخبر الله تعالى عن الكفار الذين تقدم وصفهم أنهم يجعلون شيئاً من أموالهم لله وشيئاً لشركائهم تقرباً إليهما، من جملة ما خلقه الله واخترعه، لأن الذرأ هو الخلق على وجه الاختراع، وأصله الظهور، ومنه ملح ذرأني

(٦) سورة ٢ البقرة آية ٢٥٤ (٧) سورة ٣١ لقمان آية ١٣

(٢٨٥)

وذرأني، لظهور بياضة. والذرة ظهور الشيب. قال الراجز:
وقد علتني ذرة بادي بدي * وريثة تنهض في تشددي (١)
يقال: ذرأ الله الخلق يذرأهم ذرءاً وذرءوا. ويقال: ذرئت لحيته ذرءاً اذا. ومنه طعنه فأذراه - غير مهموز - اذا ألقاه، وذرث الريح التراب تذروه ذرءوا اذا أبادته، وذروة كل شئ أعلاه. و (الحرث) الزرع و (الحرث) الارض التي تثار للزرع، ومنه حرثها يحرثها حرثاً، ومنه قوله " نساؤكم حرث لكم " (٢) لان المرأة للولد كالارض للزرع و (الانعام) المواشي من الابل والبقر والغنم، مأخوذ من نعمة الوطيء، ولا يقال لذوات الحافر: أنعام. وانما جعلوا الاوثان شركاءهم، لانهم جعلوا لها نصيباً من أموالهم ينفقونه عليها فشاركوها في نعمهم.

وقوله " فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم " قيل في معناه ثلاثة اقوال:

أحدها - قال ابن عباس وقتادة: انه اذا اختلط شئ مما جعلوه لاوثانهم بشئ مما جعلوه لله ردوه إلى ما لاوثانهم، واذا اختلط بشئ مما جعلوه لله لم يردوه إلى ما لله.

الثاني - قال الحسن والسدي: كان اذا هلك الذي لاوثانهم أخذوا بدله مما لله، ولا يفعلون مثل ذلك في ما لله (عزوجل).

الثالث - قال ابو علي: انهم كانوا يصرفون بعض ما جعلوه لله في النفقة على اوثانهم، ولا يفعلون مثل ذلك فيما جعلوه للاوثان.

وقوله " ساء ما يحكمون " فيه قولان: احدهما - قال الزجاج:

تقديره ساء الحكم حكمهم، فيكون على هذا موضع (ما) رفعاً. وقال * (تفسير الطبري ١٢ /

١٧ واللسان والتاج (ذرأ) (بدا)

(٢) سورة ٢ البقرة آية ٢٢٣

(٢٨٦)

الرماني: يجوز ان يكون موضع (ما) نصبا وتقديره ساء حكما حكمهم.
قوله تعالى:

وكذلك زين الكثير من المشركين قتل اولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم
ولولاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون (١٣٧) آية بلاخلاف.
قرأ ابن عامر وحده " زين لكثير من المشركين قتل اولادهم شركائهم " بضم الزاي، ونصب
(الاولاد) وخفض " شركائهم ". الباقيون بفتح الزاي، " قتل " مفتوح اللام " اولادهم بجر الدال "
شركاؤهم " بالرفع بالتزيين.

فوجه قراءة ابن عامر انه فرق بين المضاف والمضاف اليه بالمفعول.
والتقدير: قتل شركائهم اولادهم، وشركاؤهم فاعل القتل، وانما جربا للاضافة ومن اضاف القتل
إلى الاولاد في القراءة الاخرى يكون الاولاد في موضع النصب، وهو مفعول به بالقتل
وانشدوا فيه بيتا على الشذوذ أنشده بعض الحجازيين ذكره ابو الحسن:
فرجبتها بمزجة * زج القلوص أبي مزاده (١)

وذلك لايجوز عند اكثر النحويين لان القراءة لايجوز حملها على الشاذ القبيح، ولانه اذا
ضعف الفصل بالظرف حتى لم يجز الا في ضرورة الشعر كقول الشاعر:
كما خط الكتاب بكف يوما يهودي (٢)
فان لايجوز في المفعول به أجدر، ولم يكن بعد الضعف الا الامتناع.

(١) معاني القرآن ١ / ٣٥٨ وتفسير الطبري ١٢ / ١٣٨ وخزانة الادب ٢ / ٢٥١ (٢) قائله ابوحية النمري ألفية
ابن عقيل ٢ / ٦٨ والقرطبي ٧ / ١١١ وتمامه:
كما خط الكتاب بكف يوما * يهودي يقارب او يزل

(٢٨٧)

وقيل انما حمل ابن عامر على هذه القراءة انه وجد (شركائهم) في مصاحف اهل الشام بالياء
لا بالواو، وهذا يجوز فيه قتل اولادهم شركائهم على ايقاع الشرك للاولاد يعني شركائهم في
النعم وفي النسب وفي الاولاد، ولو قيل أيضا زين لكثير من المشركين قتل اولادهم شركاؤهم
على ذكر الفاعل بعد ما ذكر الفعل على طريقة مالم يسم فاعله جاز كما قال الشاعر:

ليبك يزيد ضارع لخصومة * ومختبط مما تطيح الطوائح (٢)

أي لبيكه ضارع. ومثله " يسبح له فيها بالغدو والاصال رجال " (٣)

وتقديره كأنه لما قال " زين لكثير من المشركين قتل اولادهم " قال قائل من زينه؟ قيل زينه شركاؤهم. وقال الفراء تكون " شركائهم " على لغة من قال في عشاء عشائي كما قال الشاعر:
إذا الثريا طلعت عشائيا * فبع لراعي غنم كسائيا
وابوالعباس يأبى هذا البيت، ويقول الرواية الصحيحة بالهمزة.
ووجه التشبيه في قوله " وكذلك زين " أنه كما جعل اولئك في الآية الاولى ماليس لهم كذلك زين هؤلاء ماليس لهم ان يزينوه. والشركاء الذين زينوا قتل الاولاد قيل فيهم خمسة اقوال:
احدها - قال الحسن ومجاهد والسدي: هم الشياطين زينوا لهم وأد البنات أحياء خوف الفقر والعار.

والثاني - قال الفراء والزجاج: هم قوم كانوا يخدمون الاوثان.

والثالث - انهم الغواة من الناس.

والرابع - قيل: شركاؤهم في نعمهم.

(٢) قائله نهشل بن حرى النهشلي، وقيل الحارث بن نهيك النهشلي. وقيل ضرار النهشلي، وقيل مرزرد. وقيل المهلهل. وقيل غير ذلك. شواهد العيني على الاشموني في حاشية الصبان ٢ / ٤٩ الشاهد ٧٥ وغيره.
(٣) سورة ٢٤ النور آية ٣٦

(٢٨٨)

والخامس - شركاؤهم في الاشرار.

وقوله " ليردوهم " فالارداء الاهلاك، تقول: أراده يرديه إرداء ورتدي يردي ردى اذا هلك، وتردي ترديا، ومنه قوله " ومايغني عنه ماله اذا تردى " (١) والمراد به الحجر يتردى من رأس جبل.

واللام في قوله " ليردوهم " قال قوم هي لام العاقبة، كما قال " فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا " (٢) لانهم لم يكونوا معاندين فيقصدوا أن يردهم ويلبسوا عليهم دينهم، هذا قول أبي علي. وقال غيره: يجوز ان يكون فيهم المعاند، ويكون ذلك على التغليب.

وقوله " ولو شاء الله ما فعلوه " معناه لو شاء ان يضطرهم إلى تركه، او لو شاء ان يمنعهم منه لفعل، ولو فعل المنع والحيلولة لما فعلوه، لكن ذلك ينافي التكليف. ثم أمر نبيه (صلى الله عليه وآله) ان يذرهم اي يتركهم ولايمنعهم ويخلي بينهم وبين مايكذبون وذلك غاية التهديد كما يقول القائل: دعني وياها.

قوله تعالى:

وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون (١٣٨) آية بلاخلاف.

أخبر الله تعالى عن هؤلاء الكفار أنهم " قالوا هذه انعام وحرث " يعني الانعام والزرع الذي جعلوهما للهنتم وأوثانهم. وقوله " بزعمهم " يدل على أنهم فعلوا ذلك بغير حجة بل بقولهم العاري عن برهان. وقيل في الانعام الاولى قولان

(١) سورة ٩٢ الليل آية ١١ (٢) سورة ٢٨ القصص آية ٨

(٢٨٩)

أحدهما - قال الجبائي: التي ذكرها أولا فهو ماجعلوه لاوثانهم كما جعلوا الحرث للنفقة عليها في خدامها وماينوب من أمرها. وقيل:؟؟ لاوثان. وأما الانعام التي ذكرت ثانيا، فهي السائبة والبحيرة والحام، وهو الفحل الذي يخلونه ويقولون: حمى ظهره، وهو قول الحسن ومجاهد. وأما التي ذكرت ثالثا - قيل فيه قولان: أحدهما التي إذا ولدوها أو ذبحوها أو ركبوها لم يذكروا اسم الله عليها، وهو قول السدي وغيره. والثاني قال ابوائل * هي التي لا يحجون عليها. وقوله " حجر " معناه حرام تقول: حجرت على فلان كذا أي منعته منه بالتحريم، ومنه قوله " حجرا محجورا " (١) والحجر لامتناعه بالصلاية، والحجر العقل لامتناع به من القبيح، قال المتلمس:

حنت إلى النخلة القصوى فقلت لها * حجر حرام ألا تلك الدهاريس (٢)
وقال رؤبة:

وجارة البيت لها حجري (٣)
وقال الآخر:

فبت مرتفقا والعين ساهرة * كأن نومي علي الليل محجور (٤)
وقيل: حجر وخرج مثل جذب وجذب، وبه قرأ ابن عباس. وبضم الحاء قراءة الحسن وقتادة. ويقال: حجر وحجر وحجر بمعنى المنع بالتحريم، وحجر الانسان، وحجره بالكسر والفتح. وانما أعيبوا بتحريم ظهور الانعام،

(١) سورة الفرقان آية ٢٢، ٥٣ (٢) قائله جرير بن عبد المسيح، وهو الملتمس. ديوانه القصيدة ٤ ومجاز القرآن ١ / ٢٠٧ واللسان (دهرس)
ومعجم البلدان (نخلة القصوى) وتفسير الطبري ١٢ / ١٤٠ و " الدهاريس " الدواهي (٣) وقيل انه للعجاج. ديوان العجاج: ٦٨ واللسان " حجر " (٤) نبيه ابن منظور في اللسان (رفق) إلى (أعشى بأهله). وهو في الطبري ١٢ / ١٤١ غير منسوب. ومعنى (مرتفقا) أي متكنا على يده.

(٢٩٠)

والواجب تحريمها عقلا حتى يرد سمع باباحتها، لانهم حرموا ذلك على وجه الكذب على الله، وانه اوجب ذلك اذا كانت على صفة مخصوصة. وانما أعيبوا بأكلها بعد ذبحها، وهي حينئذ تجري مجرى الميتة، وذلك لا يعلم تحريمه عقلا، لانهم ادعوا انه على وجه التذكية إفتراء على الله، فقصدوا به هذا القصد، ولذلك أعيبوا بتملكها وان كانوا سبقوا اليها، وانما وجب تحريم الانتفاع باستهلال الانعام، لان الايلام لا يحسن الا مع تضمن العوض الموافي عليه، وذلك مفنقر إلى السمع.

وقوله " افتراء " يعني كذبا، وفي نصبه قولان: أحدهما - قالوا:

إفتراء على الله، الثاني - لا يذكرون اسم الله افتراء على الله، كأنه قيل: افتروا بتركهم التسمية الذي أضافوه إلى الله إفتراء عليه.
قوله تعالى:

وقالوا مافي بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم (١٣٩) آية بلاخلاف.

قرأ ابن كثير " وان يكن " بالياء " ميتة " رفع. وقرأ ابن عامر الا الداحوني عن هشام، وابوجعفر " تكن " بالتاء " ميتة " رفع. وقرأ ابو بكر عن عاصم الا الكسائي " يكن " بالياء " ميتة " نصب. الباقرن بالتاء " ميتة " نصب. وجه قراءة الاكثر ان يحمل على (ما) وتقديره وان يكن مافي بطون الانعام ميتة. ووجه قراءة ابن عامر ان يضيف الفعل إلى الميتة فيرتفع الميتة به، فلذلك انث الفعل. ووجه قراءة ابي بكر ان مافي بطون الانعام مؤنث، لانها من الانعام. ويجوز ان يكون اراد ان تكون الاجنة ميتة.

ووجه قراءة ابن كثير ان يضيف الفعل إلى الميتة، لكن لمالم يكن تأنيث الميتة

(٢٩١)

تأنيث ذوات الفروج، وتقدم الفعل جاز ان يذكر، كما قال " فمن جاءه موعظة " (١) و " أخذ الذين ظلموا الصيحة " (٢) وتكون (كان) تامة، ومعناه وان وقع ميتة.

أخبر الله تعالى في هذه الآية عن هؤلاء الكفار الذين ذكرهم أنهم " قالوا مافي بطون هذه الانعام " التي تقدم ذكرها أحياء، فهو خالص لذكورهم، ومحرم على أزواجهم الإناث وبناتهم. وقال بعضهم انه يختص بالزوجات، والاولى عموم النساء تفضيلا للذكور على الإناث. وقيل ان الذكور كانوا القوام بخدمة الاوثان.

والمراد بمافي بطون الانعام قيل فيه ثلاثة أقوال:

أحدها - قال قتادة المراد به الالبان.

والثاني - قال مجاهد والسدي: انه الاجنة.

الثالث - ان المراد به الجميع، وهو أعم.

وقوله " خالصة لذكورنا " معناه لا يشركهم فيها أحد من الإناث وليس المراد به تسوية تصفية شئ عن شئ كالذهب الخالص والفضة الخالصة، ومن ذلك إخلاص التوحيد وإخلاص العمل لله.

والهاء في قوله " خالصة " قيل فيها ثلاثة أقوال:

أحدها - أنها للمبالغة في الصفة كالعلامة ولراوية الثاني - على تأنيث المصدر كالعاقبة والعافية، ومنه قوله " بخالصة ذكرى الدار " (٣).

الثالث - لتأنيث مافي بطونها من الانعام. ويقال فلان خالصة فلان ومن خلصائه. وحكى الزجاج والفراء: انه قرئ خالصة لذكورنا، والمعنى ماخلص منها. وقيل أصل (الذكور) من الذكر سمي الذكر بذلك، لانه أنبه وأذكر

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٧٥ (٢) سورة ١١ هود آية ٦٧ (٣) سورة ٣٨ ص آية ٤٦

من الانثى.

وقوله " وان يكن ميتة " معناه ان كان جنين الانعام ميتة فالذكور والاناث فيه سواء، فقال الله تعالى " سيجزيهم وصفهم " يعني سيجزيهم جزاء وصفهم، وحذف المضاف واقام المضاف اليه مقامه.

وقوله " انه حكيم عليم " معناه انه تعالى حكيم فيما يفعل بهم من العقاب آجلا، وفي امهالهم عاجلا " عليم " بما يفعلون لا يخفى عليه شئ منها.

وقوله " خالصة " رفع بانه خبر الابتداء والمبتدأ قوله " مافي بطون " ولا يجوز عند البصريين النصب، لان العامل فيه لا يتصرف، فلا يتقدم عليه، وأجازته الفراء مع قوله انهم لا يكادون يتكلمون به، لا يقولون زيد قائما فيها، ولكنه قياس.

وقد عاب الله على الكفار في هذه الاية من أربعة اوجه:

أولها - ذبحهم الانعام بغير إذن الله.

وثانيها - أكلهم على ادعاء التذكية افتراء على الله.

وثالثها - تحليلهم للذكور وتحريمهم على الاناث تفرقة بين ما لا يفترق الا بحكم من الله.

ورابعها - تسويتهم بينهم في الميتة من غير رجوع إلى سمع موثوق.

قوله تعالى:

قد خسروا الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين (١٤٠) آية بلاخلاف.

قرأ ابن كثير وابن عامر " قتلوا " بتشديد التاء. الباقيون بالتخفيف.

من شدد حملة على التكرار، كقوله " جنات عدن مفتحة " (١). ومن خفف

(١) سورة ٣٨ ص آية ٥٠.

فلانه يدل على الكثرة.

اخبر الله تعالى ان هؤلاء الكفار الذين قتلوا أولادهم الاناث خوفا من الفقر وهربا من العار قد خسروا، ومعناه هلكت نفوسهم باستحقاقهم على ذلك عذاب الابد. والخسران هلاك رأس المال.

وقوله " سفها بغير علم " نصب على انه مفعول له ويجوز ان يكون نصبا على المصدر، وتقديره سفهوا بما فعلوه سفها خوفا من الفقر وهربا من العار.

والسفه خفة اللحم بالعجلة إلى مالايينبغي ان يعجل اليه. واصله الخفة. وضد السفه الحليم. والفرق بين السفه والنزق ان السفه عجلة يدعو اليها الهوى، والنزق عجلة من جهة حدة الطبع والغیظ.

وقوله " وحرموا مارزقهم الله " يعني ما حرموه على نفوسهم من الحرث بزعمهم انه حبر. وقال الحسن: انه راجع إلى الانعام. وقال الرماني: لايجوز ذلك لانها محرمة عليهم بحجة العقل حتى يأتي بسمع. والقتل نقض البنية التي تحتاج الحياة اليها والموت - عند من أثبتته معنى ضد الحياة.

وقوله " افتراء على الله " يعني كذبا. ونصبه على المصدر والعامل فيه قوله " وحرموا " لان ذلك قول منهم أضافوه إلى الله. ثم اخبر تعالى انهم قد ضلوا بما فعلوه وجازوا عن طريق الحق وأنهم لم يكونوا مهتدين إلى طريق الرشاد والحق. قوله تعالى:

وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابهة كلوا من ثمره إذا أثمر واتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين (١٤١) آية بلاخلاف.

(٢٩٤)

قرأ أهل البصرة وابن عامر وعاصم (حصاده) - بفتح الحاء - الباقون بكسرها. وهم لغتان. وقال سيبويه: جاءوا بالمصادر حين أرادوا أنتهاء الزمان على مثال (فعال) نحو الضرام الجراز، والجداد والقطاف والحصاد. وربما دخلت اللغتان في بعض هذا، وكان فيه (فعال وفعال).

لما اخبر الله عن هؤلاء الكفار وعن عظيم ما ابتدعوه وافتروا به على الله وشرعوا من الدين ما لم يأذن الله فيه، عقب ذلك البيان بأنه الخالق لجميع الاشياء فلايجوز اضافة شئ منها إلى الاوثان، ولا تحليله، ولا تحريمه الا بأذنه، فقال " وهو الذي أنشأ جنات معروشات " والانشاء هو احداث الافعال ابتداء لاعلى مثال سبق، وهو كالابتداع. والاختراع هو أحداث الافعال في الغير من غير سبب، والخلق هو التقدير والترتيب. والجنات جمع جنة، وهي البساتين التي يجنها الشجر من النخل وغيره. والروضة هي الخضرة بالنبات والزهور المشرفة باختلاف الالوان الحسنة.

وقوله " معروشات وغير معروشات " قيل في معناه قولان:

احدهما - ما قال ابن عباس والسدي: المعروشات هوماعرش الناس من الكروم ونحوها، وهو رفع بعض اغصانها على بعض " وغير معروشات " مايكون من قبل نفسه في البراري والجبال.

والثاني - قال ابو علي يعرشه أي يرفع له حظائر كالحائط. واصله الرفع ومنه قوله تعالى " خاوية على عروشها " (١) يعني على اعاليها، وما ارتفع منها لم يندك فيستوي " بالارض، ومنه العرش للسرير لارتفاعه.

(ومعرشات) في موضع النصب، لانها صفة ل (جنات) والنخل والزرع معناه وأنشأ النخل والزرع " مختلفا أكله " يعني طعمه، ونصب مختلفا على الحال، وانما نصبه على الحال، وهو يؤكل بعد ذلك بزمان، لامرين:

احدهما - ان معناه مقدرا اختلاف أكله كقولهم: مررت برجل معه صقر

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٥٩ وسورة ١٨ الكهف آية ٤٣ وسورة ٢٢ الحج آية ٤٥

(٢٩٥)

صايدا به غدا أي مقدرا الصيد به غدا.

الثاني - ان يكون معنى (أكله) ثمره الذي يصلح ان يؤكل منه.

" والزيتون والرمان " أي وانشأ الزيتون والرمان. وانما قرن الزيتون إلى الرمان، لانه لما ذكر الكرم والنخل والزرع اقتضى ذكر ما خرج عن ذلك، فقرنا لفضلهما بعدما ذكره. وقيل: لانهما يشبهان باكتناف الاوراق في اغصانها " متشابهها وغير متشابهه " معناه متماثلا وغير متماثل. وقيل " متشابهها " في النظر " وغير متشابهه " في الطعم بل الطعم مختلف.

وقوله " كلوا من ثمره اذا أثمر " المراد به الاباحة لا الامر. وقال الجبائي وجماعة: ان ذلك يدل على جواز الاكل من ثمره، وان كان فيه حق للفقراء.

وقوله " وآتوا حقه يوم حصاده " أمر ايجاب بايتاء الحق يوم الحصاد على طريق الجملة، والحق الذي يجب اخراجه يوم الحصاد فيه قولان:

احدهما - قال ابن عباس ومحمد بن الحنفية وزيد بن أسلم والحسن وسعيد بن المسيب وطاووس وجابر بن عبدالله وبريد وقتادة والضحاك: انه الزكاة العشر، اونصف العشر.

الثاني - روي عن جعفر (ع) عن أبيه (ع) وعطاء ومجاهد وابن عامر وسعيد بن جبير والربيع بن أنس: انه ما ينثر مما يعطي المساكين.

وروي أصحابنا أنه الضغث بعد الضغث والحنفة بعد الحنفة.

وقال ابراهيم والسدي: الاية منسوخة بفرض العشر ونصف العشر، قالوا: لان الزكاة لاتخرج يوم الحصاد، وقالوا لان هذه الاية مكية وفرض الزكاة نزل بالمدينة. ولما روي بأن فرض الزكاة نسخ كل صدقة.

قال الرماني: وهذا غلط، لان يوم حصاده ظرف لحقه، وليس بظرف الايتاء المأمور به. وقوله " ولاتسرفوا " قيل في المخاطبين به ثلاثة أقوال:
احدها - قال ابو العالية وابن جريح انه يتوجه إلى ارباب الاموال،

(٢٩٦)

لانهم كانوا يعطون شيئاً سوى الزكاة يسرفون فيه، فروي عن ثابت بن شماس انه كان له خمس مئة رأس نخلا فصرمها وتصديق بها، ولم يترك لاهله منها شيئاً فنهى الله عن ذلك، وبين أنه مسرف، ولذلك قال النبي (صلى الله عليه وآله) ابدأ بمن تعول.

الثاني - قال ابن زيد انه خطاب للسلطان.

الثالث - انه خطاب للجميع وهو أعم فائدة.

وقيل: ان السرف يكون في التقصير، كما يكون في الزيادة قال الشاعر:

اعطوا هنيذة يحدها ثمانية * مافي عطائهم من ولاسرف (١)

معناه ولا تقصير. وقيل ولا إفراط، لانه لا يستكثر كثيرهم. والاسراف هو مجاوزة حد الحق وهو افراط وغلو. وضده تقصير واقتار. ومسرف صفة ذم في العادة.

وينبغي ان يؤدي الحق الذي في الغلات إلى امام المسلمين ليصرفه إلى اهل الصدقات ولهم ان يخرجوه إلى المساكين اذا لم يأخذهم الامام بذلك فأما مقدار ما يجب من الزكاة، والنصاب الذي يتعلق به وصفه الارض الزكوية فقد بيناه في كتب الفقه مستوفى لانطول بذكره الكتاب.

قوله تعالى:

ومن الانعام حمولة وفرشا كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدومبين

(١٤٢)

آية بلاخلاف.

العامل في قوله " حمولة وفرشا " قوله " انشأ " المتقدم، كأنه قال وانشأ لكم من الانعام " حمولة وفرشا ". وقيل في معنى: " حمولة وفرشا "

(١) قائله جرير ديوانه ٣٨٩ وطبقات فحول الشعراء: ٣٥٩ واللسان (هند)، " سرف " وتفسير الطبري ٧ / ٥٧٩ و

١٢ / ١٧٧ وتفسير القرطبي ٧ / ١١١، وهنيذة: اسم لكل مئة من الابل، وهو ممنوع من الصرف.

(٢٩٧)

ثلاثة أقوال:

أحدها - ماروي عن ابن مسعود، وابن عباس في إحدى الروايتين، والحسن في رواية - ومجاهد: ان الحمولة كبارا الابل، والفرش الصغار.
الثاني - ماروي عن الحسن - في رواية - وقتادة والربيع والسدي والضحاك وابن زيد: ان الحمولة ما حمل من الابل والبقر، والفرش الغنم.
الثالث - ماروي عن ابن عباس - في رواية - ان الحمولة كل ما حمل من الابل والبقر والخيل والبغال والحمير، والفرش الغنم، كأنه ذهب إلى أنه يدخل في الانعام ذو الحافر على الاتباع.

و (الحمولة) لا واحد لها من لفظها كالركوبة والجزورة. و (الحمولة) بضم الحاء هي الاحمال، وهي الحمول. وانما قيل للصغار: فرش، لامرين: احدهما - لاستواء اسنانها في الصغر والانحطاط، كاستواء مايفترش.
الثاني - من الفرش وهي الارض المستوية التي يتوطأها الناس.
وقال الجبائي: في التفسير، وابوبكر الرازي في احكام القرآن: ان الفرش مايفترش من البسط، والزرايبي. وهذا غلط قبيح جدا في اللغة.
وقوله "خطوات" يجوز فيه ثلاثة أوجه - بضم الخاء والطاء، وضم الخاء وسكون الطاء، وضم الخاء وفتح الطاء - وفي معناه قولان:
احدهما - مايتخطى بكم الشيطان اليه من تحليل إلى تحريم، ومن تحريم إلى تحليل.
الثاني - طرق الشيطان، فانه لايسعى الا في عصيان.
وقوله "انه" الهاء كناية عن الشيطان "لكم عدو مبين" فيه اخبار من الله ان الشيطان عدو للبشر "مبين" أي ظاهر. وقيل في معنى "مبين" قولان:
أحدهما - أنه أبان عداوته لكم بما كان منه إلى أبيكم آدم حين اخرجته من الجنة الثاني - بين العداوة أي لظهاره ذلك في حزبه، وأوليائه من الشياطين هذا قول الحسن.

(٢٩٨)

قوله تعالى:

ثمانية أزواج من الضان اثنين ومن المعز اثنين قل الذكيران حرم أم الانثيين أما اشتملت عليه أرحام الانثيين نبؤني بعلم إن كنتم صادقين (١٤٣) آية بلاخلاف قرأ ابن كثير الا ابن فليح وابن عامر الا الداخوني عن هشام واهل البصرة (المعز) بفتح العين. الباقر بسكونها. قال

أبو علي من قرأ بالفتح اراد الجمع بدلالة قوله " من الضأن اثنين " ولو كان واحدا لم يسغ فيه هذا، ونصب اثنين على تقدير: وانشأ ثمانية أزواج: انشأ من الضأن اثنين ومن المعز اثنين، ونظير معز جمع ماعز خادم وخدم وطالب وطلب، وحارس وحرس، وقال أبو الحسن: هو جمع على غير واحد، وكذلك المعزى، وحكى أبو زيد إمعوز وانشد:

* كالتيس في إمعوزه المربل *

وقالوا: المعيز كالكليب، ومن سكن العين، فهو أيضا جمع ماعز كصاحب وصاحب وتاجر وتجر وراكب وركب. وأبو الحسن: يرى هذا الجمع مستمرا، ومن يرده في التصغير إلى الواحد، فيقول في تحقير ركب رويكبون، وفي تجر: توجرون، وسيبويه يراه اسما من أسماء الجمع، وانشد أبو عثمان حجة لقول سيبويه:

بنيته بعصبة من ماليا * أخشى ركيبا أو رجلا عاديا (١)

- بالعين والغين - عن غير أبي علي فتحقيره له على لفظه من غير ان يرده

(١) البيت ل (أحبة بن الجلاح) وقد انشده أبو عثمان شاهدا على البيت الذي يأتي بعده من أنه يقال في تصغير (ركب) ركيب - بضم الراء وفتح الكاف وتسكين الباء.

(٢٩٩)

إلى الواحد الذي هو فاعل - والحاق الواو والنون أو الياء والنون، يدل على إنه اسم للجمع وأنشد أبو زيد:

واين ركيب واضعون رحالهم * إلى أهل نار من أناس بأسود (٢)

وقال أبو عثمان البقرة عند العرب نعجة، والطبية عندهم ماعزة، الدليل على ذلك قول ذي الرمة:

إذا مارأها راكب الضيف لم يزل * يرى نعجة في مرتع فيثيرها

مولعة خنساء ليست بنعجة * يدمن اجواف المياه وقيرها (٣)

قوله لم يزل يرى نعجة يريد بقرة، ألا ترى انه قال مولعة خنساء، والخنس والتوليع إنما يكونان في البقر دون الظباء. وقوله ليست بنعجة معناه انها ليست بنعجة أهلية، لأنه لا يخلو من ان يريد أنها ليست بنعجة أهلية، أو ليست بنعجة، ولا يجوز ان يريد انها ليست بنعجة، لأنك ان حملته على هذا فقد نفيت ما أوجب من قوله: لم يزل يرى نعجة، واذالم يجز ذلك علمت انه اراد ليست بنعجة أهلية، والدليل على ان الطبية ماعزة قول أبي ذؤيب.

وعادية تلقى الثياب كأنها * تيوس ظباء محصها وانبتارها (٤)

فقوله تيبوس ظباء كقوله: تيبوس معز، ولو كانت عندهم ضائنية لقال كأنها كباش ظباء، والوقير الشاة يكون فيها كلب وحمار في قوله الاصمعي.

قوله "ثمانية أزواج" منصوب، لانه بدل من "حمولة وفرشا" لدخوله في الانشاء، وتقديره وأنشأ حمولة وفرشا ثمانية أزواج "من الضأن اثنين" نصب (اثنين) بتقدير انشأ من الضأن اثنين، ولورفع على تقدير منها معز إثنان كما تقول رأيت القوم منهم قائم وقاعد كان جائزا، وانما أجمل مافصله في الاثنين للتقدير علي شئ منه، لانه اشد في التوبيخ من ان يكون دفعة واحدة.

(٢) انشده شاهدا على ماتقدم على انه يقال في تصغير (راكب) ركيب، وذلك يدل على ان ركبا مفرد، وليس جمعا لراكب (٣) اللسان (نعج) (٤) اللسان " تيس "

(٣٠٠)

وقوله "ثمانية أزواج" يريد ثمانية افراد، لان كل واحد من ذلك يسمى زوجا، والانثى زوج، وانما سمي بذلك، لانه لا يكون زوج الاومعه آخر له مثل اسمه، فلما دل على الاثنين من اقرب الوجوه، وقع على طريقه، ومنه قول ليبيد.

من كل محفوف يظل عصيه * زوج عليه كلة وقرامها (٥)

ومثل ذلك قولهم: خصم للواحد والاثنين، وقوله "من الضأن اثنين" يعني ذكر وأنثى، فالضأن الغنم ذوات الاصواف والابوار، والمعز الغنم ذوات الاشعار والاذناب القصار، وواحد الضأن ضائن، كقولهم تاجر وتجر في قول الزجاج. والانثى ضائنة. وقال غيره: هو جمع لاواحدله، ويجمع ضئين كقولهم: عبد وعبيد، ويقال فيه (ضئين) كما يقولون في شعر شعير، وكذلك معز ومعز، الا أنه يجوز فتحه لدخول حرف الحلق فيه ويجمع مواعز.

وروي عن أبي عبدالله (ع) ان المراد بقوله "من الضأن اثنين" أهلي ووحشي وكذلك المعز والبقر "ومن الابل اثنين" العرابي والبخاتي.

وانما خص هذه الثمانية أزواج، لانها جميع الانعام التي كانوا يحرمون منها ما يحرمونهم مما تقدم ذكره.

فان قيل: اذا كان ما حرموه معلوما فلم عدل بهم في السؤال إلى غيره؟ قيل على وجه المعارضة لهم على طريقة الحجاج أي انكم بمنزلة من قال هذا، ولذلك وقع السؤال أعلى كذا أم كذا؟ وان لم يتقدم دعوى أن أحدهما كذا، لانهم في حكم هذا المدعى.

وقوله "الذكرين حرم أم" منصوب ب (حرم)، والمعنى في قوله "الذكرين حرم أم الاثنيين" اجاءكم التحريم فيما حرمت من السائبة والبحيرة والوصيلة والحام من الذكرين أم من الاثنيين،

فالالف ألف استفهام والمراد به التوبيخ، فلو قالوا من قبل الذكر حرم عليهم كل ذكر، ولو قالوا من قبل (٥) تفسير الطبري ١١ / ١٤٣

(٣٠١)

الانثى حرمت عليهم كل أنثى. ثم قال " اما اشتملت عليه أرحام الانثيين " فلو قالوا ذلك حرم عليهم الذكر والانثى، لان الرحم يشتمل عليهما، قال الحسن معناه ما حملت الرحم. وقوله " نبئوني " بعلم ان كنتم صادقين " في ذلك. وقوله " الذكرين " دخلت الف الاستفهام على الف الوصل لئلا يلتبس بالخبر، ولو اسقطت جاز، لان (أم) تدخل على الاستفهام، وعلى هذا أجاز سيبويه قول الشاعر ان يكون استفهاما: فو الله ما دري وان كنت داريا شعيب بن سهم أم شعيب بن منقر (١) اجاز تقديره أشعيب. و (ما) في قوله " أما اشتملت " في موضع نصب عطا على الانثيين، وانما قال: الانثيين مثني، لانه اراد من الضأن والمعز. قوله تعالى:

ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين قل الذكرين حرم أم الانثيين أما اشتملت عليه أرحام الانثيين أم كنتم شهداء إذ وصيكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم إن الله لايهدي القوم الظالمين (١٤٤) آية بلاخلاف. قوله " ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين " تفصيل لتمام الثمانية أزواج التي أجملها في الآية الاولى. وقد بينا معنى قوله " الذكرين حرم ام الانثيين اما اشتملت عليه أرحام الانثيين " واصل الاشتمال الشمول تقول: شملهم الامر يشملهم شمولا فهو شامل، ومنه الشمال لشمولها على ظاهر الشئ

(١) مر تخرجه في ٤ / ١٩٩

(٣٠٢)

وباطنه بقوتها ولطفها والشمول الخمر لاشتمالها على العقل. وقيل: لان لها عصفة كعصفة الشمال.

وقوله " ام كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا " ف (أم) معادلة لقوله " الذكرين " وانما قال " أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا " لان طرق العلم اما الدليل الذي يشترك العقل في ادراك الحق

بها أو المشاهدة التي يختص بها بعضهم دون بعض، فإذا لم يكن واحد من الامرين سقط المذهب.

والمعنى أعلمتم ذلك بالسمع والكتب المنزلة فأنتم لاتقرون بذلك أم شافهكم الله به فعلتموه؟ ! فإذا لم يكن واحدا منهما علم بطلان ماتذهبون اليه.

والوصية مقدمة مؤكدة فيما يفعل او يترك، يقال: وصاه يوصيه توصية وأوصاه يوصيه إيصاء، والوصي الموصى اليه.

وقوله " فمن أظلم ممن افترى على الله " يعني من أظلم لنفسه ممن يكذب عليه فيضيف اليه تحريم مالم يحرمه وتحليل مالم يحلله " ليضل الناس بغير علم " أي عمل القاصد إلى إضلالهم من اجل دعائه إلى مايشك بصحته مما لا يؤمن ان يكون فيه هلاكهم وان لم يقصد إضلالهم، فلذلك قال " ليضل الناس بغير علم ".

ثم أخبر " ان الله لا يهدي " إلى الثواب " القوم الظالمين " لانهم مستحقون للعقاب الدائم بكفرهم وضلالهم.

قوله تعالى:

قل لأجد في ما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فانه رجس أو فسقا اهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولاعاد فان ربك غفور رحيم (١٤٥) آية بلاخلاف.

(٣٠٣)

قرأ ابن كثير وحمزة " تكون " بالتاء " ميتة " بالنصب. وقرأ ابن عامر بالتاء والرفع. الباقيون بالياء والنصب.

من قرأ بالياء ونصب الميتة جعل في " تكون " ضمير او نصب الميتة بأنه خبركان وتقديره: الا ان يكون ذلك او الموجود ميتة.

ومن قرأ بالتاء ورفع الميتة رفعها ب (يكون) ويكون من كان التامة دون الناقصة التي تدخل على المبتدأ والخبر، وهذه القراءة ضعيفة، لان ما بعده " او دما مسفوحا او لحم خنزير " بالعطف عليه، فلو كان مرفوعا لضعف ذلك.

ومن قرأ بالتاء ونصب الميتة جعل في (يكون) ضمير العين او النفس، وتقديره الا أن تكون النفس ميتة، ونصب الميتة بأنه خبر كان.

أمر الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) ان يقول لهؤلاء الكفار انه لا يجد في ما أوحى اليه شيئا محرما الا نحو ما ذكره في المائدة (١) كالمخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة، لان جميع ذلك

يقع عليه السم الميئة، وفي حكمها، فبين هناك على التفصيل، وههنا على الجملة وأجود من ذلك ان يقال: ان الله تعالى خص هذه الثلاثة أشياء تعظيماً لتحريمها وبين ماعداها في موضع آخر. وقيل:

انه خص هذه الاشياء بنص القرآن وماعداه بوحى غير القرآن. وقيل: ان ماعداه حرم فيما بعد بالمدينة والسورة مكية.

والميئة عبارة عما كان فيه حياة فقدت من غير تذكية شرعية. والدم المسفوح هو المصبوب، يقال: سفحت الدمع وغيره أسفحه سفحا اذا صببته، ومنه السفاح الزنا، لصب الماء صب مايسفح والسفح والصب والارافة بمعنى وانما خص المسفوح بالذكر، لان ما يختلط بالدم منه مما لا يمكن تخليصه منه معفو مباح، وهو قول ابي محلز، وعكرمة وقتادة. وقوله " أو لحم خنزير " فانه وان خص لحم الخنزير بالذكر، فان جميع

(١) آية ٣ من سورة ٥ المائدة ٣ / ٤٢٨

(٣٠٤)

مايكون منه من الجلد والشعر والشحم وغير ذلك محرم.

وقوله " فانه رجس " يعني ماتقدم ذكره، فلذلك كناعنه بكناية المذكر، والرجس العذاب أيضا. وقوله " أوفسقا " عطف على قوله " اولحم خنزير " فلذلك نصبه، والمراد بالفسق " مأهل لغير الله به " يعني " مالم يذكر أسم الله عليه " او تذكر الاصنام والاوثنان، وسمي ما ذكر عليه أسم الوثن: فسقا لخروجه عن أمر الله.

وأصل الاهلال رفع الصوت بالشئ، ومنه اهل الصبي اذا صاح عندولادته.

وقوله " فمن اضطر غير باغ ولاعاد " قيل فيه قولان:

أحدهما - غير طالب بأكله التلذذ.

والثاني - غير قاصد لتحليل ما حرم الله. وروى أصحابنا في قوله " غير باغ " ان معناه ان لا يكون خارجا على إمام عادل أي لا يعتدى بتجاوز ذلك إلى ما حرمه الله. وروى أصحابنا ان المراد به قطاع الطريق، فانهم غير مرخصين بذلك على حال.

والضرورة التي تبيح أكل الميئة هي خوف التلف على النفس من الجوع.

وانما قال عند التحليل للمضطر " ان ربك غفور رحيم " لان هذه الرخصة لانه " غفور رحيم " أي حكم بالرخصة كما حكم بالمغفرة. وفي ذلك بيان عن عظم موقع النعمة.

وقد استدل قوم بهذه الآية على إباحة ماعدا هذه الاشياء المذكورة.

وهذا ليس بصحيح، لان ههنا محرمات كثيرة غيرها كالسباع، وكل ذي ناب وكل ذي مخلب، وغير ذلك. وكذلك أشياء كثيرة اختص اصحابنا بتحريمها، كالجرى والمار ماهي، وغير ذلك، فلا يمكن التعلق بذلك.

ويمكن ان يستدل بهذه الاية؟؟؟ تحريم الانتفاع بجلد الميتة فانه داخل تحت قوله " ان يكون ميتة " ويقويه قوله (عليه السلام) لا ينتفع من الميتة

(٣٠٥)

بأهاب ولاعصب. فأما دلالاته على ان الشعر والصوف والريش منها والناب والعظم محرم، فلا يدل عليه، لان مالم تحله الحياة لا يسمى ميتة على ماضى القول فيه. قوله تعالى:

وعلى الذين هادوا حرمناكل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمانا عليه شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون (١٤٦) آية بلاخلاف.

أخبر الله تعالى انه حرم على اليهود في أيام موسى كل ذي ظفر. واختلفوا في معنى " كل ذي ظفر " فقال ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة والسدي: انه كل ماليس بمنفرج الاصابع، كالابل، والنعام، والاوز، والبط. وقال أبو علي الجبائي: يدخل في ذلك جميع انواع السباع والكلاب والسنائير وسائر ما يصطاد بظفره من الطير.

وقال البلخي: هوكل ذي مخلب من الطائر، وكل ذي حافر من الدواب. ويسمى الحافر ظفرا مجازا، كما قال الشاعر:

فما رقد الولدان حتى رأيت * على البكر يمر به بساق وحافر (١)

فجعل الحافر موضع القدم. واخبر تعالى انه كان حرم عليهم شحوم البقر والغنم من الثرب، وشحم الكلى، وغير ذلك مما في أجوافها، واستثنى من ذلك بقوله " إلا ما حملت ظهورها " ما حملته ظهورها فانه لم يحرمه، واستثنى أيضا ما على الحوايا من الشحم، فانه لم يحرمه.

(١) قائله جبيها الاسدي. اللسان (حفر)

(٣٠٦)

واختلفوا في معنى الحوايا، فقال ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير وقتادة ومجاهد والسدي: هي المباعر. وقال ابن زيد: هن بنات اللين.

وقال الجبائي: الحوايا الامعاء التي عليها الشحم من داخلها.

وحوايا جمع حوية وحاوية. وقيل في واحده حاوياء - في قول الزجاج - على وزن راضعات ورواضع، وضاربة وضوارب، ومن قال: حوية قال وزنه فعائل مثل سفينة وسفائن في الصحيح، وهي مايجري في البطن فاجتمع واستدار، ويسمى بنات اللين والمباعر والمرابض ومافيها الامعاء بذلك.

واستثنى أيضا من جملة ما حرم " ما اختلط بعظم " وهو شحم الجنب والالية، لانه على العصص - في قول ابن جريج والسدي - وقال الجبائي:

الالية تدخل في ذلك، لانه لم تستثن وما اعتد بعظم العصص.

وموضع (الحوايا) من الاعرا يحتل أمرين:

احدهما - قول اكثر اهل العلم: انه رفع عطا على الظهر على تقدير: وما حملت الحوايا.

الثاني - نصب عطا على ما في قوله " الاماحملت " فأما قوله " أو ما اختلط بعظم " فيكون نسقا على ما حرم لاعلى الاستثناء. والتقدير - على هذا القول - حرما عليهم شحومهما أو الحوايا او ما اختلط بعظم الاماحملت الظهر، فانه غير محرم. و (أو) دخلت على طريق الاباحة كقوله " ولا تطع منهم أثما او كفورا " (١) والمعنى إحص هذا وأحص هذا، فان جميعهم اهل ان يعصى، ومثله جالس الحسن أو ابن سيرين اي جالس أيهما شئت.

وهذه الاشياء وإن كان الله تعالى حرما على اليهود في شرع موسى، فقد نسخ تحريمها على لسان محمد (صلى الله عليه وآله) وأباحها، وتدعي النصارى ان ذلك نسخ في شرع عيسى (ع) ولسنا نعلم صحة ما يقولونه.

وقوله " ذلك جزيناهم ببغيهم " معناه اناحرنا ذلك عليهم عقوبة لهم

(١) سورة ٧٦ الدهر آية ٢٤

(٣٠٧)

على ببغيهم.

فان قيل: كيف يكون التكليف عقابا، وهو تابع للمصلحة، ومع ذلك فهو تعريض للثواب؟ قلنا: إنما سماه عقوبة، لان عظيم ما أتوه من الاجرام والمعاصي اقتضى تحريم ذلك وتغيير

المصلحة، وحصول اللطف فيه، فلذلك سماه عقوبة، ولولا عظم جرمهم لما اقتضت المصلحة ذلك.

وقوله " وإنا لصادقون " يعني فيما أخبرنا به من تحريم ذلك على اليهود فيما مضى. وان ذلك عقوبة لاوائلهم ومصلحة لمن بعدهم إلى وقت النسخ. وحكي عن ابن عليّة أنه كان يقول: ان ما يذبحه اليهود لا يجوز أكل شحمه وان جاز أكل لحمه، لان الشحوم كانت حراما عليهم. وعندنا ان ما يذبحه اليهود لا يجوز استباحة شئ منه، وهم بمنزلة الميتة غير ان الذي ذكره غير صحيح، لانه يلزم عليه انه لو نحر اليهود جملا ان لا يجوز اكله، لانه كان حراما عليهم، وذلك باطل عنده.

قوله تعالى:

فان كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين (١٤٧) آيه بلاخلاف. المعنى بقوله " فان كذبوك " قيل فيه قولان:

احدهما - قال مجاهد والسدي: انهم اليهود، لانهم زعموا أنهم حرموا الثروب، لان اسرائيل حرمها على نفسه، فحرموها هم اتباعا له دون ان يكون الله حرم ذلك على لسان موسى.

الثاني - انه يرجع إلى جميع المشركين في قول الجبائي وغيره على ظاهر الاية، فقال الله لنبيه " فان كذبوك " يامحمد في اني حرمت ذلك على اليهود على لسان موسى " فقل " لهم " ربكم ذو رحمة واسعة " واقتضى ذكر الرحمة

(٣٠٨)

أحد امرين:

الاول - انه برحمته أمهلهم مع تكذيبهم، بالمؤاخذة عاجلا - في قول أبي علي الجبائي - .

الثاني - انه ذكر ذلك ترغيبا لهم في ترك التكذيب وتزهيدا في فعله وانما قابل بين لفظ الماضي في قوله " كذبوك " بالمستقبل في قوله " فقل " لتأكيد وقوع القول بعد التكذيب اذ كونه جوابا يدل على ذلك. و (نو) بمعنى صاحب. والفرق بينهما ان احدهما يصح ان يضاف إلى المضمرة، ولا يصح في الاخر، لان (نو) وصلة إلى الصفة بالجنس، ولذلك جعل ناقصا لا يقوم بنفسه دون المضاف اليه، والمضمرة ليس بجنس ولا يصح ان يوصف به.

وقوله " لا يرد بأسه " معناه لا يمكن احدا أن يرده عنهم، وهو أبلغ من قوله بأسه نازل بالمجرمين، لانه دل على هذا المعنى وعلى ان أحدا لا يمكنه رده. وقوله " عن القوم المجرمين " معناه ان أحدا لا يمكن من رد عقاب الله عن العصاة المستحقين للعقاب مع انه تعالى ذو رحمة واسعة.

قوله تعالى:

سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون (١٤٨) آية بلاخلاف.

أخبر الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) بأن هؤلاء المشركين سيحتجون في إقامتهم على شركهم، وعلى تحريمهم مألحه الله من الانعام التي تقدم وصفها بأن يقولوا: لو شاء الله ان لانفعل نحن ذلك ولانعتقده ولاآباؤنا، او أراد منا خلاف ذلك " ماأشركنا نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا " شيئا من ذلك. فكذبهم

(٣٠٩)

الله تعالى بذلك في قوله " كذلك كذب الذين من قبلهم " ومعناه مثل هذا التكذيب الذي كان من هؤلاء - في انه منكر - " كذب الذين من قبلهم " وانما قال كذلك لتقضي الخبر، ولوقال (كذا) لجاز، لانه قريب بعدالاول، و (كذلك) أحسن، لان مافيه من تأكيد الاشارة تغني عن الصفة. وحكي انه قرئ " كذب الذين " بالتخفيف، فمن خفف اراد ان هؤلاء كاذبون كما كذب الذين من قبلهم على الله بمثله. ومن قرأ بالتشديد، فلانهم بهذا القول كذبوا رسول الله لانهم قالوا له: ان الله أراد منا ذلك وشاءه، ولوأراد غيره لما فعلناه، مكذبين للرسول (ص) كماكذب من تقدم انبياءهم فيما أتوا به من قبل الله.

ثم بين بقوله " قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا " أن ماقلوه باطل وكذب على الله لانه لو كان صحيحا لمارده عليهم.

ثم أكد تكذيبهم بقوله " ان تتبعون الاالظن " أي ليس يتبعون إلا ظنا من غير علم " وان انتم الاتخرصون " يعني تكذبون، والخرص الكذب كقوله " قتل الخراصون " (١)

وفي هذه الاية أدل دلالة على ان الله تعالى لايشاء المعاصي والكفر، وتكذيب ظاهر لمن أضاف ذلك إلى الله مع قيام ادلة العقل على انه تعالى لايريد القبيح، لان إرادة القبيح قبيحة، وهو لايفعل القبيح، ولان هذه صفة نقص، فتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

وقوله " حتى ذاقوا بأسنا " معناه حتى ذاقوا عذابنا، و اراد به حلول العذاب بهم فجعل وجدانهم لذلك ذوقا مجازا. وجاز قوله " ماأشركنا ولا آباؤنا " ولم يجر ان يقال: قمنا وزيد، لان العطف على المضمرة المتصلة لايحسن الايفصل، فلما فصلت (لا) حسن، كما حسن: ما قد قمنا ولا زيد كان كذلك، لان الضمير المتصل يغير له الفعل في (فعلت) فيصير كجزء منه.

(٣١٠)

فان قيل: انما أنكر الله تعالى عليهم هذا القول، لانهم جعلوا هذا القول حجة في إقامتهم على شركهم، فأعلم الله عزوجل ان " كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا " ولم ينكر عليهم انهم قالوا الشرك بمشيئة الله، ولو كان منكرا لذلك، لقال: كذلك كذب الذين - يتخفيف الذال - . قلنا: لايجوز ذلك، لانه تعالى بين انهم كذبوا في هذا القول بقوله " وان أنتم الاتخرصون " أي تكذبون، فاما كذبوا فقد حكينا أنه قرئ - بالتخفيف - ومن شدد الذال، فلان تكذيب الصادق كذب، وهو يدل على الامرين، فان قالوا: انما عابهم، لانهم كانوا متهزئين بهذا القول لامعتدين ولامتدنيين. قلنا: المعروف من مذهبهم خلافه، لانهم كانوا يعتقدون ان جميع مايفعلونه قربة إلى الله، وان الله تعالى ارادة واخبر عنه، فكيف يكونون متهزئين، على ان الهازئ بالشئ لايسمى كاذبا، فكيف سماهم الله كاذبين؟ على انه اذاكان كل مايجري بمشيئته فلايجب ان ينكر على احد مايعتقده، لانه اعتقد ماشاء الله. ومن فعل ماشاء كان مطيعا له، لان الطاعة هي امتثال الامر والمراد منه. وهذا باطل بالاجماع.

فان قيل: انما عاب الله المشركين بهذه الاية، لانهم قالوا ذلك حدسا وظنا لاعن علم، وذلك لايدل على انهم غير صادقين، وقديجوز ان يكون الانسان صادقا فيما يخبر به ويكون قوله صادرا عن حدس وعن ظن.

قلنا: لوكان الامر على ماقلتم لماكانوا كاذبين اذاكان مخبر مأخبروا به على مأخبروا، وقد كذبهم الله في اخبارهم بقوله " كذلك كذب الذين من قبلهم " وبقوله " ان انتم الاتخرصون " على ان من ظن شيئا فاخبر عنه لا يوصف بأنه كاذب وان كان على خلاف ماظنه فكيف اذاكان على ماظنه.

قوله تعالى:

قل فله الحجة البالغة فلو شاء لهديكم أجمعين (١٤٩)

آية بلاخلاف.

(٣١١)

امر الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) ان يقول لهؤلاء الكفار الذين احتجوا بما قالوه ان الله لو شاء منهم ذلك لماكان لله الحجة البالغة يعني الحجة التي احتج بها على الكافرين في الاية الاولى، وجميع مااحتج به على عباده في صحة دينه الذي كلفهم اياه. ومعنى (البالغة) التي تبلغ قطع عذر المحجوج وتزيل كل لبس وشبهة عن نظر فيها واستدل أيضا بها. وانما كانت

حجة الله صحيحة بالغة، لانه لا يحتج الابالحق ومايؤدي إلى العلم. وقوله " ولو شاء لهداكم اجمعين " يحتمل امرين:

احدهما - لو شاء لالجا الجميع إلى الايمان غير ان ذلك ينافي التكليف.

الثاني - انه لو شاء لهداهم إلى نيل الثواب ودخول الجنة، وبين بذلك قدرته على منافعهم ومضارهم. وبين انه لم يفعل ذلك، لانه يوجب زوال التكليف عنهم والله تعالى اراد بالتكليف تعريضهم للثواب الذي لا يحسن الابتداء به، ولو كان الامر على ماقلته المجبرة من ان الله تعالى شاء منهم الكفر لكانت الحجة للكفار على الله من حيث فعلوا ماشاء الله، وكان يجب ان يكونوا بذلك مطيعين له ولا تكون الحجة عليهم من حيث انه خلق فيهم الكفر وأراد منهم الكفر، فأى حجة مع ذلك.

قوله تعالى:

قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا فان شهدوا فلاتشهد معهم ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون (١٥٠)
آية بلاخلاف.

معنى هذه الآية ان الحجاج بأن الطريق الموصل إلى صحة مذهبهم غير منسداد لم يثبت من جهة حجة عقل ولاسمع. ومالم يصح ان يثبت من

(٣١٢)

أحد هذين الوجهين باطل لامحالة، لان ما لا يصح ان يعلم فاسد لامحالة.
امر الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) ان يقول لهؤلاء الكفار الذين تقدم وصفهم " هلموا ومعناه هاتوا. وهلم كلمة موضوعة للجماعة بني مع (ها) فصار بمنزلة الصوت نحو (صه) قال الاعشى:

وكان دعاقومه دعوة * هلم إلى أمركم قد صرم (١)

ومن قال: هلموا، فانه لم يبينه مع (ها) بل قدره على الانفصال.

والاول أفصح، لانه لغة القرآن، وهي لغة اهل الحجاز. واهل نجد يقولون:

هلم وهلموا وهلمي وهلميا وهلمن، قال سيبويه أصله (ها) ضم اليه (لم) فبني فقيل: هلم، وهات فصل ولم يتصل بمايبنى معه، فلذلك لايد ان يقال للجماعة: هاتوا. و (هلم) لفظ يتعدى تارة، واخرى لايتعدى، فاذاكانت بمعنى (هاتوا) فانها تتعدى مثل قوله " هلم شهداءكم " واذا كانت بمعنى (تعالوا) نحو " هلم الينا " (٢) فانها لا تتعدى ونظيره: عليك زيذا يتعدى إلى واحد، وعلي زيذا يتعدى إلى اثنين بمعنى أولني زيذا، ومثله من الفعل: رجع ورجعته، ولايجوز في

(هلم) الضم والكسر، كما يجوز في ورد: ورد. قال الزجاج: لأنها لا تتصرف على طريقة: فعل يفعل، مع ما اتصلت بهامن هاء.

ومعنى الآية هاتوا شهداءكم الذين يشهدون بصحة ماتدعون من ان الله حرم هذاالذي ذكرتموه. وقوله " فان شهدوا فلاتشهد معهم " فان قيل كيف دعاهم إلى الشهادة مع أنهم اذا شهدوا لم تقبل شهادتهم؟! قلنا عنه جوابان أحدهما - قال أبوعلي: لانهم لم يشهدوا على الوجه دعوا ان يشهدوا بينة عادلة تقوم بهاالحجة.

الثاني - شهداء من غيرهم، ولن يجدوا ذلك، ولو وجدوه ماوجب

(١) ديوانه ٣٤، ومجاز القرآن ١ / ٢٠٨ وتفسير الطبري ١٢ / ١٥٠، واللسان والتاج (ربيع) (٢) سورة ٣٣ الاحزاب آية ١٨

(٣١٣)

قبول شهاداتهم، لأنها لا ترجع الا إلى دعوى مجردة. ولكن المذهب مع هذه الحال أبعد عن الصواب، لانهم لا يجدون من يشهدلهم. وهو قول الحسن. وقوله " ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا " نهى من الله لنبيه والمراد به أمته ان يعتقدوا مذهب من اعتقد مذهبه هوى، ويمكن اتخاذ المذهب هوى من وجوه. احدها - هوى من سبق اليه فقلده فيه.

والثاني - ان يدخل عليه شبهة فيتخيله بصورة الصحيح مع ان في عقله مايمنع منه. ومنها - ان يقطع النظر دون غايته، للمشقة التي تلحقه فيعتقد المذهب الفاسد. ومنها - ان يكون نشأ على شئ وألفه واعتاده فيصعب عليه مفارقتة. وكل ذلك متميز مما استحسنة بعقله. وانما قال " الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة " وكلهم كفار ليفصل وجوه كفرهم، لان منه مايكون مع الاقرار بالآخرة كحال اهل الكتاب، ومنه مايكون مع الانكار كحال عبدة الاوثان. وقوله " وهم بربهم يعدلون " معناه يعدلون به عن الحق لاتخاذهم مع الله شركاء وازافتهم اليه مالم يقله وافترائهم عليه.

وفي الآية دلالة على فساد التقليد لانه لو كان التقليد جائزا لما طالب الله الكفار بالحجة على صحة مذهبهم، ولما كان عجزهم عن الايتان بهادلالة على بطلان ما ذهبوا اليه. قوله تعالى:

قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم ممن إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن

(٣١٤)

ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصيكم به لعلكم تعقلون (١٥١) آية بلاخلاف.
لما حكى الله تعالى عن هؤلاء القوم انهم حرموا ما لم يحرمه الله وأحلوا ما حرمه، قال لنبيه " قل لهم " تعالوا " حتى أبين لكم ما حرمه الله.
و (تعالوا) معناه أدنوا، وهو مشتق من العلو، وتقديره كأن الداعي في المكان العالي، وان كانا في مستوى من الارض كما يقال للانسان: ارتفع إلى صدر المجلس.
وقوله " ائل " مشتق من التلاوة مثل القراءة. والمتلو مثل المقروء، فالمتلوا هو المقروء الاول، والتلاوة هي الثاني منه على طريق الاعداء، وهو مثل الحكاية والمحكي. وقوله " ائل " مجزوم بأنه جواب الامر، وعلامة الجزم فيه حذف الواو، ومن شأن الجازم أن يأخذ الحركة اذا كانت على الحرف، فان لم يكن هناك حركة أخذ نفس الحرف.
وقوله " ما حرم ربكم " (ما) في موضع نصب ب (أئل) وهي بمعنى الذي، وتقديره أئل الذي حرم ربكم عليكم: ان لا تشركوا به شيئاً، ويجوز ان يكون نصبا ب (حرم) وتقديره أي شيء حرم ربكم، لان (أئلوا)
بمنزلة أقول.

وقوله " ان لا تشركوا به شيئاً " يحتمل موضع (ان) ثلاثة اوجه من الاعراب:
احدها - الرفع على تقدير ذلك ان لا تشركوا به شيئاً.
والثاني - النصب على تقدير أوصى ان لا تشركوا به شيئاً.
وقيل فيه وجه رابع - ان يكون نصبا ب (حرم) وتكون (لا) زائدة، وتقديره حرم ربكم ان تشركوا به شيئاً، كما قال " مامنك ان لا تسجد " (١) ونظائر ذلك قد قدمنا طرفاً منها. وموضع تشركوا يحتمل امرين، احدهما -

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١١

(٣١٥)

النصب ب (ان). الثاني - الجزم ب (لا) على النهي.
وقال ابو جعفر (عليه السلام): ادنى الشرك الرياء.
وقوله " وبالوالدين احساناً " العامل فيه (أمر) أي امر بالوالدين إحساناً، وأوصى بالوالدين احساناً. ودليله من وجهين: احدهما - ان في (حرم كذا) معنى اوصى بتحريمه، وامر بتجنبه. الثاني " ذلكم وصاكم به " وقوله " ولا تقتلوا اولادكم من اطلاق " عطف بالنهي على الخبر، لان قوله " ولا تقتلوا " نهى، وقوله اوصى ألا تشركوا به شيئاً، وأوصى بالوالدين احساناً خبر،

وجاز ذلك كماجاز في قوله " قل اني امرت ان اكون اول من أسلم ولا تكونن من المشركين
(٢) وقال الشاعر:

حج وأوصى بسليمى الاعد * ان لاقرى ولا تكلم أحدا
ولاتمش بفضاء بعدا * ولايزل شرابها مبردا (٣)

والاملاق: الافلاس من المال والزاد يقال: املق إملاقا ومنه الملق لانه اجتهاد في تقرب
المفلس للطمع في العطية.

وقال ابن عباس وقتادة والسدي وابن جريح والضحاك: الاملاق الفقر، نهاهم الله ان يقتلوا
أولادهم خوفا من الفقر. وقال " نحن نرزقكم واياهم " وقوله " ولاتقربوا الفواحش " نهى عن
الفواحش وهي القبائح. وقيل:

الفاحش العظيم القبح، والقبيح يقع على الصغير والكبير، لانه يقال القرد قبيح الصورة ولايقال
فاحش الصورة. وضد القبيح الحسن وليس كذلك الفاحش. قال الرماني ويدخل في الاية النهي
عن الصغير، لان قرب الفاحش عمل الصغير من القبيح. وقوله " مظهر منها ومابطن " قيل
في معناه قولان:

أحدهما - قال ابن عباس والضحاك والسدي: كانوا لا يرون بالزنا بأساسرا، ويمنعون منه
علانية، فنهى الله عنه في الحاليتين.

(٢) سورة ٦ الانعام آية ١٤ (٣) مجاز القرآن ١ / ٣٦٤ وتفسير الطبري ١٢ / ٢١٦

(٣١٦)

الثاني - لئلا يظن ويتوهم ان الاستبطن جائز.

وقال ابو جعفر (عليه السلام) مظهر هو الزنا، وما بطن المخالفة.

وقيل معناه ما علن وما خفي يعني من جميع أنواع الفواحش وهواهم فائدة.

وقوله " ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق " فالنفس المحرم قتلها هي نفس المسلم
والمعاهد دون الكافر الحربي، والحق الذي يستباح به قتل النفس المحرمة ثلاثة اشياء: قود
بالنفس الحرام، والزنا بعد احصان، والكفر بعد الايمان.

وقوله " ذلكم وصاكم به " خطاب لجميع الخلق " لعلمكم تعقلون " معناه لكي تعقلوا عنه
ما وصاكم به فتعملوا به.

قوله تعالى:

ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لانكف نسفاً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصيكم به لعلكم تذكرون (١٥٢) آية بلاخلاف.

قرأ أهل الكوفة الأبأبكر " تذكرون " بتخفيف الذال حيث وقع.

الباقون بالتشديد. قال سيبويه: ذكرته نكراً مثل شرباً، قال أبو علي:

(ذكر) فعل يتعدى إلى مفعول واحد، كقوله " فاذكروني اذكركم " (١)

فاذا ضاعفت العين تعدى إلى مفعولين كقولك ذكرته إياه قال الشاعر:

يذكر نيك حنين العجول * ونوح الحمامة تدعو هديلاً

فان نقله بالهمزة كان كنقله بالتشديد، وتقول: ذكرته فتذكر، لان تذكر مطاوع (فعل) كمتفاعل

مطاوع فاعل، قال تعالى " اذا مسهم طائف

(١) سورة ٢ البقرة آية ١٥٢

(٣١٧)

من الشيطان تذكروا " (٢) وقد تعدى تفعلت قال الشاعر:

تذكرت أرضاً بها أهلها * أحوالها فيها وأعامها

وأشد أبو زيد: تذكرت ليلي لات حين أنكارها * وقد حني الاضلال ضلاً بتضلال

فقال انكارها، كما قال " وتبتل اليه تبتيلاً " (٣) ونحو ذلك مما لا يحصى مما لا يجي المصدر

على (فعل)، وجاء المصدر على (فعل) بالف التأنيث، فقالوا ذكرى وقالوا في الجمع الذكر،

فجعلوه بمنزلة (سدر، وسدر)

وقالوا: الذكر بالذال غير المعجمة حكاة سيبويه، والمشهور بالذال.

فمن قرأ بتشديد الذال اراد يتذكرون ويأخذون به، ولا يطرحونه وادغم التاء في الذال،

والمعنى يتذكرون، كما قال " والنهار خلفه لمن اراد ان يذكر " (٤) أي يتفكر وقال " اولاً

يذكر الانسان " (٥) معناه اولاً يتفكر، وقال " ولقد صرفناه بينهم ليذكروا " (٦) أي ليتفكروا

فيه.

ومن قرأ - بتخفيف الذال - اراد لكي يذكروه ولا ينسوه فيعملوا به.

والقراءتان متقاربتان غير ان هذا حذف التاء الاولى، والاولون ادغموا التاء في الذال.

والمعنى فيها لعلكم تتذكرون.

هذه الآية عطف على ما حرم الله في الآية الاولى واوصى به، فنهى في هذه الآية ان تقربوا

مال اليتيم الابالتي هي احسن، والمراد بالقرب التصرف فيه، وانما خص اليتيم بذلك وان

كان واجبا في كل احد، لان اليتيم لما كان لا يدفع عن نفسه ولاله والد يدفع عنه، فكان الطمع في ماله أقوى تأكد النهي في التصرف في ماله.
وقوله " الابالتي هي أحسن " قيل في معناه ثلاثة أقوال:

(٢) سورة ٧ الاعراف آية ٢٠٠ (٣) سورة ٧٣ المزمل آية ٨ (٤) سورة ٢٥ الفرقان آية ٦٢ (٥) سورة ١٩ مريم آية ٦٧ (٦) سورة ٢٥ الفرقان آية ٥٠

(٣١٨)

احدها - حفظه عليه إلى ان يكبر فيسلم اليه.
وقيل معناه تثميره بالتجارة في قول مجاهد والضحاك والسدي.
والثالث - مقاله ابن زيد: ان يأخذ القيم عليه بالمعروف دون الكسوة.
وقوله " حتى يبلغ أشده " اختلفوا في حد الاشد، فقال ربيعة وزيد بن أسلم ومالك وعامر الشعبي: هو الحلم. وقال السدي: ثلاثون سنة. وقال قوم: ثماني عشرة سنة. لانه اكثر ما يقع عندهم البلوغ واستكمال العقل.
وقال قوم قوم: انه لاحد له وانما المراد به حتى يكمل عقله ولا يكون سفيها يحجر عليه.
والمعنى حتى يبلغ اشده فيسلم اليه ماله او يأذن في التصرف في ماله، وحذف لدلالة الكلام عليه. هذا أقوى الوجوه.
وواحد الاشد قيل فيه قولان:

احدهما - شد مثل اضر جمع ضر، واشد جمع شد. والشد القوة، وهو استحكام قوة شبابه وسنه، كما شد النهار ارتفاعه. وحكى الحسين بن على المغربي عن أبي اسامة أن واحدة شدة. مثل نعمة وانعم. وقال بعض البصريين: الاشد واحد مثل الافك. ومن قال ان واحده شد استدل بقول عنتره:

عهدي به شد النهار كأنما * خضب البنان ورأسه بالعظم (١)
هكذا رواه المفضل الضبي. وقال الاخر:

يطيف به شد النهار ظعينه * طويلة انقاء اليبدين سحق (٢)
وقوله " ووفوا الكيل والميزان بالقسط " أمر من الله بتوفية كيل مايكال وتوفية وزن ما يوزن بالقسط يعني بالعدل * وفاء من غير بخس.
وقوله " لانكف نفسا الا وسعها " معناه هنا انه لما كانا لتعويل في الوزن والكيل على التحديد من اقل القليل يتعذر، بين انه لا يلزم في ذلك الاجتهاد في التحرز.

(٣١٩)

وقوله " واذا قلتُم فأعدلوا " يعني قولوا الحق. ولو كان على ذي قرابة لكم. وانما خص القول بالعدل دون الفعل، لان من جعل عادته العدل في القول دعاه ذلك إلى العدل في الفعل، لان ذلك من أكد الدواعي اليه والبواعث عليه.

وقوله " وبعهد الله اوفوا " قيل في معنى العهد هاهنا قولان:

احدهما - كل ماأوجبه على العبد فقد عهد اليه بايجابه عليه وتقديم القول فيه والدلالة عليه.

الثاني - قال ابوعلي عهد الله الحلف بالله، فاذا حلف في غير معصية الله

وجب عليه الوفاء. وقوله " ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون " قيل في معناه قولان:

احدهما - لئلا تغفلوا عنه فتتركوا العمل به والقيام بمايلزم منه.

الثاني - لتذكروا كل مايلزمكم بتذكر هذا فتعملوا به.

قوله تعالى:

وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصيكم به لعلكم

تتقون (١٥٣)

آية بلاخلاف.

قرأ الكسائي وحمزة " وان هذا " بكسر الهمزة. الباقرن بفتحها.

وكلهم شدد النون الابن عامر فأنه خففها. وكلهم سكن الياء من (صراطي)

الابن عامر فانه فتحها. وبه قرأ يعقوب. وقرأ ابن كثير وابن عامر " سراطي " بالسين. الباقرن

بالصاد الا حمزة، فانه قرأ بين الصاد والزاي. وروى ابن فليح والبزي الا القواس " فتفرق "

بتشديد التاء. ووجهه ان أصله (فتتفرق)

فأدغم احدهما في الاخرى.

ومن فتح (أن) احتمل ذلك وجهين:

(٣٢٠)

احدهما - ان يكون عطفاً على " ان لا تشركوا " .

والثاني - ولان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه.

ومن كسر (ان) احتمل ايضاً وجهين: احدهما - عطفه على " اتل ما حرم ربكم " وائل " ان هذا

" بمعنى اقول. والثاني - استأنف الكلام.

ومن خفف (ان) فأن المخففة في قوله تتعلق بما تتعلق به المشددة.
وموضع (هذا) رفع بالابتداء وخبره (صراطي) وفي (ان) ضمير القصة والشأن. وعلى هذه الشريطة تخفف، وليست المفتوحة كالمكسورة اذا خففت. والفاء في قوله " فاتبعوه " على قول من كسر (ان) عاطفة جملة على جملة. وعلى قول من فتح زائدة ونصب " مستقيما " على الحال. " والفائدة ان هذا صراطي وهو مستقيم، فاجتمع له الامران، ولو رفع مستقيم، لما أفاد ذلك.

وانما سمي الله تعالى ان ما بينه وذكره من الواجب والمحرم صراط وطريق لان امتثال ذلك على ما أمر به يؤدي إلى الثواب في الجنة، فهو طريق إليها، والى النعيم فيها قوله " فاتبعوه " أمر من الله تعالى باتباع صراطه ومشرعه للحق. وطريق اتباع الشرع - وفيه الحرام والحلال والمباح - هو اعتقاد ذلك فيه، والعمل على ما ورد الشرع به فيفعل الواجب والندب، ويجتنب القبيح، ويكون مخيرا في المباح. ولا يجب فعل جميعه، لان ذلك خلاف الاتباع. وانما قيل لاعتقاد صحة الشرع اتباع له، لانه تعالى اذا حظر شيئا أو حظر تركه كان حكمه، ووجب اتباعه في انه محرم وواجب، وكذلك الندب والمباح.

وقوله " ولا تتبعوا السبل " يعني سبل الشيطان واتباع اهل البدع من اليهود والنصارى وغيرهم، فنهى تعالى عن اتباع ذلك فان اتباع غير سبيله تصرف عن اتباع سبيله، ولا يمكن ان يجتمعا " ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون " معناه امركم به وأوصاكم بأمتثاله لكي تتقوا عقابه بأجتتاب معاصيه.

(٣٢١)

وانما اتى بلفظة (لعل) لان المعنى انكم تعاملون في التكليف والجزاء معاملة الشك للمظاهرة في العدل.

قوله تعالى:

ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذي أحسن وتفصيلا لكل شئ وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون (١٥٤) آية بلاخلاف قيل في معنى قوله " ثم آتينا موسى الكتاب " مع ان كتاب موسى قبل القرآن و (ثم) تقتضي التراخي قولان:

احدهما - ان فيه خذفا، وتقديره: ثم ائله " آتينا موسى الكتاب " وقال ابومسلم عطفه على المنن التي امتن بها على ابراهيم من قوله " ووهبنا له اسحاق " إلى قوله " إلى صراط مستقيم " واستحسنه المغربي.

وقوله " تماما على الذي أحسن " قيل فيه خمسة أقوال:

أحدها - قال الربيع والفراء: تماما على احسانه اي احسان موسى كأنه قال ليكمل احسانه الذي يستحق به كمال ثوابه في الآخرة.

الثاني - قال مجاهد: تماما على المحسنين. وقيل في قراءة عبدالله " تماما " على الذين احسنوا " كأنه قيل اتماما للعنة على المحسنين الذين هو أحدهم.

الثالث قال ابن زيد: تماما على احسان الله إلى انبيائه.

الرابع - قال الحسن وقتادة: لتمام كرامته في الجنة على احسانه في الدنيا.

الخامس - قال ابو علي: تماما على احسان الله إلى موسى بالنبوة، وغيرها من الكرامة. وقال أبو مسلم تماما على الذي احسن ابراهيم، فجعل ما اعطى موسى منة على ابراهيم واجابة لدعوته

بما تقدم من احسانه وطاعته، وذلك اذ يقول ابراهيم " واجعل لي لسان صدق في الآخرين " (١).

وقوله " تماما على الذي " يقتضي مضاعفة (عليه). ولو قال: تماما،

(١) سورة ٢٦ الشعراء آية ٨٤

(٣٢٢)

لدل على نقصانه قبل تكميله. وقوله " أحسن " في موضع خفض عند الفراء، زعم ان العرب تقول مررت بالذي خير منك، وبالذي أخيك. ولا يقولون:

بالذي قائم، لانه نكرة وأنشد عن الكسائي:

ان الزبيري الذي مثل الحكم * مشى بأسلاك في اهل العلم (٢)

قال الزجاج: أجمع البصريون على انه لا يجوز ذلك، لان (الذي)

يقتضي صلة، ولا يصح ان يوصف الابدع تمام وصلته.

وقوله " وهدى ورحمة " صفتان للكتاب الذي أنزله على موسى، ومعناه حجة ورحمة " وتفصيلا لكل شئ " مثل ذلك. وقوله " لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون " معناه لكي يؤمنوا بجزء

ربهم، فسمى الجزاء لقاء الله تفخيما لشأنه وتعظيماله مع الاختصار والايجاز. و (تماما) و (تفصيلا) نصب على انه مفعول له، وتقديره إنا فعلنا للتمام والتفصيل لكل ما شرعنا له. وروي

في الشواذ (أحسن) رفعا وتقديره على الذي هو أحسن.

قوله تعالى:

وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون (١٥٥) آية بلاخلاف.

قوله " وهذا " اشارة إلى القرآن، وصفه بأنه كتاب انزله الله وانما وصفه بأنه كتاب وان لم يكن قرآنا من اجل انه يكتب، لانه لما كان التقييد بالكتاب من اكثر ما يحتاج اليه في الدلائل والحكم، وصف بهذا الوصف.

ليبان انه مما ينبغي ان يكتب، لانه اجل الحكم، وذكر في هذا الموضع بهذا الذكر ليقابل ما تقدم من ذكر كتاب موسى (ع).

وقوله " مبارك " فالبركة ثبوت الخير بزيادته ونموه، واصله الثبوت، ومنه (تبارك) أي تعالى بصفة اثبات لاول له ولآخر، وهذا تعظيم.

(٢) معاني القرآن ١ / ٣٦٥ وتفسير الطبري ١٢ / ٢٣٤.

(٣٢٣)

لايستحقه غير الله تعالى. ورفع به بأنه صفة للكتاب، ولو نصب على الحال كان جائزا غير ان الرفع يدل على لزوم الصفة للكتاب، والنصب يجوز ان يكون الحالة عارضة في وقت الفعل. وقوله " فاتبعوه " امر من الله باتباعه وتدبر وما فيه وامتناله.

وقوله " واتقوا " امر منه تعالى باتقاء معاصيه، وتجنب مخالفة كتابه.

وقوله " لعلمكم ترحمون " أي لكي ترحموا، وانما قال " اتقوا لعلمكم ترحمون " مع انهم اذا اتقوا رحموا لامحالة لامرين:

احدهما - اتقوا على رجاء الرحمة، لانكم لاتدرون بماتوفون في الاخرة.

الثاني - اتقوا لترحموا، ومعناه ليكن الغرض بالتقوى منكم طلب ما عند الله من الرحمة والثواب.

قوله تعالى:

أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين (١٥٦) آية بلاخلاف.

العامل في (أن) قوله " أنزلناه " وتقديره لان لاتقولوا، فحذف (لا)

لظهور المعنى في انه أنزله لئلا يكون لهم حجة بهذا، وحذف (لا) في قول الفراء، وقال الزجاج: تقديره كراهة ان تقولوا، ولم يجر حذف (لا) ههنا، واذا كان يجوز حذف المضاف في غير (ان) فهو مع (أن) اجدر، لطولها بالصلة، و (ان) اذا كانت بمعنى المصادر تعمل، ولاتعمل اذا كانت بمعنى (أي) لان هذه تختص بالفعل، والاخرى تدخل للتفسير، فتارة تفسير جملة من ابتداء وخبر، وتارة جملة من فعل وفاعل.

وقوله " انما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا " معنى (انما) الاختصاص، وانما كان كذلك، لان (أن) كانت تحقيقا بتخصيص المعنى مما خالفه، فلما صحبتها (ما) ممكنة لها ظهر هذا المعنى فيها.

(٣٢٤)

والمعنى " بالطائفتين من قبلنا " اليهود والنصارى - في قول ابن عباس والحسن ومجاهد وابن جريج وقتادة والسدي - وانما خصا بالذكر لشهرتهما ولظهور أمرهما. وقوله " وان كناعن دراستهم لغافلين " اللام في قوله " لغافلين " لام الابتداء، ولا يجوز ان يعمل ما قبلها فيما بعدها الا في باب (إن) خاصة لانها زحقت معها عن الاسم إلى الخبر للفصل بين حرفين بمعنى واحد، وتقدير الآية: انا أنزلنا الكتاب الذي هو القرآن لئلا يقولوا: انما أنزل الكتاب على اليهود والنصارى، ولم ينزل علينا، ولو أريد منا ما أريد ممن قبلنا لانزل لنا كتابا كما أنزل على من قبلنا " وان كنا عن دراستهم لغافلين " وتقديره وان كنا غافلين عن تلاوة كتبهم يعني الطائفتين اللتين أنزل عليهم الكتاب، لانهم كانوا أهله دوننا. قوله تعالى:

أو تقولوا لو أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنا سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون (١٥٧) آية بلاخلاف.

هذه الآية عطف على ما قبلها والتقدير: انا أنزلنا القرآن المبارك لئلا يقولوا: انه ما أنزل علينا الكتاب، كما أنزل على من قبلنا، او يقولوا: لو أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم في المبادرة إلى قبوله والتمسك به، كما يقول القائل: لو أتيت بدليل لقبلته منك. ومثل هذا يستبق إلى النفس.

وقوله " أهدى منهم " فلا دلالة بالاذهان والافهام. وقد يكون العارف بالشئ أهدى إليه من عارف آخر، بأن يعرفه من وجوه لا يعرفها الاخر، وبأن

(٣٢٥)

يكون ما يعرفه به أثبت مما يعرفه به الاخر. قال الرماني: والفرق بين الهداية والدلالة ان الهداية مضمنة بأنها نصبت ليهتدي بها صاحبها، وليس كذلك الدلالة، قال: ولذلك كثر تصرفها في القرآن، كما كثر تصرف الرحمة، لانها على

المحتاج. وهذا فرق غير صحيح لان الدلالة أيضا لاتسمى دلالة الا اذا نصبت ليستدل بها،
ولذلك لايقال:

للص دل على نفسه اذا فعل آثار امكن ان يستدل بهاعلى مكانه، ولم يقصد ذلك.
وقوله " لوأنا " فتحت (ان) بعد (لو) مع انه لايقع فيه المصدر، لان الفعل مقدر بعد (لو) كأنه
قيل: لو وقع الينا أناأنزل هذا الكتاب علينا، الآن هذا الفعل لا يظهر من اجل طول (ان)
بالصلة، ولايحذف مع المصدر الا في الشعر قال الشاعر:

لوغيركم علق الزبير بحبله * أدى الجوار إلى بني العوام

فقال الله لهم " فقد جاءكم بينة من ربكم " يعني حجة واضحة " وهدى ورحمة " وادلة مؤدية
إلى الحق، ورحمة منه تعالى وانعام " فمن أظلم ممن كذب بآيات الله " يعني فمن أظلم لنفسه
ممن كذب بآيات الله " وصدف عنها " أي اعرض عنها غير مستدل بها ولا مفكر فيها. وهو
قول ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي.

فان قيل كيف قال " فمن أظلم ممن كذب بآيات الله " بأن يجدها، ولو فرضنا انه ضم إلى ذلك
قتل النفوس وانتهاك المحارم كان اظلم؟.

قلنا عنه جوابان:

احدهما - للمبالغة لخروجه إلى المنزلة الداعية إلى كل ضرب من الفاحشة.

والاخر - انه لاخصلة ممن ظلم النفس اعظم من هذه الخصلة.

ثم قال تعالى " سنجزي الذين يصدفون " أي يعرضون " عن آياتنا سوء العذاب " أي شديده "
بما كانوا يصدفون " أي جزاء بما كانوا يعرضون

(٣٢٦)

وهو ماأعد الله للكفار نعوذبالله.

فان قيل: فهل للذين ماتوا قبل من خوطب بهذه الاية ان يقولوا هذا القول؟ قيل: لا، ليس له
ذلك، لان عذره كان مقطوعا بعقله، وبما تقدم من الاخبار والكتب وهؤلاء أيضا لو لم يأتهم
الكتاب والرسول لم يكن لهم حجة، لكن فعل الله تعالى ما علم ان المصلحة تعلقت به لهؤلاء،
ولو علم ذلك فيمن تقدم، لانزل عليهم مثل ذلك، لكن لما لم ينزل عليهم علمنا ان ذلك لم يكن من
مصلحتهم.

قوله تعالى:

هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفذ نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا قل انتظروا إنا منتظرون (١٥٨) آية.

قرأ حمزة والكسائي " يأتيهم الملائكة " بالياء. الباقر بالتاء.
وقدمضى الكلام في أمثال ذلك فيما مضى، فلاوجه للتطويل باعادته.
قوله " هل ينظرون " ماينتظرون، يعني هؤلاء الكفار الذين تقدم ذكرهم. وقال ابوعلي: معناه هل تنتظر انت يا محمد واصحابك الاهذا؟ وهم وان انتظروا غيره فذلك لايعتد به في جنب ما تنتظرونه من الاشياء المذكورة لعظم شأنها، وهو مثل قوله " ومارميت اذ رميت ولكن الله رمى " (١)، وتكلمت ولم تتكلم بما لايعتد به.
وقوله " الاأن يأتيهم الملائكة " يعني لقبض ارواحهم. وقال مجاهد وقتادة والسدي: تأتيهم الملائكة، لقبض ارواحهم " او يأتي ربك " أي يوم

(١) سورة ٨ الانفال آية ١٧.

(٣٢٧)

القيامة " او يأتي بعض آيات ربك "، كطلوع الشمس من مغربها.
وقوله " او يأتي ربك " قيل في معناه قولان:
احدهما - او يأتي امر ربك بالعذاب. وحذف المضاف واقام المضاف اليه مقامه، ومثله " وجاء ربك " (٢) وقوله " ان الذين يؤذون الله ورسوله " (٣)
يعني يؤذون اولياء الله.
الثاني - او يأتي ربك بعظم آياته فيكون (يأتي) به على معنى الفعل المعتدي، ومثل ذلك قول الناس: اتانا الروم يريدون اتانا حكم الروم وسيرتهم.
وقوله " يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفذ نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل ". قيل في الايات التي تحجب من قبول التوبة ثلاثة أقوال:
احدها - قال الحسن، وروي عن النبي (ص) انه قال (بادروا بالاعمال قبل ستة: طلوع الشمس من مغربها، والدابة، والدجال، والدخان، وخويصة احدكم - اي موته - وامر القيامة) يعني القيامة.
الثاني - قال ابن معسود: طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الارض، وهو قول ابي هريرة.
الثالث - طلوع الشمس من مغربها رواها جماعة عن النبي (ص).

وقوله " او كسبت في ايمانها خيرا " قيل في معناه ثلاثة أقوال:

احدها - الابهام في احد الامرين:

الثاني - التغليب، لان الاكثر ممن ينتفع بايمانه حينئذ من كان كسب في ايمانه خيرا قبل.
الثالث - انه لا ينفعه ايمانه حينئذوان اكتسب فيه خيرا الا أن يكون ممن آمن قبل - في قول
السدي - ومعنى كسب الخير في الايمان عمل النوافل والاستكثار من عمل البر بعد اداء
الفرائض. والاول عندي أقواها،

(٢) سورة ٨٩ الفجر آية ٢٢ (٣) سورة ٣٣ الاحزاب آية ٥٧

(٣٢٨)

لان المعنى انه لا ينفع نفسا ايمانها الا اذا كانت آمنت قبل، فانها اذا آمنت قبل نفعها ايمانها
بانفرادها او اذا ضمت إلى ايمانها افعال الخير، فان ذلك ينفعها أيضا، فانه ازداد خيرا.
وقوله " قل انتظروا " خطاب للنبي (صلى الله عليه وآله) ان يقول لهؤلاء الكفار:
انتظروا اتيان الملائكة وهذه الايات، فانا منتظرون حصولها. ومعنى الاية الحث على المبادرة
إلى الايمان قبل الحال التي لا تقبل فيها التوبة، وهي ظهور الايات التي تقدم ذكرها، وفي ذلك
غاية التهديد.

قوله تعالى:

إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شئ إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا
يفعلون (١٥٩) آية.

قرأ حمزة والكسائي " فارقوا " بألف، وهو المروي عن علي (ع)

الباقون " فرقوا " بلالف مع تشديد الراء. والمعنيان متقاربان، لان القراءتين يؤلان إلى شئ
واحد، لان جميع ذلك مخالف لما يوجب دينهم، فهم بتفريقه من جهة اكفار بعضهم بعضا على
جهالة فيه مخالفون له، وهم بخروجهم عنه إلى غيره مفارقون له مخالفون. وقيل في المعنيين
بهذه الاية اربعة أقوال:

احدها - قال مجاهد: هم اليهود، لانهم كانوا يمالون عبدة الاوثان على المسلمين.

الثاني - قال قتادة: هم اليهود والنصارى، لان بعض النصارى يكفر بعضا وكذلك اليهود.

الثالث - قال الحسن هم جميع المشركين، لانهم جميعا بهذه الصفة.

الرابع - قال ابو جعفر (ع): هم اهل الضلالة والبدع من هذه الامة.

وهو قول ابي هريرة والمروي عن عائشة.

حذرهم الله تعالى من تفرق الكلمة ودعاهم إلى الاجتماع على ماتقوم عليه

(٣٢٩)

الحجة. والدين الذي فارقه: قيل فيه قولان:

الحجة. والدين الذي فارقه. وقيل فيه قولان:

قال ابو علي وغيره: هو الدين الذي امر الله باتباعه وجعله دينالهم.

الثاني - الدين الذي هم عليه، لانكار بعضهم بعضا بجهالة فيه.

ومعنى الشيع الفرق التي يمالئ بعضهم بعضا على امر واحد مع اختلافهم في غيره، وقيل اصله الظهور من قولهم: شاع الخبر يشيع اذا ظهر. وقال الزجاج: اصله الاتباع من قولك: شايعه على الامر اذا اتبعه.

وقوله " لست منهم في شئ " خطاب للنبي (صلى الله عليه وآله) واعلام له انه ليس منهم في شئ، وانه على المباحة التامة من ان يجتمع معهم في معنى من مذاهبهم الفاسدة، وليس كذلك بعضهم مع بعض، لانهم يجتمعون في معنى من الباطل وان افرقوا في غيره، فليس منهم في شئ، لانه برئ من جميعه وقال الفراء: معناه النهي عن قتالهم، ثم نسخ بقوله " فاقتلوا الشركين " (١)

وهو قول السدي.

اخبر الله تعالى ان الذين فرقوا دينهم - وخالفوه وباينوه وصاروا فرقا يمالئ بعضهم بعضا على أمر واحد مع اختلافهم في غيره - ليس النبي (صلى الله عليه وآله) منهم في شئ وانه مباين لهم لفساد ما هم عليه. ثم قال " انما امرهم الله. ثم ينبئهم بما كانوا يعملون " يعني ان الله تعالى هو الذي يخبرهم بأفعالهم ويجازيهم عليها دون غيره يعني يوم القيامة. قوله تعالى:

من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون (١٦٠) آية بلاخلاف.

يجوز في قوله " فله عشر أمثالها " ثلاثة أوجه: الجربا لاضافة، وعليه جميع القراء الا يعقوب. ورفع (أمثالها) مع التثوين على الصفة، وبه قرأ

(١) سورة ٩ التوبة آية ٦.

(٣٣٠)

الحسن ويعقوب. ونصبه على التمييز، كما تقول عندي خمسة أترابا ذكر ذلك الزجاج، والفراء.

ومعنى القراءة الاولى، فله عشر حسنات أمثالها، ويجوز في العربية فله عشر مثلها، فيكون المثل في لفظ الواحد وفي معنى الجمع، كما قال " انكم اذا مثلهم " (٢). ومن قال: أمثالها فهو كقوله " لا يكونوا امالكم " (٣)

وانما جاز في (مثل) التوحيد في معنى الجمع، لانه على قدر مايشبه به، تقول: مررت بقوم متلكم وبقوم أمثالكم. وقال الرماني: كالم يميز بالصورة فان جمعه يدل على الاختلاف، كقولك: رمال ومياه، فأما (رجال)

فلايدل على الاختلاف، لانه يتميز بالصورة، ويجوز ان يكون (المثل) في موضع الجمع ولايجوز مثل ذلك في (العدل) لان (المثل) لا يضاف إلى الجماعة الاعلى معنى انه مثل لكل واحدمنهم. وليس كذلك (العدل) لانه يكون لجماعتهم دون كل واحدمنهم.

وقال اكثر اهل العدل ان الواحد من العشرة مستحق وتسعة تفضل.

وقال بعضهم: المعنى فله من الثواب ثواب عشر حسنات أمثالها، وهذا لايجوز، لانه يقبح ان يعطي غيرالعامل مثل ثواب العامل كما يقبح ان يعطي الاطفال مثل ثواب الانبياء ومثل اجلالهم واکرامهم وان يرفع منزلتهم عليهم.

وانما لم يتوعد على السيئة الابمئثها، لان الزائد على ذلك ظلم. والله يتعالى عن ذلك، وزيادة الثواب على الجزاء تفضل واحسان فجاز ان يزيد عليه. قال الرماني: ولايجوز على قياس عشرة أمثالها عشر صالحات بالاضافة لان المعنى ظاهر في ان المراد عشر حسنات امثالها، وقال غيره لان الصالحات لاتعد، لانها اسماء مشتقة. وانما تعد الاسماء. و (المثل) اسم فلذلك جاز العدد به، وقال الرماني: دخول الهاء في قوله (الحسنة) يدل على ان تلك الحسنة ماهو مباح لايستحق عليه المدح والثواب. ولو قيل: دخول الالف

(٢) سورة ٤ النساء آية ١٣٩ (٣) سورة ٤٧ محمد آية ٣٨

(٣٣١)

واللام فيهايدل على ان الحسنة هي المأمور بها، ودخلا للعهد، والله لا يأمر بالمباح، لكان اقوى مماقاله، ويجوز أن يكون التفضل مثل الثواب في العدد والكثرة، ويتميز منه الثواب بمقارنة التعظيم والتبجيل اللذين لولاهما لماحسن التكليف. وانما قلنا: يجوز ذلك لان وجه حسن ذلك: الاحسان والتفضل، وذلك حاصل في كل قدر زائد. وفي الناس من منع من ان يساوي التفضل الثواب في باب الكثرة. والصحيح ماقلناه اولاً.

فان قيل: كيف تجمعون بين قوله " فله عشر أمثالها " وبين قوله " مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة " (١) وقوله " من ذا الذي

يقرض الله قرضا حسنا فيضا عفه له أضعافا كثيرة " (٢) ولان المجازاة بدخول الجنة مثابا فيها على وجه التأبيد، لانهاية له، فكيف يكون ذلك عشر أمثالها، وهل هذا الا ظاهر التناقض؟ ! قلنا: الجواب عن ذلك ما ذكره الزجاج وغيره: ان المعنى في ذلك ان جزاء الله على الحسنات على التضعيف للمثل الواحد الذي هو النهاية في التقيد في النفوس، ويضاعف الله عن ذلك بمابين عشرة اضعاف إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ففائدة ذلك انه لا ينقص من الحسنة عن عشر أمثالها، وفيما زاد على ذلك يزيد من يشاء من فضله واحسانه. وقال قوم: المعنى من جاء بالحسنة فله عشر أمثال المستحق عليها، والمستحق مقداره لا يعلمه الا الله وليس يريد بذلك عشر أمثالها في العدد، كما يقول القائل للعامل الذي يعمل معه: لك من الاجر مثل ما عملت اي مثل ما تستحقه بعملك. وقال آخرون: المعنى في ذلك ان الحسنة لها مقدار من الثواب معلوم لله تعالى فأخبر الله تعالى انه لا يقتصر بعباده على ذلك بل يضاعف لهم الثواب حتى تبلغ ذلك ما أراد وعلم أنه أصلح لهم، ولم يرد العشرة بعينها لكن اراد الاضعاف

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٦١ (٢) سورة ٢ البقرة آية ٢٤٥

(٣٣٢)

كما يقول القائل: لئن اسديت الي معروف لا كافينك بعشرة أمثاله، وعشرة اضعافه. وفي الوعيد لئن كلمتني واحدة لا كلمتك عشرة، وليس يريدون بذلك العدد المعين لا اكثر منها، وانما يريدون ما ذكرناه. وقال قوم: عني بهذه الاية الاعراب، واما المهاجرون فحسناتهم سمع مئة، ذهب اليه ابوسعيد الخدري، وعبدالله بن عمر. وقال قوم: معنى " عشر أمثالها " لانه كان يؤخذ منهم العشر في الزكاة، وكانوا يصومون في كل شهر ثلاثة ايام والباقي لهم. وقال قوم " من جاء بالحسنة " يعني الايمان، فله يعني للايمان عشر أمثالها، وهو ما ذكره في قوله " ان المسلمين والمسلمات.. " (١) إلى آخر الاية. وهذان الوجهان قريبان، والمعتمد ما قدمناه من الوجوه. وقال اكثر المفسرين: ان السيئة المذكورة في الاية هي الشرك، والحسنة المذكورة فيها هي التوحيد واطهار الشهادتين. فان قيل كيف يجوز الزيادة في نعم المثابين مع ان الثواب قد استغرق جميع مناهم وما يحتملونه؟ قلنا عنه جوابان: احدهما - انه ليس للمنية نهاية مما يحتمله من اللذات.

والثاني - ان يزداد في البنية والقوة مثل أن يزداد في قوة البصر حتى يرى الجزء الذي لا يتجزء وان لم يزد في اخفاء الانسان.
قوله تعالى:

قل إنني هديني ربي إلى صراط مستقيم (١٦١) ديناقبما ملء إبرهيم حنيفا وماكان من
المشركين (١٦٢) آيتان.
قرأ ابن عامر واهل الكوفة " قيما " بكسر القاف وتخفيف الياء وفتحها.
الباقون بفتح القاف مع تشديد الياء.

(١) سورة ٣٣ الاحزاب آية ٣٥

(٣٣٣)

من قرأ بتشديد الياء فحجته قوله " وذلك دين القيمة " (١) كأنه قال دين الملة القيمة، ويكون
وصفا للدين اذاكان نكرة، كما كان وصفا للملة، لان الملة هي الدين. قال ابوالحسن: قال اهل
المدينة " دينا قيما " وهي حسنة، ولم اسمعها من العرب. قال ابوالحسن: وهو في معنى
المستقيم.

فأما من قرأ بالتخفيف، فانه اراد المصدر، مثل الشبع، ولم يصحح (عوض وحول). قال
الزجاج: لانه جاء على (فعل) معتل، وهو (قام)
والاصل (قوم، اقوم قوما) قال ابوعلي: وكان القياس يقتضى ان يصحح، لكنه شذ عن القياس،
كماشذ (اشياء) ونحوه عن القياس نحو (ثيرة) في جمع (ثور) ونحو (جياذ) في جمع (جواد)
وكان القياس الواو، كماقالوا:
طويل وطوال قال الاعشى:

جياذك في الصيف في نعمة تصا * ن الجلال وتعطى الشعيرا (٢)

وقوله " دينا قيما " يحتمل نصبه ثلاثة اوجه:

أحدها - انه قال " انني هداني ربي إلى صراط مستقيم " واستغنى بجري ذكر الفعل عن
ذكره، فقال " دينا قيما " كما قال " اهدنا الصراط المستقيم ".

والثاني - نصبه على تقدير عرفني، لان هدايتهم اليه تعريف لهم فحمله على عرفني دينا قيما.
وقال الزجاج: معناه عرفني دينا قيما. ان شئت حملته على الاتباع كما قال " اتبعوا ماأنزل "
(٣) وقال الفراء: هونصب على المصدر، كأنه قال هداني اهتداء، ووضع (دينا) موضعه.

أمر الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله) ان يقول للخلق وخاصة لهؤلاء الكفار " انني هداني ربي
" وقيل في معنى الهداية قولان:

(١) سورة ٩٨ البينة آية ٥ (٢) ديوانه: ١٧

(٣) سورة ٢ البقرة آية ١٧٠

(٣٣٤)

أحدهما - قال ابو علي: اراد بالهداية الدلالة وأضافه إلى نفسه دونهم، وان كان قد هداهم أيضا، لانه اهتدى دونهم.

وقال غيره: اراد به لطف لي ربي في الاهتداء.

و " إلى صراط مستقيم " قد فسرناه في غير موضع. وانه الطريق الموصل إلى ثواب الله من غير اعوجاج، وانما قال " إلى صراط مستقيم " - ههنا - وقال في موضع آخر " ويهديك صراطا مستقيما " (٤)، لانه اذا ضمن معنى النهاية دخلت (إلى) واذالم تضمن لم تدخل (إلى) وصار بمعنى عرفني.

والاول بمنزلة ارشدي، وانما كرر (مستقيم، وقيم) للمبالغة، كأنه قال:

هو مستقيم على نهاية الاستقامة. وقوله " ملة ابراهيم فالملة الشريعة وهي مأخوذة من الاملاء " كأنه ما يأتي به السمع ويورده الرسول من الشرائع المتجددة فيمله على امته ليكتب او يحفظ.

فأما التوحيد والعدل فواجبان بالعقل، ولا يكون فيهما اختلاف.

والشرائع تختلف، ولهذا يجوز ان يقال ديني دين الملائكة. ولا يقال ملتي ملة الملائكة. والملة دين، وليس كل دين ملة. وانما وصف دين النبي (صلى الله عليه وآله) بأنه ملة ابراهيم ترغيبا فيه للعرب لجلالة ابراهيم في نفوسهم وغيرهم من أهل الاديان.

وقوله " حنيفا " معناه مخلصا لعبادة الله في قول الحسن. واصله الميل من قولهم: رجل احنف اذا كان مائل القدم باقبال كل واحدة منهما على الاخرى من خلقة لامن عارض. وقال الزجاج: الحنيف هو المائل إلى الاسلام ميلا لازما لارجوع معه. وقال ابو علي: اصله الاستقامة. وانما جاء أحنف)

على التناول " وماكان من المشركين " يعني ابراهيم (ع) و " حنيفا " نصب على الحال من (ابراهيم) و " ملة أبيكم " نصب على المصدر - في قول الفراء - وقال الزجاج: هو بدل من قوله " ديننا قيما ".

(٤) سورة ٤٨ الفتح آية ٢٠

(٣٣٥)

قوله تعالى:

قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين (١٦٣) آية.

أسكن الياء من " محياي " أهل المدينة. قال ابو علي الفارسي: اسكن الياء من (محياي) شاذ خارج عن القياس والاستعمال، فشذوذه عن القياس ان فيه التقاء الساكنين، ولا يلتقيان على هذا الحد، وشذوذه عن الاستعمال انك لاتجده في نظم ولانثر الاشادا. ووجهه ما حكى بعض البغداديين انه سمع او حكي له: التقت حلقتا البطان باسكان الالف مع سكون لام المعرفة، وحكى غيره: له ثلثا المال وليس هذا مثل قوله " حتى اذا أداركوا فيها (١) لان هذا في المنفصل مثل دأبه في المتصل. ومثل ما أجاز يونس من قوله: اضربان زيدا، وسيبويه ينكر هذا من قول يونس. قال الرماني: ولو وصله على نية الوقف جاز.

امره ان يقول لهؤلاء الكفار " ان صلاتي ونسكي " وقد فسرنا معنى الصلاة فيما مضى. وقيل في معنى و " نسكي " ثلاثة أقوال:

أحدها - قال سعيد بن جبير ومجاهد وقتادة والسدي والضحاك: ذبيحتي في الحج والعمرة. وقال الحسن (نسكي) ديني. وقال الزجاج والجبائي " نسكي " عبادتي. قال الزجاج: والاعلم عليه امر الذبح الذي يتقرب به إلى الله. ويقولون: فلان ناسك بمعنى عابد. وانما ضم الصلاة إلى اصل الواجبات من التوحيد والعدل لان فيها التعظيم لله عند التكبير، وفيها تلاوة القرآن التي تدعو إلى كل بر، وقرر فيها الركوع والسجود وهما خضوع لله. وفيها التسبيح وهو تنزيه الله.

(١) سورة الاعراف آية ٣٧.

(٣٣٦)

وقوله " ومحياي ومماتي " يقولون حيي يحيا حياة ومحيا، ومات يموت موتا ومماتا. وانما جعل للفعل الواحد مصادر في الثلاثي لقوته، ولانه الاكثر الاغلب. وانما جمع بين صلاته وحياته، واحدهما من فعله، والاخر من فعل الله، لانهما جميعا بتدبير الله تعالى وان كان احدهما من حيث ايجاده واعدامه لمافيه من الصلاح. ووجه ضم الموت إلى اصل الواجب الرغبة إلى من يقدر على كشفه إلى الحياة في النعيم الدائم بطاعته في اداء الواجبات.

وقوله " لاشرىك له " فالشركة هي تلك؟؟، فلما كان عبدة الاوثان جعلوا العبادة على هذه الصفة كانوا مشركين في عبادة الله، فأمر الله ان ينفي عنه هذا الشرك ويقول " لاشرىك له ". والمعنى لا يستحق العبادة سواه.

ثم امره بأن يقول اني أمرت بذلك يعني بنفي الاشرار مع الله وتوجيه العبادة اليه تعالى وحده " وانا اول المسلمين " قال الحسن: معناه اول المسلمين من هذه الامة. وبه قال قتادة وبين ذلك لوجوب اتباعه (صلى الله عليه وآله) وليبان فضل الاسلام اذا كان اول مسارح اليه نبينا (صلى الله عليه وآله) ومعنى الاية وجوب نفي الشرك عن الله ووجوب اعتقاد بطلانه واخلاص العبادة اليه تعالى.

قوله تعالى:

قل اغير الله ابغي ربا وهورب كل شئ ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزرر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون (١٦٤) آية امر الله تعالى نبيه ان يخاطب هؤلاء الكفار، ويفون على وجه الانكار لفعلهم " اغير الله ابغي " أي أتخذ " ربا " معبودا؟ ! فالكلام خرج مخرج الاستفهام، والمراد به الانكار، لانه؟؟ لصاحبه الالباهو قبيح، لان تقديره ايجوز أن اطلب الضر والنفع بعبادتي ممن هو مربوب مثلي؟ !

(٣٣٧)

عادلا بذلك عن رب كل شئ وليس بمربوب؟ ! أم هذا قبيح في العقول؟ وهو لازم لكم على عبادة الاوثان. والرب اذا أطلق افاد المالك لتصريف الشئ بأنم التصريف واذا أضيف فقبل رب الدار، ورب الضيعة، فمعناه المالك لتصريفه بأنم تصريف العباد واصله التربية وهي تنشئة الشئ حالا بعد حال حتى يصير إلى الكمال. ثم صرف إلى معنى الملك لهذه الاحوال من الشئ وما جرى مجراها.

والفرق بين الرب والسيد، أن السيد هو المالك لتدبير السواد الاعظم، والرب المالك لتدبير الشئ حتى يصير إلى الكمال مع اجرائه على تلك الحال.

وقوله " ولا تكسب كل نفس الا عليها " معناه لا يكون جزاء عمل كل نفس الا عليها. ووجه اتصاله بما قبله أنه لا ينفعي في ابتغاء رب غيره ما أنتم عليه من ذلك، لانه ليس بعذر لي في اكتساب غيري له، لانه " لا تزرر وازرة وزر أخرى " وقيل: ان الكفار قالوا للنبي (صلى الله عليه وآله) اتبعنا، وعلينا وزرك ان كان خطأ، فأنزل الله الاية. وفيها دلالة على فساد قول المجبرة من وجهين:

احدهما - ان قوله " ولا تزرر وازرة وزر أخرى " يدل على انه لا يعذب الطفل بكفر أبيه.

والثاني - أنه لا يعذب احدا بغير ذنب كان منه، لانهما سواء في أن كل منهما مستحق. وتقول: وزر يزر وزرا، ووزر، يوزر، فهو موزور، وكله بمعنى الاثم. والوزر الملجأ. ومنه قوله " كلا لا وزر " (١)
فحال الموزور كحال الملتجئ من غير ملجأ. ومنه الوزير لان الملك يلتجئ اليه في الامور. وقيل: أصله الثقل، ومنه قوله " ووضعناك وزرك " (٢)
وكلاهما محتمل " ثم إلى ربكم مرجعكم " يعني مالكم ومصيركم إلى الله في يوم لا يملك فيه الامر غيره تعالى.
وقوله " فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون " معناه انه يخبركم بالحق فيما اختلفتم فيه من الباطل، فيظهر المحسن من المسمى بما يزول معه الشك، والارتباب

(١) سورة ٧٥ القيامة آية ١١ (٢) سورة ٩٤ الانشراح آية ٢

(٣٣٨)

ويقع معه الندامة في وقت قدفات فيه استدراك الخطيئة، فمعنى الآية الحجة على ان كل شئ سوى الله فان الله ربه من كل وجه يصح منه الربوبية، وفيها دلالة على فساد قول المجبرة: ان الله يعذب على غير ذنب.
قوله تعالى:

وهو الذي جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليلوكم في ما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم (١٦٥) آية.

اخبر الله تعالى انه الذي جعل الخلق خلائف الارض، ومعناه ان كل اهل عصر يخلفون اهل العصر الذي قبله كلما مضى واحد خلفه آخر على انتظام واتساق وذلك يدل على مدبر أجراه على هذه الصفة قال الشماخ:

تصبيهم وتخطيني المنايا * وأخلف في ربوع عن ربوع (٣)

وواحد الخلائف خليفة، مثل صحيفة وصحائف، وسفينة وسفائن، ووصيفة ووصائف، هذا قول الحسن والسدي. وقال قوم: معناه انه جعلهم خلفاء الجان قبل آدم. وقال آخرون معناه والمراد به امة نبينا (صلى الله عليه وآله) لان الله جعلهم خلفاء سائر الامم.

وقوله " ورفع بعضكم فوق بعض درجات " وجه الحكمة في ذلك مع انه يخلقهم كذلك ابتداء من غير استحقاق بعمل يوجب التفاضل بينهم مافيه من اللطاف الداعية إلى الواجبات والصارفة عن القبائح، لان من كان غنيا في ماله شريفا في نسبه قويا في جسمه ربما دعاه ذلك إلى طاعة من يملكها رغبة فيها.

والحال في أزدادها ربما كان دعته إلى طاعته رهبة منها ومن أمثالها ورجاء أن ينقل عنها إلى حال جليلة يغبط عليها وقال السدي: رفع بعضهم فوق

(٣) ديوانه ٥٨ واللسان (ربيع) وتفسير الطبري ١٢ / ٢٨٨.

(٣٣٩)

بعض في الرزق وقوة الاجسام وحسن الصورة، وشرف الانسان. وغير ذلك بحسب ما علم من مصالحيهم. وقوله " درجات " يحتل نصبه ثلاثة أشياء: احدها - ان يقع موقع المصدر كأنه قال رفعة فوق رفعة. الثاني - إلى درجات، فحذفت (إلى) كما في قولهم: دخلت البيت، وتقديره دخلت إلى البيت. الثالث - أن يكون مفعولا من قولك: ارتفع درجة ورفعته درجة مثل اكتسى ثوبا وكسوته ثوبا. وقوله " ليلوكم فيما آتاكم " معناه فعل بكم ذلك ليجزيكم فيما أعطاكم. والقديم تعالى لا يبتلي خلقه ليعلم مالم يكن عالمابه، لانه تعالى عالم بالاشياء قبل كونها. وانما قال ذلك، لانه يعامل معاملة الذي يبلو، مظهرة في العدل. وانتفاء من الظلم.

وقوله " ان ربك سريع العقاب " انما وصف نفسه بأنه سريع العقاب مع وصفه تعالى بالامهال ومع ان عقابه في الاخرة من حيث كان كل آت قريبا، فهو اذا سريع، كما قال " ومأمر الساعة الا كلمح البصر او هو أقرب " (١)

وقديكون سريع العقاب بمن استحقه في دار الدنيا، فيكون تحذير الواقع في الخطيئة على هذه الجهة. وقيل معناه انه قادر على تعجيل العقاب، فاحذروا معاجلته. وانما قابل بين العقاب والغفران ولم يقابل بالثواب، لان ذلك ادعى إلى الاقلاع عما يوجب العقاب، لانه لو ذكر الثواب لجاز ان يتوهم انه لمن لم يكن فيه عصيان.

(١) سورة ١٦ النحل آية ٧٧.

(٣٤٠)

٧ - سورة الاعراف قال قتادة سورة الاعراف مكية. وقال قوم: هي مكية لإقوله " واسألهم عن القرية " (١) إلى آخر السورة.

وقال قوم هي محكمة كلها. وقال آخرون حرفان منها منسوخان أحدهما قوله " خذ العفو " يريد من أموالهم وذلك قبل الزكاة. والآخر قوله " واعرض عن الجاهلين " (٣) نسخ بآية السيف (٤).

وقال قوم ليس واحد منهما منسوخا بل لكل منهما موضع والسيف له موضع. وهو الاقوى، لان النسخ يحتاج إلى دليل.

بسم الله الرحمن الرحيم.

المص كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتتنذر به وذكرى للمؤمنين (١) آيتان في الكوفي وآية فيماعداه قد بينافي أول سورة البقرة اختلاف المفسرين في أوائل السور بالحروف المقطعة، وقلنا: ان الاقوى من ذلك قول من قال: انها أسماء للسور، وهو قول الحسن والبلخي والجبائي، واكثر المحصلين. وروي عن ابن عباس أنه قال: هي اختصار من كلام لايفهمه الانبي (صلى الله عليه وآله) قال الشاعر:

(١) آية ١٦٢ (٣، ٢) آية ١٩٨.

(٤) يريد الآية ٦ من سورة التوبة.

(٣٤١)

فادوهم أن الجمواألا تا * قالوا جميعاكلهم أأفا (١)

يريد ألا تركبون قالوا فاركبوا. وبني قوله " المص " على السكون في الوصل مع ان قبله ساكنا، لان حروف الهجاء توصل على نية الوقف، لانه يجزي على تفصيل الحروف، للفرق بينها وبين ماوصل للمعاني، وكأن مجموع الحروف يدل على معنى واحد، ومتى سميت رجلا ب (المص)، وجبت الحكاية. فان سميته ب (صاد) أو (قاف) لم يجب ذلك، لان صاد، وقاف، لهما نظير في الاسماء المفردة، مثل، باب، وناب، ونار. وليس كذلك (المص) لانه بمنزلة الجملة، وليس له نظير في المفرد. وانما عد الكوفيون " المص " آية، ولم يعدوا (صلى الله عليه وآله) لان " المص " بمنزلة الجملة مع ان آخره على ثلاثة أحرف بمنزلة المردف، فلمااجتمع هذان السببان، وكل واحد منهما يقتضي عده عدوه. ولم يعدوا (المر) لان آخره لايشبه المردف. ولم يعدوا (صلى الله عليه وآله) لانه بمنزلة اسم مفرد، وكذلك (ق) و (ن).

وانما سميت السورة بالحروف المعجمة، ولم تسم بالاسماء المنقولة لتضمنها معاني أخرى مضافة إلى التسمية، وهو أنها فاتحة لما هو منها، وأنها فاصلة بينها وبين ما قبلها، ولأنه يأتي من التأليف بعدهما هو معجز مع انه تأليف كتأليفها، فهذه المعاني من أسرارها.

وقيل في موضع (المص) من الاعراب قولان:

اولهما - انه رفع بالابتداء وخبره كتاب، او ان يكون على هذه (المص) في قول الفراء.

الثاني - لاموضع له، لانه في موضع جملة على قول ابن عباس، كأنه قال: أنا الله أعلم وافصل - اختاره الزجاج.

وقوله " كتاب انزل اليك " قيل في العامل في قوله " كتاب " ثلاثة أقوال: أحدها - هذا كتاب، فحذف لانها حال اشارة وتنبية.

(١) مرفي ١ / ٤٧٠ وهو في تفسير القرطبي ١ / ١٣٥.

(٣٤٢)

الثاني - " المص كتاب " على أنه اسم للسورة وكتاب خبره. وقال الفراء: رفعه بحروف الهجاء، لانها قبله، كأنك قلت الالف واللام والميم والصاد، من الحروف المقطعة كتاب أنزل اليك مجموعا، فنابت (المص) عن جميع حروف المعجم، كما تقول: أ، ب، ت، ث ثمانية وعشرون حرفا. وكذلك تقول قرأت الحمد، فصار اسما لفاتحة الكتاب. وقوله " فلايكن في صدرك حرج " يحتمل دخول الفاء وجهين: احدهما - أن يكون عطا وتقديره اذا كان أنزل اليك لتتذبر به، فلا يكن في صدرك حرج منه، فيكون محمولا على معنى اذا.

والثاني - ان النهي وان كان متناولا للخرج، فالمعني به المخاطب، نهى عن التعرض للخرج، وجاز ذلك لظهور المعنى ان الحرج لاينهى، وكان مخرج له برده إلى نهى المخاطب ابلغ، لمافيه من أن الحرج لوكان مما ينهى له لنهيناه عنك، فأنته انت عنه بترك التعرض له.

وقيل في معنى الحرج في الاية ثلاثة أقوال:

قال الحسن: معناه الضيق أي لايضيق صدرك لتشعب الفكر بك خوفا ألا تقوم، بحقه، وانما أنزل اليك لتتذبر به.

الثاني - قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي: ان معناه الشك ههنا والمعنى لا تشك فيما يلزمك له فانما أنزل اليك لتتذبر به.

الثالث - قال الفراء: لايضيق صدرك بأن يكذبوك، كما قال - عز وجل - " فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا " .

وقوله " لتتذر به " يعني لتخوف بالقرآن. وقال الفراء والزجاج واكثر أهل العلم: هو على التقدير والتأخير، وتقديره أنزل اليك لتتذر به وذكرى للمؤمنين، والذكرى مصدر رذكر يذكر تنكيراً، فالذكرى اسم للتذكير وفيه مبالغة، ومثله الرجعى، وقيل في موضعه ثلاثة أقوال: أولها - النصب على أنزل، للانذار وذكرى، كما تقول جئتكَ للاحسان وشوقا اليك.

(٣٤٣)

الثاني - الرفع بتقدير وهو ذكرى.

الثالث - قال الزجاج: يجوز فيه الجر، لان المعنى، لان تنذر وذكرى. قال الرماني: هذا ضعيف، لانه لايجوز ان يحمل الجر على التأويل، كما لايجوز مررت به وزيد. قوله تعالى:

إتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ماتذكرون (٢) آية قرأ حمزة، والكسائي وحفص " تذكرون " بتخفيف الذال بتاء واحدة.

الباقون بالتشديد الابن عامر، فانه قرأ يتذكرون بياء وتاء، قال الزجاج: التخفيف على حذف التاء الثانية كراهة اجتماع ثلاثة أحرف متقاربة، كما قالوا استطاع يستطيع، فحذفوا إحدى الثلاثة المتقاربة دون الأولى، لان الأولى بمعنى الاستقبال، لايجوز حذفها، والثانية يدل عليها تشديد العين.

ومن قرأ بتشديد الذال، فأصله تتذكرون فأدغم التاء في الذال لقرب مخرجهما، لان التاء مهموسة والذال مجهورة. والمجهورة أزيد صوتا وأقوى من المهموس فحسن ادغام الانقاص في الأزيد. ولايسوغ ادغام الأزيد في الانقاص، ألا ترى ان الصاد وأختيها لم يدغمن في مقاربهن لما فيهن من زيادة الصفير.

وقراءة ابن عامر بالياء والتاء: انه مخاطبة للنبي (صلى الله عليه وآله) أي قليلا ما يتذكرون هؤلاء الذين ذكروا بهذا الخطاب.

قوله " اتبعوا " خطاب من الله للمكافين وأمر منه بأن يتبعوا ما أنزل عليهم من القرآن. ويحتمل ان يكون المراد قل لهم يا محمد: اتبعوا ما أنزل اليكم، لانه قال قبل ذلك " لتتذر به " وكان الخطاب متوجها اليه. والاتباع تصرف الثاني بتصريف الأولى وتدييره، فالأولى امام والثاني مؤتم. والفرق

(٣٤٤)

بين الاتباع والاتباع ان احدهما يتعدى إلى مفعول، والثاني يتعدى إلى مفعولين، تقول: اتبعت زيدا وأتبعته زيدا عمرا. ووجوب الاتباع فيما أنزل الله يدخل فيه الواجب والندب والمباح، لانه يجب ان يعتقد في كل جنس ما أمر الله به، كما يجب ان يعتقد في الحرام وجوب اجتنابه. وقوله " ولا تتبعوا من دونه أولياء " نهي من الله ان يتبعوا من دون الله ويتخذوا أولياء. وأولياء جمع ولي وهوضد العدو، وهو يفيد الاولى ويفيد الناصر وغير ذلك مما بيناه فيما مضى (١). وقوله " قليلا ماتذكرون " معناه الاستبطاء في التذكر، وخرج مخرج الخبر وفيه معنى الامر، ومعناه تذكروا كثيرا مما يلزمكم من أمر دينكم، وما أوجبه الله عليكم. واخبر انهم قليلا مايتذكرون و (ما) زائدة، وتذكر معناه أخذ في التذكر شيئا بعد شئ مثل تفقه وتعلم، ويقال: تقيس اذا انتمى إلى قيس، ولم يكن منهم، لانه يدخل نفسه فيهم شيئا بعد شئ. قوله تعالى:

وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون (٣)
آية بلاخلاف.

(كم) لفظة موضوعة للتكثير و (رب) للتقليل. وانما كان كذلك، لان (رب) حرف، و (كم) اسم. والتقليل ضرب من النفي و (كم) تدخل في الخبر بمعنى التكثير. فأما في الاستفهام، فلا، لان الاستفهام موكول إلى بيان المجيب والخبر إلى بيان المخبر، وانما دخلها التكثير، لان استفهام العدد ان يظهر او يضبط انما يكون لكثرتة في غالب الامر، ف (كم) مبهمة قال الفرزدق:

(١) سورة البقرة آية ٢٥٧ في ٢ / ٣١٣ - ٣١٤ وفي سورة المائدة آية ٥٨، في ٣ / ٥٤٩ وغيرهما كثير.

(٣٤٥)

كم عمة لك يا جرير وخالة * فدعاء قد حطبت علي عشاري (٢)
فدل ب (كم) على كثرة العمات، وموضع (كم) في الآية رفع بالابتداء وخبرها (أهلكناها) ولو جعلت في موضع نصب جاز، كقوله " اناكل شئ خلقناه بقدر " (٣)، والاول أجود.
اخبر الله تعالى - على وجه التهيب للكفار والايعاد لهم - أنه اهلك كثيرا من القرى، يعني أهلها بما ارتكبوه من معاصيه، والكفر به، وانه أنزل عليهم بأسه، يعني عذابه " بيانا " يعني في الليل " أوهم قائلون " يعني في وقت القيلولة، وهو نصف النهار. وأصله الراحة، فمعنى أفلته البيع أرحته منه باعفائي اياه من عقده، وقلت اذا استرحت إلى النوم، في وسط النهار:

القائلة. والاحذ بالشدة في وقت الراحة أعظم في العقوبة فلذلك خص الوقتين بالذكر.

وقيل في دخول الفاء في قوله " فجاءها بأسنا بيانا " ثلاثة أقوال:

أحدها - أهلكتناها في حكمنا " فجاءها بأسنا " وقد قيل: هو مثل زرني واکرمني فان نفس الاكرام هي الزيارة، قال الرماني: وليس هذا مثل ذلك، لان هذا انما جاز لانه قصد الزيارة. ثم الاكرام بها.

والثاني - قال قوم " أهلكتناها فجاءها بأسنا " أي فكان صفة اهلاكتنا أن جاءهم بأسنا.

والثالث - أهلكتناها فصح انه جاءها بأسنا. وقال الفراء الفاء بمعنى الواو، وقال الرماني: هذا لايجوز، لانه نقل للحرف عن معناه بغير دليل.

وقال بعضهم: ان المعنى أهلكتناها بخذلاننا لها عن الطاعة فجاءها بأسنا عقوبة على المعصية، وهذا لايجوز لانه ليس من صفة الحكيم ان يمنع من طاعته حتى تقع المعصية، ثم يعاقب عليها.

(٢) ديوانه ٤٥١ وتفسير الطبري ١٢ / ٣٠٠ وسيبويه ١ / ٢٥٣، ٢٩٣ (٣) سورة ٥٤ القمر آية ٤٩.

(٣٤٦)

وقوله " أوهم قائلون " قال الفراء: واو الحال مقدرة فيه، وتقديره أو " وهم قائلون " وانما حذف استخفافا. وقال الزجاج وجميع البصريين لايحتاج إلى ذلك، لانه يستغني برجوع الذكر عن الواو، كما يقال: جاءني زيد راجلا أو هو فارس، أو جاءني زيد هو فارس لم يحتج إلى واو، لان الذكر قد عاد على الاول.

فمعنى الآية ان الله اهلك اهل قريات كثيرة بتمردهم في المعاصي، وحذر من ان يعمل مثل عملهم فينزل بالعامل مثل ما نزل بهم.

قول تعالى:

فما كان دعويهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين (٤) آية بلاخلاف.

اخبر الله تعالى انه لم يكن دعاء هؤلاء الذين أهلكتهم عقوبة على معاصيهم وكفرهم في الوقت الذي جاءهم بأس الله، وهو شدة عذابه، ومنه البؤس شدة الكفر. والبؤس الشجاع لشدة بأسه، وبؤس من شدة الفساد الذي يوجب الذم. " الا أن قالوا انا كنا ظالمين " يعني اعترفهم بذلك على نفوسهم وقرارهم به، وكان هذا القول منهم عند معاينة البأس واليقين بأنه نازل بهم، ويجوز ان يكون قالوه حين لابسهم طرف منه، لم يهلكوا منه، و (دعواهم) خبر كان واسمها " ان قالوا " وهو بمعنى قولهم " وهما معرفتان يجوز ان يجعل كل واحد منهما اسما والاخر

خبرا، كما قال " ما كان حجتهم الا ان قالوا " (١)

بالرفع، والنصب، وانما قدالخبر على الاسم، لان الثاني وقع موقع الايجاب، والاول موقع
النفي، والنفي احق بالخبر.

والدعوى، والدعاء واحد. وفرق قوم بينهما بأن في الدعوى اشتراكا

(١) سورة ٤٥ الجاثية آية ٢٤

(٣٤٧)

بين الدعاء والادعاء المال وغيره، واصله الطلب قال الشاعر:

ولت ودعواها كثير صخبه (٢)

أي دعاؤها، ويجوز ان يقال: اللهم اشركنا في دعوى المسلمين يريد دعاء المسلمين حكاة
سبويه، قال الشاعر:

وان مذلت رجلي دعوتك اشنتني * بدعواك من مذل بها فيهون (٣)
معنى مذلت اي خدرت.

قوله تعالى:

فلنستئن الذين أرسل إليهم ولنستئن المرسلين (٥)

فلنقصن عليهم بعلم وماكنا غائبين (٦) آيتان بلاخلاف.

الفاء في قوله " فلنستئن الذين " عطف جملة على جملة، وقد يكون لهذا، وقد يكون لعطف مفرد
على مفرد، وقد يكون للجواب. وانما دخلت الفاء وهي موجبة للتعقيب مع تراخي ما بين الاول
والثاني، وذلك يليق ب (ثم) لتقريب ما بينهما، كما قال " اقتربت الساعة " (٤)

وقال " وماأمر الساعة الاكلمح البصر او هو أقرب " (٥)

وقال " اولم ير الانسان اناخلفناه من نطفة فاذا هو خصيم " (٦) وبينهما بعد.

والنون في قوله " فلنسالن " نون التأكيد يتلقى بها القسم، وانما بني

(٢) اللسان (دعا)، وروايته " قالت " بدل (ولت) وفي رواية أخرى (ولت ودعواها شديد صخبه).

(٣) ديوانه ٢ / ٢٤٥ واللسان (مذل) وتفسير الطبري ١٢ / ٣٠٤ ونهاية الارب ٢ / ١٢٥. وكانوا يدعون ان

الانسان اذا خدرت رجله ودعا باسم من يجب زال الخدر (٤) سورة ٥٤ القمر آية ١ (٥) سورة ١٦ النحل آية ٧٧

(٦) سورة ٣٦ يس آية ٧٧.

(٣٤٨)

المضارع مع نون التأكيد، لانه انما دخلت عليه طلبا للتصديق، كما ان الامر طلب للفعل فأدخلت عليه نون التأكيد وثبتت مع الفعل، لان هذه الزيادة التي لاتكون للاسم باعدته كما باعدت الالف واللام ما لا ينصرف من الفعل، فانصرف.

أقسم الله تعالى في هذه الآية انه يسأل المكلفين الذين ارسل اليهم رسله واقسم أيضا انه ليسأل الصادقين المرسلين الذين بعثهم، فيسأل هؤلاء عن الابلاغ ويسأل اولئك عن الامتثال، وهو تعالى وان كان عالما بما كان منهم، فانما أخرجه مخرج التهديد والزجر ليتأهب العباد ويحسنوا الاستعداد لذلك السؤال.

وحقيقة السؤال طلب الجواب بأداته في الكلام، وحقيقة الاستخبار طلب الخبر بأداته في الكلام. وقوله " فلنقصن عليهم بعلم " قسم آخر، واخبار منه تعالى انه يقص عليهم بما عملوه فانه علم جميع ذلك. وانما ذكره بنون الجمع لاحد أمرين:

احدها - ان هذا على كلام العظماء من الملوك لان أفعالهم تضاف إلى أوليائهم.
والثاني - ان الملائكة تقص عليهم بأمر الله.

وقال ابن عباس نقص عليه بما نجده في كتاب عمله.

وروي عن النبي (صلى الله عليه وآله) انه قال: (ان الله يسأل كل احد بكلامه له ليس بينه وبينه ترجمان) والقص ما يتلو بعضه بعضا. ومنه المقص، لان قطعه يتلو بعضه بعضا، ومنه القصة من الشعر، والقصة من الكتاب، ومنه القصاص لانه يتلو الجناية في الاستحقاق، ومنه المقاصة في الحق، لانه يسقط ماله قصاصا بما عليه. وانما دخلت نون التأكيد مع لام القسم في المضارع دون الماضي، لانها تؤذن بطلب الفعل الذي تدخل فيه نحو (لاكرمن زيدا) فان فيه طلب الاكرام بأداته، فالتصديق بالقسم، ولهذا ألزمت النون في طلب الفعل من جهتين، وفتحت هذه النون ما قبلها في جمع المتكلم، ولم تفتح في

(٣٤٩)

الغائب، لان الضمة يجب ان تبقى لتدل على الواو المحذوفة في (ليقصن) بالياء وليس كذلك المتكلم، لانه لا واو فيه.

ومعنى قوله " بعلم " قيل فيه وجهان: احدهما بأننا عالمون، والآخر بمعلوم، كما قال " ولا يحيطون بشئ من علمه " (١) أي من معلومه، ووجه المسألة له والقصص عليهم أنه سؤال توبيخ وتقريع للضالين، وسؤال تذكير وتنبيه للمؤمنين، فبمقدار ما يغتم أولئك يسر هؤلاء. ثم يسأل الرسل لان من الامم من يجحد، فيقول ماجاءنا من بشير ولانذير، ومنهم من يقول: والله ربنا ما كنا مشركين.

فان قيل كيف يجمع بين قوله " ولايسأل عن ذنوبهم المجرمون " (٢) وقوله " فلنساءن الذين ارسل اليهم "؟ قلنافيه قولان: احدهما - انه نفى ان يسألهم سؤال استرشاد واستعلام وانما يسألهم سؤال توبيخ وتبكيث. الثاني - تنقطع المسألة عند حصولهم في العقوبة، كماقال " فيومئذ لايسأل عن ذنبه انس ولاجان " (٣) وقال في موضع آخر " وقفوه انهم مسئولون " (٤) والوجه ماقلناه انه يسألهم سؤال توبيخ قبل دخولهم في النار فاذا دخلوها انقطع سؤالهم. والسؤال في اللغة على اربعة اقسام:

احدها - سؤال استرشاد واستعلام، كقولك؟ اين زيد؟، ومن عندك؟ وهذا لايجوز عليه تعالى. والثاني - سؤال توبيخ وتقريع، وهو خير في المعنى، كقولك ألم احسن اليك فكفرت نعمتني؟ ألم اعطيك فجددك عطيتني؟! ومنه قوله تعالى " ألم اعهد اليكم " (٥) وقوله " ألم يأتكم رسل " (٦) وقوله " ألم تكن

-
- (١) سورة ٢ البقرة آية ٢٥٦ (٢) سورة ٢٨ القصص آية ٧٨.
(٣) سورة ٥٥ الرحمن آية ٩ (٤) سورة ٣٧ الصافات آية ٢٤.
(٥) سورة ٣٦ يس آية ٦٠ (٦) سورة الانعام آية ١٣٠ وسورة ٣٩ الزمر آية ٧١

(٣٥٠)

آياتي تتلى عليكم " (٧) وقال الشاعر:

ألستم خير من ركب المطايا * واندى العالمين بطون راح (٨)

ولوكان سائلا لماكان مادحا، وقال العجاج:

* اطربا وانت قنصري * (٩)

معنى قنصري كبير السن، وهذا توبيخ لنفسه أي كيف اطرب مع الكبر والشيب.

الثالث - سؤال التحضيض وفيه معنى (ألا) كقولك: هلا تقوم، وألا تضرب زيدا أي قم واضرب زيدا.

والرابع - سؤال تقرير بالعجز والجهل، كقولك للرجل: هل تعلم الغيب؟ وهل تعرف ما يكون

غدا؟ وهل تقدر ان تمشي على الماء؟ وكماقال الشاعر:

* وهل يصلح العطار ماأفسد الدهر *

المعنى وليس يصلح العطار ماأفسد الدهر، فاذا ثبت ذلك فقوله " فيومئذ لايسأل عن ذنبه انس ولاجان " (١) وقوله " ولايسأل عن ذنوبهم المجرمون " (٢) المراد به لايسألون سؤال استعلام واستخبار ليعلم ذلك من قولهم، لانه تعالى عالم بأعمالهم قبل خلقهم. واما قوله " فنساءن الذي

ارسل اليهم ولنسألن المرسلين " وقوله " فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون " (٣) فهو مسألة توبيخ وتقريع، كقوله " ألم أعهد اليكم " (٤).
وسؤاله للمرسلين ليس بتوبيخ ولا تقريع لكنه توبيخ للكفار وتقريع لهم أيضا. واما قوله " فلا انساب بينهم يؤمذ ولا يتسائلون " (٥) فمعناه سؤال

(٧) سورة ٢٣ المؤمنون آية ١٠٦ (٨) قائله حسان وقد مر في ١ / ٦١، ١٣٢، ٤٠٠ و ٢ / ٣٢٧ وسيأتي في ٥ / ٣١٩ (٩) اللسان (قنسر).
(١) سورة ٥٥ الرحمن آية ٣٩ (٢) سورة ٢٨ القصص آية ٧٨.
(٣) سورة ١٥ الحجر آية ٩٢ (٤) سورة ٣٦ يس آية ٦٠ (٥) سورة ٢٣ المؤمنون آية ١٠٢.

(٣٥١)

تعاطي واستخبار عن الحال التي جهلها بعضهم لتشاغلهم عن ذلك، كما قال " لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه " (٦) وقوله " واقبل بعضهم على بعض يتسألون " (٧) فهو سؤال توبيخ وتقريع وتلاوم، كما قال " واقبل بعضهم على بعض يتلاومون " (٨) وكقوله " انحن صددناكم عن الهدى بعداذ جاءكم " (٩) وقوله " ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا في النار " (١٠) وهذا كثير في القرآن، وليس في شيء من ذلك تضاد بين المسألتين، ولاتنافي بين الخبرين بل اثبات لسؤال عن شيء آخر ومثله قول الشاعر:

فأصبحت والليل لي ملبس * واصبحت الارض بحراطما

فقوله: واصبحت والليل لي ملبس لم يرد به الصبح، لانه لو أراد لما نفاه ب (والليل لي ملبس) وانما أراد اصبحت بمعنى اشعلت المصباح وهو السراج أي اسرجت في ظلمة الليل، فلم يكن خبراه متضادين.

وقوله " وما كنا غائبين " فالغائب البعيد عن حضرة الشيء، ومعناه في الآية انه لا يخفى عليه شيء وذلك يدل على انه ليس بجسم، لانه لو كان جسما على العرش على ما يذهب اليه المجسمة لكان غائبا عما في الارضين السفلى، لان من كان دون هذا بكثير فهو غائب عنا.
قوله تعالى:

والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فاولئك هم المفلحون (٧) ومن خفت موازينه فاولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون (٨) آيتان

(٦) سورة ٨٠ عبس آية ٣٧.

(٧) سورة ٣٧ الصافات آية ٢٧، ٥٠ وسورة ٥٢ الطور آية ٢٥.

(٨) سورة ٦٨ القلم آية ٣٠ (٩) سورة ٣٤ سبأ آية ٣٢ (١٠) سورة ٣٨ ص آية ٦١

(٣٥٢)

ارتفع قوله " والوزن " بالابتداء، وخبره (الحق)، وهو الوجه المختار .
وقال الفراء: يجوز ان يكون خبره (يومئذ) وينصب (الحق) على المصدر .
وتقديره والوزن يومئذ - يعني في يوم القيامة - حقا، فينصب الحق وان كان فيه الالف واللام، كما قال " فالحق والحق أقول " (١) والوزن في اللغة هو مقابلة أحد الشئيين بالآخر حتى يظهر مقداره، وقد استعمل في غير ذلك تشبيهاً، منها وزن الشعر بالعروض، ومنها قولهم: فلان يزن كلامه وزنا قال الاخلط:
واذا وضعت أباك في ميزانهم * رجحوا وشال أبوك في الميزان
وقيل في معنى الوزن في الآية أربعة أقوال:

قال الحسن: موازين الآخرة لها كفتان فالحسنات والسيئات توضعان فيهما وتوزنان. ثم اختلفوا، فقال بعضهم: انما توضع صحائف الاعمال فتوزن، وهو قول عبد الله بن عمر. وقال ابو علي: انما تتفضل كفة الحسنات من كفة السيئات بعلامة يراها الناس يومئذ، وذهب عبيد بن عمير إلى انه يوزن الانسان فيؤتى بالرجل العظيم الجثة، فلا يزن جناح بعوضة. وقال مجاهد: الوزن عبارة عن العدل في الآخرة وانه لا يظلم فيها على أحد، وهو قول البلخي وهو أحسن الوجوه، وبعده قول الجبائي. ووجه حسن ذلك - وان كان الله تعالى عالماً بمقادير المستحقات - مافيه من المصلحة في دار التكليف وحصول الترهيب به والتخويف.
وقوله " يومئذ " يجوز في (يومئذ) الاعراب والبناء، لان اضافته إلى مبني اضافة غير محضة تقربه من الاسماء المركبة، و اضافته إلى الجملة تقربه من الاضافة الحقيقية. ونون يومئذ لانه قد قطع عن الاضافة اذ شأن التنوين ان يعاقبها، وقد قطع (اذ) في هذا الموضع عنها.
و (الحق) وضع الشئ موضعه على وجه تقتضيه الحكمة. وقد

(١) سورة ٣٨ ص آية ٨٤.

(٣٥٣)

استعمل مصدراً على هذا المعنى وصفة، كما جرى ذلك في العدل، قال الله تعالى " ذلك بأن الله هو الحق " (١) فجرى على طريق الوصف.

وقوله " فمن ثقلت موازينه " فالثقل عبارة عن الاعتماد اللازم سفلا ونقيضه الخفة، وهي اعتماد لازم علوا، ومثلت الاعمال بهما لما ذكر من المقارنة. والمعنى ان من كانت طاعاته أكثر، فهو من الفائزين بثواب الله.

ومن قلت طاعاته " فأولئك الذين خسروا أنفسهم " بأن استحقوا عذاب الابد جزاء على ما كانوا يظلمون أنفسهم بجحود آياتنا وجحنتنا.

وقوله " موازينه " فالموازين جمع ميزان، وأصله من الواو، وقلبت ياء لسكونها وانكسار ما قبلها. ولم يقلب في (خوان) لتحركها وأنها لم تجر على فعل لها. والخسران ذهب رأس المال، ومن اعظم رأس المال النفس، فاذا أهلك نفسه بسوء عمله، فقد خسر نفسه. وظلمهم بآيات الله مثل كفرهم بها وجددهم اياها.

قوله تعالى:

ولقد مكناكم في الارض وجعلنا لكم فيها معاش قليلا ما تشكرون (٩) آية بلاخلاف. روى خارجة عن نافع همز (معاش) وروى ذلك عن الاعمش، وعبدالرحمن الاعرج. الباقر غير مهموز.

وعند جميع النحويين أن (معاش) لا يهمز، ومتى همز كان لحنا، لان الياء فيها اصلية، لانه من عاش يعيش، ولم يعرض فيها علة كما عرض في (اوائل) وهي في مدينة) زائدة علة لاتدخلها الحركة كما لاتدخل الالف، ومثله (مسألة، ومسائل، ومنارة ومنائر، ومقام ومقاوم) قال الشاعر:

واني لقوام مقاوم لم يكن * جرير ولامولى جرير يقومها

(١) سورة ٢٢ الحج آية ٦، ٦٢ وسورة ٣١ لقمان آية ٣٠.

(٣٥٤)

ووزنه (مفعلة) مثل مسورة ومساور، ومن همزها اعتقدها (فعلية) على وزن (صحيفة) فجمعها على (فعائل) مثل (صحائف) وذلك غلط، لان الياء أصلها لقولهم عاش يعيش عيشا ومعيشة. قال ابو علي من همز (مدائن) لم يجعله (مفعلة) ولكنه (فعية) بدلالة قولهم: مدني، ولا يجوز ان يكون (مفعلة) من دان يدين، ومن أخذ من ذلك قال في الجمع مداين، بتصحيح الياء. واعتل (معيشة) لانه على وزن (يعيش) وزيادتها تختص بالاسم دون الفعل، فلم يحتج إلى الفصل بين الاسم والفعل، كما احتيج اليه فيما كان زيادته مشتركة، نحو الهمزة في (أجاد) و (هو أجود منك)، وموافقة الاسم لبناء الفعل توجب في الاسم الاعتلال، ألا ترى انهم أعلوا (بابا) و (دارا)

لماكانا على وزن الفعل. وصححوا نحو (حول) و (غيبية) و (لومة) لمالم تكن على مثال الفعل، ف (معيشة) موافقة للفعل في البناء، مثل (يعيش) في الزنة، وتكسيها يزيل مشابهتها في البناء، فقد علمت بذلك زوال المعنى الموجب للاعلال في الواحد وفي الجمع، فلزم التصحيح في التكسير لزوال المشابهة في اللفظ، لان التكسير معنى لا يكون في الفعل، وانما يختص الاسم به، فاذا زالت مشابهة الفعل وجب تصحيحه.

ومن همز (مصايب) فانه غلط، كما غلط من همز (معايش) ومثله جاء في جمع (مسيل) أمسلة، جاء ذلك في الشعر لبني هذيل، فتوهموه (فعيلة) وانماهو (مفعلة) وحكى يعقوب: مسيل وميسل، فالميم على هذا فاء ومسيل (فيعيل)، وعلى الاول (مفعل) من سال.

قال الزجاج: من همز (مصايب) جعل الهمزة بدلا من الواو، كما قالوا: أقب في (وقب) وهذا ان وقع في أول الكلام. وقد قالوا في (أدور) أدأر، فهمزوه، فجاز على هذا ان يكونوا حملوا المكسورة على المضمومة.

ويقال: عاش فلان بمعنى حيي، وطيب العيش طيب الحياة، فلها كانت المعيشة مضمومة بالحياة. وحد المعيشة الرمانى: بأنها وصلة من جهة مكسب

(٣٥٥)

المطعم والمشرب والملبس إلى ما فيه الحياة. اخبر الله تعالى على وجه الامتتان على خلقه بأصناف نعمه انه مكن عباده في الارض بمعنى مكنهم من التصرف فيها، والتمكين اعطاء ما يصح معه الفعل مع ارتفاع المنع، لان الفعل كما يحتاج إلى القدرة فقد يحتاج إلى آلة والى سبب، كما يحتاج إلى رفع المنع، فالتمكين عبارة عن حصول جميع ذلك.

والارض هذه الارض المعروفة، وفي الاصل عبارة عن قرار يمكن أن يتصرف عليه الحيوان، فعلى هذا لو خلق مثلها، لكانت أرضا حقيقة.

وقوله " وجعلناكم فيها معايش " فالجعل وجود ما به يكون الشئ على خلاف ماكان، مثل ان تقول جعلت الساكن متحركا، لانك فعلت فيه الحركة، ونظيره التصيير والعمل.. وجعل الشئ أعم من حدوثه، لانه قد يكون بحدوث غيره فيه مما يتغير به.

وقوله " قليلا ماتشكرون " نصب قليلا ب (تشكرون)، وتقديره تشكرون قليلا. و (ما) زائدة. ويحتمل ان تكون مع ما بعدها بمنزلة المصدر، وتقديره قليلا شكركم. والشكر هو الاعتراف بالنعمة مع ضرب من التعظيم، والحمد مثله. وقيل: الفرق بينهما ان كل شكر حمد، وليس كل

حمد شكرا، لان الانسان يحمد على احسانه إلى نفسه، ولايشكر عليه، كما انه يذم على اساءته إلى نفسه، ولايجوز ان يكفر من اجل اساءته إلى نفسه.
قوله تعالى:

ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لادم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين
(١٠)

آية بلاخلاف.

هذا خطاب من الله تعالى لخلقه بأنه خلقهم. والخلق هو احداث الشئ على تقدير تقتضيه الحكمة، لازيادة على ماقتضيه، فيخرج إلى الاسراف،

(٣٥٦)

ولاناقص عنه فيخرج إلى الاقتار. وقد استوفينا اختلاف الصور، والصورة بنية مقومة على هيئة ظاهرة.

وقوله " ثم قلنا للملائكة اسجدوا لادم " فالسجود هو وضع الجبهة على الارض واصله الانخفاض من قول الشاعر:

ترى الاكم فيها سجدا للحوافر (١)

وقيل في معنى السجود لادم قولان:

احدهما - انه كان تكربة لادم وعبادة لله، لان عبادة غير الله قبيحة لايمر الله بها. وعند اصحابنا كان ذلك دلالة على تفصيل آدم على الملائكة على ما بينا في سورة البقرة. (٢) وقال أبو علي الجبائي: امروا ان يجعلوه قبلة، وأنكر ذلك أبو بكر بن أحمد بن علي الاخشاد بأن قال: هو تكربة.. لان الله تعالى امتن به على عباده، وذكرهم بالنعمة فيه. فان قيل كيف قال " ثم قلنا للملائكة " مع أن القول للملائكة كان قبل خلقنا وتصويرنا؟ قلنا عن ذلك ثلاثة أجوبة:

احدها - قال الحسن وابو علي الجبائي: المراد به خلقنا اياكم ثم صورنا اياكم. ثم قلنا للملائكة، وهذا كما يذكر المخاطب ويراد به أسلافه، وذكرنا لذلك نظائر فيما مضى، منها قوله " واذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور " (٣) أي ميثاق اسلافكم. قال الزجاج المعنى ابتدأنا خلقكم بأن خلقنا آدم، ثم صورناه، ثم قلنا.

الثاني - قال ابن عباس ومجاهد والربيع وقتادة والضحاك والسدي:

ان المعنى خلقنا آدم ثم صورناكم في ظهره. ثم قلنا للملائكة.

الثالث - خلقناكم ثم صورناكم ثم إنا نخبركم أنا قلنا للملائكة، كما تقول: اني راحل ثم اني معجل. وقال الاخفش (ثم) ههنا بمعنى الواو، كما

(١) مرفي ١ / ٢٦٣ (٢) المجلد الاول صفحة ١٣٩.

(٣) سورة ٢ البقرة آية ٦٣، ٩٣

(٣٥٧)

قال " ثم الله شهيد على ماتعملون " ومثله قوله " ثم كان من الذين آمنوا " (٤)
على قول بعض المتأخرين معناه وكان من الذين آمنوا، ومثله " استغفروا ربكم ثم توبوا إليه "
(٥) على بعض الاقوال معناه وتوبوا إليه، قال الزجاج هذا خطأ عند جميع النحويين. وقال
الشاعر:

سألت ربيعة من خيرها * ابائهم اما فقالوا له (٦)

معناه سألت اولا عن الاب ثم الام. وقال بعضهم: معناه خلقناكم في ظهور آبائكم ثم صورناكم
في بطون امهاتكم. وقال قوم: في الالية تقديم وتأخير، وتقديره خلقناكم بمعنى خلقنا آبائكم أي
قدرناكم. ثم قلنا للملائكة اسجدوا. ثم صورناكم.
قوله تعالى:

قال مامنعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين (١١) آية
بلاخلاف.

هذا حكاية لما كان من خطاب الله لابليس حين امتنع من السجود لادم، انه قال له " مامنعك "
بمعنى اي شئ منعك " ان لاتسجد " وفيه ثلاثة أقوال:

احدها - ان تكون (لا) صلة مؤكدة، كماقال " لنلا يعلم اهل الكتاب " (٧) ومعناه ليعلم، كقوله
" لا أقسم بيوم القيامة " وكقوله " فلا أقسم بمواقع النجوم " وكماقال الشاعر:

أبى جوده لالبخل واستعجلت به * نعم من فتى لايمنع الجود قاتله (٨)

معناه أبى جوده البخل، وروى أبو عمرو بن العلاء: أبى جوده لا البخل

(٤) سورة ٩٠ البلد آية ١٧.

(٥) سورة ١١ هود آية ٣، ٥٢، ٩٠ (٦) تفسير الطبري ١٢: ٣٢٢.

(٧) سورة ٥٧ الحديد آية ٢٩ (٨) اللسان (نعم) وتفسير الطبري ٢١ / ٢٢٤ وأمالى ابن السجري ٢ / ٢٢٨، ٢٢١

وشرح شواهد المغني ٢١٧. وقد روي (فاعله) بدل (قاتله) وروي أيضا " قاتله ".

(٣٥٨)

بالجر، كأنه قال ابى جوده كلمة البخل، ورواه كذا عن العرب. وقال الزجاج:

فيه وجه ثالث لالبخل على النصب بدلا من (لا) كأنه قال ابى جوده ان يقول (لا) فقال نعم. وهي حكاية في كل هذا.

الثاني - انه دخله معنى مادعاك ان لاتسجد.

الثالث - معنى " ألاتسجد " ماالحال ان لاتسجد أو مأحوجك.

وقال الفراء لماتقدم الجحد في اول الكلام أكديهذا، كماقال الشاعر:

ماان رأينا مثلهن لمعشر * سود الرؤوس فوالج وفيول (٩)

ف (ما) للنفي وان) للنفي فجمع بينهما تأكيدا.

فان قيل كيف قال " مامنعك " ولم يكن ممنوعا؟ ! قلنا: لان الصارف عن الشئ بمنزلة المانع منه، كما ان الداعي اليه بمنزلة الحامل عليه.

وقوله " أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين " حكاية لجواب ابليس حين ذمه تعالى على الامتناع من السجود، فأجاب بماقال، وهذا الجواب غير مطابق لانه كان يجب أن يقول معنى كذا، لان قوله " أناخير منه " جواب لمن يقول أيكما خير، ولكن فيه معنى الجواب، ويجري ذلك مجرى أن يقول القائل لغيره: كيف كنت، فيقول أناصالح، وكان يجب أن يقول كنت صالحا لكنه جاز ذلك، لانه أفاد انه صالح في الحال مع ماكان صالحا فيما مضى. ووجه دخول الشبهة عليه في أنه خلقه من نار وخلق آدم من طين أنه ظن أن النار اذاكانت أشرف لم يجز أن يسجد الاشرف للادون، وهذا خطأ، لان ذلك تابع لما يعلم الله من مصالح العباد، ومايتعلق به من اللطف

(٩) معاني القرآن ١ / ١٧٦، ٣٧٤ وتفسير الطبري ١٢ / ٣٢٥. (الفوالج)

جمع (فالج) وهو الجمل ذو سنامين. و (الفيول) جمع (فيل). وكانت هذه الجمال تجلب من السند، وهي السبلد التي فيها الفيلة.

(٣٥٩)

لهم، ولم يكن ذلك استخفافا بهم بالاعمال.

وقد قال الجبائي: إن الطين خير من النار، لانها أكثر منفعة للخلق من حيث أن الارض مستقر الخلق وفيها معاشهم، ومنها تخرج أنواع أرزاقهم لان الخيرية في الارض أو النار، إنما يراد بهما كثرة المنافع، دون كثرة الثواب، لان الثواب لا يكون إلا للمكلف المأمور، وهذان جمادان. وعلى مايزهد اليه أصحابنا أن ذلك يدل على تفضيل آدم على الملائكة وكان ذلك مستحقا، فلذلك أسجدالله الملائكة له.

فإن قيل: لم اعترض إبليس على الله مع علمه أنه لايفعل إلا الحكمة؟ قلنا عنه جوابان:

أحدهما - أنه اعترض كما يعترض السفيه على الحكيم الحليم في تدبيره من غير فكر في العاقبة.

والثاني - أن يكون جهل هذا بشبهة دخلت عليه. وعلى ما نذهب إليه من أنه لم يكن عرف الله قط سقطت الشبهة.

واستدل أيضا بهذه الآية على أن الجواهر متمثلة بأن قيل: لا شيء أبعد إلى الحيوان من الجماد، فإذا جاز أن ينقلب الطين حيوانا وإنسانا جاز أن ينقلب إلى كل حال من أحوال الجواهر، لأنه لا فرق بينهما في العقل.

واستدل أيضا بهذه الآية على أن الأمر من الله يقتضي الإيجاب بأن الله تعالى ذم إبليس على امتناعه من السجود حين أمره، فلو كان الأمر يقتضي الندب لما استحق العيب بالمخالفة وترك الامتثال، والأمر بخلاف ذلك في الآية.

قوله تعالى:

قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين (١٢) آية قوله " قال فاهبط منها " حكاية لقول الله تعالى لابليس وأمره إياه أن

(٣٦٠)

يهبط منها، وما بعد القول وإن كان استئنافا والفاء لا يستأنف بها وإنما يكون كذلك، لأن ما قيل له بعد جوابه الذي أجاب به، فهو حكاية ما كان من الكلام له الثاني بعد الأول. والهبوط والنزول واحد. وفرق بينهما بأن النزول يقتضي تنزله إلى جهة السفلى بمنزلة بعد منزلة، وليس كذلك الهبوط، لأنه كالانحدار في المرور إلى جهة السفلى، وكأن الانحدار دفعة واحدة، كما قال الشاعر:

كل بني حرة مصيرهم * قل وإن أكثروا من العدد

إن يغبطوا يهبطوا وإن * أمروا يوما فهم للفناء والفند (١)

وقيل في الضمير الذي في قوله " منها " قولان:

أحدهما - قال الحسن: إنه كناية عن السماء، لأنه كان في السماء فاهبط منها.

الثاني - قال أبو علي: كناية عن الجنة.

فان قيل من أين علم إبليس أن الله تعالى قال له هذا القول؟ قلنا عنه جوابان: أحدهما - قال أبو علي: إنه قال له على لسان بعض الملائكة.

الثاني - أنه رأى معجزة تدله على ذلك.

وقوله " فما يكون لك أن تتكبر فيها " معناه ليس لك أن تتكبر فيها، والتكبر إظهار كبر النفس على جميع الأشياء، فهو في صفة العبادم، وفي صفة الله مدح، كما قال تعالى " الجبار المتكبر " (٢) فالجبار القاهر لجميع الأشياء. والمتكبر الدال بذاته على أنه أكبر من جميع الأشياء. وقوله " فاخرج إنك من الصاغرين " أمر من الله لابليس بالخروج، لأنه من الصاغرين. والصاغر هو الذليل بصغر القدر، صغر يصغر صغرا وصغارا، وتصاغرت اليه نفسه ذلا ومهانة، والاصل الصغر.

(١) قاتلة لبيد وقد مر في ١ / ٧٣ (٢) سورة ٥٩ الحشر آية ٢٣.

(٣٦١)

قوله تعالى:

قال أنظرنني إلى يوم يبعثون (١٣) قال إنك من المنظرين (١٤) آيتان. في الآية الأولى حكاية عن إبليس أنه سأل الله تعالى أن ينظره. والانظار الامهال إلى مدة فيها النظر في الامر طال أمر قصر. والانظار والامهال والتأخير والتأجيل نظائر في اللغة، وبينها فرق. وضد الامهال الاعجال. وأصل الانظار المقابلة، وهي المناظرة. و (الجلان يتناظران) أي يتقابلان، ونظر اليه بعينه أي قابله لينظر له ونظر اليه بيده، ليظهر له حال في اللين والخشونة أو الحرارة والبرودة.

وقوله " إلى يوم يبعثون " مدة للانظار الذي طلبه. والبعث الاطلاق في الامر، والانبعاث الانطلاق. والبعث والحشر والنشر والجمع نظائر.

ويجوز في " يوم يبعثون " ثلاثة أوجه من العربية: بالجر وترك التنوين على الاضافة، والجر مع التنوين على الصفة. والفتح وترك التنوين على البناء.

وليس بالوجه، لأن الفعل معرب.

والوجه في مسألة إبليس الانظار - مع علمه أنه مطرود ملعون مسخوط عليه - علمه بأن الله يظاهر إلى عباده بالاحسان، ويعمهم بفضله وإنعامه، فلم يصرف ارتكابه المعصية وإصراره على الخطيئة عن المسألة طامعا في الاجابة، وعن انس من بلوغ المحبة.

وقيل في قوله " قال إنك من المنظرين " هل فيه إجابة إلى ما التمسه أم لا؟ فقال السدي وغيره: إنه لم يجبه " إلى يوم يبعثون " لأنه يوم القيامة، وهو يوم بعث لا يوم موت، ولكن انظر إلى يوم الوقت المعلوم، كما ذكره في سورة اخرى (١). ويقوي ذلك قوله " إنك من المنظرين " وليس لاحد

(٣٦٢)

أن ينظر أحدا إلى يوم القيامة على هذا المعنى.
الثاني - أنه سأل تأخير الجزاء بالعقوبة إلى يوم يبعثون. لما خاف من تعجيل العقوبة، فأنظر على هذا. وقال قوم: انظر إلى يوم القيامة، والاقوى الوجه الثاني، لأنه لا يجوز أن يعلم الله أحدا من المكلفين الذين ليسوا بمعصومين أنه يقيهم إلى وقت معين، لأنه في ذلك إغراء له بالقبح من حيث أنه يعلم انه باق إلى ذلك الوقت فيرتكب القبيح، فاذا قارب الوقت جدد التوبة فيسقط عنه العقاب.

وهل يجوز اجابة دعاء الكافر أم لا؟ فيه خلاف:

فذهب أبو علي إلى أنه لا يجوز، لما في ذلك في التعظيم والتبجيل لمجابه الدعوة في مجرى العادة، ألا ترى أنه اذا قيل: فلان مجاب الدعوة دل ذلك على أنه صالح المؤمنين. وأجاز ذلك أبو بكر بن الاخشاد على وجه الاستصلاح. وكان يقول: بتفصيل ذلك بحسب الوجه الذي يقع عليه.

وكسرت " إن " لأنها حكاية بعدالقول، وهي تكسر في هذا الموضع، وفي الابتداء بها، واذا كان في خبرها لام التأكيد. وانما عملت (إن) لشبهها بالفعل الماضي من حيث كانت على ثلاثة أحرف مفتوحة الاخر، فهي بمنزلة (كان) إلا أنه خولف بعملها لأنها حرف.

قوله تعالى:

قال فيما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم (١٥)

ثم لاثنين من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم ولاتجد أكثرهم شاكرين (١٦) آيتان بلاخلاف.

قوله " قال فيما " حكاية عن قول إبليس، لمالعه الله، وطرده وحكى سؤاله الانظار، واجابة الله تعالى إلى شئ منه، قال حينئذ " فيما أغويتني " أي فبالذي أغويتني. وقيل في معنى هذه الباء ثلاثة أقوال:

(٣٦٣)

أحدهما - اني مع اغوائك إياي كما تقول بقيامك تناول هذا أي مع قيامك.

الثاني - معناه اللام، والتقدير فلاغوائك إياي.

الثالث - أنها بمعنى القسم كقولك بالله لأفعلن.

وقيل في معنى اغويتني ثلاثة أقوال:

أحدها - قال أبو علي والبلخي: معناه بما خيبتني من جنئك، كما قال الشاعر:

فمن يلق خيرا يحمد الناس أمره * ومن يعولا يعدم على الغي لائما (١)

أي من يخب، وقال قوم: يجوز أن يكون أراد إنك امتحنتني بالسجود، لادم فغويت عنده، فقال (أغويتني) كما قال " فزادتهم رجسا إلى رجسهم " (٢).

الثاني - قال ابن عباس وابن زيد: معناه حكمت بغوايتي كقولك:

أضللنتي أي حكمت بضاللتني.

الثالث - أغويتني بمعنى أهلكنتي بلعنك إياي، كما قال الشاعر:

معطفة الاثناء ليس فصيلها * برازئها درا ولاميت غوى (٣)

أي ولاميت هلاكا بالقعود عن شرب اللبن. ومنه قوله " فسوف يلقون غيا " (٤) أي هلاكا. ويقولون: غوى الفصيل اذا أنفذ اللبن فمات. والمصدر غوى مقصورا وقوله " لاقعدن لهم " جواب القسم. والقسم محذوف، لان غرضه بالكلام التأكيد، وهو ضد قوله " ص والقرآن ذي الذكر " (٥)

(١) مر هذا البيت في ٢ / ٣١٢ وسيأتي في ٥ / ٥٤٨.

(٢) سورة ٩ التوبة آية ١٢٦.

(٣) قائله (مدرج الريح الجرمي) وأسمه (عامر بن المجنون)، الشعر والشعراء: ٧١٣، والمعاني الكبير: ١٠٤٧

والمخصص ٧ / ٤١، ١٨٠ وتهذيب اصلاح المنطق ٢ / ٥٤ واللسان (غوى) وتفسير الطبري ١٢ / ٣٣٣.

(٤) سورة ١٩ مريم آية ٥٩. (٥) سورة ٣٨ ص آية ٢.

(٣٦٤)

فانه حذف الجواب، وهي القسم، لان الغرض تعظيم المقسم به.

وقعوده على الصراط معناه أنه يقعد على طريق الحق ليصدعنه بالاغواء حتى يصرفه إلى طريق الباطل عداوة له وكيدا.

وقوله " صراطك " المستقيم " قيل في نصب (صراطك) أنه نصب على الحذف دون الظرف، وتقديره على صراطك، كما قيل ضرب زيد الظهر والبطن أي على الظهر والبطن قال

الشاعر:

لذن بهز الكف يعسل منته * فيه كما عسل الطريق الثعلب (٦)

وقال آخر:

كأني اذا أسعى لاظفر طائرا * مع النجم في جو السماء يصوب (٧)

أي لاضر على طائر، وإغواء الله تعالى لابليس لم يكن سببا لضلاله، لانه تعالى علم أنه لولم يغوه لوقع منه مثل الضلال الذي وقع أبوأعظم، فأما قول من قال: إنه لوكان مايفعل به الايمان هو مايفعل به الكفر، لكان قوله " بما أغويتني " وبما أصلحتني بمعنى واحد، فكلام غير صحيح، لان صفة الالة التي يقع بها الايمان خلاف صفتها اذا وقع بها الكفر. وإن كانت واحدة كالسيف. ولا يجب من ذلك أن تكون صفتها واحدة من أجل أنها واحدة بل لايمتنع أنه متى استعمل آلة الايمان في الضلال سمي إغواء، وإن استعمل في الايمان سمي هداية، وإن كان مايصح به الايمان والكفر والضلال واحدا.

وقوله " ثم لاتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم " قيل في معناه ثلاثة أقوال:

أحدها - قال ابن عباس وقتادة وابراهيم بن الحكم والسدي وابن

(٦) قائله ساعدة بن جؤية الهذلي ديوانه ١ / ١٩٠ وسيبويه ١ / ١٦، ١٩٠ وخزانة الادب ١ / ٤٧٤ وتفسير الطبري ١٢ / ٣٣٧ وغيرها.
(٧) تفسير الطبري ١٢ / ٣٣٧.

(٣٦٥)

جريح: من قبل دنياهم وأخرتهم. ومن جهة حسناتهم وسيئاتهم.
الثاني - قال مجاهد: من حيث يبصرون ومن حيث لايبصرون.
الثالث - قال البلخي وأبو علي: من كل جهة يمكن الاحتيال عليهم بها.
وقال ابن عباس: ولم يقل من فوقهم، لان رحمة الله تنزل عليهم من فوقهم، ولم يقل من تحت أرجلهم، لان الاتيان منه موحش. وقال أبو جعفر (ع)
" ثم لاتينهم من بين أيديهم " معناه أهون عليهم أمر الآخرة، ومن خلفهم أمرهم بجمع الاموال والبخل بها عن الحقوق لتبقى لورثتهم " وعن أيمنهم " وأفسد عليهم أمر دينهم بتزيين الضلالة وتحسين الشبهة " وعن شمائلهم " بتجيب اللذات اليهم وتغليب الشهوات على قلوبهم.
وقال الزجاج: " من بين أيديهم " معناه أغوينهم حتى يكذبوا بالبعث والنشور، " ومن خلفهم " حتى يجحدوا ماكان من أخبار الامم الماضية والانبياء السالفة.
وإنما دخلت (من) في الخلف والقدام، و (عن) في اليمين والشمال، لان في القدام والخلف معنى طلب النهاية، وفي اليمين والشمال الانحراف عن الجهة.
ودخول (ثم) في الكلام: بيان أن هذا المعنى يكون بعد القعود في طريقهم.

وقوله " ولا تجد أكثرهم شاكرين " إخبار من إبليس أن الله لا يجد أكثر خلقه شاكرين. وقيل: يمكن أن يكون علم ذلك من أحد وجهين:

أحدهما - قال أبو علي: ذلك علمه من جهة الملائكة بإخبار الله تعالى إياهم.

الثاني - قال الحسن: يجوز أن يكون أخبر عن ظنه ذلك، كما قال تعالى " ولقد صدق عليهم إبليس ظنه " لأنه لما أغوى آدم فاستزله، قال ذرية هذا أضعف منه، وظن أنهم سيجيبونه ويتابعونه.

قوله تعالى:

قال اخرج منها مذؤما مدحورا لمن تبعك منهم لاملان جهنم منكم أجمعين (١٧). آية بلا خلاف.

(٣٦٦)

حكى عن عاصم في الشواذ " لمن تبعك " بكسر اللام، ويكون خبره محذوفا وتقديره لمن تبعك النار، وليس بمعروف.

هذا خبر من الله تعالى أنه " قال أخرج منها " يعني من الجنة " مذؤما " قال ابن عباس: معناه معيبا. وقال ابن زيد: مذموما، يقال: ذأمه يذأمه ذأما وذأمه يذيمه ذيما وذأما. وقيل الذأم والذيم أشد العيب. ومثله اللوم قال الشاعر:

صحبتك إذ عيني عليها غشاوة * فلما انجلت قطعت نفسي أذيما (١)

وأكثر الرواية ألومها. وقوله " مدحورا " فالدحر الدفع على وجه الهوان والاذلال يقال: دحره يدحره دحرا ودحورا. وقيل الدحر الطرد - في قول مجاهد والسدي -.

وقوله " لمن تبعك منهم " جواب القسم، وحذف جواب الجزاء في " لمن تبعك " لان جواب القسم أولى بالذكر من حيث أنه في صدر الكلام، ولو كان في حشو الكلام، لكان الجزاء أحق منه، كقولك: إن تأتني والله أكرمك، ولايجوز أن تكون (من) ههنا بمعنى الذي، لانها لا تقلب الماضي إلى الاستقبال، ويجوز أن تقول: والله لمن جاءك أضربه بمعنى لاضربه، ولم يجز بمعنى لاضربه، كما يجوز والله أضرب زيدا بمعنى لاضرب ولايجوز بمعنى لاضربين، لان الايجاب لابد فيه من نون التأكيد مع اللام على قول الزجاج.

وإنما قال " لاملان جهنم منكم " بلفظ الجمع وإن كان المخاطب واحدا على التغليب للخطاب على الغيبة، كما يغلب المذكر على المؤنث، وكما يغلب الاخف على الاثقل في قولهم: سنة العمرين، لان المفرد أخف من المضاف، لان المعنى لاملان جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين، كما ذكره في موضع آخر.

وقوله " أجمعين " تأكيد لقوله " منكم " وهو وإن كان بلفظ الغائب أكد به المخاطب، لأنه تابع للاول، فإن كان غائباً فهو غائب وإن كان مخاطباً،

(١) قاتله (الحارث بن خالد المخزومي) الاغاني (دار الثقافة) ٣ / ٣١٣ وتفسير الطبري ١ / ٢٦٥ و ١٢ / ٣٤٣.

(٣٦٧)

فهو مخاطب وإن كان متكلماً، فهو متكلم كقولك: نحن منطلق أجمعون عامدون، لان الاتباع قد دل على ذلك.

قوله تعالى:

ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين (١٨) اية بلاخلاف.

في هذه الاية حكاية خطاب الله تعالى لادم وأمره اياه أن يسكن هو وزوجه حواء الجنة. واختلفوا في الجنة التي أسكن الله آدم فيها.

فقال قوم: إنها جنة الخلد، لان الجنة اذا أطلقت معرفة بالالف واللام لا يعقل منها في العرف إلا جنة الخلد، كما أن السموات والارض إذا أطلق لم يعقل منه إلا السموات المخصوصة دون سقف البيت.

وقوله " وزوجك " إيماء به على لفظ التنكير، لان الاضافة أغنت عن ذلك وأبانت عن المعنى، فكان الحذف أحسن، لانه أو جز يقال: لصاحب المنزل ساكن فيه، وإن كان يتحرك فيه أحيانا للتغليب، لان سكونه فيه أكثر، بجلوسه ونومه في ليله. وغير ذلك من أوقاته، وأباح الله تعالى لهما أن يأكلا من حيث شاء، وأين شاء ماشاء، ونهاهما على وجه الندب ألا تقربا هذه الشجرة.

وعندنا إن ذلك لم يكن محرماً عليهما بل نهاهما نهي تنزيه دون حظر وبالمخالفة فاتهما ثواب كثير، وإن لم يفعلا بذلك قبيحا، ولا أخلا بواجب.

ومن خالفنا قال أخطأ في ذلك على خلاف بينهم بأن ذلك صغيرة أو كبيرة.

ومن قال كانت صغيرة، منهم من قال: وقع ذلك منه سهوا ونسيانا. ومنهم من قال: وقع ذلك تأويلا من حيث نهي عن جنس الشجر، فحمله على شجرة بعينها، فأخطأ في التأويل. وقد بينا فساد ذلك فيما مضى (١).

(١) في المجلد الاول ص ١٦٠ - ١٦٤.

وقوله " فتكونا من الظالمين " يحتمل أن يكون نصبا على جواب النهي.
والثاني - أن يكون جزما عطا على النهي، فكأنه قال لا تقربا هذه الشجرة، ولا تكونا من
الظالمين. ومعنى " الظالمين " على مذهبنا المراد به الباخذين نفوسهم ثوبا كثيرا، والمفوتين
نعيمًا عظيمًا. ومن قال: إنهما ارتكبا قبيحا قال: ظلما أنفسهما بارتكاب القبيح. وعلى مذهب من
يقول بأن ذلك كانت صغيرة وقعت مكفرة لا بد أن يحمل الظلم ههنا على نقصان الثواب الذي
انحبط بمقارنة الصغيرة له، فأبو علي: ذهب إلى أن ذلك وقع منه نسيانا. وقال البلخي وقع
منه تأويلا، لانه نهى عن جنس الشجرة فتأوله على شجرة بعينها، وهذا خطأ، لان مايقطع
سهوا أو نسيانا لا يحسن المؤاخذة به. وأما الخطأ في التأويل فقد زاد من قال ذلك قبيحا آخر.
أحدهما ارتكاب المنهي. والثاني الخطأ في التأويل به.
قوله تعالى:

فوسوس لهما الشيطان ليبيدي لهما ماووري عنهما من سواتهما وقال مانهيكما ربكما عن هذه
الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين (١٩) آية بلاخلاف.
قرأ يحيى بن كثير ويعلى بن حكيم " إلا أن تكونا ملكين " بكسر اللام من قوله " هل أدلك على
شجرة الخلد وملك لايبلى " الباقر بفتح اللام.
أخبر الله تعالى أنه لما نهى آدم وزوجته عن أكل الشجرة وسوس لهما الشيطان. والوسوسة
الدعاء إلى أمر بضرب خفي كالمهمة والخشخشة.
قال رؤبة مراجعة:

قوله تعالى:

تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين (١٠٠) آية بلاخلاف.

أخبر الله تعالى عن أهل القرى التي ذكرها وقص خبرها وأشار ب (تلك) إليها، لأنه خاطب النبي (صلى الله عليه وآله). وقوله "نقص عليك من أنبائها" يعني قصص أنباء القرى مافيه من الاعتبار بما كانوا عليه من الاعتزاز بطول الامهال مع اسباغ النعم وتظاهر المنن حتى توهموا أنهم على صواب فيما دعاهم اليه الشيطان من قبح الطغيان.

والقصص اتباع الحديث، ويقال فلان يقص الاثر أي يتبعه ومنه "قالت لاخته قصيه" (١) أي اتبعي اثره، ومنه المقص لأنه يتبع في القطع أثر القطع. و (النبأ) هو الخبر الا ان النبأ خبر عن امر عظيم الشأن وأخذ منه اسم نبي، ويقال: أنبأ بكذا بمعنى أخبر به.

وقوله "ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات" يعني انتهت رسلهم بالآيات والدلالات، وانما أضاف الرسل اليهم مع أنهم رسل الله، لان الاختصاص فيها على طريقة الملك اذ المرسل مالك لرسالته، وقد ملك العباد الانتفاع بها والاهتداء بما فيها من البيان والبرهان.

وقوله "فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل" قيل في معناه قولان: احدهما - انه بمنزلة قوله "ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه" في قول مجاهد أي انا لم نهلكهم الا وفي معلومنا أنهم لا يؤمنون.

الثاني - ان عتوهم في كفرهم وتمردهم فيه يحملهم على ان لا يتركوه

(١) سورة ٢٨ القصص آية ١١.

إلى الايمان - في قول الحسن والجبائي - فالآية على هذا مخصوصة بمن علم من حاله انه لا يؤمن. وقال الاخفش "بما كذبوا" معناه بتكذيبهم فجعل (ما) مصدرية. والمعنى لم يكونوا ليؤمنوا بالتكذيب.

وقوله "كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين" وجه التشبيه فيه أن دلالاته على انهم لا يؤمنون بما بأنهم لا يفلحون كالطبع على قلوب الكافرين الذين في مثل صفتهم في المعلوم.

قوله تعالى:

وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين (١٠١) آية بلاخلاف.

معنى قوله " وما وجدنا " أي مآدركننا، لان الوجدان والالفاء والادراك والمصادفة نظائر. وقوله " لاكثرهم من عهد " فالعهد العقد الذي تقدم لتوطين النفس على أداء الحق، واذا أخذ على الانسان العهد فنقضه، قيل ليس عليه عهد أي كأنه لم يعهد اليه، فلما كان الله تعالى اخذ عليهم العهد بما جعله في عقولهم من وجوب شكر المنعم والقيام بحق المنعم، وطاعة المالك المحسن في اجتناب القبائح إلى المحاسن فألقوا ذلك لم يكن لهم عهد وكأنه قال وما وجدنا لاكثرهم من طاعة لانبيائهم - وقيل العهد ماعهد اليهم مع الانبياء ان يعبدوه ولايشركوا به شيئاً، وهو قول الحسن وابي علي. والمعنى في النفي يؤل إلى انه لم يكن لاكثرهم عهد فيوجد.

وقوله " من عهد " قيل في دخول (من) ههنا قولان:

احدهما - انها للتبعيض لانه اذا لم يوجد بعض العهد فلم يوجد الجميع لانه لو وجد جميعه لكان قد وجد بعضه.

الثاني - انها دخلت على ابتداء الجنس إلى النهاية. وقوله " وان وجدنا اكثرهم لفاسقين " معنى (ان) هي المخففة جاز الغاؤها من العمل وان

(٤٨٦)

يليهما الفعل، لانه حينئذ قد صارت حرفا من حروف الابتداء. واللام في قوله " لفاسقين " لام الابتداء التي تكسر لها (ان) وانماجاز ان يعمل ماقبلها فيما بعدها، لانه مزحلقة عن موضعها اذ لها صدر الكلام ولكن كره الجمع بينها وبين (ان) فأخرت.

وقال قوم: المعنى وماوجدنا أكثرهم الافسقة. فان قيل: كيف قال " اكثرهم لفاسقين " وهم كلهم فاسقون؟ قيل يجوز ان يكون الرجل عدلا في دينه غير متهتك ولامرتكب لما يعتقد قبحه وتحريمه، فيكون تأويل الآية وماوجدنا أكثرهم - مع كفره - الا فاسقا في دينه غير لازم لشريعته خائنا للعهد قليل الوفاء، وان كان ذلك واجب عليه في دينه.

وفيها دلالة على انه يكون في الكفار من يفي بعهده ووعدده وبعيد عن الخلف وان كان كافرا. وكذلك قد يكون منهم المتدين الذي لايرى ان يأتي ماهو فسق في دينه كالغصب والظلم، فأخبر تعالى انهم مع كفرهم كانوا لاوفاء لهم ولايدينون بمذهبهم بل كانوا يفعلون ماهو فسق عندهم، وذلك يدل على صح قول من يقول تجوز شهادة أهل الذمة في بعض المواضع. قوله تعالى:

ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملائه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين (١٠٢) آية أخبر الله تعالى في هذه الآية انه بعدارسال من ذكر قصته من الانبياء،

وكفر قومهم، وانزال عذابه بهم. فالهاء والميم يجوز ان يكون كناية عن الانبياء الذين جرى ذكرهم، ويحتمل ان يكون كناية عن الامم التي - قد تقدم ذكرهم واهلاكهم - بعث اليهم موسى وارسله اليهم. والبعث الارسال وهو في الاصل النقل بأعتماد يوجب الاسراع إلى الشئ، فمنه قوله " انظرني

(٤٨٧)

إلى يوم يبعثون " (١) أي من القبور، ومنه قوله " ثم بعثناكم من بعد موتكم " (٢) أي نقلناكم إلى حال الحياة، وكذلك نقلنا موسى عن حاله بالارسال إلى فرعون وملائه " بآياتنا " يعني بحججنا وبراهيننا. وقوله " فظلموا بها " معناه ظلموا أنفسهم بجحدها، لان الظلم بالشئ على وجوه:

منها السبب والالة والجهة، نحو ظلم بالسيف الذي قتل به الناس، وظلم بذنبه له، وظلم بغصبه المال، وظلم بجحده الحق. وقيل " ظلموا بها " أي جعلوا بدل الايمان الكفر بها، لان الظلم وضع الشئ في غير موضعه الذي هو حقه.

وقوله " فانظر كيف كان عاقبة المفسدين " معنى النظر هو محاولة التصور للشئ بالفكر فيه، وهو طلب ادراك المعنى بالتأويل له. وقيل: هو تحديق القلب إلى المعنى لادراكه، وكأنه قيل فانظر - يعني بالقلب - كيف كان عاقبتهم، وموضع (كيف) نصب لانه خبر (كان) وتقديره انظر أي شئ كان عاقبة المفسدين. قوله تعالى:

وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين (١٠٣).
آية بلاخلاف.

في هذه الاية حكاية لما قال موسى (ع) لفرعون ونداؤه له: اني رسول من قبل رب العالمين مبعوث اليك والى قومك و (من) في قوله " من رب العالمين " لا ابتداء الغاية، لان المرسل المبتدئ بالرسالة وانتهأؤها المرسل اليه.

و (موسى) على وزن (مفعل) والميم في موسى زائدة لكثرة زيادتها أو لا

(١) سورة ٧ الاعراف آية ١٣ وسورة ١٥ الحجر آية ٣٦ وسورة ٣٨ ص آية ٧٩ (٢) سورة ٢ البقرة آية ٥٦.

(٤٨٨)

كالمهزة التي صارت أغلب من زيادة الالف أخيراً. و (أفعى) على وزن (أفعل) لهذه العلة. و (موسى) اسم لاينصرف، لأنه أعجمي ومعرفة، وموسى الحديد عربي ان سميت به رجلاً لم تصرفه، لأنه مؤنث ومعرفة على أكثر من ثلاثة احرف، كمالو سميته ب (عناق) لم تصرفه. ولو سميته (فقد) صرفته. و (فرعون) على وزن " فعلون " ومثله برزون، فالواو زائدة، لأنها جاءت مع سلامة الاصول الثلاثة، والنون زائدة للزومها.

و (فرعون) لاينصرف لأنه أعجمي معرفة، وعرف في حال تعريفه لأنه نقل من الاسم العلم، ولو عرب في حال تكثيره لاينصرف كما ينصرف (بأقرب) اسم رجل.

قوله تعالى:

حقيق على أن لأقول على الله إلا الحق قد جئتم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل (١٠٤) آية بلاخلاف.

قرأ نافع وحده " حقيق علي " بتشديد الياء. الباقر بتخفيف الياء.

فمن قرأ بالتشديد قال تقديره: واجب علي ان لأقول. ومن خفف فعلى تقدير: حريص على أن لا أقول، قال ابو علي قوله " حقيق " يحتمل وجهين:

احدهما - ان (حق) الذي هو (فعل) قد تعدى ب " على " قال الله " فحق علينا قول ربنا " (١) وقال " فحق عليها القول " (٢) فحقيق يصل ب (على) من هذا الوجه. والثاني - ان حقيقاً بمعنى واجب، فكما ان واجب يتعدى ب (على) كذلك تعدى حقيق بها.

ومن لم يشدد أجاز تعديه ب (على) من الوجهين اللذين ذكرناهما،

(١) سورة ٣٧ الصافات آية ٣١ (٢) سورة ١٧ الاسرى آية ١٦.

(٤٨٩)

وقد قالوا: هو حقيق بكذا، فيجوز على هذا أن تكون (على) بمعنى الباء فتوضع (على) موضع الباء، قال ابو الحسن: كما قال " ولاتتعدوا بكل صراط توعدون " (٣) والمعنى (على) قال أبو علي: والاول أحسنها، لان أبا الحسن قال: لان (على) بمعنى الباء ليس بمقيس الأتري انك لو قلت ذهبت على زيد تريد بزيد لم يجز، وقال: وجاز في الآية لان القراءة وردت به، وتقدير " حقيق على ان لا اقول " حقيق بأن لا أقول قال الفراء: العرب تقول: رميت على القوس وبالقوس وجئت على حال حسنة وبحال حسنة، ومعناها متقارب، لأنه مستقل على القول بالنظر حتى يؤديه على الحق فيه.

والحق أيضا منعقد بالقول فيه لاينفك.

وقوله " الا الحق " نصب بأنه مفعول القول على غير الحكاية بل على معنى الترجمة عن المعنى دون حكاية اللفظ.

وقوله " قد جئتم بيينة من ربكم " خطاب من موسى لقومه أنه قد جاء قومه بدلائل من ربه عزوجل. وقوله " فأرسل معي بني اسرائيل " خطاب من موسى لفرعون، وأمره اياه أن يخلي عن بني اسرائيل من اعتقاله، لانه كان قد اعتقالهم للاستخدام في الاعمال الشاقة من نحو ضرب اللبن ونقل التراب وماأشبه ذلك.

ومعنى الاية البيان عن وجوب اتباع موسى (ع) لمكان الادلة التي تشهد بصدقه، وبأنه لايقول على الله الا الحق ولا يدعو الا إلى الرشيد.

قوله تعالى:

قال إن كنت جئت بأية فأت بها إن كنت من الصادقين (١٠٥)

آية بلاخلاف.

هذاحكاية عما قال فرعون لموسى (ع) من انه ان كان معك حجة (٣) سورة ٧ الاعراف آية

٨٥

(٤٩٠)

ودلالة تشهد لك على ما تقول " فات بها " أي هات بها " ان كنت " صادقا " من الصادقين " على طريق اليأس منه بذلك وجهله بصحته وامكانه.

واختلف النحويون - ههنا - في نقل (ان) الماضي إلى الاستقبال.

فقال ابوعباس لم تنقله هنا من أجل قوة (كان) لانها أم الافعال، ولم يجزه من غيرها، وقال ابن السراج: المعنى ان تكن جئت بأية أي ان يصح ذلك، لانه اذا أمكن ان يجري الحرف على اصله لم يجز اخراجه، وانما جاز نقل (ان) الماضي إلى المستقبل للبيان عن قوتها في النقل اذ كانت تنقل الفعل نقلين إلى الشرط والاستقبال، كما أن (لم) تنقله إلى النفي والماضي.

وضمير المخاطب في " كنت " يرجع إلى المكنى، ولايجوز مثل ذلك في (الذي) لان (الذي) غائب فحقه أن يعود اليه ضمير الغائب، وقد أجازوه - اذا تقدمت كناية المتكلم كما في قول الشاعر:

وان الذي قتلت بكرا بالقنا * وتركت تغلب غير ذات سنام (١)

فعلى هذا لايجوز أتيت الذي ضربك عمرو، والوجه ضربه. وانما جاز وقوع الامر في جواب الشرط، لان فيه معنى: ان كنت جئت بأية فاني ألزمك أن تأتي بها، فقد عاد إلى انه يجب

الثاني بوجوب الاول. ولايجوز مثل ذلك في الاستفهام، لانه لم يقع معرفة غيره، ولو اتسع فيه جاز، مثل أن تقول: ان كان عندك دليل فما هو؟، ولايجوز: ان قدم زيد، فأعمر وأقدمه؟ لان الالف لها صدر الكلام.

قوله تعالى:

فألقي عصاه فاذا هي ثعبان مبين (١٠٦) ونزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين (١٠٧) آيتان بلاخلاف.

(١) مجمع البيان ٣ / ٥٦

(٤٩١)

هذا اخبار من الله تعالى عن لقاء موسى عصاه، والعصا عود كالقضيب يابس وأصله الامتناع بيبسه يقال: عصى يعصي اذا أمتنع قال الشاعر:

تصف السيوف وغيركم يعصي بها * يابن القيون وذاك فعل الصيقل (١)

وقيل: عصى بالسيف اذا أخذه أخذ العصا، ويقال لمن استقر بعد تنقل: ألقى عصاه، قال الشاعر:

فألقت عصاها واستقر بها النوى * كما فر عينا بالاياب المسافر (٢)

والعصى من بنات الواو، والمعصية من بنات الياء قال الشاعر:

فجاءت بنسج العنكبوت كأنه * على عصويها سابري مشبرق (٣)

وتقول عصى يعصي فهو عاص مثل رمى يرمى واصل ألقى من اللقاء الذي هو الاتصال، فألقى عصاه أي أزال اتصالها عما كان، ومنه إلتقاء الحدين يعني اتصالهما، والملاقات كالماسة، وزيدت ألف ألقى لتدل على هذا المعنى وانما صارت الياء الفا في ألقى، لانها في موضع حركة قبلها فتحة، ولذلك رجعت إلى أصلها في ألقيت. وانما وجب هذا، لانه بمنزلة التضعيف في موضع يقوى فيه التغيير مع نقل الحركة في حروف العلة.

وقوله " فاذا هي ثعبان " فالثعبان هو الحية الضخمة الطويلة. وقال الفراء: الثعبان أعظم الحيات، وهو الذكر، وهو مشتق من ثعبت الماء أتعبه ثعبا اذا فجرته. والمتعب موضع انفجار الماء، فسمي الثعبان، لانه يجري كعنق الماء عند الانفجار قال الشاعر:

* على نهج كثعبان العرين *

وقيل: إن ذلك الثعبان فتح فاه، وجعل فيه فرعون بين نابيه فارتاع

(١) قاتله جرير، ديوانه: ١٧٥ واللسان والتاج (عصا).

(٢) اللسان والتاج (عصا) وقال ابن بري: هذا البيت لابن عبدربه السلمي.

(٣) قائله ذو الرمة ديوانه ٧٦، واللسان (عصا) ومجمع البيان ٢ / ٤٥٦

(٤٩٢)

فرعون واستغاث بموسى أن يأخذ، ففعل - في قول ابن عباس والسدي وسفيان - ومعنى " مبين " أي بين أنه حية لاليس فيه.

وقوله " ونزع يده " فالنزع هو ازالة الشئ عن مكانه الملابس له المتمكن فيه كنزع الرداء عن الانسان، والنزع والقلع والجذب نظائر، واليد معروفة وهي الجارحة المخصوصة، واليد النعمة، لانها بمنزلة ما اشتدت بالجارحة، وقد يكون اليد بمعنى تحقيق الاضافة في الفعل، لانه بمنزلة ما عمل باليد التي هي جارحة.

وقوله " فاذا هي بيضاء للناظرين " معنى (اذا) - هنا - المفاجأة.

وهي بخلاف (اذا) التي للجزاء، قال الزجاج هي من ظروف المكان مثل (ثم، وهناك)، والمعنى بيضاء المناظرين هناك، والبيضاء ضد السوداء وهو أن يكون به المحل أبيض، وكان موسى (ع) أسمر شديد السمرة. وقيل:

أخرج يده من جيبه فاذا هي بيضاء " من غير سوء " (١) يعني برص. ثم أعادها إلى كفه فعادت إلى لونها الاول - في قول ابن عباس ومجاهد والسدي - وقال أبوعلي: كان فيها من النور والشعاع مالم يشاهد مثله في يد أحد والناظر هو الطالب لرؤية الشئ ببصره لان النظر هو تطلب الادراك للمعنى بحاسة من الحواس، أو وجه من الوجوه.

قوله تعالى:

قال الملا من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم (١٠٨)

(١) سورة ٢٠ طه آية ٢٢ وسورة ٢٧ النمل آية ١٢ وسورة ٢٨ القصص آية ٣٨.

(٤٩٣)

يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تامرون (١٠٩) آيتان هذا حكاية ما قال أشرف قوم فرعون، أن موسى ساحر عليهم بالسحر، وإنما قيل للاشراف الملا لامرين: أحدهما - قال الزجاج: لانهم مليئون بما يحتاج اليه منهم. الثاني - لانه يملا الصدر هيبتهم، فالملا جعل الوعاء على كل ما يحتمل مما يلقي فيه كامتلاء المكيال ونحوه. ويقال: الخلاء والملا على وجه التقابل، وقوم فرعون هم الجماعة الذين كانوا يقومون بأمره ومعاونته ونصرته، ولهذا لا يضاف القوم إلى الله، فلا يقال: يا قوم الله كما يقال يا عباد الله، والسحر لطف الحيلة في

إظهار أعجوبة توهم المعجزة وقال الازهري السحر صرف الشئ عن حقيقته إلى غيره،
والساحر إنما يكفر بادعاء المعجزة، لانه لايمكن مع ذلك علم النبوة.
وأصل السحر خفاء الامر، ومنه خيط السحارة، لخفاء الامر فيها، ومنه قوله تعالى " إنما أنت
من المسحرين " (١) أي الذين يعدون لخفاء الامر في العدو، والسحر العدو، والسحر آخر
الليل لخفاء الشخص ببقية ظلمته، والسحور طعام السحر، والسحر الرئة وما تعلق بها لخفاء
أمرها في انتفاخها تارة وضمورها أخرى، قال ذو الرومة:
وساحرة الشراب من الموامي * يرقص في نواشرها الاروم (٢)
ويقال: سحر الارض المطر اذا جادها فقطع نباتها من أصوله بقلب الارض ظهرها لبطن،
سحرها سحرا والارض مسحورة، فشبه سحر الساحر بذلك بتخييله إلى من سحره أنه يرى
الشئ بخلاف ماهو به.

(١) سورة ٢٦ الشعراء آية ١٥٣، ١٨٥.

(٢) ديوانه: ٥٩١ واللسان (أرم) وتفسير الطبري ١٣ / ١٩ وروايته:

وساحرة السراب من الموامي * ترقص في عساقفها الاروم

(٤٩٤)

ومعنى قوله تعالى " يريد أن يخرجكم من أرضكم " بإزالة ملككم بتقوية أعدائكم عليكم. وقوله
" من أرضكم " فالارض المستقر الذي يمكن الحيوان التصرف فيه عليه. وجملة الارض التي
جعلها الله قرارا للعباد فاذا أضيفت، فقيل أرض بني فلان، فمعناه مستقرهم خاصة.
وقوله " فماذا تأمرون " موضع (ما) يحتمل أن يكون رفعا، ويكون المعنى فما الذي تأمرون،
ويجوز أن يكون نصبا بمعنى فبأي شئ تأمرون، ويجعل (ما) مع (ذا) بمنزلة اسم واحد، وفي
الجواب يتبين الاعراب، ويحتمل أن يكون قوله " فماذا تأمرون " من كلام الملا بتقدير أن
يكون قال بعضهم لبعض: ماذا تأمرون، ويحتمل أن يكونوا قالوا ذلك لفرعون على خطاب
الملوك، ويحتمل أن يكون من كلام فرعون والتقدير قال فرعون:
فماذا تأمرون خطابا لقومه، فعلى هذا تقول قلت لجاريتك قومي أنا قائمة، وتقديره قالت: أنا
قائمة، وهو قول الفراء وأبي علي الجبائي، وأنشد الفراء قول عنتره، وزعم أن فيه معنى
الحكاية:

الشانمي عرضي ولم أشتمهما * والناذرين إذا لقيتهما دمي (١)

لان المعنى قالوا إذا لقينا عنتره لنقتلنه.

قوله تعالى:

قالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين (١١٠)
يأتوك بكل ساحر عليم (١١١) آيتان بلا خلاف.
قرأ أهل الكوفة إلا عاصما "سحار" بتشديد الحاء وألف بعدها.
الباقون (ساحر) بألف قبل الحاء على وزن (فاعل) وقرأ عاصم إلا يحيى وحمزة "أرجه"
بسكون الهاء من غير همزة. وقرأ أهل البصرة والداحوني

(١) ديوانه: ٣١ ومعاني القرآن للفراء ١ / ٣٨٧.

(٤٩٥)

عن هشام ويحيى بالهمزة، وضم الهاء من غير اشباع. وقرأ ابن كثير والحلواني عن هشام
كذلك إلا أنهما وصلا الهاء بواو في اللفظ، وروى ابن ذكوان بالهمز وكسر الهاء من غير
اشباع. وقرأ أبو جعفر من طريق بن العلاف وقلون والمسيبي بكسر الهاء من غير اشباع،
وبغير همز. الباقي وهم الكسائي وخلف واسماعيل وورش، وأبو جعفر من طريق النهر واني
بكسر الهاء ووصلها بياء في اللفظ من غير همز، وكذلك اختلافهم في الشعراء.

والهمزة لغة قيس وغيرهم، وترك الهمزة لغة تميم وأسد يقولون:

أرجيت الامر، وقال أبو زيد: أرجيت الامر إرجاء إذا أخرته. وقوله تعالى "أرجيه" أفعله من
هذا، ولا بد من ضم الهاء مع الهمزة، لا يجوز غيره، والايبلغ الواو أحسن، لان الهاء خفية فلو
بلغ بها الواو لكان كأنه قد جمع بين ساكنين، ألا ترى أن من قال: رده يافتى بضم الدال اذا
وصل بالهاء في ضمير المؤنث، قال ردها ففتح، كما تقول رد لخفاء الهاء، وكذلك "أرجه"
لا ينبغي أن يبلغ بها الواو فيصير كأنه جمع بين ساكنين، ومن ألحق الواو فلان الهاء محركة
ولم يلتق ساكنان لان الهاء فاصل، قال (أرجيهوا) كما يقال (أضربهوا) فلو كان الياء حرف
لين، لكان وصلها بالواو أقبح نحو (عليهوا) لاجتماع حروف متقاربة مع أن الهاء ليست بحاجز
قوي في الفصل، واجتماع المتقاربة كاجتماع الامثال.

قال أبو علي الفارسي: من وصل الهاء ب (يا)، فلان هذه الهاء توصل في الادراج بواو، أو
ياء، نحو (بهي) أو (بهو) و (ضربهوا) ولا تقول في الوصل (به) ولا (به) ولا (ضربه) حتى
تشعب فتقول "بهو" ما علم (بهي) الا في ضرورة الشعر كقوله:

وماله من مجلد يلبد وقال: ومن كسر الهاء مع الهمز، فقد غلط وانما يجوز اذا كان قبله ياء
فقال "أرجيه" بكسر الهاء، ولم يستقم، لان هذه الياء في تقدير الهمزة،

ومعنى الآية أن قوم فرعون أشاروا عليه بأن يؤخر موسى وأخاه إلى أن يرسل في بلاد مملكته حاشرين، وقال ابن عباس: هم الشرط، وقال مجاهد والسدي: يحشرون من يعلمونه من السحرة والعالمين بالسحر ليقابل بينهم وبين موسى جهلا منهم بأن ذلك ليس بسحر، ومثله في عظم الاعجاز لانتتم فيه الحيلة، لان السحر هو كل أمر يوهموه على من يراه، ولا حقيقة له، وإنما يشتبه ذلك على الجهال والاغبياء دون العقلاء المحصلين.

وقوله " يأتوك بكل ساحر عليم " (يأتوك) جزم، لانه جواب الامر، والمعنى إن ترسل يأتوك، وحجة من قال " ساحر " قوله " ماجئتم به " السحر " (١) والفاعل من السحر ساحر، ويقويه قوله " فألقى السحرة " ساجدين " (٢) والسحرة جمع ساحر، ولانه قال " سحروا أعين الناس " (٣)

واسم الفاعل ساحر، ومن قرأ " سحار " فلانه وصف ب (عليم)، ووصفه به يدل على تناهيه فيه وحذقه، فحسن لذلك أن يذكر بالاسم الدال على المبالغة. والaitان هو الانتقال إلى مطلوب، ومثله المجئ أتى يأتي إتيانا وأتى يؤتى إيتاء اذا أعطي، وإنما دخلت (كل) وهي المعموم على واحد، لانه في معنى الجمع، كأنه قال بكل السحرة اذا أفردوا ساحرا ساحرا. والفرق بينه وبين

(٤) سورة ٤٨ الحجرات آية ١٠. (١) سورة ١٠ يونس آية ٨١.

(٢) سورة ٢٦ الشعراء آية ٤٦. (٣) سورة ٧ الاعراف آية ١١٥.

(٤٩٨)

كل السحرة أنه اذا قيل بكل السحرة، فالمعنى المطلوب للجميع، واذا قيل: بكل ساحر، فالمعنى المطلوب لكل واحد منهم، ويبين ذلك قول القائل: لكل ساحر درهم، ولكل السحرة درهم، فان الاول يفيد أن لكل واحد درهما، والثاني أن الجميع لهم درهم. والباء في قوله " بكل " قيل فيه قولان: أحدهما - انه للتعدية كما يعدى بالالف، ومنه ذهبت به وأذهبت به وأتيت به وأتيته. الثاني - أنها بمعنى (مع) أي يأتون ومعهم كل ساحر عليم. قوله تعالى:

وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لاجرا إن كنا نحن الغالبين (١١٢) قال نعم وإنكم لمن المقربين (١١٣) آيتان قرأ أهل الحجاز وحفص " إن لنا لاجرا " بهمزة واحدة على الخبر، وقرأ بهمزتين مخففتين ابن عامر وأهل الكوفة إلا حفصا وروح، إلا أن الحلواني عن هشام يفصل بينهما بألف، وأبو عمرو ورويس لا يفصل. قال أبو علي: الاستفهام في هذا الموضع

أشبهه، لانهم يستفهمون عن الاجر، وليس يقطعون أن لهم الاجر، ويقوي ذلك إجماعهم في الشعراء، وربما حذفتم همزة الاستفهام، قال الحسن قوله تعالى " وتلك نعمة تمنها علي أن عبت بني اسرائيل " (١) إن من الناس من يذهب إلى انه على الاستفهام وقد جاء ذلك في الشعر:

أفرح أن أرزأ الكرام وأن * أورت نودا شصائصا نبلا (٢)

(١) سورة ٢٦ الشعراء آية ٢٢.

(٢) اللسان (نبل) يقول أفرح بصغار الابل التي ورثتها، وقد رزنت بالكرام؟

(٤٩٩)

وهذا أفصح من قوله:

وأصبحت فيهم آمنة لا كمعشر * أتوني فقالوا من ربيعة أم مضر (٣)
لان (أم) تدل على الهمزة. وفي الكلام حذف، لان التقدير فأرسل فرعون في المدائن حاشرين يحشرون السحرة، فحشروهم " فجاء السحرة فرعون قالوا: ان لنا لاجرا " أي ان لنا ثوابا على غلبتنا موسى عندك " ان كنا نحن " يافرعون " الغالبيين "، وهو قول ابن عباس والسدي.
وتقول: جئته وجئت اليه، فاذا قلت: جئت اليه، ففيه معنى الغاية لدخول (إلى) فيه وجئته معناه قصدته بمجيئي، واذا لم يعده لم يكن فيه دلالة على القصد كما تقول: جاء المطر.
وقوله " وجاء السحرة فرعون قالوا " إنما لم يقل: فقالوا حتى يتصل الثاني بالاول، لان معناه لما جاؤا قالوا، فلم يصلح دخول الفاء على هذا الوجه، وانما قالوا: أئن، لنا لاجرا، ولم يقولوا: لنا أجر، لان أحدهما سؤال عن تحقيق الاجر وتأكيده، كما لو قال أبا الله لنا أجر، وليس كذلك الوجه الاخر.

وقوله " إن كنا نحن " موضع (نحن) يحتمل وجهين:

أحدهما - أن يكون رفعا ويكون تأكيدا للضمير المتصل في كنا.

والثاني - لاموضع له، لانه فصل بين الخبر والاسم.

والاجر الجزاء بالخير، والجزاء قد يكون بالشر بحسب العمل وبحسب ما يقتضيه العدل. والغلبة ابطال المقاومة بالقوة، ومن هذا قيل في صفة الله (عزوجل) القاهر الغالب، لانه القادر الذي لا يعجزه شيء.

وقوله " قال نعم " حكاية عن قول فرعون مجيبا لهم عما سألوه من أن لهم أجرا أو لا؟ بأن قال نعم لكم الاجر، و (نعم) حرف جواب مع أنه

(٣) قائله عمران بن حطان، يقوله في قوم نزل بهم متكرا، وهو يشكر صنيعهم، انظر الكامل ٧ / ١٨٧ والخصائص لابن جني ٢ / ٢٨١.

(٥٠٠)

يجوز الوقف عليها، لأنها في الايجاب نظيرة (لا) في النفي، وإنما جاز الوقف عليها، لأنها جواب لكلام يستغني بدلالاته عما يتصل بها.

وقوله " قال " أصله (قول) فانقلبت الواو الفا لتحركها وانفتاح ماقبلها وإنما قلبوها مع خفة الفتحة لتجري على (قلت وتقول) في الاعلال مع أن الالف الساكنة أخف من الواو المتحركة، وان كانت بالفتحة. والواو في قوله تعالى " وانكم " واو العطف كأنه قال: لكم ذلك، وانكم لمن المقربين، وهو في مخرج الكلام، كأنه معطوف على حرف. وكسرت الف " إنكم " لأنها في موضع استئناف بالوعد، ولم تكسر لدخول اللام في الخبر، لأنه لو لم يكن اللام لكانت مكسورة. ومثل هذا قوله تعالى " وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام " (١) ومعنى " من المقربين " انكم من المقربين إلى مراتب الجلالة التي يكون فيها الخاصة، ولايتخطى فيها العامة.

وفي الآية دليل لقوم فرعون على حاجته وذلته لو استدلوا واحسنوا النظر لنفوسهم، لأنه لم يحتج إلى السحرة الا لدلة وعجز، وكذلك في طلب السحرة الاجر دليل على عجزهم عماكانوا يدعون من القدرة على قلب الاعيان، لانهم لو كانوا قادرين على ذلك لاستغنوا عن طلب الاجر من فرعون، ولقلبوا الصخر ذهبا ولقلبوا فرعون كلبا واستولوا على ملكه.

قال ابن اسحاق: وكان السحرة خمسة عشر ألفا. وقال ابن المكندر: كانوا ثمانين ألفا، وقال كعب الاحبار: كانوا اثني عشر ألفا. وقال عكرمة: كانوا سبعين ألفا ذكره الطبري.

قوله تعالى:

قالوا ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين (١١٤)
قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤا

(١) سورة ٢٥ الفرقان آية ٢٠.

(٥٠١)

بسحر عظيم (١١٥) آيتان بلاخلاف.

هذا حكاية قول السحرة أنهم قالوا لموسى اختر أحد شيئين إما أن تلقى أنت عصاك أو نحن نلقى عصينا، وانما دخلت (أن) في قوله " إما أن تلقى " ولم تدخل في " إما يعذبهم وإما يتوب عليهم " (٢) لان فيه معنى الامر كأنهم قالوا: اختر إما أن تلقى أي إما القاؤك وإما القاؤنا، ومثله " اما أن تعذب واما أن تتخذ فيهم حسنا " (٣) فموضع (ان) نصب، ويجوز أيضا ان يكون التقدير إما القاؤك مبدوء به وإما القاؤنا، ويجوز أن تقول: يازيد اما أن تقوم أو تقعد، ولايجوز أن تقول يازيد ان تقوم أو تقعد، لان (إما) يبتدأ بالمعنى فيها أي بمعنى التخيير، فلذلك تدل على معنى اختر، وليس كذا (أو)

وقد يقع موقع (اما) وليس بجيد، كما قال الشاعر:

فقلت لهن امسين إما نلاقه * كما قال او تشفى النفوس فنعذرا (٤)

وقال ذو الرمة:

فكيف بنفس كلما قلت أشرفت * على البرء من حوصاء هيض اندمالها

تهاض بدار قد تقادم عهدا * واما بأموات ألم خيالها (٥)

(٢) سورة ٩ التوبة آية ١٠٧.

(٣) سورة ١٨ الكهف آية ٨٧. (٤) معاني القرآن للفراء ١ / ٣٩٠.

(٥) هذان البيتان للفرزدق. ديوانه ٢ / ٦١٨ ومجاز القرآن ١ / ٣٩٠.

وهما مطلع قصيدة له يمدح بها ابن عبدالمك، ويهجو الحجاج بن يوسف.

وقد تكون نسبتها الذي الرمة - هنا - خطأ من الناسخ.

موضع (اما) موضع (أو). واللقاء ارسال المعتمد إلى جهة السفلى، ومثله الطرح، وضده الامسك. وقول القائل: إلق علي مسألة إلى هذا يرجع، وإنما قال " واما أن نكون نحن الملقين " ولم يقل واما أن تلقى، لانه ليس المعنى على ليكن القاء أحدنا فقط، فيجئ على التقابل، وانما هو

(٥٠٢)

على أن يلقي أحدنا فيبطل ماأتى به الآخر.

وقوله " ألقوا " حكاية عن قول موسى (ع) للسحرة (ألقوا) أنتم " فلما ألقوا سحروا أعين الناس " قال البلخي: معناه غشوا أعين الناس، وقال: السحر هو الخفة، والافراط فيها حتى تخيل بها الاشياء عن الحقيقة والاحتيال بما يخفى على كثير من الناس كتغييرهم الطرجهالة والحيلة فيها ان يجعل (الطرجهالة) طاقين ويرقق بغاية الترقيق، ويجعل بين الطبقتين زيبق، فاذا وضعت في الشمس حمي الزيبق فسار بالطر جهالة، لان من طبع الزيبق اذا حمي ان يتحرك ويفارق مكانه.

وقال قوم: معناه خيلوا إلى أعين الناس بما فعلوه من لتخييل والخدع أنها تسعى، كما قال تعالى " يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى (٦) " وقال الرماني: معنى سحر العين قلبها عن صحة إدراكها بما يتخيل من الأمور المموهة لها بلطف الحيلة التي تجري مجرى الخفة والشعبذة مما لا يرجع إلى حقيقة، والمحدث لهذا التخيل هو الله تعالى عندما أظهروا من تلك المخاريق وإنما نسب إليهم لأنهم لولم يعرضوا بما يعملونه لم يقع، كما لو جعل أحد طفلاً تحت البرد، فمات، فهو القاتل له في الحكم، والله تعالى أماته، وإنما جاز من موسى (ع) أن يأمرهم بالقضاء السحر وهو كفر لامرين:

أحدهما - إن كنتم محقين فالقوا.

الثاني - القوا على ما يصح ويجوز، لأعلى ما يفسد ويستحيل.

وقال الجبائي: هذا على وجه الزجر لهم والتهديد، وليس بأمر.

وقوله " فلما ألقوا سحروا أعين الناس " والفرق بين (لما) و (إذا) هو الفرق بين (لو) و (أن) في أن أحدهما للماضي والآخر للمستقبل، وكل هذه الأربعة تعليق أول بثان، إلا أن (لو) على طريقة الشك، و (لما) يقين.

وقوله " واسترهبوهم " معناه طلبوا منهم الرهبة، وهو خلاف الارهاب،

(٦) سورة ٢٠ طه آية ٦٦.

(٥٠٣)

لأنه جعل الرهبة للذي يرهب، والعظيم ما يملأ الصدر بهوله، ووصف السحر بأنه عظيم لبعده مرام الحيلة فيه، وشدة التمويه به، فهو لذلك عظيم الشأن عند من يراه من الناس، ولأنه على ما ذكرناه من الخلاف في عدة السحرة من سبعين ألفاً أو ثمانين ألفاً كان مع كل واحد حبل وعصا، فلما ألقوها وخيل إلى الناس أنها تسعى استعظموا ذلك وخافوه، فلذلك وصفه الله بأنه سحر عظيم.

و (إما) إذا كانت للتخيير، فأهل الحجاز ومن جاورهم من قيس وبعض تميم بكسرونها وينصبها قيس وأسد و (أما) إذا كانت منصوبة فهي التي يقتضي أن يكون في جوابها الفاء. قوله تعالى:

وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون (١١٦)

فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون (١١٧) آيتان بلاخلاف.

قرأ حفص عن عاصم " تلقف " خفيفة. الباقر بتشديد القاف، وقرأ ابن كثير فإذا هي " تلقف " بتشديد التاء والقاف في رواية البزي عنه إلا النقاش، وابن فليح.

والوحي هو القاء المعنى إلى النفس من جهة تخفى، ولذلك لم يشعر به إلا موسى (ع) حتى امتثل ما أمر به فاذا العصاحية تسعى.

وفي هذه الآية إخبار من الله تعالى أنه أوحى إلى موسى (ع) حين ألقى السحرة سحرهم وسحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤا بسحر عظيم: أن ألق عصاك ف (أن) يحتمل أمرين: أحدهما - أن تكون مع مابعداها من الفعل بمنزلة المصدر، وتقديره أوحينا إلى موسى باللقاء. الثاني - أن تكون (أن) بمعنى أي لأنه تفسير ما أوحى إليه.

(٥٠٤)

" فاذا هي تلقف ما يافكون " معنى تلقف تبتلع تناولا بفيها بسرعة منها، فهي تلتقمه استراطا حالا فحالا قال الشاعر:

وأنت عصى موسى التي لم تزل * تلقف ما يافكه الساحر (١)

يقال: لقفته ألقفه لققا ولققانا، ولقفته ألقفه وتلقفته تلقفا إذا أخذته في الهواء. ومن قرأ بتشديد التاء قال: أصله تتلقف فادغم إحدى التائين في الأخرى بعد أن سكن الثانية. ومن خفف القاف أخذه من لقفته. ومن شدها قال: هو من تلقف.

وقوله " ما يافكون " فالافك هو قلب الشئ عن وجهه، ومنه " المؤتفكات " (٢) المنقلبات. والافك الكذب لأنه قلب المعنى عن جهة الصواب. وقال مجاهد: " ما يافكون " أي يكذبون. وفي الآية حذف، وتقديره فألقى عصاه فصارت حية " فاذا هي تلقف ما يافكون " والمعنى إنها تلقف المأفوك الذي حل فيه الافك، وعلى هذا يحمل قوله تعالى " والله خلقكم وماتعملون " (٣) ومعناه وماتعملون فيه.

وقوله " فوقع الحق " معناه ظهر الحق - في قول الحسن ومجاهد - وأصل الوقوع السقوط كسقوط الحائط والطائر تقول: وقع يقع وقعا ووقوعا وأوقعه إيقاعا، ووقع توقيعا وتوقع توقععا وأوقعه موقعة، والميعة المطرقة. والواقعة النازلة من السماء، والوقائع الحروب. قال الرماني:

الوقوع ظهور الشئ بوجوده نازلا إلى مستقره. و (الحق) كون الشئ في موضعه الذي اقتضته الحكمة. والحق موافق لداعي الحكمة، ولذلك يقال وقع الشئ في حقه. و (الباطل) الكائن بحيث يؤدي إلى الهلاك، وهو نقيض الحق، فالحق كون الشئ بحيث يؤدي إلى النجاة. والعمل

(١) تفسير الطبري ٧ / ٢٦٠ والفتح القدير (تفسير الشوكاني) ٢ / ٢٢١ وروايتهما (تلقم) بدل (تلقف) وهو في مجمع البيان ٢ / ٤٦٠ (تلقف).

(٢) سورة ٥٢ النجم آية ٥٣. (٣) سورة ٣٧ الصافات آية ٩٦.

(٥٠٥)

تصيير الشيء على خلاف ماكان اما بايجاده أو بايجاد معنى فيه ومثله التغيير .

و (ما) في قوله " ماكانوا يعملون " يحتمل أمرين:

أحدهما - أن يكون بمعنى المصدر، والتقدير وبطل عملهم.

والثاني - أن يكون بمعنى الذي وتقديره وبطل الحبال والعصي التي عملوا بها السحر. و (ما)

إذا كانت بمعنى المصدر لاتعمل عمل (إن) إذا كانت بمعنى المصدر، لامرين: أحدها - أن

(ما) اسم، والاسم لايعمل في الفعل. والآخر - أن تنتقل الفعل نقلين إلى المصدر والاستقبال

تقول:

يعجبني ماتصنع، ويعجبني أن تصنع الخير.

قوله تعالى:

فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين (١١٨) وألقى السحرة ساجدين (١١٩) قالوا آمنا برب العالمين

(١٢٠) رب موسى وهرون (١٢١) أربع آيت.

أخبر الله تعالى أنه لمالقى موسى عصاه وصارت حية، وتلقفت مأفكت السحرة: أن السحرة "

غلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين " والغلبة الظفر بالبغية من العدو، وفي حال المنازعة تقول:

غلب يغلب غلبة، فهو غالب وذاك مغلوب أي مقهور، وغالبه مغالبة وتغالب تغالبا وغلب

تغليباً. ومعنى (هنالك)

أي عند ذلك الجمع، فهو ظرف مبهم كما أن (ذا) مبهم وفيه معنى الإشارة.

وقيل: هنا وهنا لك وهناك، مثل ذا وذاك وذلك. وإنما دخلت اللام في (هنالك) لتدل على بعد

المكان المشار اليه، كمادخلت في (ذلك) لبعده المشار اليه، ف (هنا) لمابعد قليلاً، وهنالك

لماكان أشد بعداً. وإنما دخل كاف المخاطبة مع بعد الإشارة ليشعر بتأكيد معنى الإشارة إلى

المخاطب ليتنبه على بعد المشار اليه من المكان، والبعيد أحق بعلامة التنبيه من القريب.

وقوله " وانقلبوا صاغرين " أي رجعوا أذلاء، والصاغر الذليل،

(٥٠٦)

والصغر والصغار الذلة، يقال: صغر الرجل يصغر صغراً وصغارا إذا ذل، وأصله صغر

القدر.

وقوله تعالى " وألقى السحرة ساجدين " إنما جاء على ما لم يسم فاعله لامرين:

أحدهما - أنه بمعنى ألقاهم مارأوا من عظيم آيات الله بأن دعاهم إلى السجود لله والخضوع له.

الثاني - أنهم لم يتمالكوا أن وقعوا ساجدين، فكأن ملقيا ألقاهم، ولم يكن ذلك على وجه الاضطرار إلى الايمان، لانه لو كان كذلك لما مدحوا عليه بل علموا ذلك بدليل، وهو عجزهم من ذلك مع تأتي سائر أنواع السحر منهم. واللقاء اطلاق الشئ إلى جهة السفلى ونقيضه الامسك، ومثله الاسقاط والطرح. ومعنى الآية البيان عن حال من تيقن البرهان، فظهر منه الاذعان للحق والخضوع بالسجود لله تعالى، ولم يكن ممن تعامى عن الصواب وتعاشى عن طريق الرشاد.

وقوله تعالى " قالوا آمنا برب العالمين " حكاية لما قالت السحرة عند تبينهم الحق ووقوعهم للسجود لله تعالى واعترافهم بأنهم آمنوا برب العالمين الذي خلق السموات والارض وما بينهما وخلق موسى وهارون، والقول كلام يدل على الحكاية، ولو قيل: (تكلما) لم يقتض حكاية كلامهم على صورته، فاذا قيل: (قالوا) اقتضى حكاية كلامهم. والايان هو التصديق الذي يؤمن من العقاب، وهو التصديق بما أوجب الله عليهم. وقال الرماني:

يجوز أن يقال لله أنه لم يزل ربا ولا مربوب، كماجاز لم يزل سميعا ولا مسموع، لانه صفة غير جارية على الفعل كما تجري صفة مالك على ملك يملك، فالمقدور هو المملوك. وأصل الصفة ب (رب) التربوية وهي تنشئة الشئ، حالا بعد حال حتى يصير إلى حال التمام والكمال، ومنه رب النعمة يربها ربا إذا تممها، وربى الطفل تربوية، والله تعالى رب العالمين المالك لهم ولتدبيرهم.

(٥٠٧)

و (العالم) كل أمة من الحيوان وجمعة العالمون على تغليب ما يعقل، وهو مأخوذ من العلم، لكنه كثر في استعمال أهل النظر على أنه لجميع ما أحاط به الفلك من الاجسام المتصرفة في الاحوال، وقال قوم (عالم) لا يقع إلا لجماعة العقلاء. وقد بينا ذلك في فاتحة الكتاب. وقوله " رب موسى وهارون " إنما خص موسى وهارون بالذكر بعد دخولهما في الجملة من " آمنا برب العالمين " لامرين:

أحدهما - أن فيه معنى الذي دعا إلى الايمان موسى وهارون.

الثاني - خص بالذكر لشرف ذكرهما على غيرهما على طريق المدحة لهما والتعظيم. والرب بالاطلاق لا يطلق إلا على الله تعالى، لانه يقتضي أنه رب كل شئ يصح ملكه، وفي الناس

يقال: رب الدار ورب الفرس، ومثله (خالق) لا يطلق إلا فيه تعالى، وفي غيره يقيد، يقال خالق الاديم.

قال الرماني: وإنما جاز نبيان في وقت ولم يجز إمامان في وقت، لان الامام لما كان يقام بالاجتهاد كانت إمامة الواحد أبعد من المناقشة واختلاف الكلمة وأقرب إلى الالفة ورجوع التدبير إلى رضا الجميع.

وهذا الذي ذكره غير صحيح، لان العقل غير دال على أن الامام يجب أن يكون واحدا كما أنه غير دال على أنه يجب أن يكون النبي واحدا، وإنما علم بالشرع أنه لا يكون الامام في العصر الواحد إلا واحدا كما علمنا أنه لم يكن في عصر النبي (صلى الله عليه وآله) نبي آخر، واستوى الامران في هذا الباب.

قوله تعالى:

قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لكم مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون (١٢٢)
لاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لاصلبنكم أجمعين (١٢٣) آيتان بلاخلاف.

(٥٠٨)

قرأ حفص وورش ورويس " آمنتم " على الخبر. الباقر بهمزيين على الاستفهام. وحقق الهمزيين أهل الكوفة إلا حفصا وروحا. الباقر بتحقيق الاولى وتليين الثانية إلا أن قنبلا في غير رواية ابن السائب يقلب همزة الاستفهام واوا اذا اتصلت بنون فرعون، ولم يفصل أحد بين الهمزيين بألف، قال أبو علي: قياس قول أبي عمرو ومذهبه أن يفصل بين الهمزيين بألف كما يفصل بين النونات في (اخشيان) إلا أنه يشبه أن يكون ترك القياس، وقوله هنالما كان يلزم منه اجتماع المتشابهات فترك الالف التي تدخل بين الهمزيين، وخفف الهمزة الثانية التي هي همزة (افعل) من (آمن) فأما رواية أبي الاخريط عن ابن كثير بابدال الهمزة واوا، فانه أبدل من ألف الاستفهام واوا، لانضمام ما قبلها وهي النون المضمومة في (فرعون) وهذا في المنفصل مثل المتصل من نوره، فقوله (نوا) على وزن (نود) وفي رواية قنبل عن القواس مثل رواية البزي عن أبي الاخريط غير انه يهزم بعد الواو، قال أبو علي: من همز بعد الواو، لان هذه (الواو) هي منقلبة عن همزة الاستفهام، وبعد همزة الاستفهام همزة (أفعلتم) فخففها، ولم يخففها كماخفف في القول الاول، ووجهه ان الاولى لما زالت عن لفظ الهمزة وانقلبت واوا حقق الهمزة بعدها، لانه لم يجتمع همزتان. ووجه القول الاول أن (الواو) لما كان انقلابها عن الهمزة تخفيفا قياسا، كان في حكم الهمزة فلم يحقق معها الثانية كما لا تحقق مع الهمزة نفسها،

لان الواو في حكمها، كماكانت في حكمها في (رويا) في تخفيف (رؤيا) فلم يدغموها في الياء، كما لم يدغم الهمزة فيها.

ومن قرأ على الخبر فوجهه أنه يخبرهم بايمانهم على جهة التقريع لهم بايمانهم، والانكار عليهم. ووجه الاستفهام أنه استفهام على وجه التوبيخ والتقريع، والانكار عليهم. وحمزة والكسائي قرءا بهزتين الثانية ممدودة، لان الهمزة الثانية تتصل بها الالف المنقلبة عن الهمزة التي هي فاء في (آمن).

في هذه الاية حكاية لما قال فرعون للسحرة حين آمنوا بموسى وصدقوه

(٥٠٩)

لظهور الحق، فقال لهم " آمنتم به؟ " وانما قال لهم ذلك، لانه توهم أن الاقدام على خلاف الملك بماعمل قبل الاذن فيه منكر يقتضي سطوة الملك بصاحبه والتتكيل به، وعندنا أن فرعون لم يعرف الله قط معرفة يستحق بها الثواب. وقال الرماني: لايمتنع أن يكون عارفا بالله، وإنما قال هذا القول تمويها على قومه والمتحذير من مثل حال السحرة الذين أقدموا على المخالفة له في الايمان بموسى (ع).

وقوله تعالى " إن هذا لمكر مكر تموه في المدينة " معناه تواطأتم على هذا الامر لتستولوا على العباد والبلاد، فتخرجوا من المدينة أهلها وتتغلبوا عليها، والمكر قيل الاغترار بالحيلة إلى خلاف جهة الاستقامة وأصله الفتل والالتفاف كماقال ذو الرمة.

عجاء ممكورة خمصانة قلق * عنها الوشاح وثم الجسم والعصب (١)

والمكر والخدع نظائر في اللغة، وقوله " فسوف تعلمون " تهديد من فرعون لهم وتخويف من مخالفته، وإنما هدد فرعون ب (سوف تعلم)، لان فيه معنى أقدمت بالجهل على سبب الشر، فسوف تعلم حين يظهر مسيبه الذي أدى اليه كيف كانت منزلته، فهو أبلغ من الافصاح به.

وقوله " لاقطن أيديكم " فالنقطيع تكثير القطع ونظيره التفصيل والتفريق، ونقيضه التوصيل تقول: قطع قطعاً وأقطع أقطاعاً، وقطع تقطيعاً وتقطع تقطعاً واقتطع اقتطاعاً وتقاطع تقاطعاً واستقطع واستقطاعاً وقاطع مقاطعة وانقطع انقطاعاً. والايدي جمع يد، وهي الجارحة المخصوصة، واليد النعمة، لانها تسدي إلى صاحبها باليد. والارجل جمع رجل وهي الجارحة التي يمشي بها من يمين وشمال. والراجل خلاف الراكب وترجل الانسان اذا نزل عن دابته واقفا على رجله، ورجله غيره، وارتجل القول ارتجالاً إذا كان فيه كالراجل الذي لم يستعن بركوب غيره. ورجل الشعر إذا سرحه حاطا له

(٥١٠)

عن ركوب بعضه بعضا.

و (التقطيع من خلاف) هو قطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى، وهو قول الحسن، وقال غيره: وكذلك يكون قطع اليد اليسرى مع الرجل اليمنى.

وقوله " ثم لاصلبكم أجمعين " القراء كلهم على ضم الهمزة، وتشديد اللام من (أصلبكم) وذكر الفراء " ولاصلبكم " بفتح الهمزة وكسر اللام من الصلب، وهو الشد على الخشبة أو ماجرى مجراها من الاشخاص البارزة، وهو مشتق من صلابة الشد، يقال: صلب صلابة وصلبه تصليبا وتصلب تصلبا.

وقال ابن عباس: أول من صلب وقطع الايدي والارجل من خلاف فرعون.
قوله تعالى:

قالوا إنا إلى ربنا منقلبون (١٢٤) آية إجماعا.

وهذا إخبار عن جواب السحرة حين آمنوا، وتوعد فرعون إياهم بقطع الايدي والارجل والصلب بأنهم " قالوا إنا إلى ربنا منقلبون " أي راجعون وغرضهم بهذا التسلي في الصبر على الشدة، لما عليه من المثوبة، مع مقابلة وعيده بوعيد هو أشد عليه هو عقاب الله. وأصل (إنا) إننا وحذفت احدى النونين لكثرة النونات، فاذا قيل إننا، فلانه الاصل واذا قيل (إنا) فللاستخفاف مع كراهة التضعيف، والانتقال إلى الله هو الانقلاب إلى جزائه والمصير اليه، إلا أنه فخم بالاضافة إلى الله لعظم شأنه، والانتقال مصير الشئ على نقيض ماكان عليه ممايتغير به، واذا صار إلى الاخرة بعدالدنيا فانقلب اليها، واذا كان على خلق فتركه ألى ضده فقد انقلب اليه.

قوله تعالى:

وماتتقم منا إلا أن آمننا بآيات ربنا لما جاء تثاربنا أفرغ

(٥١١)

علينا صبورا وتوفنا مسلمين (١٢٥) آية بلاخلاف.

في هذه الاية إخبار عما قالت السحرة حين آمنوا وتوعدهم فرعون بأنواع العذاب بأنهم قالوا له: إنا راجعون إلى الله، وقالوا له أيضا: ليس نتقم منا إلا إيماننا بالله وتصديقنا بآياته التي جاءتنا. والنقمة الاخذ بالعقوبة:

نقم ينقم، ونقم ينقم، واللغة الاولى أفصح وانتقم انتقاما ونقمة، فالنقمة ضد النعمة.

والفرق بين النعمة والاساءة ان النعمة قد تكون بحق، جزاء على كفر النعمة، ولذلك يقال انتقم الله من فلان نعمة عاجلة، والاساءة لاتكون الا قبيحة، لانه ليس لاحد أن يسيئ في فعله، والمسئ مذموم على اساءته.

وقوله تعالى " ربنا أفرغ علينا صبرا " حكاية عن قول هؤلاء السحرة الذين آمنوا، وأنهم بعد أن قالوا لفرعون ماقالوه، سألوا الله تعالى أن يفرغ عليهم صبرا، ومعناه أن يفعل بهم من اللطف مايصبرون معه على عذاب فرعون ويتشجعوا عليه، ولايفزعوا منه.

والافراغ صب مافي الاناء أجمع، حتى يخلو، مشتقا من الفراغ، والفراغ نقيض الشغل، وقيل: أفرغ عليه الصبر تشبيها بافراغ الاناء، كما يقال صب عليه العذاب صبا، والصبر هو حبس النفس عن إظهار الجزع، صبر يصبر صبرا والصبر على الحق عز، كما أن الصبر على الباطل ذل.

والصبر في الجملة محمود، قال الله تعالى " واصبر على ماأصابك ان ذلك من عزم الامور ".
وقوله تعالى " وتوفنا مسلمين " رغبة منهم إلى الله تعالى وسؤالهم إياه بأن يقبضهم اليه ويميتهم في حال السلامة.

قوله تعالى:

وقال الملا من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا

(٥١٢)

في الارض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون (١٢٦)
آية بلا خلاف.

قرأ أهل الحجاز " سنقتل أبناءهم " بالتخفيف. الباقون بالتثقل، فمن ثقل ذهب إلى التكثر، ومن خفف، فلاحتماله التكثر والتقليل.

في هذه الآية إخبار عن إنكار قوم فرعون وأشرافهم ورؤسائهم على فرعون تركه موسى وقومه ليفسدوا في الارض على اعتقادهم، وإنما أنكروا على فرعون ذلك مع عبادتهم له، لانه جرى على خلاف عادة الملوك في السطوة بمن خالف عليهم وشق العصا في ملكهم. وكان ذلك بلطف من الله تعالى وحسن دفاعه عن موسى. وعنوا بالافساد في الارض دعاء الخلق إلى مخالفة فرعون في عبادته وتجهيله إياه في ديانته لما يتفق عليه من ذلك مما لا قبل له به مما فيه انتقاض أمره وبطلان ملكه.

وقوله تعالى " ويذرك وآلهتك " معناه قال الحسن: إنه كان يعبد الاصنام، فعلى هذا كان يعبد ويعبد، كما حكى الله تعالى عنه من قوله " أنا ربكم الاعلى " (٢) وقال السدي: كان يعبد

مايستحسن من البقر، وعلى ذلك أخرج السامري " عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى " (٣)

وقال الزجاج: إنما كانت له أصنام يعبدها قومه تقربا إليه. وقرأ ابن عباس " ويزرك وإلهتك " بمعنى وعبادتك. وقال كان فرعون يعبد ولا يعبد، وقال بعضهم (إلهتك) إنما هو تأنيث إله وجمعه إلهتك كما قال الشاعر، وهو عتيبة بن شهاب اليربوعي.
تروحنا من اللعاب قصرا * فأعجلنا الإلهة ان توبوا (٥)

(٢) سورة ٧٩ سورة النازعات آية ٢٤. (٣) سورة ٢٠ طه آية ٨٨.

(٥) انظر إلى معجم ما استعجم: ١١٠، ومعجم البلدان (اللعاب) ولسان العرب " لعب " " أنه " وتفسير الطبري ١٣ / ٤٠ وغيرها. و " اللعاب "

(٥١٣)

يعني الشمس، فأدخل التاء في هذا كما أدخلوا في قولهم: ولدتى وكوكبتى وهالتي وهو أهلة ذلك، كما قال الراجز:

يامضر الحمراء أنت اسرتى * وأنت ملجاتى وأنت ظهرتى (٦)

وقوله تعالى " سنقتل أبناءهم " إنما تهددهم بقتل آبائهم مع ان موسى هو الذي دعاهم إلى الله دونهم من حيث أنه لم يطمع فيه، لما رأى من قوة أمره وعلو شأنه فعدل إلى ضعفاء بني اسرائيل بقتل ابنائهم ليوهم انه يتم له ذلك فيهم.

وقوله تعالى " ونستحيي نساءهم " معناه نستبقي من تولدمن بنائهم للمهنة والخدمة من غير أن يكون لهم نجدة ولا عندهم منعة.

ونصب قوله " ويزرك " لاحد وجهين: احدهما - الصرف، والآخر العطف. والصرف على ان يكون تقديره ليفسدوا في الارض إلى ان يذرك وألهتك، والعطف على ليفسدوا ويزرك. وقرأ الحسن " ويزرك " بالرفع عطفًا على أتذر، ويجوز فيه الاستئناف، وهو يذرك. قوله تعالى:

قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين (١٢٧) آية بلاخلاف هذا حكاية من الله تعالى عما قال موسى لقومه حين تهددهم فرعون بقتل ابنائهم واستحياء نساءهم، وانه امرهم ان يستعينوا بالله والاستعانة طلب المعونة، وقد يسأل السائل المعونة لغيره يقول: اللهم أعنه على أمره الا ان الغالب على الاستعانة طلب المعونة لنفس الطالب.

وقوله " واصبروا " أمر من موسى اياهم بالصبر وهو حبس النفس

(٥١٤)

عمايؤدي إلى ترك الحق مع تجرع مرارة ذلك الحبس ونقيضه الجزع قال الشاعر:
فان تصبرا فالصبر خير مغبة * وان تجزعا فالامر ماتريان (١)
وقوله " ان لارض لله يورثها من يشاء من عباده " اخبار عما قال موسى لقومه من ان
الارض كلها ملك لله يورثها من يشاء من عباده، والارث جعل الشئ للخلف بعدالسلف،
والاغلب ان يكون ذلك في الاموال، وقد يستعمل في غيرها مجازا كقولهم: العلماء ورثة
الانبياء، وقولهم ماورث والد ولدا أجل من ادب حسن.
ومعنى " يورثها من يشاء من عباده " قيل في معناه قولان:
أحدهما - التسلية لهم بأنها لاتبقي على أحد لانها تنقل من قوم إلى قوم اما محنة او عقوبة.
الثاني - الاطماع في ان يورثهم الله ارض فرعون وقومه.
والمشيئة هي الارادة وهي ماأثرت في وقوع الفعل على وجه دون وجه من حسن أو قبح او
غيرهما من الوجوه.
وقوله تعالى " والعاقبة للمتقين " فالعاقبة ماتؤدي اليه التأديبة من خير اوشر الاانه اذا قيل:
العاقبة له فهو في الخير، فاذا قيل: العاقبة عليه فهو في الشر مثل الدائرة له وعليه وقال ابن
عباس: لماأمنت السحرة اتبع موسى ستمائة ألف من بني اسرائيل.
قوله تعالى:
قالوا أودينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ماجئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في
الارض فينظر كيف تعملون (١٢٨) آية بلاخلاف.

(١) مر في ١ / ٢٠٢.

(٥١٥)

هذا اخبار من الله تعالى عن ماقال قوم موسى لموسى بأنا اودينا من قبل أن تأتينا بالرسالة.
والاذى ضرر لايبليغ بصاحبه ان يأتي على نفسه، تقول: آذاه يؤذيه اذى وتأذى به تأذيا، ومثله
آلمه يؤلمه ايلاما وتألم به تألما. والاذى الذي كان بهم قيل: هو استعباد فرعون اياهم وقتل
ابنائهم واستحياء نساءهم للاستخدام. والذي كان بعد مجئ موسى الوعيد لهم بتجديد ذلك العذاب

من فرعون والتوحيد عليه، وكان هذا على سبيل الاستبطاء منهم لما وعدهم فجدد الوعد لهم وحققه، وقال الحسن: كان يأخذ منهم الجزية.

قوله " قال عسى ربكم ان يهلك عدوكم " قال سيبويه: لعل وعسى طمع واشفاق، وقال الحسن (عسى) من الله واجبة، وبه قال الزجاج.

وقال ابو علي الفارسي (عسى) ههنا يقين.

وقوله " ويستخلفكم في الارض " قال أبو علي: استخلفوا في مصر بعد موت موسى (ع) في التيه. ثم فتح الله لهم بيت المقدس مع يوشع بن نون. ثم فتح الله لهم مصر وغيرها في زمن داود وسليمان، فملكوها في ذلك الزمان على ما وعدوا به من الاستخلاف.

وقوله تعالى " فينظروا كيف تعملون " قيل: ان معنى ينظر - ههنا - يعلم، وقيل يرى وكلامهما مجاز لان النظر هو الطلب لما يدرك وهذا لا يجوز عليه تعالى، ولكنه جاء على قوله " ولنبلوكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين " (١) وفائدة الاية تسلية موسى (ع) لقومه بما وعدهم عن الله من اهلاك فرعون وقومه وجعل قومه بدلا منهم ليعملوا بطاعته.

قوله تعالى:

ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات

(١) سورة ٤٧ محمد آية ٣١.

(٥١٦)

لعلمهم يذكرون (١٢٩) آية بلاخلاف.

أخبر الله تعالى في هذه الاية، واقسم عليه بأنه اخذ آل فرعون بالسنين وهي الاعوام المقحطة، واللام في قوله " لقد " لام القسم، (وقد) معناه الاخبار عن متوقع وهي تقرب الماضي من الحال، لانه اذا توقع كون أمر فقيل قد كان، دل على قربه من الحال. والال خاصة الرجل الذين يؤول أمرهم اليه، ولذلك يقال: اهل البلد، ولا يقال: آل البلد، لان في الاهل معنى القرب في نسب او مكان، وليس كذلك الال.

ومعنى " أخذناهم بالسنين " أخذناهم بالجدوب، والعرب تقول:

أخذتهم السنة اذا كانت قحطة يقال أسنت القوم اذا أجدبوا، وانما قيل للمجدبة: السنة ولم يقل للخصبة، لانها نادرة في الانفراد بالجدب، والنادر أحق بالافراد بالذكر، لانفراده بالمعنى الذي ندر به. وقال الفراء: معنى بالسنين بالجدوبة تقول العرب (وجدنا البلاد سنين) أي جدوبا، قال الشاعر:

وأموال اللئام بكل أرض * تجحفها الجوائح والسنون

وقال آخر:

كأن الناس إذ فقدوا عليا * نعام جال في بلد سنينا
أي في بلد جدوب وأهل الحجاز وعلياء قيس يقولون: هن السنون، فيجعلونها بالواو في الرفع،
وبالياء في الخفض والنصب على هجائين، وبعض تميم يقول هي السنين، فاذا ألقوا الالف
واللام لم يجروها، فقالوا قد مضت له سنون كثيرة، وكنت عندهم بضع سنين، وبنوعامر،
فانهم يجرونها في النصب والجر والرفع فيقولون: أقيمت عنده سنينا كثيرة. وقال الكسائي:
على هجائين هي اللغة الغالبة في كلام العرب: السنون، والسنين وينصبون النون على كل
حال مثل نون الجمع في الموضعين، وعليه اجماع القراء، قال:
وبعض العرب يجعلها على هجاء واحد، ويلزم النون؟ اعراب يجعلها كأنها من

(٥١٧)

نفس الكلمة، وأنشد:

سنيني كلها واسيت حربا * أقاس مع الصلادمة الذكور
وأنشد:

ولقد ولدت بنين صدق سادة * ولانت بعد الله كنت السيدا
فأثبت النون في بنين وهي مضافة.

وقوله تعالى " ونقص من الثمرات " أي وأخذناهم مع القحط وجذب الارض بنقصان من
الثمار.

وقوله تعالى " لعلمهم يذكرون " معناه لكي يتفكروا في ذلك ويرجعوا إلى الحق وإنما قال " لعلمهم " وهي موضوعة للشك، وهو لايجوز في كلام الله لانهم عوملوا معاملة الشاك مظهرة في القول كما جاء الابتلاء والاختيار مثل ذلك. والاية تدل على بطلان مذهب المجبرة من أن الله تعالى يريد الكفر المعاصي، لانه بين أنه فعل بهم ذلك لكي يذكروا، ويرجعوا فقد أراد منهم الازكار، فكأنه قال من أجل أن يذكروا، وليس كذلك اذا كلفهم من أجل الثواب، لان إرادة المرید لمايكون من فعله في المستأنف عزم، وذلك لايجوز عليه تعالى، وليس كذلك إرادته لفعل غيره، قال مجاهد: السنين الحاجة، ونقص من الثمرات دون ذلك، وقال قتادة: كان السنين بباديتهم، " ونقص من الثمرات " كان في أمصارهم وقراهم. وقال كعب: يأتي على الناس زمان لاتحمل النخلة الاثمرة.

قوله تعالى:

فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون (١٣٠) آية بلاخلاف.
المراد بالحسنة - ههنا - النعمة من الخصب والسعة في الرزق والعافية

(٥١٨)

والسلامة. و (السيئة) النقمة من الجذب وضيق الرزق والمرض والبلاء، وفيه ضرب من المجاز، لأن حقيقة الحسنة ماحسن من الفعل في العقل، والسيئة ماقيح من الفعل، وإنما شبه هذا بذلك، لتقبل العقل لهذا كتقبل الطبع لذلك. وقال قوم: هو مشترك لظهور العلم في ذلك في الناس جميعا على منزلة سواء.

أخبر الله تعالى عن قوم فرعون أنه إذا جاءهم الخصب والسعة والنعمة من الله " قالوا لنا هذه " والمعنى إنا نستحق ذلك على العادة الجارية لنا من نعمنا وسعة أرزاقنا في بلادنا، ولم يعلموا أنه من الله فيشكروه عليه ويؤدوا حق النعمة، لئلا يسلبهم الله إياها.

وقوله " وإن تصبهم سيئة " يعني جذب وقحط وبلاء " يطيروا بموسى ومن معه " والمعنى إنهم تشاءموا بهم، وهو قول الحسن ومجاهد، وابن زيد، لأن العرب كانت تزجر الطير، فنتشاءم بالبارح وهو الذي يأتي من جهة الشمال، وتتبرك بالسانح، وهو الذي يأتي من جهة اليمين، قال الشاعر:

زجرت لها طير الشمال فإن يكن * هواك الذي يهوى يصبك اجتنابها (١)
وقال آخر:

فقلت غراب لا اغتراب من النوى * وبان لبين ذي العيافة والزجر
وأصل الطائر النصيب، يقال: طار له من القسم كذا وكذا، وأنشد ابن الاعرابي:
واني لست منك ولست مني * إذا ماطار من مالي الثمين
أي أخذت الزوجة ثمنها من ميراثه.

وقوله تعالى " ألا إنما طائرهم عند الله " معناه إن الله هو الذي يأتي بطائر البركة وطائر الشؤم، من الخير والنشر والنفع والضرر، فلو عقلوا طلبوا الخير من جهته، والسلامة من الشر من قبله.

(١) اللسان (طير) وروايته (لهم) بدل (لها).

(٥١٩)

وموضع (إذا) نصب بأنها ظرف للقول، ولايجوز أن يعمل فيها الفعل الذي يليها، لأنها مضافة إليه، ولو جازيت بها جاز عمله فيها، وقال الأزهري والزجاج: معنى " إنما طائرهم عندالله " شؤمهم الذي وعدوا به من العقاب عندالله يفعله بهم يوم القيامة، وقال ابن عباس معناه إن مصائبهم عندالله.

قوله تعالى:

وقالوا مهما تأتتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين (١٣١) آية بلاخلاف.

" مهما " أي شئ، وقال الخليل: أصلها (ما) إلا أنهم أدخلوا عليها (ما) كما يدخلونها على حروف الجزاء، فيقولون (ماما) و (متى ما)

و (اذاما) فغيروا ألفها بأن أبدلواهاها، لئلا يتوهم التكرير وصار (ما)

فيها مبالغة في معنى العموم، وقال غيره: أصلها (مه) بمعنى أكففت دخلت على (ما) التي للجزاء.

والفرق بين (ما) و (مهما) أن (مهما) خالصة للجزاء وفي (ما)

اشتراك، لأنها قدتكون استنفها تارة، وبمعنى الذي أخرى، وتارة بمعنى الجزاء، وإن كان الاصل في (مهما) (ما)، لان (ما) يجازى به من الاسماء ماقد لا يستعمل في الجزاء، والتركييب ظاهر فيها لفظا ومعنى.

وقوله تعالى " تأتتنا " في موضع جزم، وعلامة الجزم فيه حذف الياء، وإنما حذف الحرف للجزم، لانه من حروف المد واللين، وهي مجانسة لحركات الاعراب، ومن شأن الجازم أن يحذف ما يصادفه من الحركة، فإن لم يصادف حركة عمل في نفس الحرف، لئلا يتعطل عن العمل.

في هذه الاية إخبار من الله تعالى، وحكاية ما قال قوم فرعون لموسى (ع)

بأنهم قالوا له: أي شئ تأتينا به من المعجزات وتسحرنا بها، فانا لانصدقك عليه، ولانؤمن بك. و (الاية) هي المعجزة الدالة على نبوته، وهوكل ما يعجز الخلق عن معارضته ومقاومته، كما لا يمكن مقاومة الشبهة للحجة،

(٥٢٠)

وكما لا يمكن أن يقاوم الجهل للعلم، والسراب للماء، وان توهم ذلك قبل النظر والاعتبار، ويخيل قيل الاستدلال الذي يزول معه الالتباس، وقد بينا حقيقة السحر فيما مضى، وقد يسمى السحر ما لا يعرف سببه وإن لم يكن محظورا، كما روي عنه (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (إن من البيان لسحرا) وكما قال الشاعر:

وحديثها السحر الحلال لو أنه * لم يجز قتل المسلم المتحرز
وذلك مجاز وتشبيهه دون أن يكون حقيقة.

قوله تعالى:

فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما
مجرمين (١٣٢) آية أخبر الله تعالى أنه لما قال فرعون وقومه ما قالوا - من أنهم لا يؤمنون،
وان أتى بجميع الايات، فانهم لا يصدقونه على نبوته - أنه أرسل عليهم الطوفان، وهو السيل
الذي يعم بتفريقه الارض، وهو مأخوذ من الطوف فيها، وقيل: هو مصدر كالرجحان
والنقصان. وقال الاخفش: واحده طوفانة، وأما المفسرون فانهم اختلفوا في معناه، فقال ابن
عباس في بعض الروايات عنه: إنه الغرق. وقال مجاهد: هو الموت. وفي رواية أخرى عن
ابن عباس أنه كان أمرا من الله تعالى طاف بهم، وقال تعالى في قصة نوح " فأخذهم الطوفان
وهم ظالمون " (١) وقال الحسن بن عرفة:

غير الجدة من آياتها * خرق الريح بطوفان المطر (٢)
وقال الراعي:

(١) سورة ٢٩ العنكبوت آية ١٤.

(٢) نوادر أبي زيد: ٧٧ واللسان (طوف) وتفسير الطبري ١٣ / ٥٣ وغيرها، ويروي:
* خرق الريح وطوفان المطرف *

(٥٢١)

تضحى إذا العيس أدركتنا نكائتها * خرقاء يعتادها الطوفان والزؤد (٣)
الزؤد الفزع، وقال أبو النجم:

قد مد طوفان فبث مددا * شهرا شأبيب وشهرا بردا (٤)

وقال أبو عبيدة: الطوفان من السيل البعاق، ومن الموت الذريع.

وقوله تعالى " والقمل " فاختلفوا في معناه، فقال ابن عباس - في رواية عنه - وقتادة
ومجاهد: إنه بنات الجراد، وهو الدبا صغار الجراد الذي لأجنحة له. وفي رواية أخرى عن
ابن عباس وسعيد: أنه السوس الذي يقع في الحنطة. وقال ابن زيد هو البراغيث. وقال
أبو عبيدة: هو الحمان واحده حمنة. وقيل: حمانة وهو كبار القردان. وقال الحسن وسعيد بن
جبير: هو دواب صغار سود واحده قملة، قال الاعشى:

قوم تعالج قملا أبناءهم * وسلاسلا أجدا وبابا مؤصدا (٥)

وقوله " والضفادع " فهو جمع ضفدع، فهو ضرب من الحيوان يكون في الماء له نقيق واصطخاب، وهو معروف. وقيل: إنه كان يوجد في فرشهم وأبنيتهم ويدخل في ثيابهم، وفيشتد أذاهم به.

و (الدم) معروف وقدحده الرماني: بأنه جسم مائع أحمر مسترق عرض له الجمود كهذا الذي يجري في العروق. وقيل: إن مياههم كانت عذبة طيبة فانقلبت دما، فكان الاسرائيلي اذا أغترف صارماء، واذا اغترف القبطي كان دما، حتى ان المرأة القبطية تقول للمرأة الاسرائيلية مجي من فيك

(٣) اللسان (تكث) (زاد) وتفسير الطبري ١٣ / ٥٣. (النكات)

آخر ما عند العيش من قوة على السير، و (الزؤد) الفرع. وخرقاء صفة للنافقة التي لا تتعهد مواضع قوائمها لحدة فيها.

(٤) تفسير الطبري ١٣ / ٥٤.

(٥) ديوانه: ١٥٤ واللسان (قمل) وتفسير الطبري ١٣ / ٥٦ وهو من قصيدته التي قالها لكسرى.

(٥٢٢)

في فمني فاذا فعلت ذلك تحول دما، وقال زيد بن أسلم: الذي سلط الله عليهم، كان الرعاف. وقوله " آيات مفصلات " نصب على الحال، قال مجاهد: معجزات مبيبات ظاهرات وأدلة واضحات. وقال غيره: لأنها كانت تجيء شيئاً بعد شيء، وقيل: إنها كانت تمكث من السبت إلى السبت، ثم ترفع شهرا - في قول ابن جريج. قوله " فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين " معناه إنهم مع مشاهدتهم لهذه الآيات العظيمة والمعجزات الظاهرة، أنفوا من الحق وتكبروا عن الأذعان والانقياد له، وكانوا قوما عصاة مرتكبين للجرام والآثام. قوله تعالى:

ولما وقع عليهم الرجز قالوا ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل (١٣٣) فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينجثون (١٣٤) آيتان.

(لما) للماضي مثل (لو). و (إذا) للمستقبل مثل (أن) وإن دخلت على الماضي.

أخبر الله تعالى عن هؤلاء القوم أنه حين وقع عليهم الرجز... وهو العذاب - في قول الحسن ومجاهد وقتادة وابن زيد وفي قول سعيد بن جبيرة:

هو الطاعون وقال قوم هو الثلج ولم يكن وقع قبل ذلك، وأصل الرجز الميل عن الحق، ومنه قوله تعالى " والرجز فاهجر " (١) يعني عبادة الوثن، والعذاب رجز، لأنه عقوبة على الميل عن الحق، ومنه الرجاسة ما يعدل به الحمل إذا مال، والرجاسة أيضا صوف أحمر يزين به اليهودج، لأنه كالرجاسة

(١) سورة ٧٤ المدثر آية ٥.

(٥٢٣)

التي هي تقويم له إذا مال والرجز: رعدة في رجل الناقة لداء يلحقها يعدل بها عن حق سيرها، والرجز ضرب من الشعر أخذ من رجز الناقة، لأنه متحرك وساكن ثم متحرك وساكن في كل أجزائه، فهو كالرعدة في رجل الناقة، يتحرك بها، ثم يسكن، ثم يستمر على ذلك. وقوله " قالوا ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك " حكاية لمسألة قوم فرعون لموسى أن يدعو الله لهم بما عهد عند موسى، والعهد التقدم في الامر فمنه العهد الوصية، والعهد الوثائق والشروط. والعهد مطر بعد مطر قدعه قبله. المعاهد المعاهد على الزمة، والتعاهد التقدم في تفقد الشيء وكذلك العهد وقيل في معنى " بماعهد عندك " قولان:

أحدهما - بما تقدم اليك به وعلمك أن تدعوه به فإنه يجيبك كما أجابك في آياتك.

الثاني - بماعهد عندك من العهد على معنى القسم.

وقوله " فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه " فيه إخبار من الله تعالى أنه لما كشف عنهم العذاب عند ذلك وأخرهم إلى أجل هم بالغوه يعني أجل الموت " إذا هم ينكثون " وانهم عند ذلك نكثوا ما قالوه ولم يفوا بشئ منه.

والعامل في (إذا) " ينكثون "، وليست (إذا) هذه (إذا) المضافة إلى جملة، بل هي بمنزلة - هناك - وهي المكتفية بالاسم، ولو قال (إذا النكث) صح الكلام، كما تقول: خرجت فإذا زيد. ومعنى (إذا) المفاجأة وفيه وقوع خلاف المتوقع منهم، لأنه أتى منهم نقض العهد بدلا من الوفاء، فكأنه فاجأ الرأي عجب من نكثهم، والبلوغ منتهى المرور، ومثله الوصول، غير أن في الوصول معنى الاتصال، وليس كذلك البلوغ. والانتهاه نقيض الابتداء في كل شئ، وإن لم يكن فيه معنى المرور. والنكث نقض العهد الذي يلزم الوفاء به. ومثله الغدر، إلا أن (الغدر) فيما عقد من الايمان على النفس، ولذلك جاء في نقض الغزل في قوله تعالى " كالتى نقضت غزلها

(٥٢٤)

من بعد قوة إنكاثا " (١) وأصله النكاثة وهي تشعيب الشئ من حبل أو غيره.
وانتكث الشئ اذا تشعب والنكيثة نقض العهد، وجواب (لما) (إذا) ومثله قوله " وإن تصبهم
سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون " (٢) ولايجوز أن يجاب بعد (إن)، لانها لوقت الماضي
والجواب بعد الاول، يقتضي الاستقبال، ولذلك صلحت فيه الفاء ولم يصلح الواو، وحرف
الجزاء يقلب الفعل دون الوقت.
قوله تعالى:

فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنه غافلين (١٣٥) آية بلاخلاف.
أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه بعد أن أظهر الايات التي مضى ذكرها وفزع قوم فرعون
إلى موسى ليسأل الله أن يرفع عنهم العذاب، فانهم اذا رفع عنهم ذلك آمنوا، ففعل موسى،
ورفع الله عنهم ذلك، ولم يؤمنوا ونكثوا ماعهدوا به من القول وأنه انتقم منهم، ومعناه سلب
نعمهم بانزال العذاب عليهم وحلول العقاب بهم.
وقوله " فأغرقناهم في اليم " فالاغراق في الامر أو النزح، فهو مشبه بالاغراق في الماء. و "
اليم " البحر في قول الحسن وجميع أهل العلم - قال ذو الرمة:
دوية ودجى ليل كأنهما * يم تواطن في حافاته الروم (٣)
وقال الراجز: كبازخ اليم سقاه اليم (٤)

(١) سورة ١٦ النحل آية ٩٢. (٢) سورة ٣٠ الروم آية ٣٦.

(٣) ديوانه: ٥٧٦ وتفسير الطبري ١٣ / ٧٤.

(٤) قائله العجاج ديوانه: ٦٣ ومجاز القرآن ١ / ٢٧٧ وتفسير الطبري ١٣ / ٧٥.

(٥٢٥)

وقوله تعالى " بأنهم كذبوا بآياتنا " معناه إنا فعلنا بهم ذلك جزاء بما كذبوا من آيات الله وحججه
وبراهينه الدالة على نبوة موسى وصدقه " وكانوا عنها غافلين " معناه أنهم أنزل عليهم العذاب
وكانوا غافلين عن نزول ذلك بهم.
والغفلة حال تعتري النفس تنافى الفطنة واليقظة تقول: غفل يغفل غفولا، وغفلا وغفلة، وتغافل
تغافلا وأغفل الامر إغفالا، واستغفله استغفالا، واغفله اغفالا وتغفل تغفلا، وغفله تغفلا وهو
مغفل.
فإن قيل كيف جاء الوعيد على الغفلة، وليست من فعل البشر؟! قلنا عنه ثلاثة أجوبة: أحدها
- أنهم تعرضوا لها حتى صاروا، لايفطنون بها.

الثاني - أن الوعيد على الاعراض عن الايات حتى صاروا كالغافلين عنها.
الثالث - أن المعنى وكانوا عن النعمة غافلين ودل عليه (انتقمنا).

قوله تعالى:

وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمت ربك الحسنی على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ماكان يصنع فرعون وقومه وماكانوا يعرشون (١٣٦).

آية في الكوفي والبصري، وفي المدنيين آيتان آخر الاولى " بني اسرائيل " قرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم " يعرشون " بضم الراء. الباقر بكسرها، وهما لغتان فصيحتان: الكسر والضم، والكسر أفصح.

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه أورث الارض مشارقها ومغاربها الذين استضعفوا في يدي فرعون وقومه. وإنما أورثهم بأن أهلك من كان فيها ومكن هؤلاء، وحكم بأن لهم أن يتصرفوا فيها على ماأباحه الله تعالى لهم.

والاستضعاف طلب الضعف بالاستطالة والقهر. وقد استعمل استضعفته بمعنى

(٥٢٦)

وجدته ضعيفا بامتحاني إياه، كأنه قال طلبت حال ضعفه بمحتته، فوجدته ضعيفا. وقوله " باركنا فيها " يعني بأخراج الزروع والثمار وسائر صنوف النبات والأشجار إلى غير ذلك من العيون والانهار وضروب المنافع العباد.

وقيل " باركنا فيها " بالخصب الذي حصل فيها.

ومشارق الارض ومغاربها يريد جهات المشرق بها والمغرب. وقال الحسن هي أرض الشام ومصر. وقال قتادة هي أرض الشام. وقال أبو علي: هي أرض مصر. وقال الزجاج: كان من بني إسرائيل داود وسليمان ملكا جميع الارض.

وقوله " وتمت كلمة ربك الحسنی على بني اسرائيل " يعني صح كلامه بانجاز الوعد الذي تقدم باهلاك عدوهم، واستخلافهم في الارض، وإنما كان الانجاز تمام للكلام لتتمام النعمة به. وقيل كلمته الحسنی هي قوله تعالى " ونريد أن نمن على الذي استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين، ونمكن لهم في الارض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ". وإنما قيل الحسنی، وإن كانت كلمات الله كلها حسنة، لانه وعد بما يحبون.

وانتصب قوله تعالى " مشارق والارض ومغاربها " لاحد أمرين:

أحدهما - بأنه مفعول (أورثنا) كقولك: أورثه المال.

الثاني - بأنه ظرف كأنه قال: أورتتهم الارض التي باركنا فيها في مشارقها ومغاربها، والاول أظهر.

وقوله " ودمرنا ماكان يصنع فرعون وقومه " معناه أهلكنا ماكان عمله فرعون وقومه مما كانوا يستعبدونهم ويسعون في افساد أمر موسى ويستعينون. به في أمرهم " وماكانوا يعرشون " معناه ماكانوا بينونه من الابنية والقصور - في قول ابن عباس ومجاهد. وقال الحسن: هو تعريش الكرم. وقال أبوعلي: تعريش الشجر والابنية. وأصل التعريش الرفع، قال أبو عبيدة

(٥٢٧)

" يعوشون " معناه بينون، و (العرش) في هذا الموضع البناء، يقال: عروش مكة أي بناؤها، وقال أبو الحسن: هما لغتان، ومثله نبطش ونبطش ونحشر ونحشر، في أمثال ذلك. قوله تعالى:

وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا إلهة كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون (١٣٧) آية بلاخلاف. قرأ حمزة والكسائي وخلف يعكفون - بكسر الكاف - الباقون بضمها وهما لغتان، ومثله يفسقون - بكسر السين - والضم، في أمثال ذلك.

المجاوزه الاخراج عن الحد يقال: جاوز الوادي جوازا اذا قطعه وخلفه وراءه وتقول: جاز يجوز جوازا، وأجازه إجازة، وجاوزه مجاوزة، وتجاوز تجاوزا، واجتاز اجتيازاً، وتجاوز تجاوزاً، وجوزه تجويزاً، واستجاز استجازة. والبحر الواسع العظيم السعة من مستقر الماء مما هو أعظم من كل نهر، وأصله السعة، ومنه البحيرة التي يبحر أذنها أي توسع شقتها، وتبحر في العلم: اذا اتسع فيه، وقوي تصرفه به.

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه حين أجاز قوم موسى وقطع بهم البحر وأنجاهم من العدو وأغرق عدوهم فرعون وقومه، وأنهم بلغوا إلى قوم عاكفين على أصنام لهم - ومعنى (العكوف) اللزوم للامر بالاقبال عليه والمراعاة له تقول: عكف عكوفاً واعتكف اعتكافاً، ومنه الاعتكاف لزوم المسجد للعبادة فيه، وعكف عليه أي واظب عليه - وأنه لما رأى قوم موسى أولئك العاكفين على أصنامهم والملازمين لها دعاهم جبلتهم إلى التشبيه بعبادة الاوثان، لما في طبع الانسان من الحكاية - أن قالوا لموسى: اجعل لنا إلهة كما لهم آلهة.

(٥٢٨)

وفي طبع كل حيوان الحكاية، وأقوى الحيوان طبعاً في الحكاية القرد، وله حكايات عجيبة، وهذا الطلب منهم يدل على جهل عظيم من بني إسرائيل بعد مارأوا الايات التي توالى على فرعون وقومه حتى غرقهم الله في البحر بكفرهم بعد مانجابني اسرائيل، فلم يردعهم ذلك عن أن قالوا لموسى (ع) " اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة " وتوهمهم أنه يجوز عبادة غير الله، وإن اعتقدوا أنه لا يشبه الاشياء ولا تشببه، ولا يدل طلبهم ذلك على أنهم مشبهة، لما قلنا هـ.

وقوله تعالى " إنكم قوم تجهلون " حكاية عما أجابهم به موسى (ع) فقال لهم: إنكم قوم تجهلون من المستحق للعبادة وماالذي يجوز أن يتقرب به إلى الله تعالى، ويحتمل أن يكون أراد تجهلون من صفات الله مايجوز عليه وما لا يجوز. قوله تعالى:

إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون (١٣٨)
آية بلاخلاف.

في هذه الاية حكاية عما قال موسى (ع) لقومه حين سأله أن يجعل لهم إلهاً بعد أن قال لهم " إنكم قوم تجهلون " مايجوز أن يعبد وما لايجوز وأنه أخبرهم " أن هؤلاء متبر ما هم فيه " يشير فيه إلى العابد والمعبود من الاصنام ومعناه مهلك، فالمتبر المهلك المدمر عليه، والتبار الهلاك، ومنه قوله تعالى " ولا تزد الظالمين إلا تباراً " (١) ومنه التبر للذهب سمي بذلك لامرين: أحدهما - أن معدنه مهلكة، وقال الزجاج: يقال لكل أناء متكسر متبر، وكسارته تبره. وقوله تعالى " وباطل ما كانوا يعملون " فالبطلان انتفاء المعنى بعدمه،

(١) سورة نوح ٧١ آية ٢٨.

(٥٢٩)

وبأنه لا يصح في عدم ولا وجود. والمعنى في بطلان عملهم أنه لا يعود عليهم بنفع ولا يدفع ضرر، فكأنه بمنزلة ما لم يكن من هذا الوجه، والعمل إحداث ما به يكون الشيء على نقيض ما كان، وهو على ضربين: أحدهما - إحداث المعمول. والآخر - إحداث ما يتغير به. و (هؤلاء) أصله أولاء ادخلت عليه (هاء) التنبيه، وهو مبني لتضمنه معنى الإشارة المعرفة، وهو مع ذلك مستبهم استبهم الحروف، إذ هو مفتقر في البيان عن معناه إلى غيره. قوله تعالى:

قال أغير الله أبغىكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين (١٣٩) آية في هذه الاية إخبار أيضاً عما قال موسى لقومه بعد إزرائه على الاصنام وعلى من كان يعبدها وأن ما يفعلونه باطل مهلك:

أطلب غير الله لكم إلهًا؟ ! قاله على وجه الإنكار عليهم وإن كان بلفظ الاستفهام، فنصب " أغير الله " على أنه مفعول به، ونصب (إلهًا) على أحد شيئين: أحدهما - كأنه قال أطلب لكم غير الله تعالى معبودًا؟! .!

والثاني - أن يكون نصب إلهًا على أنه مفعول به، ونصب (غير) على الحال التي لو تأخرت كانت صفة.

و (بغى) يتعدى إلى مفعولين، وطلب يتعدى إلى مفعول واحد، لان معنى بغى أعطى: بغاه الخير أعطاه الخير، وليس كذلك طلب، لانه غير مضمن بالمطلوب، وقد يجوز أن يكون بمعنى أبغى لكم.

وقوله " وهو فضلكم على العالمين " قيل في معناه قولان:

أحدهما - قال الحسن وأبو علي وغيرهما: يريد على عالمي زمانهم.
الثاني - معناه خصكم بفضائل من النعم بالآيات التي آتاكم، وارسال

(٥٣٠)

موسى وهارون، وهما رجلان منكم، ومن إهلاك عدوكم بالتغريق في البحر، ونجاتكم. وكل ذلك بمرءى و؟؟ منكم. والفرق بين التعظيم والتفضيل أن التفضيل يدل على فضل في النفس، وهو زيادة على غيره، وليس كذلك التعظيم، ولذلك جاز وصف الله تعالى بالتعظيم ولم يجز بالتفضيل.

قوله تعالى:

وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلك بلاء من ربكم عظيم (١٤٠) آية.

قرأ ابن عامر (نجيناكم) على لفظ الماضي. الباقيون " أنجيناكم " وقرأ نافع وحده " يقتلون " بالتخفيف. الباقيون بالتشديد. من شدد أراد التكثير. ومن خفف، فلانه يحتمل القلة والكثرة.

وقد مضى تفسير مثل هذه الآية في سورة البقرة (١) فلاوجه المتطويل بتفسيرها، وإنما نذكر جملها، فنقول: هذاخطاب لبقيّة بني اسرائيل الذين كانوا في زمن النبي (صلى الله عليه وآله) فقال لهم على وجه الامتتان عليهم بما أنعم على آبائهم وأسلافهم واذكروا " إذ أنجيناكم " من آل فرعون بمعنى خلصناكم لان النجاة الخلاص مما يخاف إلى رفعة من الحال، وأصله الارتفاع، فمنه النجا أي الارتفاع في السير، ومنه قوله " ننجيك ببندك " (٢) أي نلقيك على نجوة من الارض، والنجو كناية عن الحدث، لانه كان يلقي بارتفاع من الارض للابعاد به، وقد كان أيضا يطلب به الانخفاض للابعاد به.

والفرق بين (أنجيناكم) وبين (نجيناكم) أن ألف (أنجيناكم) للتعديّة

(١) في تفسير آية ٤٩ - ٥٠ من سورة البقرة، المجلد الاول ص ٢١٧ - ٢٣١. (٢) سورة ١٠ يونس آية ٩٢.

(٥٣١)

وتشديد (نجيناكم) يحتمل التعدية، ويحتمل التكثير.

وقوله تعالى " يسومونكم " معناه يولونكم اكرهاا ويحملونكم اذلالا " سوء العذاب، وأصل السوم مجاوزة الحد فمنه السوم في البيع، وهو تجاوز الحد في السعر إلى الزيادة، والسائمة من الابل الراعية، لأنها تجاوزت حد الانبات للرعي، ومنه فلان سيم الخسف أي ألزمه إكراهها، و (السوء) مأخوذ من أنه يسوء النفس لنافرية لها. " يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم " معناه إن فرعون كان يقتل من تولد من بني اسرائيل ذكرا ويستبقي الانات للاستخدام.

وقوله تعالى " وفي ذلك بلاء من ربكم عظيم " فالمراد بالبلاء ههنا النعمة وقد يكون بمعنى النقمة، وأصله المحنة، فتارة تكون المحنة بالنعمة، وأخرى بالنقمة، وبالخير تارة وبالشر أخرى.

قوله تعالى:

وواعد ناموسى ثلاثين ليلة وأتمناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لآخيه هرون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين (١٤١) آية بلاخلاف.

قيل في فائدة قوله " وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتمناها بعشر " ولم يقل أربعين ليلة أقوال: أحدها - أنه أراد شهرا وعشرة أيام متوالية. وقيل: إنه ذو العقدة وعشر من ذي الحجة. ولو قال أربعين ليلة لم يعلم أنه كان الابتداء أول الشهر، ولا أن الايام كانت متوالية، ولا أن الشهر شهر بعينه، هذا قول الفراء، وهو معنى قول مجاهد وابن جريج ومسروق وابن عباس، وأكثر المفسرين.

الثاني - أن المعنى وعدناه ثلاثين ليلة يصوم فيها ويتفرد للعبادة بها.

ثم أتمت بعشر إلى وقت المناجاة. وقيل في العشر نزلت التوراة فلذلك أفردت بالذكر.

(٥٣٢)

الثالث - قال أبو جعفر (ع) كان أول ما قال لهم: إني أتأخر عنكم ثلاثين يوما، ليسهل عليهم، ثم زاد عليهم عشرا، وليس في ذلك كذب، لأنه إذا تأخر عنهم أربعين ليلة، فقد تأخر ثلاثين قبلها. وقال الحسن كان الموعد أربعين ليلة في أصل الوعد، فقال في البقرة " وواعدنا موسى أربعين ليلة " (١)

وفصله - ههنا - على وجه التأكيد فقال ثلاثين ليلة وأتمناها بعشر.

وقوله تعالى " فتم ميقات ربه أربعين ليلة " ومعناه فتم الميقات أربعين ليلة، وإنما قال ذلك مع أن ماتقدم دل على هذا العدد، لأنه لو لم يورد الجملة بعد التفصيل وهو الذي يسميه الكتاب

الفذلكة، لظن قوله " وأتمناها بعشر " أي كملنا الثلاثين بعشر حتى كملت ثلاثين، كما يقال: تمت العشرة بدرهمين وسلمتها اليه.

وقيل في معنى قوله تعالى " واعدنا موسى ثلاثين ليلة " ينفرد فيها للعبادة في المكان الذي وقت له ثم أتم الاربعين.

والفرق بين الميقات والوقت أن الميقات ما قدر ليعمل فيه عمل من الاعمال والوقت وقت الشيء قدره مقدر أولم يقدره، ولذلك قيل: مواقيت الحج وهي المواضع التي قدرت للاحرام بها.

وقوله تعالى " وقال موسى لآخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين " الذين يفسدون في الارض، وانما أمره بذلك مع أنه نبي مرسل، لان الرياسة كانت لموسى (ع) على هارون وجميع أمته، ولم يكن يجوز أن يقول هارون لموسى مثل ذلك. وقال أبو علي: السبعون الذين اختارهم موسى الميقات كانوا معه في هذا الخروج، وسمعوا كلام الله لموسى (ع) وكانوا شهدوا له بذلك.

وقوله " هارون " في موضع جر، لانه بدل من قوله (لآخيه) وإنما فتح لانه لا ينصرف، ولو رفع على النداء كان جائزا ولم يقرأ به أحد.

(١) سورة ٢ البقرة آية ٥١.

(٥٣٣)

قوله تعالى:

ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تريني ولكن انظر إلى الجبل وإنما وخر مكانه فسوف تريني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ولأ موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك فان استقر المؤمنون (١٤٢) آية بلاخلاف.

قرأ أهل الحجاز إلا عاصما " دكاء " بالمد والهمزة من غير تنوين - ههنا وفي الكهف - وافقهم عاصم في الكهف. الباقر " دكا " منونة مقصورة في الموضعين، قال أبو زيد: يقال: دككت على الميت التراب أدكه دكا: اذا دفنته وأهلت عليه، وهما بمعنى واحد، ودككت الركبة دكا اذا دفنته، ودك الرجل فهو مدكوك اذا مرض، وقال أبو عبيدة " جعله دكا أي مندكا، والدك والدكة مصدره، وناقاة دكاء ذاهبة السنام والدك المستوي، وانشد للاغلب: هل غير عادك عادا فانهدم وقال أبو الحسن: لما قال " جعله دكا " فكأنه قال: دكه أي أراد جعله ذا دك، ويقال: دكاء جعلوها مثل الناقاة الدكاء التي لاسنام لها. قال أبو علي الفارسي: المضاف محذوف - على تقدير في قول أبي الحسن، وفي التنزيل " وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة "

(١) وقال " كلا إذا دكت الارض دكا دكا " (٢) وقال الرماني: معنى دكا مستويا بالارض، يقال: دكه يدكه دكا إذا سحقه سحقاً، ومنه الدكة. واندك السنام اذا لصق بالظهر. وقال الزجاج: دكا يعني مدقوفا مع الارض، والدكاء والدكاوات الروابي

(١) سورة ٦٩ الحاقة آية ١٤ (٢) سورة ٨٩ الفجر آية ٢١.

(٥٣٤)

التي مع الارض ناشزة عنها لاتبلغ أن تكون جبلا. وقيل: إيه سباخ في الارض - في قول الحسن وسفيان وأبي بكر الهذلي. وقال ابن عباس: صار ترابا، وقال حميد:

يدك أركان الجبال هزمه * يخطر بالبيض الرقال بهمه (٣)

وقيل في معنى قراءة من قرأها ممدودة قولان:

أحدهما - انه شبه الجبل بالناقاة التي لاسنام لها، فيقال لها: دكاء فكأنه قال فجعله مثل دكاء.

الثاني - فجعله أرضا دكاء.

أخبر الله تعالى في هذه الآية أن موسى (ع) لما جاء إلى مقات ربه وهو الموضع الذي وقته له، وكلمه الله تعالى فيه سأل الله تعالى أن يريه لينظر اليه.

واختلف المفسرون في وجه مسألة موسى (ع) ذلك مع أن الرؤية بالحاسة لاتجوز عليه تعالى على ثلاثة أقوال:

أحدها - أنه سأل الرؤية لقومه حين، قالوا له " لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة " (٤) بدلالة قوله " أتهلكنا بما فعل السفهاء منا " (٥).

فإن قيل على هذا ينبغي أن يجوزوا أن يسأل الله تعالى هل هو جسم أم لا أو يسأله الصعود والنزول، وغير ذلك مما لايجوز عليه؟! قلنا عنه جوابان:

أحدهما - أنه يجوز ذلك إذا علم أن في ورود الجواب من جهة الله مصلحة، وأنه أقرب إلى زوال الشبهة عن القوم بأن ذلك لايجوز عليه تعالى، كماجاز ذلك في مسألة الرؤية. وقال

الجبائي: إنهم سألوا الله تعالى قبل ذلك هل يجوز عليه تعالى النوم أم لا؟ وقالوا له: سل الله أن يبين لنا ذلك، فسأل الله تعالى ذلك، فأمره بأن يأخذ قدحين يملا أحدهما ماء، والآخر دهنًا،

ففعل

(٣) تفسير الطبري ١٣ / ١٠٠. (٤) سورة ٢ البقرة آية ٥٥.

(٥) سورة ٧ الاعراف آية ١٥٤.

(٥٣٥)

وألقى عليه النعاس، فضرب أحدهما على الآخر فانكسرا، فأوحى الله تعالى إليه أن لو جاز عليه تعالى النوم لاضطراب أمر العالم، كما اضطرب القدحان في مدة حتى تكسرا. الثاني - عن هذا السؤال أنه إنما يجوز أن يسأل الله ما يمكن أن يعلم صحته بالسمع، وما يكون الشك فيه لا يمنع من العلم بصحة السمع، وإنما يمنع من ذلك سؤال الرؤية التي تقتضي الجسمية والتشبيه، لأن الشك في الرؤية التي لا تقتضي التشبيه مثل الشك في رؤية الضمائر والاعتقادات، وما لا يجوز عليه الرؤية، وليس كذلك الشك في كونه جسما أو ما يتبع كونه جسما من الصعود والنزول، لأن مع الشك في كونه جسما، لا يصح العلم بصحة السمع من حيث أن الجسم لا يجوز أن يكون غنيا ولا عالما بجميع المعلومات، وكلاهما لا بد فيه من العلم بصحة السمع، فلذلك جاز أن يسأل الرؤية التي لا توجب التشبيه ولم يجز أن يسأل كونه جسما، وما أشبهه.

والجواب الثاني - في أصل المسألة: أنه سأل العلم الضروري الذي يحصل في الآخرة، ولا يكون في الدنيا ليزول عنه الخواطر والشبهات، والرؤية تكون بمعنى العلم، كما تكون الإدراك بالبصر، كما قال " ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل " (١) وأمثاله. وللأنبياء أن يسألوا ما يزول عنهم الوسوس والخواطر، كما سأل إبراهيم ربه " فقال رب ارني كيف تحيي الموتى " (٢) غير أنه سأل ما يطمئن قلبه إلى ذلك وتزول عنه الخواطر والوسوس، فبين الله تعالى له أن ذلك لا يكون في الدنيا.

الثالث - أنه سأل آية من آيات الساعة التي يعلم معها العلم الذي لا يختلج فيه الشك كما يعلم في الآخرة وهذا قريب من الثاني.

وقال الحسن والربيع والسدي: إنه سأل الرؤية بالبصر على غير وجه التشبيه.

(١) سورة ١٠٥ الفيل آية ١. (٢) سورة ٢ البقرة آية ٢٦٠.

(٥٣٦)

وقوله " لن تراني " جواب من الله تعالى لموسى أنه لا يراه على الوجه الذي سأله، وذلك دليل على أنه لا يرى لافي الدنيا ولا في الآخرة، لأن (لن) تنفي على وجه التأييد، كما قال " ولن يتمنوه أبدا " (١) وهذا إنما يمكن أن يعتمد منه من قال بالجواب الأول، فأما من قال: انه سأل العلم الضروري أو علما من أعلام الساعة لا يمكنه أن

يعتمده، لأن ذلك يحصل في الآخرة، فيجري ذلك مجرى اختصاص الرؤية بالبصر على مذهب المخالف بحال الدنيا.

وقوله تعالى " فإن استقر مكانه فسوف تراني " معناه إن استقر الجبل في حال ماجعله دكا منقطعاً فسوف تراني، فلما كان ذلك محالاً لأن الشيء لا يكون متحركاً ساكناً في حال واحدة، كانت الرؤية المتعلقة بذلك محالة، لأنه لا يعلق بالمحال إلا المحال.

وقوله " فلما تجلى ربه للجبل " معناه ظهر بآياته التي أحدثها في الجبل لحاضري الجبل بأن " جعله دكا ". وقيل: إن الله تعالى أبرز من ملكوته ما تدكدك به إذ في حكمه أن الدنيا لا تقوم لما يبرز من الملكوت الذي في السموات، كما قيل: إنه ابرز أخصر من العرش، ويجوز أن يكون المراد " فلما تجلى ربه " لاهل الجبل، كما قال " وأسأل القرية " (٢) والتجلي هو الظهور، ويكون ذلك تارة بالرؤية، وأخرى بالدلالة، قال الشاعر:

تجلى لنا بالمشرفية والقنا * وقد كان عن وقع الاسنة نائياً

وإنما أراد الشاعر أن تدبيره دل عليه حتى علم أنه المدير لذلك وأن تدبيره صواب، فقال تجلى أي علم، ولم ير بالابصار، ولا أدرك بالحواس، لأنه كان عن وقع الاسنة نائياً، ولكن استدل عليه بحسن تدبيره.

وقال قوم: معناه فلما تجلى بالجبل لموسى قالوا: وحروف الصفات تتعاقب فيكون (اللام) بمعنى (الباء). وقال قوم: لو أراد موسى الرؤية بالبصر لقال أرينك أو أرني نفسك، ولا يجوز غير ذلك في اللغة.

(١) سورة ٦٢ الجمعة آية ٦. (٢) سورة ١٢ يوسف آية ٨٢.

(٥٣٧)

وقوله " وخر موسى صعقا " قيل في معنى ذلك قولان:

أحدهما - قال ابن عباس والحسن وابن زيد وأبو علي الجبائي: إنه وقع مغشياً عليه من غير أن يكون قد مات بدلالة قوله " فلما أفاق " ولا يقال للميت إذا عاش أفاق، وإنما يقال: عاش أو حيي، وقال قتادة: معناه مات.

وقوله " قال سبحانك تبت اليك " قيل في معنى توبته ثلاثة أقوال:

أحدها - أنه تاب، لأنه سأل قبل أن يؤذن له في المسألة، وليس للانبياء ذلك.

الثاني - أنه تاب من صغيرة ذكرها.

الثالث - أنه قال ذلك على وجه الانقطاع اليه والرجوع إلى طاعته، وإن كان لم يعص، وهذا هو المعتمد عندنا دون الاولين، على أنه يقال لمن جوز الرؤية على الله تعالى اذا كان موسى (ع) إنما سأل مايجوز عليه فمن أي شئ تاب؟ فلا بد لهم من مثل ماقلناه من الاجوبة.

فإن قيل: كيف يجوز أن يكون تجويز الرؤية صغيرا مع أنه جهل بالله على مذهب من قال إنه كان ذلك صغيرة؟ ! قيل: لانه إذا لم تكن الرؤية المطلوبة على وجه التشبيه جرى مجرى تجويزه أن تكون هذه الحركة من مقدورات الله في أنه لا يخرجها من أن يكون عارفا به تعالى، وإنما شك في الرؤية والحركة.

وقوله " وأنا أول المؤمنين " قيل في معناه قولان:

أحدهما - قال الجبائي: أنا أول المؤمنين بأنه لا يراك شئ من خلقك فأنا أول المؤمنين من قومي باستعظام سؤال الرؤية.

الثاني - قال مجاهد: وأنا أول المؤمنين من بني اسرائيل.

قوله تعالى:

قال ياموسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذما آتيتك وكن من الشاكرين (١٤٣) آية بلاخلاف.

(٥٣٨)

قرأ أهل الحجاز، وروح " برسالتني " على التوحيد. الباقر " برسالاتني " على الجمع. والرسالة تجري مجرى المصدر فتفرد في موضع الجمع، وإن لم يكن المصدر من (أرسل) يدل ذلك على أنه جار مجراه قول الاعشى:

ففادك بالخييل أرض العدو * وجذعانها كلقطة العجم (١)

فاعماله إياها أعمال المصدر بذلك على أنه يجري مجراه، والمصدر قد يقع لفظ الواحد فيه والمراد به الكثرة، وكان المعنى على الجمع لانه مرسل لضروب من الرسالة، والمصادر قد تجمع مثل الحلوم والالباب. وقال تعالى " إن أنكر الاصوات لصوت الحمير " (٢) فجمع الاصوات لما أريد بها أجناس مختلفة صوت الحمار بعضها، فأفرد صوت الحمار، وإن كان المراد به الكثرة، لانه صوت واحد.

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه نادى موسى (ع) وقال له " ياموسى إني اصطفيتك " ومعنى الاصطفاء استخلاص الصفوة لمالها من الفضيلة. والفضائل على وجوه كثيرة: أجلها قبول الاخلاق الكريمة والافعال الجميلة، ولهذا المعنى اصطفى موسى (ع) حتى استحق الرسالة، وأن يكلم بتلقين الحكمة.

وقوله تعالى " برسالاتي وبكلامي " فيه بيان مابه اصطفاه وهو أن جعله نبيا وخصه بكلامه بلاواسطة، وهما نعمتان عظيمتان منه تعالى عليه، فلذلك امتن بهما عليه، وإنما صار في كلام الجليل نعمة على المكلم، لانه كلمه بتعليم الحكمة من غير واسطة بينه وبين موسى، ومن أخذ العلم عن العالم المعظم كان أجل رتبة، ولو كلم إنسانا بالانتهاز والاستخفاف، لكان نقمة عليه بالضد من تلك الحال.

وقوله تعالى " فخذ ما أتيتك " معناه تناول ما أعطيتك " وكن من الشاكرين " يعني من المعترفين بنعمتي، والشكر هو الاعتراف بالنعمة مع القيام بحقها على حسب مرتبتها، فإذا كانت من أعظم النعم، وجب أن تقابل

(١) ديوانه: ٣٠ القصيدة ٣. (٢) سورة ٣١ لقمان آية ١٩.

(٥٣٩)

بأعظم الشكر، وهو شكر العباد لله وحده على وجه الاخلاص له.
قوله تعالى:

وكتبنا له في الالواح من كل شئ موعظة وتفصيلا لكل شئ فخذها بقوة وأمر قومك ياخذوا بأحسنها ساوريكم دار الفاسقين (١٤٤) آية بلاخلاف.

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه كتب لموسى (ع) في الالواح من كل شئ موعظة وتفصيلا لكل شئ، وقال الجبائي: المكتوب في الالواح التوراة، فيها اخبار الامم الماضية، وفصل فيها الحرام والحلال. و (الالواح) جمع لوح، وقال الزجاج: كانا لوحين فجمع، قال: ويجوز أن تكون ألواح جماعة، واللوح صفيحة مهياه للكتابة فيها، وقد يقال لوح فضة تشبيها باللوح من الخشب، ومثله لو عمل من حجر، وقال الحسن: وكانت الالواح من خشب نزلت من السماء، ومعنى كتبنا له من كل شئ كتبنا اليه كل مافي شرعه من حلال وحرام، وحسن وقبيح، وواجب وندب، وغير ذلك مما يحتاجون إلى معرفته. وقيل: كتب له التوراة فيها من كل شئ من الحكم والعبر.

وأصل اللوح اللمع يقال: لاح الامر يلوح، لوحا اذا لمع وتلالا.

والتلويح تضمير، ولوحه السفر والعطش إذا غيره تغييرا تبين عليه أثره، لان حاله يلوح بما نزل به، واللوح الهواء، لانه كاللامع في هبوبه، واللوح مأخوذ من أن المعاني تلوح بالكتابة فيه. و (الموعظة) التحذير بما يزجر عن القبيح وتبصر مواقع الخوف تقول: وعظه يعظه وعظا وموعظة، واتعظ اتعاظا إذا قيل الوعظ.

وقوله " وتفصيلا لكل شئ " يعني تمييزا لكل ما يحتاجون اليه.

وقوله " فخذها بقوة " قيل: معناه بجد واجتهاد. وقيل: بصحة عزيمة،

(٥٤٠)

ولو أخذه بضعف نية لاداه إلى فتور العمل به.
وقوله " وأمر قومك يأخذوا بأحسنها " معناه يأخذوا بأحسن المحاسن، وهي الفرائض والنوافل،
وأدونها في الحسن المباح، لأنه لا يستحق عليه حمد ولا ثواب. وقال الجبائي: أحسنها الناسخ
دون المنسوخ المنهي عنه، لأن العمل بهذا المنسوخ قبيح. وقال الزجاج: يأخذوا بأحسنها معناه
بما هو حسن دون ما هو قبيح، وهذا تأويل بعيد، لأنه لا يقال في الحسن أنه أحسن من القبيح.
ويجوز أن يكون المراد بأحسنها حسنها، كما قال تعالى " وهو أهون عليه " (١) ومعناه؟؟.
ويحتمل أن يكون أراد بأحسنها إلى مادونه من الحسن، ألا ترى أن استيفاء الدين حسن وتركه
أحسن، وأما القصاص في الجنايات فحسن والعفو أحسن ويكون ذلك على وجه الندب.
وقوله عز وجل " سأوريكم دار الفاسقين " قال الحسن ومجاهد والجبائي:

يعني به جهنم، والمراد به فليكن منكم على ذكر لتحذروا أن تكونوا منهم، وقال قتادة: هي
منازلهم أي لتعتبروا بها وبما صاروا اليه من النكال فيها.
قوله تعالى:

سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن
يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا
وكانوا عنها غافلين (١٤٥) آية بلاخلاف.

قرأ حمزة والكسائي وخلف " الرشدا " بفتح الراء والشين. الباقر بضم الراء وسكون الشين.
وفرق بينهما أبو عمرو بن العلاء، فقال: الرشدا - بضم الراء - الصلاح، كقوله " فإن أنستم
منهم رشدا " (٢) أي صلاحا، لدفعه اليهم، والرشدا الاستقامة في الدين، كقوله " على أن
تعلمني مما علمت

(١) سورة ٣٠ الروم آية ٢٧. (٢) سورة ٤ النساء آية ٥.

(٥٤١)

رشدا " (٣) وقال الكسائي: هما لغتان بمعنى واحد، مثل الحزن والحزن، والسقم والسقم،
والرشدا سلوك طريق الحق تقول: رشدا يرشدا رشدا، ورشدا يرشدا رشدا، وارشده ارشادا،
واسترشدا أسترشادا، وضده الغي: غوي يغوي غيا وغواية، وأغواه إغواء، واستغواه استغواء.

وقال الجبائي والرماني: معنا " سأصرف عن آياتي " أي سأصرف عن آياتي من العز والكرامة بالدلالة التي كسبت الرفعة في الدنيا والاخرة، ويجوز ان يكون معناه أي احكم عليهم بالانصراف واسمئهم بأنهم منصرفون عنها، لانهم قد انصرفوا عنها، كما قال " ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم " (٤).

ويحتمل أن يكون المراد اني سأصرفهم عن التوراة والقرآن، وما أوحى الله من كتبه بمعنى امنعهم من إفساده وتغييره وإبطاله، لانه قال في أو - ل الاية " وكتبنا له في الالواح " إلى قوله تعالى " سأصرف عن آياتي " ويجوز ان يكون المراد " سأريهم آياتي " فينصرفون عنها وهم الذين يتكبرون في الارض بغير الحق، كما يقول القائل: سأحير فلانا أي أسأله عن شئ فيتحير عند مسألتني، وسأنجل فلانا أي أسأله ماينجل عنده، وكذلك يقال: سأقطع فلانا بكلامي، والمراد انه سينقطع عند كلامي، وكل ذلك واضح بحمد الله.

ويجوز أن يكون المراد انهم لما عاندوا وتمردوا بعد لزوم الحجة عليهم وحضروا للتبليس والشغب على ما حكاها الله عنهم انهم قالوا " لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه " (٥) صرفهم الله بلطفه عن الحضور كما كانوا يحضرونه، ويحتمل أن يكون المراد سأصرف عن جزاء آياتي. ومن زعم انه بمعنى سأصرف عن الايمان بآياتي فقد أخطأ، لانه تعالى لا يأمر بالايمان ثم يمنع منه، لان حكمته تمنع من ذلك.

والصرف نقل الشئ إلى خلاف جهته، يقال: صرفه يصرفه صرفاً،

(٣) سورة ١٨ الكهف آية ٦٧. (٤) سورة ٩ التوبة آية ١٢٨.

(٥) سورة ٤١ حم السجدة آية ٢٦.

(٥٤٢)

وصرفه تصريفاً، وتصرف تصرفاً، وصارفه مصارفةً، انصرف انصرافاً. وقوله تعالى " الذين يتكبرون في الارض " والتكبر اظهار كبير النفس على غيرها، وصفة متكبر صفة ذم في جميع البشر، وهو مدح في صفات الله تعالى، لانه يستحق اظهار الكبر على كل شئ سواه، لان ذلك حق، وهذا المعنى في صفة غيره باطل، فمعنى الاية الاخبار من الله انه يصرف عن ثواب آياته " الذين يتكبرون في الارض بغير الحق وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها " يعني

الذين اذا شاهدوا الحجج والبراهين لا ينفادون لها، ولا يصدقون بها " وان يروا سبيل الرشده لا يتخذوه سبيلاً " ومعناه انهم متى رأوا سبيل الصلاح عدلوا عنه، ولم يتخذوه طريقاً لهم

بمعنى انهم لا يعملون بذلك " وان يروا سبيل الغي .. " يعني وان يروا ضد الرشد من الكفر والضلال سلوكه وارتكبوا معصية الله في ذلك.

وقوله تعالى " ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا " يحتمل ذلك أن يكون في موضع رفع أي امرهم ذلك، ويحتمل ان يكون نصبا أي فعلنا بهم ذلك، لانهم تكبروا وكذبوا، ومعناه: أفعال ذلك بهم، يعني صرفي لهم عن ثواب الايات الجزيل والمنزلة الجليلة.

ومن قال من المجبرة: ان الله تعالى يصرفه عن الايمان قوله باطل، لانه تعالى لا يجوز ان يصرف احداعن الايمان، لانه لو صرفه عنه ثم أمره به لكان كلفه ما لا يطيقه، وذلك لا يجوز عليه تعالى. وأيضا فان الله تعالى بين انه يصرفهم عن ذلك في المستقبل، جزاء لهم على كفرهم الذي كفروا، فكيف يكون ذلك صرفا عن الايمان ! وقيل: إن معنى الآية أي سأصرف عن آياتي، ولأظهرها لهم كما أظهرتها للمؤمنين، ويريد بذلك المعجزات الباهرات، لعلمي بأن إظهارها مفسدة لهم يزدادون عندها كفرا، تبين ذلك في قوله تعالى " وان يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ".

(٥٤٣)

وقيل: معناه سأصرف عن إبطالها والطعن فيها بما أظهره من حججها، كما يقال: سأمنعك من فلان أي من أذاه، ذكره البلخي.
قوله تعالى:

والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الاخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ماكانوا يعملون (١٤٦) آية بلاخلاف.

هذا إخبار من الله تعالى أن الذين كذبوا بآياته، جحدوا البعث والنشور في الاخرة. وهي الكرة الثانية، لانه حقيق على من عرف النشأة الاولى ألا ينكر النشأة الاخرى، لان الذي قدر على الاولى، فهو على الثانية أقدر، كما أن من بنى دارا ابتداء، فهو على اعاتتها أقدر. وأصل اللقاء إلتقاء الحديد. ثم يحمل على الادراك، فيقال لما أدركه: لقيه، فهو لاء، كذبوا بادراك الاخرة استبعادا لكونها.

وقوله " حبطت أعمالهم " إخبار من الله تعالى أن من كذب بآياته وجدد البعث والنشور تتحبط أعماله، لانها تقع على خلاف الوجه الذي يستحق بها المدح والثواب فيصير وجودها وعدمها سواء، والحبوط سقوط العمل حتى يصير بمنزلة مالم يعمل.

وأصل الاحباط الفساد مشتق من الحبط، وهوداء يأخذ البعير في بطنه من فساد الكلا عليه، يقال: حبطت الابل تحبط: إذا أصابها ذلك، وإذا عمل الانسان عملا على خلاف الوجه الذي أمر به يقال: أحبطه، بمنزلة من يعمل شيئا ثم يفسده. وقوله " هل يجزون إلا ماكانوا يعملون " أي به، وصورته صورة الاستفهام والمراد به الانكار والتوبيخ، والمعنى ليس يجزون إلا ماكانوا يعملون إن خيرا فخييرا وإن شرا فشرا.

(٥٤٤)

قوله تعالى:

واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا انه لايكلمهم ولايهديهم سبيلا إتخذوه وكانوا ظالمين (١٤٧) أية بلاخلاف.

قرأ حمزة والكسائي " من حليهم " - بكسر الحاء واللام - الباقون بضم الحاء وكسر اللام وتشديد الياء، وقرأ يعقوب بفتح الحاء، وسكون اللام، وتخفيف الياء، فوجه قراءة يعقوب أن (الحلي) اسم جنس يقع على القليل والكثير. ومن قرأ بضم الحاء، فلانه جمع (حلي) نحو ثدي وثدي، وإنما جمعه لانه أضافه إلى جمع.

ومن قرأ بكسر الحاء أتبع الكسرة الكسرة، وكره الخروج من الضمة إلى الكسرة، واجراه مجرى (قسي) جمع (قوس).

أخبر الله تعالى عن قوم موسى أنهم اتخذوا من بعد مفارقة موسى لهم ومضيه إلى ميقات ربه من حليهم، ومعنى الاتخاذ الاعداد، وهو (إفتعال)

من الاخذ وأصله يتخذ إلا أن الياء تقلب في (إفتعل) وتدغم لانها في موضع ثقيل في كلمة واحدة، ولايجوز في مثل (أحسن نوما) الادغام، والاتخاذ اجتناء الشئ لامر من الامور، فهؤلاء اتخذوا العجل للعبادة، والحلي ماأخذ للزينة من الذهب والفضة، يقال: حلي بعيني يحلا، وحلا في فمي يحلو حلاوة، وحليت الرجل تحلية اذا وضعته بمايرى منه. وقد تحلى بكذا أي تحسن به، والعجل ولد البقرة القريب العهد بالولادة، وهو العجول أيضا، وإنما أخذ من تعجيل أمره لصغره.

وقيل: إنهم عملوا العجل من الذهب، وقوله " جسدا له خوار " فالجسد جسم الحيوان مثل البدن، وهو روح وجسد، والروح مالطف،

(٥٤٥)

والجسد ماغلظ، والجسم يقع على جسد الحيوان وغيره من الجمادات، والخوار صوت الثور، وهو صوت غليظ كالجوار، وبناء (فعال) يدل على الافة نحو الصراخ، والعوار والسكات والعطاش والنباح. وفي كيفية خوار العجل مع أنه مصوغ من الذهب خلاف، فقال الحسن: قبض السامري قبضة من تراب من أثر فرس جبرائيل (ع) يوم قطع البحر فقذف ذلك التراب في فم العجل، فتحول لحما ودما، وكان ذلك معتادا غير خارق للعادة، وجاز أن يفعل الله لمجرى العادة. وقال الجبائي والبلخي: إنما احتال بادخال الريح فيه حتى سمع له كالخوار، كما قد يحتال قوم اليوم كذلك.

ثم أخبر تعالى فقال " ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا " على وجه الانكار عليهم والتعجب من جهلهم وبعد تصورهم، فقال: كيف يعبدون هذا العجل، وهم يشاهدونه، ولا يكلمهم ولا يتأتى منه ذلك، ولا يهديهم إلى سبيل خير. ثم قال " اتخذوه " إليها " وكانوا ظالمين " في اتخاذهم له إليها واضعين للعبادة في غير موضعها.

والحلي الذي صاغ السامري منه العجل كانوا أصابوه من حلي آل فرعون قذفه البحر، فقال السامري ل (هارون): إن هذا حرام كله وينبغي أن نحرقه كله أو نصرفه في وجه المصلحة، فأمر هارون بجمع ذلك كله، وأخذ السامري لأنه كان مطاعا فيهم، فصاغه عجلا وكان صائغا، وطرحه في النار وطرح معه التراب الذي معه.

قوله تعالى:

ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين (١٤٨) آية.

قرأ أهل الكوفة إلا عاصما " لئن لم ترحمنا " بالتاء " ربنا " بالنصب على النداء. الباقيون بالياء " ربنا " بالرفع على الخبر.

(٥٤٦)

ومعنى قوله " سقط في أيديهم " وقع البلاء في أيديهم أي وجدوه وجدان من يده فيه، يقال: ذلك للنادم عندما يجده مما كان خفي عليه، ويقال أيضا: سقط في يديه أي صار الذي كان يضربه في يديه.

ومعنى قوله " ورأوا " علموا " أنهم قد ضلوا " وتبينوا بطلان ماكانوا عليه من عبادة العجل والكفر والضلال، لان ما تعلق به الرؤية، لايحوز أن يكون مدركا بالبصر، وهو معنى الجملة، وإنما يصح أن يعلم وأن يدخل على الجملة، وهي في تقدير المفرد، ومتى ظهر فساد الاعتقاد، فلا بد أن يندم صاحبه عليه، لانه لا معنى للاقامة عليه مع توافر الدواعي إلى خلافه،

كما أنه لا معنى أن يكذب على نفسه مع علمه بكذبه، غير أنه مع ظهور الضلالة لهم لم يكونوا ملجئين إلى الندم، لأن الاجاء يقع إما بالعلم بالمنع أو تخوف من المضرة العاجلة أو النفع العظيم العاجل الذي مثله يلجئ، ولم يكن القوم على واحد من الامرين، لانهم كانوا مكلفين للندم.

وفي الاية دلالة على بطلان قول من يقول لا محجوج الا عارف، لان الله وصفهم بأنهم سقط في أيديهم عندما رأوا من ضلالهم، فدل على أنهم كانوا محجوجين في ترك الضلال الذي إن لم يغفر لهم هلكوا.

وقوله " لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا " أخبار عما قال القوم حين تبينوا ضلالهم وسقط في أيديهم والتجأهم إلى الله واعترافهم بأنه ان لم يغفر لهم ربهم ويتغمدهم بمغفرته يكونوا من جملة الخاسرين الذين خسروا أنفسهم بما يستحقونه من العقاب الدائم.

وقال الحسن: كلهم عبدوا العجل إلا هارون بدلالة قول موسى " رب اغفر لي ولاخي " (١) ولو كان هناك مؤمن غيرهما لدعا له، وقال الجبائي:

إنما عبد بعضهم بدلالة ماورد من الاخبار عن النبي (صلى الله عليه وآله) فيما روي عنه في هذا المعنى.

(١) آية ١٥٠ من سورة الاعراف.

(٥٤٧)

قوله تعالى:

ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بنسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين (١٤٩) آية بلاخلاف.

قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر وابن عامر " ابن أم " بكسر الميم.

الباقون بالفتح والقراء كلهم على " تشمت " بضم التاء. وقرأ حميد الاعرج، ومجاهد " لاتشمت " بفتح التاء. واللغة الفصيحة بضم التاء من (أشمت)

وقد ذكر: شمت يشمت، وأشمت يشمت.

أخبر الله تعالى في هذه الاية أن موسى حين رجع من مناجاة ربه رجع غضبان أسفا، لمارأى من عكوف قومه على عبادة العجل. والغضب معنى يدعو إلى الانتقام على ماسلف وهو يضاد الرضا، يقال: غضب غضبا وأغضبه إغضابا وغاضبه مغاضبة وتغضب تغضبا، والاسف

الغضب الذي فيه تأسف على فوت ماسلف. وقال ابن عباس: أسفا يعني حزينا، وقال أبو الدرداء:

معناه شديد الغضب بدلالة قوله تعالى " فلما آسفونا انتقمنا " (١) ومعناه أغضبونا كغضب المتحسر في الشدة، وهو مجاز في الصفة. وقوله تعالى " بئس ما خلقتموني من بعدي " معناه بئس ما عملتم خلفي، يقال: خلفه بما يكره وخلفه بما يحب إذا عمل خلفه ذلك العمل يقال: خلف خلفا، وأخلف إخلافا، وخالفه مخالفة، واختلف اختلافا، واستخلف استخلافا

(١) سورة ٤٣ الزخرف آية ٥٥.

(٥٤٨)

وتخلف تخلفا، وخلف تخليفا، وتخالفا تخالفا. وقوله " أعجلتم أمر ربكم " قال الجبائي معناه أعجلتم منه ما وعدكم من ثوابه ورحمته، فلما لم تروه فعل بكم ذلك كفرتم، واستبدلتم به عبادة العجل، والعجلة التقدم بالشئ، قبل وقته، والسرعة عمله في أول وقته، ولذلك صارت العجلة مذمومة، والسرعة محمودة ويقال: عجلته أي سبقتة وأعجلته استحثته.

وقوله " وأخذ برأس أخيه يجره إليه " قيل في معناه قولان:

أحدهما - قال الجبائي: إنما هو كقبض الرجل منا على لحيته وعضه على شفته أو إبهامه، فأجرى موسى هارون مجرى نفسه، فقبض على لحيته، كما يقبض على لحية نفسه اختصاصا. وقال أبوبكر بن الاخشيدي: إن هذا أمر يتغير بالعادة ويجوز أن تكون العادة في ذلك الوقت أنه إذا أراد الانسان أن يعاتب غيره لأعلى وجه الهوان أخذ بلحيته وجره إليه ثم تغيرت العادة الآن وقال: إنما أخذ برأسه ليسر إليه شيئا أرادته. وقال " يابن أم " حكاية عما قال هارون لموسى حين أخذ برأسه خوفا من أن يدخل الشبهة على جهال قومه، فيظنون أن موسى فعل ذلك على وجه الاستخفاف به والانكار عليه " يابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني ".

ومن فتح ميم (أم) تحتل قراءته أمرين:

أحدهما - أنه بني لكثرة اصطحاب هذين حتى صار بمنزلة اسم واحد مع قوة النداء على التغيير نحو خمسة عشر.

الثاني - أنه على حذف الالف المبدلة من ياء الاضافة، كما قال الشاعر:

يابنية عما لاتلومي واهجعي (١)

والقياس يابن أمي، ومن كسر الميم اضافة إلى نفسه بعد أن جعله اسما واحدا، ومن العرب من يثبت الياء كما قال الشاعر:

(١) سيأتي في ٥ : ٥٦١ من هذا الكتاب وهوفي اللسان (عم).

(٥٤٩)

يابن أمي وياشقيق نفسي * أنت خليتني لدهر شديد (٢)

وقال الاخر:

يابن أمي ولو شهدتك إذ * تدعو تميما وأنت غير مجاب (٣)

وقال الحسن: كان أخاه لابيه وأمه، والعرب تقول ذلك على وجه الاستعطف بالرحم.

وقوله " فلاتشمت بي الاعداء " فالشمتاء سرور العدو بسوء العاقبة تقول: شمت به شماتة وأشتمته إشماتا اذا عرضته لتلك الحال.

وقوله " وألقى الالواح " يعني رماها. وقال مجاهد: كانت من زمرد أخضر. وقال سعيد بن جبير: كانت من ياقوت أحمر، وقال أبو العالية:

كانت من زبر جد، وقال الحسن: كانت من خشب.

وقوله " ولا تجعلني مع القوم الظالمين " سؤال من هارون لموسى ألا يشمت به عدوه ولا يجعله في جملة القوم الظالمين لبراءة ساحته مما فعل قومه، فلما ظهر لموسى براءة ساحة هارون بأن له عذرا، عذره في المقام بينهم من خوفه على نفسه قال عند ذلك " رب اغفر لي ولاخي ". قوله تعالى:

قال رب اغفر لي ولاخي وأدخلنا لي رحمتك وأنت أرحم الراحمين (١٥٠) آية بلاخلاف.

في هذه الآية حكاية عن دعاء موسى (ع) ربه عزوجل - حين تبين له

(٢) قائله أبوزبيد أمالي الزبيدي ٩ وجمهر اشعار العرب ١٣٩ واللسان (شقق) وتفسير الطبري ١٣ / ١٢٩ وقد روي (كنود بدل شديد).

(٣) قائله غلفاء ابن الحارث، وهو معد يكرب بن الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرارة الكندي وهو عم امرئ القيس، وسمي (غلفاء) لانه كان يغلف رأسه بالمسك. أنظر الاغاني ١٢ / ٢١٣ وتفسير الطبري ١٣ / ١٣٠.

(٥٥٠)

مانبهه عليه هارون من خوف التهمة، ودخول الشبهة عليهم بجره رأسه اليه - بأن يغفر له ولاخيه، وأن يدخلهما رحمته، والمقتضي لهذا الدعاء بالمغفرة قيل فيه قولان:

أحدهما - ما أظهره من الموجدة على هارون وهو برئ مما يوجب العتب عليه، لأنه لم يكن منه تقصير في الإنكار على من عبد العجل، لأنه بلغ معهم من الإنكار إلى أن هموا بقتله لشدة إنكاره، ولذلك قال " إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني ".

والثاني - قال أبو علي: إنه بين بذلك لبني اسرائيل أنه لم يأخذ برأسه على جهة الغضب عليه، وإنما فعل ذلك كما يفعله الانسان بنفسه عند شدة غضبه على غيره، ولم يكن منه في تلك الحال معصية.

وكان هذا الدعاء من موسى انقطاعا منه إلى الله تعالى، وتقربا اليه لا أنه كان وقع منه أو من أخيه قبيح صغير أو كبير يحتاج أن يستغفر منه، ومن قال: إنه استغفر من صغيرة كانت منه أو من أخيه، فقد أخطأ. ويقال له:

الصغيرة على مذهبكم تقع مكفرة محبطة، فلا معنى لسؤال المغفرة لها. وقد بينا في غير موضع أن الانبياء (ع) لا يجوز عليهم شئ من القبائح لا كبيرها ولا صغيرها لان ذلك يؤدي إلى التنفير عن قبول قولهم، والانبياء منزهون عما ينفر عنهم على كل حال.

وقوله " وأنت أرحم الراحمين " اعتراف من موسى بأن الله تعالى أرحم الراحمين وإعترافه بذلك دليل على قوة طمعه في نجاح طلبته، ولان من هو أرحم الراحمين يؤمل الرحمة من جهته ومن هو أجود الاجودين يؤمل الجود من قبله.
قوله تعالى:

إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين (١٥١) آية بلاخلاف

(٥٥١)

في هذه الآية حذف، وتقديره إن الذين اتخذوا العجل إليها ومعبودا سينالهم غضب، فحذف لدلالة الكلام عليه، وقوله في موضع آخر " فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي " (١).

أخبر الله تعالى في هذه الآية أن الذين اتخذوا العجل إليها وعبدوه من دون الله سينالهم غضب، ومعناه فسيلحقهم، والنول اللحوق وأصله مد اليد إلى الشئ الذي يبلغه، ومنه قولهم: نولك أن تفعل كذا أي ينبغي أن تفعله فإنه يلحقك خيره ونواله. وتقول: ناوله مناولة، وتناول تناولوا، وأناله إنالة.

وقوله " غضب من ربهم " يعني عقاب من الله تعالى وإنما ذكر الغضب مع الوعيد بالنار لانه ابلغ في الزجر عن القبيح، كما أن ارادة الحسنة في الدعاء اليها والترغيب فيها أبلغ من الاقتصار على الوعد بها.

وقوله " وذلة في الحياة الدنيا " بمعنى صغر النفس والاهانة، يقال:

ذل يذل ذلة، اذله إذلالا، وتذلل تذلا، وذلته تذليلا، واستذله استذلالا.

وقيل المراد به ما يؤخذ منهم من الجزية على وجه الصغار.

وقوله " وكذلك نجزي المفترين " إخبار منه تعالى أنه مثل هذا الوعيد والعذاب والغضب يجزي الكاذبين والمتخربين عليه، وإنما كان عبادة غير الله كفرا لانه تضييع لحق نعمه الله كتضييعه بالجحد للنعمة في عظم المنزلة، وذلك لما ينطوي عليه من تسوية من أنعم بأجل النعمة بمن لم ينعم، وفي ذلك إبطال لحق النعمة.

قوله تعالى:

والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم (١٥٢) آية بلاخلاف.

لما توعد الله تعالى الذين عبدوا مع الله غيره وعطف على وعيدهم توعيد

(١) سورة ٢٠ طه آية ٨٨.

(٥٥٢)

المفترين عليه والمتخربين في دينه مالم يأمر الله به، عطف على ذلك، فقال " والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا " وهي جمع سيئة وهي الخصلة التي تسوء صاحبها عاقبتها، وهي نقيض الحسنة، كما أن الاساءة نقيض الاحسان " ثم تابوا من بعدها وآمنوا " يعني رجعوا إلى الله تعالى بعد فعلهم السيئة وندموا عليها وعزموا على أن لايعودوا إلى مثلها في القبح، وآمنوا بما أوجب الله عليهم أجمع " إن ربك " يامحمد " من بعدها " يعني من بعد السيئة " لغفور رحيم " يعني يغفرها لهم ويسترها عليهم، لرحمته بعباده.

وقد بينا فيما مضى أن التوبة التي أجمعوا على سقوط العقاب عندها هي الندم على القبيح، والعزم على أن لايعود إلى مثله في القبح، وفي غيرها خلاف، يقال: تاب يتوب توبة و (تاب الله عليه) بمعنى وفقه المتوبة على الدعاء له، و (تاب عليه) أيضا: بمعنى قبل توبته، والتوبة طاعة يستحق بها الثواب بلاخلاف ويسقط العقاب عندها بلاخلاف، إلا أن عندنا يسقط ذلك تفضلا من الله تعالى بورود السمع بذلك وعند المعتزلة العقل يوجب ذلك.

فإن قيل كيف قال " تابوا من بعدها وآمنوا " والتوبة هي إيمان؟ قلنا عنه ثلاثة أجوبة:

أحدها - تابوا من بعد المعصية وآمنوا بتلك التوبة.

الثاني - استأنفوا عمل الايمان.

الثالث - آمنوا بأن الله قابل التوبة. وقيل: إن الآية نزلت فيمن تاب من الذين كانوا عبدوا العجل، فانهم تابوا وندموا، وأكثرهم تعبدهم الله بأن يقتلوا أنفسهم فقتل بعضهم بعضا، واستسلموا لذلك، فقتل في يوم واحد سبعون ألفا ثم رفع عنهم ذلك وقبل توبتهم. قوله تعالى:

ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها

(٥٥٣)

هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون (١٥٣) آية بلاخلاف.

معنى قوله " ولما سكت " سكن، وسمي ذلك سكوتا وإن كان الغضب لا يتكلم، لانه لما كان بفورته دالا على مافي النفس من المغضوب عليه كان بمنزلة الناطق بذلك، فاذا سكنت تلك الفورة كان بمنزلة الساكت عما كان متكلماً به والسكوت في هذا الموضع أحسن من السكون، لتضمنه معنى سكوته عن المعاتبة لآخيه، مع سكون غضبه. والسكوت هو الامساك عن الكلام بهيئة منافية لسببه، وهو تسكين آلة الكلام.

وإنما قيل: سكت الغضب وسكت الحزن على طريق المجاز إلا أنه في شئ يظهر أثره، فيكون بمنزلة الناطق به، قال أبو النجم:

وهمت الافعى بأن تسيحا * وسكت المكاء أن يصيحا (١)

فإن قيل: كيف جاز أن يستفزه غضب الحمية عن غضب الحكمة؟ قلنا: ليس كذلك، ولكن غضب الحكمة صحبه غضب الحمية لما توجه الحكمة. وسكون الغضب عن موسى (ع) لا يدل على أن قومه كانوا تابوا من عبادة العجل، لانه يحتمل أن تكون زالت فورة الغضب ولم يزل الغضب، لانه لم يخلص توبتهم بعد.

ويحتمل أن يكون زال غضبه لتوبتهم من كفرهم، وإذا احتل الامر ان لم يحكم بأحدهما إلا بدليل.

وقوله تعالى " أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون " معناه أنه لما سكن غضبه رجع فأخذ الألواح التي كان ألغها، وكان الألواح مكتوبا فيها ما هو هدى وحجة وبيان ورحمة للذين هم لربهم يرهبون بمعنى يخافون عقابه، ويجوز أن يقال: لربهم يرهبون، ولا يجوز يرهبون لربهم، لانه اذا تقدم المفعول ضعف عمل الفعل فيه فصار بمنزلة ما لا يتعدى في دخول اللام عليه تقدم أو تأخر، كما قال تعالى " ردف لكم " (٢).

(١) تفسير الطبري ١٣ / ١٣٨ . (٢) سورة ٢٧ النمل آية ٧٢ .

(٥٥٤)

وفي الآية دلالة على أنه يجوز إلقاء التوراة للغضب الذي يظهر بالقائها ثم أخذها، للحكمة التي فيها من غير أن يكون إلقاءها رغبة عنها.
قوله تعالى:

واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين (١٥٤) آية بلاخلاف.
الاختيار هو إرادة ما هو خير يقال: خيره بين أمرين فاختر أحدهما:
والاختيار والايثار بمعنى واحد.

أخبر الله تعالى أن موسى (ع) اختار من قومه سبعين رجلا وحذف (من) لدلالة الفعل عليه مع إيجاز اللفظ قال الشاعر:

ومنا الذي اختير الرجال سماحة * وجودا إذا هب الرياح والزعازع (٣)
وقال غيلان:

وأنت الذي اخترت المذاهب كلها * بوهيين إذ ردت علي الأباعر
وقال آخر:

فقلت له اخترها قلو صا سميحة * ونابا عليها مثل نابك في الحيا (٤)
يريد أخترها منها، وقال العجاج:

(٣) قائله الفرزدق. ديوانه: ٥١٦ والنقائض ٦٩٦ وسيبويه ١ / ١٨ واللسان (خير) وتفسير الطبري ١٣ / ١٥٥
والكامل للمبرد ١ / ٢١ .

(٤) قائله الراعي النميري. طبقات فحول الشعراء: ٤٥٠ ومعاني القرآن ١ / ٣٩٥ وشرح الحماسة ٤ / ٣٧ وتفسير الطبري ١٣ / ١٤٦ .

(٥٥٥)

تحت الذي اختار له الله الشجر (٥)

وإنما اختار اخراجهم للميقات. والميقات المذكور - ههنا - هو الميقات المذكور أولاً، لأنه في سؤال الرؤية، وقد ذكر أولاً ودل عليه ثانياً. وقيل هو غيره، لأنه كان في التوبة من عبادة العجل.

وقوله " فلما أخذتهم الرجفة " قيل في السبب الذي، لاجله أخذتهم الرجفة قولان: أحدهما - لانهم سألوا الرؤية في قول ابن اسحاق.

الثاني - قال ابن عباس: لانهم لم ينهوا عن عبادة العجل. وقد بينا معنى الرجفة فيما مضى، وأنها الزلزلة العظيمة والحركة الشديدة.

وقوله " قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي " حكاية عما قال موسى لله تعالى، وأنه ناداه، وقال يارب لو شئت أهلكتني وإياهم من قبل هذا الموقف.

وقوله " أتهلكنا بما فعل السفهاء منا " معناه النفي، وإن كان بصورة الإنكار كما نقول (أشتمني وأسكت عنك) أي لا يكون ذلك، والمعنى إنك لا تهلكنا بما فعل السفهاء منا، فبهذا نسألك رفع المحنة بالاهلاك عنا.

وقوله " إن هي الا فتنتك " معناه إن الرجفة إلا اختبارك وابتلاؤك ومحنتك أي تشديك تشديد التبعد علينا بالصبر على ما أنزلته بنا من هذه الرجفة والصاعقة اللتين جعلتهما عقاباً لمن سأل الرؤية وزجرا لهم ولغيرهم، ومثله قوله " أولاً يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين " (١) يعني بذلك الامراض والاسقام التي شدد الله بها التبعد على عباده، فسمى ذلك فتنة من حيث يشدد الصبر عليها، ومثله " ألم. أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا

(٥) ديوانه: ١٥ / ومجاز القرآن ١ / ٢٢٩ ومعاني القرآن ١ / ٣٩٥ واللسان (خير) وتفسير الطبري ١٣ / ١٤٧.

(١) سورة ٩ التوبة آية ١٢٧.

(٥٥٦)

أمنا وهم لا يفتنون " (٢) ومعناه لا ينالهم شدائد الدنيا والامراض وغيرها، ويحتمل أن يكون المراد بذلك ان هي الا عذابك وقدسمى الله تعالى العذاب فتنة في قوله " يوم هم على النار يفتنون " (٣) أي يعذبون، فكأنه قال ليس هذا الاهلاك إلا عذابك لهم بما فعلوه من الكفر وعبادة العجل، وسؤالهم الرؤية، وغير ذلك.

والسبعون الذين كانوا معه وإن لم يعبدوا العجل، فقد كانوا سألوا موسى أن يسأل الله تعالى ان يريه نفسه، ليخبروا بذلك أمته ويشهدوا له بأن الله كلمه، فإن بني اسرائيل قالوا لموسي: لا نصدقك على قولك إن الله كلمك من الشجرة، فاختر السبعين حتى سمعوا كلام الله، وشهدوا له

بذلك عند قومه، فسألوا أن يسأل الله الرؤية أيضا ليشهدوا له، فلذلك استحقوا الاهلاك ولم يثبت أن السبعين كانوا معصومين، ولأنهم كانوا أنبياء، فينتفى عنهم ذلك. وقيل المراد بقوله " أتهلكنا بما فعل السفهاء منا " أي أتميتنا بالرجفة التي تميتهم بها، وإن لم يكن ذلك عقوبة لنا. والهلاك الموت، لقوله " إن أمرؤ هلك " (٤) والفتنة الكشف والاختبار، قال المسيب بن علس:

إذ تستبيك بأصلتي ناعم * قامت لتفتنه بغير قناع

أي لتكشفه وتبرزه. وقوله " تضل بها من تشاء " معناه تضل بترك الصبر على فتنتك وترك الرضا بها من تشاء عن نيل ثوابك. ودخول جنتك، وتهدى بالرضا بها والصبر عليها من تشاء، وإنما نسب الضلال إلى الله لأنهم ضلوا عند أمره وامتحانه، كما أضيفت زيادة الرجس إلى السورة في قوله " فزادتهم رجسا إلى رجسهم " (٥) وإن كانوا هم الذين ازدادوا عندها. والمعنى تختبر بالمحنة من تشاء لينتقل صاحبه عن الضلالة، وتهدى من تشاء

(٢) سورة العنكبوت آية ١ - ٢ (٣) سورة ٥١ الذاريات آية ١٣ (٤) سورة ٤ النساء آية ١٧٥.
(٥) سورة ٩ التوبة ١٢٦.

(٥٥٧)

معناه تبصره بدلالة المحنة ليثبت صاحبها على الهداية من تشاء. وقوله " أنت ولينا ". معناه أنت ناصرنا وأولى بنا " فاغفر لنا " سؤال منه المغفرة له ولقومه. وقوله " وارحمنا وأنت خير الغافرين " إخبار من موسى بأن الله خير الساترين على عباده والمتجاوزين لهم عن جرمهم. قوله تعالى:

واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شئ فساكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون (١٥٥) آية بلاخلاف.

هذا تمام الاخبار عما قال موسى وقومه الذين كانوا معه، وأنهم سألوا الله تعالى المغفرة وأن يكتب لهم في هذه الدنيا حسنة وهي النعمة، وإنما سميت النعمة حسنة وإن كانت الحسنه اسم الطاعة لله لأميرين:

أحدهما أن النعمة تتقبلها النفس كما يتقبل العقل الحسنه التي هي الطاعة. والآخر - أن النعمة ثمرة الطاعة لله عزوجل، وإنما سألوا أن يكتب لهم، ولم يسألوا أن يجعل لهم، لأن ماكتب من النعمة أثبت لا سيما إذا كانت الكتابة خيرا بدوام النعمة، ويقال كتب له

الرزق في الديوان، فيدل على ثبوته على مرور الازمان. " وفي الاخرة " معناه واكتب لنا في الاخرة أيضا النعمة التي هي الثواب " إنا هدنا اليك " قال ابن عباس معناه تبنا اليك، وبه قال سعيد بن جبير وابراهيم وقتادة ومجاهد. وأصله الرجوع من هاد يهود، فهو هايد اذا رجع، فمعناه رجعنا بتوبتنا اليك، والتهويد الترفق في السير والتفريح والتمكث. وقال أبووجرة: - هدنا - بكسر الهاء من هاد يهيد، وهوشاذ، وثوب مهود أي مرقع ذكره الجبائي، وليس اليهود

(٥٥٨)

مشتقا منه، بل إنما قيل يهودي، لانه نسب إلى يهوذا، لكن العرب غيرته في النسب. وقوله " قال عذابي أصيب به من أشاء " حكاية عما أجابهم الله به من أن عذابه يصيب به من يشاؤه ممن استحقه بعصيانه. وقيل: إنما علقه بالمشيئة ولم يعلقه بالمعصية لامرين: أحدهما - الاشعار بأن وقوعه بالمشيئة له، دون المعصية. الثاني - انه لايشأ ذلك إلا على المعصية، فأيهما ذكر دل على الآخر وعندنا أنه علقه بالمشيئة، لانه كان يجوز الغفران عقلا بلاتوبة. وقوله " ورحمتي وسعت كل شئ " معناه إني أقدر أن أنعم على كل شئ يصح الانعام عليه، وقيل: المعنى إنها تسع كل شئ إن دخلوها، فلو دخل الجميع فيها لو سمعتهم الا أن فيهم من يمتنع منها بالضلال بأن لايدخل معه فيها، وقال ابن عباس: وهي خاصة في المؤمنين، وقال الحسن وقتادة هي عامة للبر والفاجر - في الدنيا - خاصة. وفي الاخرة للبر. وقوله " فسأكتبها للذين يتقون " معناه إن الرحمة في الاخرة مكتوبة للذين يتقون معاصيه ويحذرون عقابه " ويؤتون الزكاة " قيل في معناه - ههنا - قولان: أحدهما - يخرجون زكاة أموالهم، فذكره، لانه من أشق فرائضهم. الثاني - يطيعون الله ورسوله في قول ابن عباس والحسن ذهابا إلى ما يزكي النفس ويطهرها من الاعمال، والذين هم بآياتنا يؤمنون يعني أكتبها للذين يصدقون بآيات الله وحججه وبيئاته، وليس اذاكتب الرحمة للذين يتقون منع أن يغفر للعصاة والفساق بلاتوبة، لان الذي تفيد الالية القطع على وصول الرحمة إلى المتقين، والفساق ليس ذلك بمقطوع لهم وإن كان مجوزا.

(٥٥٩)

قوله تعالى:

الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهيهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم

والاغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون (١٥٦) آية بلاخلاف.

قرأ " إصارهم " ابن عامر وحده على الجميع. الباقيون " إصرهم " على التوحيد. ومن وحد فلان (الاصر) مصدر يقع على الكثير والقليل بدلالة قوله تعالى " أصرهم " فأضافه إلى الكثرة. وقال " لاتحمل علينا إصرا " (١) ومن جمع أراد ضروبا من الماصر مختلفة، فلذلك جمع.

قوله " الذين " في موضع جر، لانه صفة ل (الذين) في الآية الاولى بعد صفة في قوله " فسأكتبها للذين يتقون " فذكر أن من تمام صفاتهم اتباعهم للرسول " النبي الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل " يعني محمدا (صلى الله عليه وآله).

و (الامي) الذي لا يكتب. وقيل: إنه منسوب إلى الامة. والمعنى أنه على جيلة الامة قبل استفادة الكتابة. وقيل: إنه منسوب إلى الام، ومعناه أنه على ما ولدته أمه قبل تعلم الكتابة. وعن أبي جعفر الباقر (ع) أنه منسوب إلى مكة، وهي أم القرى. وقيل: إنه نسب إلى العرب، لانه لم تكن تحسن الكتابة.

ومعنى " يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل " أنهم يجدون

(١) سورة ٢ البقرة آية ٢٨٦.

(٥٦٠)

نعتة وصفته، ولانه مكتوب في التوراة (أتانا الله من سينا وأشرف من ساعير، واستعلن من جبال فاران) وفيها سأقيم لهم نبيا من إخوانهم مثلك واجعل كلامي في فمه فيقول لهم كلما أوصيه به) وفيها، (وأما ابن الامة فقد باركت عليه جدا جدا وسيلد اثني عشر عظيما وأؤخره لامة عظيمة).

وفي الانجيل بشارة بالفار قليط في مواضع منها (يعطيكم فار قليط آخر يكون معكم آخر الدهر كله) وفيها أنه (إذا جاء فند أهل العلم) وفيها (أنه يدبركم بجميع الخلق، ويخبركم بالامور المزمعة ويمدحني ويشهدلي).

وقوله تعالى " يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر " صفة للنبي (صلى الله عليه وآله) الامي، وهو في موضع الحال، وتقديره أمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، وسمي الحق (معروفا) والباطل (منكرا) لان الحق يعرف صحته العقل إذ الاعتماد في المعرفة على الصحة، وينكر الباطل بمعنى ينكر صحته.

وقوله " ويحل لهم الطيبات " معناه يبيح لهم المستلذات الحسنة التي كانت حراما عليهم، ويحرم عليهم الخبائث يعني القبائح، وما يعافي الانفس.

وقوله " ويضع عنهم أصرهم " يعني الثقل بأمور محرمة وفي تكليفها مشقة، كتحريم العروق والغدد وتحريم السبب، وكانت كالأغلال في أعناقهم، كما يقولون هذا طوق في عنقك. وقيل: ما امتحن به بنو اسرائيل من قبل نفوسهم، وقرض ما يصيبه البول من أجسادهم وإلتزام للمكاره في كل شئ يخالفون الله فيه.

وقوله " فالذين آمنوا به " يعني صدقوا بهذا النبي " وعزروه " يعني عظموه بمنعهم كل من أراد كيدته، وأصله المنع، ومنه تعزير الجاني وهو منعه بتأديبه من العود، وقال قوم: عزرتة معناه رددته، وقال آخرون: معناه أعنته. وقال بعضهم معناه نصرته. وقال آخرون: منعته ونصرته.

وقوله " واتبعوا النور الذي أنزل معه " يعني القرآن سماه نورا لانه يهتدى به كما يهتدى بالنور. واخبر عنهم بأن من فعل ما قلناه فأولئك هم المفلحون الفائزون بثواب ربهم تم